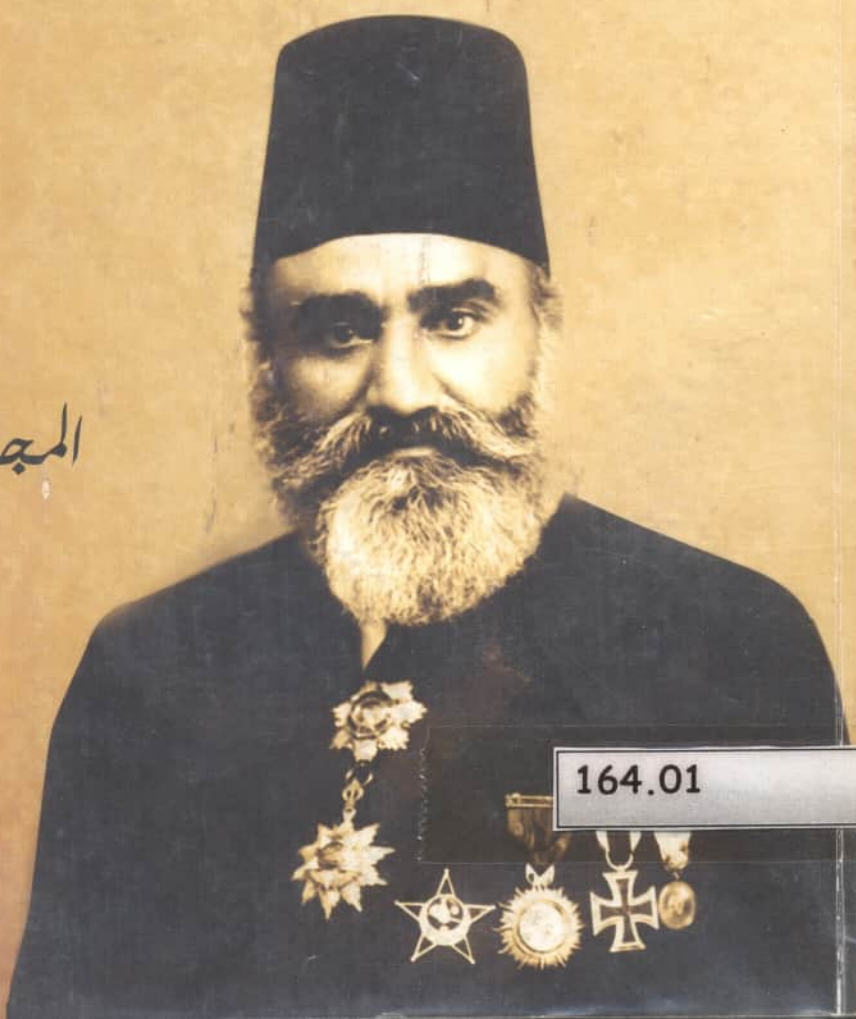
جامعة السلطان قابوس
مركز الدراسات العُمانية

سُليمان باشا البارُوني

وحضوره في الثقافة العُمانية



المجلد الأول

164.01

764.05

الندوة الدولية:

(سليمان باشا الباروني وحضوره في الثقافة العُمانية)

١٠ - ١١ يوليو ٢٠١٢م

مركز الدراسات العُمانية بجامعة السلطان قابوس

بالتعاون مع

وحدة الدراسات العُمانية بجامعة آل البيت في المملكة الأردنية الهاشمية

بحوث الندوة

المجلد الأول

جميع الحقوق محفوظة لدى :

مركز الدراسات العُمانية
جامعة السلطان قابوس
البريد الإلكتروني: osc@squ.edu.om

All rights reserved for:

Omani Studies Center
Sultan Qaboos University
Email: osc@squ.edu.om

التحرير :

د.عليان الجالودي د.كمال مقابلة
د.أحمد الحراحشة

الإعداد للطباعة :

قسم البحوث والدراسات- مركز الدراسات العمانية

مطبعة جامعة السلطان قابوس
سبتمبر ٢٠١٣م

فهرس المحتويـــات

- المقدمـة ج
- كلمة الدكتور محسن الكندي/ مدير مركز الدراسات العُمانية بجامعة السلطان قابوس ز
- كلمة عطوفة الأستاذ الدكتور فارس مشاقبة / رئيس جامعة آل البيت ل
- كلمة الشيخ أحمد بن سعود السيابي/ الأمين العام بمكتب الافتاء بسلطنة عُمان ن
- كلمة أسرة الباروني: قدمها الدكتور صلاح الدين الباروني ف
- كلمة الدكتور عليان الجالودي / مدير وحدة الدراسات العُمانية ر

الباب الأول
شخصيـة الباروني : حياتـه العلمية والسياسية

١- أ.د.محمد زرمان أة. جمعة حقاين	سليمان باش الباروني: نشاطه العلمي ونضاله السياسي	٢
٢- د.ة. عايشة يطو	ملامح شخصية سليمان الباروني باشا من خلال مجلة المنهاج	٤٧
٣- د. أحمد بن سعود السيابي	صورة الباروني في شعر أبي سلام الكندي	٦٨
٤- أ.د. أبو القاسم سعد الله	الباروني والجزائر في ظل الاحتلال الفرنسي	٧٩
٥- د. أرويعي محمد علي قناوي	سليمان باشا الباروني ونشاطه السياسي في المهجر(١٩٢٤-١٩٤٠م)	١٠١
٦- د. أحمد حسين عبد، أة. منى جلال علي	سليمان الباروني دوره في ميدان الجهاد وتأسيس وتأسيس الجمهورية الطرابلسية(١٨٧٣هـ/١٩٤٠م)	١٤٤
٧- أ.د. جمعة محمود الزريقي	دفاع المجاهد سليمان باشا الباروني عن حدود ليبيا من خلال اللائحة التي قدمها إلى رئيس الوزراء العثماني سنة١٩١٠م	١٦١

٨- د. عاشوري قمعون	دور الشيخ سليمان الباروني في مواجهة الاستعمار الإيطالي	١٧٨
٩- د. علي عمر الهازل	الدور السياسي للشيخ الباروني من خلال مجلس المعبوثان	١٩٤
١٠- د. عز الدين عبدالسلام العالم	موقف العالم المجاهد سليمان الباروني من مسألة إلغاء الخلافة العثمانية عام١٩٢٤م	٢١٠
١١- د. مفتاح بلعيد غويطة	موقف إيطاليا من أنشطة سليمان الباروني ١٩١٤-١٩٢٤م	٢٥١
١٢- أ.د.مجاهد مصطفى بهجت سعيد بن عبد الله الصقري	مواقف الباروني في الأحداث المحلية والعالمية ببغداد ١٩٣١-١٩٣٧م	٢٧٦

الباب الثاني :
الباروني أديباً ومؤرخاً

١٣- د. قاسم حسن القفة	سليمان باشا الباروني الشاعر الفقيه	٣١٣
١٤- د.إبراهيم أبو علوش ود. أحمد الحراحشة	الأبعاد الفكرية والفلسفية والأدبية في كتابات سليمان الباروني	٣٣٢
١٥- أ. محمد محاسنة	المرجعيات الثقافية في شعر الباروني	٣٦٠
١٦- د. زهرة كحوَّلي	سليمان الباروني أديباً ومؤرّخاً	٣٧٧
١٧- أ. عبدالرزاق فالح جرار	الرثاء في شعر سليمان باشا الباروني	٤٠٥
١٨- أ. علي الهندي	السؤال ودلالته الشعرية في شعر سليمان الباروني(دراسة في الأدوات)	٤٢٠

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة و السلام على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد بن عبدالله وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين، وبعد :

فيضم هذا الكتاب بين دفتيه البحوث العلمية التي قدمت في الملتقى التاسع لوحدة الدراسات العُمانية/جامعة آل البيت، والذي نظمته بالتعاون مع مركز الدراسات العُمانية/جامعة السلطان قابوس، حول شخصية الزعيم الليبي سليمان باشا الباروني(١٨٧٠-١٩٤٠م)، وحضوره في الثقافة العُمانية، وذلك يومي الثلاثاء والأربعاء ٢٠-٢١شعبان ١٤٣٣هـ، الموافق ١٠-١١ تموز(يوليو/٢٠١٢م). وشارك في الملتقى ما يزيد عن (٦٠) ستين باحثاً من المملكة الأردنية الهاشمية، وسلطنة عُمان، وليبيا، وتونس، والجزائر، والعراق، والسودان، وأندونيسيا، وماليزيا ونيجيريا.

وسلط المشاركون في الملتقى الضوء على شخصية الباروني وتكوينه العلمي، وجهوده في مقارعة الاستعمار الإيطالي لموطنه ليبيا، وإسهاماته في البلدان العربية التي أقام بها، وبخاصة سلطنة عُمان التي احتضنته لمدة ستة عشر عاماً، حظي فيها بمكانة مرموقة لدى سلاطين عمان وأئمتها، وعلمائها، وترك بصمات واضحة في الحياة السياسية، والاقتصادية والاجتماعية، فضلاً عن البحوث العلمية التي سلطت الضوء على منجزه الفكري وإبداعه الشعري، وما تضمنته كتبه، ومقالاته الصحفية من معالجات للهم العربي والإسلامي، وفضح للدسائس الاستعمارية، وتبنيه لقضايا الأمة وفي مقدمتها قضيتها المحورية، قضية فلسطين.

ولا نزعم أن البحوث التي قدمت في هذا الملتقى، أو التي أجيزت للنشر من بينها، قد غطت جوانب شخصية هذا العالم الجليل ومنجزه الفكري، ولكن

حسْبُها أنها تشكل إضاءات تنير الطريق للباحثين مستقبلاً لإثراء هذه الجوانب بحثاً ودرساً. سعياً لتحقيق الهدف المنشود وهو استحضار سِيَر الأفذاذ من علماء الأمة، لتبقى سيرهم العطرة حاضرة في أذهان الأجيال الجديدة في هذا المنعطف التاريخي الذي تمر به أمتنا العربية والإسلامية.

وحسب هذا العالم أن نستشهد بأحد أولئك الذين تصدوا لتدوين سيرته بقوله:"...ترك الباروني باشا زعيم المجاهدين الطرابلسيين فراغاً لا يمكن أن يسده رجلٌ اليوم، وأين الرجل الذي تجتمع فيه تلك الخصال التي اجتمعت للباروني من علم وشريعة وسياسة رشيدة، ومعرفة تامة بالفنون الحربية، وممارسته القتال...ويتوّج كل هذا بسمو الأخلاق، وكرم في المحتد، وطاعة لله ورسوله، مما هيأه لأن يكون مصلحاً اجتماعياً، لا يجود الزمان بمثله".

إن انعقاد هذا الملتقى يحمل علامة دالة على ما يحتله الرجل من مكانة علمية، وبما له من منجز فكري وإصلاحي، وبما ترك من موروث علمي وأدبي يستحق الدراسة، ناهيك عن كونه من ذلك الجيل الذي قرن العلم بالسيف في ميدان الجهاد بحيث استحق عن جدارة لقب "المعلم المقاتل" الذي أطلقه عليه من تصدى للكتابة عنه.

إن التئام عقد هذا الملتقى في رحاب جامعة آل البيت يترجم الفكر الوحدوي الذي تجذّر بين ظهراني هذا البلد وشعبه، الذي يُجسدُ فكر النهضة العربية الوحدوي الذي حمل رايته الهاشميون، والأردنيون نزاعون للوحدة، معتبرين العالم العربي موطنهم من محيطه إلى خليجه، وقبلها رحّب الشريف الحسين بن علي طيب الله ثراه بالباروني وفتح له أبواب الحجاز في حين سُدّت في وجهه كل السُبل، لذا تشرف الأردن باحتضان هذا الملتقى الذي نُظِّم لإحياء ذكرى المحتفى به.

وإن مشاطرة سلطنة عُمان في دعم هذا الملتقى وتنظيمه يُجسِّد وفاء عُمان وأهلها لذكرى هذا الرجل الذي مكثت فيها ستة عشر عاماً، وخَبَرَ أهله وَخَبَروه، فاحتفى به سلاطين عُمان وأئمتها، وعلمائها وعامة شعبها، ولم يشعر ولو للحظة بأنه ضيف على ذلك البلد، وإنما كان عُمانياً بكل ما تحمل الكلمة من معنى، وقد عمل جاهداً على تعميق وشائج التقارب بين عامة أهل عُمان، وسعى إلى التعريف بعُمان وقضاياها في المحافل العربية والدولية، ودافع عن استقلالها، وشارك في بناء نهضتها الاقتصادية والتعليمية والصحية، وترك بصمات واضحة لا زال العُمانيون يذكرونها ويعترفون بفضلها، ويحمدونها له.

إن التئام هذا الملتقى في رحاب جامعة آل البيت، وبمشاركة نخبة من الأكاديميين والمهتمين من البلدان العربية والإسلامية يجسِّد فلسفة الجامعة الإسلامية التي دعى إليها الباروني طوال حياته، وعبَّر عنها من خلال مؤلفاته، ومقالاته الصحفية، وأشعاره.

ويسرنا في هذا المقام أن نزجي للمشاركين في أعمال هذا الملتقى الشكر الجزيل على مشاركاتهم العلمية بأوراقهم سواء ما نشر منها في هذا الكتاب، أو تلك التي ارتأت اللجنة العلمية التي تولت تقييم هذه الأعمال الاعتذار عن نشرها بعد تحكيمها لغايات النشر في أعمال الملتقى.

والشكر موصول لجامعة السلطان قابوس، ولمركز الدراسات العُمانية على دعمهم المادي لإقامة الملتقى وتبني نشر أعماله على نفقة الجامعة، ونأمل أن يكون هذا النشاط محطة هامة من محطات التواصل العلمي بين الجامعتين، والشكر موصول لأسرة الافتاء في سلطنة عُمان، ولجامعة العلوم الإسلامية العالمية في الأردن التي استضافت جلسات اليوم الثاني في رحابها، والشكر موصول لأسرة الباروني التي توجت هذا النشاط بحضور فعالياته.

وكل الشكر لجامعة آل البيت بكوادرها الإدارية التي وفرت سبل النجاح لانعقاد الملتقى، وللجان العلمية والتحضيرية والكوادر الإدارية في وحدة الدراسات العُمانية، ومركز الدراسات العُمانية، ولا يفوتنا أن نشكر الأخ عبدالرحمن الحيحي، والأخت حورية العجلوني اللذين تابعا مراسلات الباحثين، وقاما بصف البحوث وتهيئتها للنشر.

ولنعم أجر العاملين

المحررون

كلمة الدكتور محسن الكندي

مدير مركز الدراسات العُمانية بجامعة السلطان قابوس

عطوفة الأستاذ الدكتور رئيس جامعة آل البيت الموقر
سماحة الشيخ العلامة أحمد بن حمد الخليلي الموقر

أيّها الحضور الكريم :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وأسعد الله صباحكم في هذا اليوم المشرق السعيد ، وبعد:

من تخوم التوأمة إلى آفاق التواصل ، ومن مرابع العلم إلى مسارات البحث والثقافة – تنطلق رؤيتنا إلى مثل هذه الفعاليات والمناشط العلمية الأكاديمية لتحط رحالها هذه المرة في رحاب المملكة الاردنية الهاشمية الشقيقة عبر هذه الندوة الدولية التي نقيمها اليوم بالتعاون مع وحدة الدراسات العمانية بجامعة آل البيت ... ندوة تعنى بـ " العلاقات العمانية المغاربية " عبر الاحتفاء بأحد روادها الأوائل الحاضرين أبدا في ذاكرتنا العمانية ، إنه شخصية الزعيم المصلح ، والأديب المناضل الشيخ المجاهد سليمان بن عبدالله بن يحيى الباروني الذي عاش في عمان لأكثر من خمسة عشر عاما ، ويحمد له اصلاحه السياسي والثقافي والاقتصادي فيها.

تأتي هذه الندوة الدولية لتجسر حقل الدراسات العمانية وتتتبع رموزها وأعلامها الفاعلين والمؤثرين ، وإنها لخطوة مهمة في طريق توطيد العلاقات المميزة بين جامعتينا : جامعة السلطان قابوس وجامعة آل البيت ، بل بين بلدينا الشقيقين : الأردن و عمان في عهديهما الزاهر الميمون لحضرة صاحب الجلالة السلطان قابوس بن سعيد ، وجلالة الملك عبدالله بن الحسين حفظهما الله.

كما تأتي هذه الندوة أيضا لتترجم توجهات رئيسي جامعتينا ، وتبلور عنايتهما الفائقة بالتواصل العلمي الأكاديمي ،لذا كان لهذا التوجه أكبر الأثر في نفوسنا ونحن ننظم هذه الندوة ونسعى إلى وتحضيرها على أكمل وجه ، من هنا فنحن مدينون لهما بالتوجه والارشاد ،والحث المستمر على التعاون البناء الذي تواصل من قبل في أكثر من مناسبة علمية وبحثية ناجحة ليس أقلها الندوة الدولية حول " الوقف في عمان بين الماضي والحاضر " والتي أقمناها معا في رحاب في جامعة السلطان قابوس في أكتوبر من عام ٢٠٠٨ م، كما سيمتد هذا التعاون العلمي بين الجامعتين – إن شاء الله – في مسارات بحثية أخرى تستشرف أفق التراث العماني وتتطلع إلى البحث فيه وقراءته برؤية أكاديمية رصينة .

السيد راعي الحفل .. أيّها الحضور الكريم :

إن اهتمامنا في مركز الدراسات العمانية بجامعة السلطان قابوس بمثل هذه الفعاليات نابع من برنامجنا العلمي والبحثي الشامل لأوجه الثقافة العمانية في كافة مناحي العلوم الإنسانية ، لذا فنحن مقبلون – بإذن الله – في قادم الأيام على اقامة ندوة تعنى " بالمخطوطات العمانية " في سبتمبر من عام ٢٠١٢ م ، وعلى ندوة أخرى تتصل " بالعلماء العمانيين والأزهريين والقواسم المشتركة " في أكتوبر من العام نفسه ، وعلى مؤتمر دولي يقرأ " الحضور العماني في الشرق الإفريقي " في ديسمبر من العام ذاته ، و بين هذه الفعاليات وما بعدها سلسلة استضافات علمية لعلماء الأمة العربية والإسلامية ومفكريها في الفقه والأدب والتاريخ والثقافة العامة .

وإنني إذ أشير إلى هذه الفعاليات ليحدوني الأمل إلى مشاركتكم ومساهمتكم العلمية، بلورة للبحث العلمي ، وفتحا لأبواب التواصل معكم ومع الأخر العربي والعالمي في زمن الربيع العربي .

عطوفة الأستاذ الدكتور رئيس جامعة آل البيت الموقر .

لقد نبعت فكرة الاحتفاء بالعلاقات العمانية المغاربية عبر شخصية الزعيم الباروني – رحمه الله – من عدة معطيات حضارية نجملها في الآتي :

أولا – إننا مدينون للباروني فكرا وحضارة وانجازا معرفيا في الأدب والتاريخ والسياسة ، وهذه لفتة وفاء – وإن جاءت متأخرة – نقدمها من عمان لهذا العالم الجليل ، فالمحسنون دائما جزاءهم الجزاء الأوفر الذي لا يمحه الزمن ولا تفنيه العواهن والمحن .

ثانيا – إن احتفاءنا بالباروني ليواكب ما احتفى به أسلافنا العمانيون ، فقد قدم الباروني إلى عمان في زمن الشعر الجميل ، والأدب المعجب الأصيل ، فرصّعت فيه أكثر من ثلاثين قصيدة وخطبة ، وأقيمت له مواكب فرحة ومحافل بهجة في كل قرية عمانية ومدينة قدم إليها : بدءا من مسقط ومطرح وسمائل ، ومرورا بإبراء والقابل وبدية ، وانتهاء بسائر أرجاء عمان ومناطقها ، وكان حظ رفيق مسيرته – الشاعر الاستنهاضي الكبير أبي سلام الكندي – النصيب الأوفر من هذه القصائد والخطب ، فقد امتلأ ديوانه المخطوط المسمّى " نشر الخزام " بنماذج كثيرة منها، وتعدّ اليوم هذه القصائد والخطب وثيقة شاهد عيان لمسيرة الباروني المبكرة إلى الديار العمانية ، ففيها وصف مسهب لوقائع وأحداث مهمة ستسهم – لا شك – في كتابة التاريخ العماني المعاصر إن قيض لها باحث بارع يستوعب دقائقها ويقيم دراسة أكاديمية حولها .

ثالثا – إن الباروني يعدّ من رواد العلاقات العمانية المغاربية بل والإسلامية أيضا ، فهو الذي أسهم بإمتياز في توطيد هذه العلاقات في جوانبها السياسية والثقافية بدءا من النصف الأول من القرن العشرين بزيارته الأولى إلى عمان، ثم اقامته في رحاب إمامة الإمام الرضي محمد بن عبدالله الخليلي ، وفي

سلطنة مسقط وعمان في عهد السلطان تيمور بن فيصل بن تركي ومن بعده ابنه السلطان سعيد بن تيمور كما تشي بذلك أدبيات التاريخ العماني المعاصر .

رابعا – إن الباروني سلسل أسرة عريقة انتمى فكرها إلى ما انتمى إليه أغلب أهل عمان ، فكان الرابط المذهبي علامة فارقة في احساس الباروني ومشاعره ، وقد ترجم ذلك جليا في مختلف أدبياته الشعرية والتاريخية ،بل ترجمته أيضا أدبيات مسقط رأسه " الجبل الغربي " بالجماهيرية الليبية .

خامسا – إن حضور الباروني في ثقافة عمان حضور محوري وهام ، فهو الذي فتح أعين ثقافة عمان الداخل في تلك الأزمان الغابرة على التعليم النظامي بإنشائه أول مدرسة نظامية في سمائل ما زالت تعرف حتى وقت قريب باسمه ، كما أنه فتح فكرهم على الصحافة والنشر ، فنشر إنتاج شعرائهم وأدبائهم وفقهائهم في صحيفته " الأسد الإسلامي " وفي صحافة الوطن العربي ومنتدياته العلمية آنذاك ، وقد وجدت ذلك ماثلا في صحف أبي اليقظان الثمان التي صدرت في وادي ميزاب بالجمهورية الجزائرية الشقيقة في أوائل القرن العشرين ، ويكاد يكون ذلك الإنتاج المنشور معبرا عن صلة العمانيين المبكرة بأجناس الثقافة العمانية الحديثة . .

وفي الجانب الاقتصادي حاول الباروني أثناء معاضدته للإمام الخليلي إصلاح وتنظيم بيت المال ، عضد الدولة ، وركنها المتين ، فقوبلت – مع الآسف – اصلاحاته بمكابدة لم تثنه عن تحقيق مآربه ، فطفق محولا جهوده الاصلاحية إلى سلطنة مسقط ، فعاضد فيها السلطان تيمور بن فيصل وأسهم في بناء دولته حتى مات بصحبته في الهند في مطلع شهر مايو من عام ١٩٤٠.

وعلى كل حال لا استطرد في ايضاح حضور الباروني التاريخي في الثقافة العمانية ويكفيه بكل هذه المعطيات وغيرها أن يظل - على الدوام - رمزا عربيا اسلاميا ترك بصمته الاصلاحية في وطننا عمان بمثل ما ترك بصماته القوية في وطنه ليبيا ، وفي سائر الأوطان العربية التي حلّ فيها وارتحل ، فرحم الله الزعيم المصلح سليمان باشا الباروني وأثابه الثواب الأجزل ، وحفظ الله المخلصين أمثاله بناة الحضارة وحاملي لواء العلم والمعرفة .

وجزاكم الله - أيها الإخوة - خيرا على حسن استماعكم ،وتجشمكم عناء الحضور والسفر، بل والمساهمة في هذه الفعالية العلمية الكبيرة ، ودمتم بخير حال .. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

كلمة عطوفة الأستاذ الدكتور فارس المشاقبة الأكرم
رئيس جامعة آل البيت

الحمدُ لله رب العالمين، والصلاةُ والسلام على خاتَمِ الأنبياءِ والمرسلين، وعلى آله وصحبه الطيّبين الطاهرين، وبعد :

سماحة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي مفتي عام سلطنة عُمان
سعادة الشيخ مسلم بن بخيت البرعمي سفير سلطنة عُمان في المملكة الأردنية الهاشمية
سعادة الشيخ أحمد بن سعود السيابي الأمين العام بمكتب الافتاء
سعادة الدكتور محسن الكندي مدير مركز الدراسات العُمانية وممثل جامعة السلطان قابوس
سعادة الدكتور صلاح الدين الباروني والسيدة الفاضلة إقبال إبراهيم الباروني
العلماء الأجِّلاء ... الضيوف الكرام.... السيدات والسادة الحضور

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد ، ،

فيسعدني أن أرحبَ بكم في جامعةِ آل البيت التي تشرع أبوابها خدمةً للعلمِ وأهلِهِ، الجامعةِ التي انبثقت فلسفتُها من جوهرِ الإسلامِ الحنيفِ، فمبادؤها تقومُ على أسسِ الوسطيةِ والاعتدالِ، وأهدافُها تنهضُ على أعمدة التواصلِ مع الشعوبِ العربية والإسلاميّة، وذلك انسجاماً مع رؤية المغفور له بإذن الله جلالةِ الملك الحسين بن طلال طيّب الله ثراه، حيث أرادها جامعة تجمع بين علومِ الدين وعلومِ الدنيا، وتسعى لبناء الشخصيةِ الإسلاميةِ المعاصرةِ التي تستمدّ أصالتَها من الثوابتِ العربيةِ الإسلاميةِ، وهي فلسفةٌ يرعاها ويدفعُ مسيرتَها صاحبُ الجلالةِ الملكُ عبدُ الله الثاني ابن الحسين المعظم حفظه الله ورعاه.

أيها العلماء الأجلاء ... أيها الحفل الكريم

يسعدني أن أكون معكم اليوم لرعاية الملتقى العلمي التاسع لوحدة الدراسات العُمانية حول سليمان باشا الباروني وحضوره في الثقافة العُمانية، وتسليط الضوء على جوانب من حياته المشرقة في شتى الميادين الثقافية والفكرية والوطنية والإصلاحية، ودوره في مقاومة المستعمر بصفته من أهم السياسيين الليبيين في تلك الفترة.

أيها العلماء الأجلاء

لا شك أن مشاركة هذه النخبة من المهتمين من مختلف أقطار عالمنا العربي وما تتناوله جلسات العمل من قضايا ومحاور مختلفة ستبين جهود هذا العالم الفذ المبدع في خدمة قضايا وطنه ومقاومته المستعمرين بروح إسلامية إصلاحية، فأنتم تلتقون على مائدة ثرة من موائد العلم والمعرفة لتحيون بها ذكرى علم من أعلام أمتنا الكبار.

ولا أنسى هُنا أن أتقدم لسلطنة عُمان الشقيقة عظيم الشكر ووافر التقدير لرعايتها لهذه الوحدة ودعمها لها تنفيذاً لتوجيهات جلالة السلطان قابوس المعظم في دعم جامعة آل البيت ووحدة الدراسات العُمانية فيها، ملتقياً في ذلك مع الرعاية الموصولة لصاحب الجلالة الهاشمية الملك عبدالله الثاني ابن الحسين المعظم لجامعة آل البيت ونهجها العلمي المبارك.

أُكرر الترحيب بالضيوف الكرام داعياً الله سبحانه وتعالى أن يوفقهم في علمهم المبرور هذا وأن يجزيهم خير الجزاء على جهدهم وعطائهم.

والله الموفق ، ،

كلمة الشيخ أحمد بن سعود السيابي
الأمين العام بمكتب الإفتاء بسلطنة عُمان

أهذا الذي بالغرب عمت فضائله ... وطارت إلـــى شرق البلاد شمائله
وحامى عن الدين الحنيف بسيفه ... وشيـــد ركنـــاً للعلا عز نائله
سليمان شرفت البـــلاد وأهلها ... وأصبح كل الناس ذا الأنس شامله
تلقاك مقدام البـــــلاد مرحبا ... فصـــافحته في موكب حار ناقله
نزلت فحيتك المدافع فـي الذرى ... وجـــاءتك من كل البـلاد قبائله

الحمدُ لله رب العالمين، والصلاةُ والسلام على خاتَمِ الأنبياءِ والمرسلين، وعلى آله وصحبه الطيّبين الطاهرين، وبعد :

سماحة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي مفتي عام سلطنة عُمان
سعادة الشيخ مسلم بن بخيت البرعمي سفير سلطنة عُمان في المملكة الأردنية الهاشمية
سعادة الدكتور محسن الكندي مدير مركز الدراسات العُمانية وممثل جامعة السلطان قابوس
سعادة الدكتور صلاح الدين الباروني والسيدة الفاضلة إقبال إبراهيم الباروني
العلماء الأجِّلاء ... الضيوف الكرام.... السيدات والسادة الحضور
أيها الحفل البهيج الكريم :

لقد عرفت عُمان الزعيم سليمان باشا الباروني قبل أن تراه؛ وذلك من خلال جهوده وجهاده، وشاع ذكره في أوساط القطر العُماني لدى جميع أطيافه المجتمعية، ولم يغب الباروني عن بال القيادة السياسية في عُمان، التي عينته ممثلاً لها في المؤتمرات، ومفوضاً عنها في حل الخلافات، وإيجاد التفاهمات

السياسية التي كانت قد نشأت آنذاك بين بعض الأطراف السياسية فكان خير ممثل وخير مفاوض وخير عامل على تسوية الخلافات، وبعد ذلك فقد عرف الباروني أن عُمان متشوقةٌ إليه، كما هو مشتاق إليها، فتمت الزيارة إلى عُمان، وذلك عام ١٣٤٣هـ/١٩٢٤م، حيث كانت العاصمة مسقط أولى محطات زيارته ومنها تعددت محطاته وتسلسلت رحلاته، وشاهد ورأى ما قوبل به من التكريم والحفاوة ومرارة الاستقبال، وما كان يحل في مكان من عُمان، إلا وكان يجد ذكرهُ قد سبقه إليه، ولقد كان حرصه وأضحاً لزيارة العديد من الأمكنة في عُمان، متجلياً ذلك في جوره من المضائق أضيعّها – أي مضايق الأودية– كوادي ضيقه، وصعوده من القمم الجبلية أعلاها، كقمة جبل شمس التي تعتبر أعلى قمة مكانية في عُمان، بل وفي القمم الجزيرة العربية العزيزة، التي عندما صعد إليها لم يتمالك نفسه إلا أن تسيل قريحته شعراً، ويجري ببراعة نظماً حافراً في ذاكرة التاريخ ذلك الصعود الحسي أولاً، والمعنوي ثانياً، حيث قال:

أصفى المياه شربت أعلى قمة فوق السحاب إلى السماء قريبه
فيها الرياحين الزكية أعبقت ومناظر للعلعلان غريبه
فيها الهواء منقح وطيورها فوق الغصون لدى الصباح عجيبه

الأمر الذي يدل على إعجابه بالمكان منظراً ومخبراً.

أيها الحفل الكريم:

لقد احتضنت عُمان قيادةً وشعباً الزعيم الباروني احتضان الأم الحنون لأبنها المثقل بالهموم والشجون، ووجد هو في عمان الحضن الدافيء بعد رحلة حياتية شاقة لاقى خلالها من النصب والتعب ألوانا، فألقى بها عصا الترحال، واستقر به فيها النهى،

فإن تك مصرفيك لـم ترع ذمة ولا تونس الخضراء ولا العزب يشفع
تفضل لدنيا تلق منا حـــماية وأن عمانا مـــن بنانـــك أطوع
تلقاك في ركب من العرب جهم إليـــك قديم للفـــــاقد تجمعوا

واتخذها سكناً، واتخد منها وطناً، وكانت له مأرزاً يأرز إليه بعد رحلات له وتنقلات، حتى فارق الحياة وهو في حضنها برعاية السلطان سعيد بن تيمور الذي أخذه للعلاج إلى مومباي بالهند، وهناك فاضت نفسه ولحق بخالقه سنة ١٣٥٩هـ/١٩٤٠م، وسكبت عليه عمان سخينة بكاء ورثاء.

نوحي عليه عمان وأبكي سرمدا والمغـربُ إلا علـى بفـيض جفـون

كلمة أسرة الباروني، قدمها الدكتور صلاح الدين الباروني

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا وقدوتنا محمد رسول الله الصادق الأمين.

سماحة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي مفتي عام سلطنة عُمان

سعادة الشيخ مسلم بن بخيت البرعمي سفير سلطنة عُمان في المملكة الأردنية الهاشمية

سعادة الشيخ أحمد بن سعود السيابي الأمين العام بمكتب الافتاء

سعادة الدكتور محسن الكندي مدير مركز الدراسات العُمانية وممثل جامعة السلطان قابوس

العلماء الأجِّلاء ... الضيوف الكرام.... السيدات والسادة الحضور

أيها العلماء الأجلاء، وطلبة العلم والباحثون الفضلاء، والضيوف الأماثل الكرماء حفظكم الله وأسعدكم بكل خير، وأمتع بعلومكم وفهومكم وإخلاصكم أما بعد: فبالأصالة عن نفسي باعتباري أحد أحفاد للزعيم المجاهد المسلم سليمان باشا الباروني، ونيابة عن أسرتي التي تفخر بالانتماء إليه، وإلى أوليته وأصوله من العلماء الشرفاء، والحكام العادلين الذين عرفُوا في سياق التاريخ الإسلامي القديم والحديث. يطيب لي أن أحيي حضوركم وجمعكم الكريم في هذا المؤتمر الناجح، بمناسبة هذه الاحتفالية المباركة لتقدير جدنا الشيخ سليمان الباروني، والتي أسهمت في عقدها وإنجاحها وحدة الدراسات العُمانية في جامعة آل البيت الموقرة بالتعاون مع مركز الدراسات العُمانية ف يجامعة السلطان قابوس في سلطنة عُمان، تقديراً وتكريماً للمجاهد العالم العامل سليمان الباروني عرفاناً منهما بجهده الصادق المحتسب في خدمة الإسلام، وجهده المخلص في الدفاع عن

بلاد المسلمين في المشرق والمغرب من الأخطار الغربية الداهمة، ومن أحقاد الروح الاستعمارية الأوروبية الظالمة، تلك الأحقاد التي تأججت نيرانها وقوى أوارها في أواخر القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين، وهي المرحلة التي عاشها هذا المجاهد الكبير. لقد تصدى جدنا سليمان بن عبدالله الباروني بتوفيق من الله تعالى -مثل الصفوة المباركة من العلماء ودعاة الإسلام من معاصريه في ذلك الظرف التاريخي بل في ذلك المنعرج الخطير الذي تنمرت فيه أوربا، واكتسحت بجيوشها المدججة بالعتاد والعدة وأساطيلها الضاربة لهذا الغازي الحاقد، وليس بقلمه السيال الذي مثلته مقالاته الكثيرة الحامية وأشعاره القوية اللاهبة فحسب، بل بخوضه غمار الحروب بسلاحه، وركوبه المستمر الأخطار في ميادين القتال بصياله، إلى أن ضرب من المثل بين قادة المجاهدين، وقاتل حجافل الغزاة الإيطاليين المعتدين، صوناً لأراضي وطنه ليبيا الذي أحبه، وتفانى طوال حياته الذود عنه وحفظه، بل أقسم أمام الله والمجاهدين المخلصين، والناس أجمعين ألا يحلق شعر رأسه إلا بعد انتصار هذا الوطن على أعدائه.

على أن جدنا سليمان الباروني -رحمه الله تعالى- كان كما جاء في أبحاثكم ومداخلاتكم أيها العلماء الشرفاء أمة وحده، فكما أسهم رحمه الله في ميادين الجهاد الفعلية في وطنه ليبيا، بجرأة قلبه، وصدق إيمانه وحسن احتسابه، أسهم أيضاً كما هو معروف في الاهتمام بقضايا الإسلام، وقضايا الأمة الإسلامية جمعاء، من خلال كتاباته الكثيرة في الجرائد والصحف العربية والإسلامية الصادرة في ديار الإسلام منذُ أوائل القرن العشرين إلى تاريخ وفاته سنة ١٩٤٠م، فكتب -كما ذكرت أبحاثكم الجادة في صحف مصر وسوريا والعراق وليبيا وتونس والجزائر وغيرها في قضايا حيوية كانت تهتم آنذاك الإسلام والمسلمين.

كذلك صور الشيخ سليمان الباروني بشِعره المجموع في ديوانه لوحات صادقة ومعبرة عن حبه الراسخ لوطنه ليبيا، ولوطنه الإسلامي الكبير، بل للدولة

العثمانية، وخليفتها السلطان، باعتبارهما الرمز الذي كانت تتحلق به الأمة العربية والإسلامية في ذلك المعترك الخطير، كما عبر به في جلاء عن بغضه للاستعمار الأوروبي وأطماعه الهمجية.

وقد لقي المجاهد المخلص سليمان الباروني من جراء مواقفه الصريحة من ذلك الاستعمار وأعوانه الكثيرين من ألوان العذاب والمطاردة والتغريب الرهيب، وعاش رحمه الله-كما دلت سيرته- في الكثير من أطوار حياته غريباً، يُعاني المتاعب والأوصاب إلى أن أذن الله برحيله في بلاد الهند.

وإذا كان من اللازم أن نعترف في هذا المقام بالفضل لأهل الفضل، فإنني وأسرتي نرفع آيات الشكر والتقدير لكم أيها العلماء الفضلاء على ما بذلتموه من جهد في تكريم هذا المجاهد الكبير ثم إلى عُمان وأهل عُمان الفضلاء الذين آزروا جدنا سليمان الباروني في كبرته وغربته، فقد حماه سلطان الساحل، ورعاه إمام الداخل إكراماً لعلمه وجهاده وشيبته، مع شكرنا الجزيل إلى الأستاذ الدكتور محسن الكندي مدير مركز الدراسات العُمانية كذلك لا ننسَى أن نعترف بالفضل أيضاً لَعمّان وأهل عَمَّان في المملكة الأردنية الهاشمية، ولجامعة آل البيت المحترمة، التي رحبت باحتضان هذا المؤتمر الناجح في ديارها المحروسة.

فالفضل للاسمين المذكورين عُمَان وعَمَّان بالتخفيف والتضعيف، مع شكرنا الجزيل لكل منهما على كرم الضيافة وحسن الرعاية والوفادة وأُجدد الشكر الوافر للعلماء والحضور الكريم في تحيتهم وتقديرهم لجدنا العالم المجاهد سليمان عبدالله الباروني رحمه الله.

كلمة الدكتور عليان الجالودي المحترم
مدير وحـدة الدراسات العُمانية

والصلاةُ والسلامُ على سيدنا محمد النبي الأمين وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسانٍ إلى يوم الدين، وبعد ،

عطوفة الأستاذ الدكتور فارس المشاقبة رئيس الجامعة راعي الملتقى
سماحة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي مفتي عام سلطنة عُمان
سعادة الشيخ مسلم بن بخيت البرعمي سفير سلطنة عُمان في المملكة الأردنية الهاشمية
سعادة الشيخ أحمد بن سعود السيابي الأمين العام بمكتب الافتاء
سعادة الدكتور محسن الكندي مدير مركز الدراسات العُمانية وممثل جامعة السلطان قابوس
سعادة الدكتور صلاح الدين الباروني والسيدة الفاضلة إقبال إبراهيم الباروني
العلماء الأجِّلاء ... الضيوف الكرام.... السيدات والسادة الحضور

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد ، ،

فإنّ الأمم الحية تقدر علمائَها الأفذاذَ وتجتهدُ لابقاءِ سيرتهم العطرة ماثلةً في أذهانِ الأجيالِ الجديدةِ، وما أحوجنا كأمّةٍ ونحن نعيشُ مرحلةً جديدةً نشهد فيها حالة من إعادة بناءِ الذات لاستحضارِ تراثِ العلماءِ الأفذاذ الذين قادوا مسيرة الوعي في فجر النهضةِ ... ونحنُ إذ نؤمن بأن التاريخَ تصنعه الشعوب لكننا ندرك بأن القيادات السياسية، والنخب الفكرية دورها في قيادة حركة الوعي، ومن هُنا فإن الحفر في ذاكرة الأمم، واستحضار سيرة علماء الأمة وفكرهم أمر له أهميته، ولعل شخصية العالم المقاتل سليمان باشا الباروني إلى جانب كوكبة كبيرة من علماء الأمة ومفكريها وقادة حركة الإصلاح والتجديد، تستحق أن يُفرد

لها مثل هذه الندوة؛ لأنه من بين قلائل ممن جمع في سيرته بين التنظير والفعل، وممن تجاوزا إطار المذهبية الضيقة ليحمل على عاتقه هموم الأمة أجمع. وكان مدركاً أيما إدراك بأنه لا يقاوم المحتل الإيطالي لبلده ليبيا بمعزل عن مقاومة السياسة الاستعمارية الرامية إلى تجزئة دار الإسلام وبسط الهيمنة عليها، ونراه يجوب دار الإسلام متنقلاً بين استنبول عاصمة الخلافة والقاهرة، والجزائر، وعُمان، والعراق، والحجاز، والهند ليتشرب العلم هنا، ويسعى لإصلاح ذات البين هناك، وهذا أمر مهم فلا يمكن قراءة شخصية الباروني من زاوية إنتاجه الفكري والأدبي بمعزل عن سيرته النضالية، وتجاذب هذه السيرة العطرة وتقاطعاتها في كل بلد عربي إسلامي حل به، وتفاعل مع مجريات الأحداث به، ولعلكم تتفقون معي إلى جانب هذا أن شطراً كبيراً من إسهامات هذا الرجل وإنتاجه العلمي ومقالاته الصحفية التي كتبها هنا وهناك بحاجة إلى أن تُجمع، وتُدرس؛ ولعل هذا الملتقى يكون الأساس لجهود علمية رصينة ينهض به الباحثون وتتبناه المؤسسات الأكاديمية ومراكز البحوث لجمع ونشر تراث هذا العالم الجليل.

أيها الأخوة الكرام

لقد ترجمت وحدة الدراسات العُمانية منذ إنشائها رسالة جامعة آل البيت ونهضت برسالة آل البيت الأطهار، وهي رسالة الإسلام السمحة الداعية إلى التجديد والاجتهاد، وإشاعة الفكر الحر المستنير، ووحدة الأمة بتعدد مكوناتها الفكرية والمذهبية، وتعظيم قواسم الوحدة والاتفاق، فرحم الله مؤسسها المغفور له بإذن الله الحسين بن طلال، وحمى الله راعيها جلالة مليكنا المفدى عبدالله الثاني بن الحسين، وحمى الله الأردن والأردنيين وأسبغ علينا نعمة الأمن والأمان.

أيها الحفل الكرام

لقد نهضت الوحدة عبر السنوات العشر الماضية بما خطط لها من أهداف وخدمة تراث الأمة، وحضارتها وفكر علمائها الأفذاذ من خلال خدمة تراث عُمان وحضارتها. ولعل تنظيم هذه الندوة المشتركة مع مركز الدراسات العُمانية في جامعة السلطان قابوس ثمرة من ثمار التعاون بين الوحدة ومثيلاتها في سلطنة عُمان الشقيقة، ونأمل أن تكون بداية لانطلاقة جديدة وتعاون مثمر مع المؤسسات الأكاديمية والبحثية في بقية البلدان العربية والإسلامية، فاسمحوا لي أن أتقدم بالشكر لجامعة السلطان قابوس، ولمركز الدراسات العُمانية وللجهود الطيبة التي بذلها ويبذلها أخي الدكتور محسن الكندي في إطار التأسيس لمثل هذا التعاون الأكاديمي، وكل الشكر لجهوده الخيرة في إقامة هذه الندوة، ودعم جامعة السلطان قابوس لهذه الندوة والشكر موصول للأستاذ الدكتور عبدالناصر أبو البصل رئيس جامعة العلوم الإسلامية العالمية على استضافتهم لليوم الثاني من أيام الندوة.

ويسرني أن أتقدم بالشكر الجزيل لوزارة الأوقاف والشؤون الدينية ولسماحة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي، وأسرة مكتب الإفتاء في سلطنة عُمان ولسعادة الشيخ مسلم بن بخيت البرعمي سفير سلطنة عُمان في المملكة الأردنية الهاشمية بأخلص الشكر والامتنان على دعمهم ورعايتهم لوحدة الدراسات العُمانية.

وكل الشكر للهيئة العلمية وللجنة التحضيرية للملتقى، وللجان التنظيمية والعاملين في وحدة الدراسات العُمانية والمتعاونين معنا من دوائر الجامعة المختلفة وعلى رأسهم مساعد مدير الوحدة الدكتور كمال مقابلة على جهوده الطيبة والمخلصة في إنجاح هذه الملتقى.

وما كان للوحدة أن تنهض برسالتها، ويستمر عطاؤها عبر السنوات الماضية لولا الرعاية والتشجيع الذي تلقاه من لدن أسرة جامعة آل البيت والرؤساء الكرام الذي تعاقبوا على إدارة الجامعة، واسمحوا لي في هذه المقام أن أتقدم

بالتهنئة للأستاذ الدكتور فارس مشاقبة رئيس الجامعة بتوليه رئاسة الجامعة وعلى دعمه لإنجاح هذا الملتقى فكل الشكر له ولجميع العاملين في جامعة آل البيت.

وكل الشكر لأسرة الباروني ممثلة بحفيديه الدكتور صلاح الدين الباروني والسيدة إقبال إبراهيم الباروني على مشاركتهم لنا، وجهودهم في تنظيم المعرض الذي يُعرِّف بالباروني وتراثه، متمنياً لهم ولبلدهم العزيز ليبيا الرفعة والتقدم والاستقرار.

وأما أنتم أيها العلماء الأجلاء الذين تقاطرتهم من كل حدب وصوب فلكم من الشكر أجز له ونأمل أن تساهموا بأوراقكم ومداخلاتكم بإماطة اللثام عن جوانب شخصية عالمنا الجليل وجوانب فكره، متمنياً لكم التوفيق.

{وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون}

صدق الله العظيم

الباب الأول

شخصيـة البارونـي

سليمان باشا الباروني: نشاطه العلمي ونضاله السياسي

أ.د. محمد زرمان(*)
أ. جمعة حقاين(**)

مقدمة

تألق نجم الزعيم سليمان باشا الباروني في سماء المجد في وقت عصيب جداً، تكالبت فيه القوى الاستعمارية المتحالفة على العالم الإسلامي ومزقته إرباً إرباً ثم تقاسمت أشلاءه بينها. وقد كانت حياته الحافلة بالأحداث العظام سجلاً حيًا لهذه الحقبة التي عاش خلالها وطنه الإسلامي الكبير أحلك فترات تاريخه، فكأنه اختزل هذه المرحلة الدامية كلها في سنوات عمره التي امتدت بين ١٨٧٣م و١٩٤٠م بما أنجز فيها من أعمال جليلة كانت شاهدة على مواهبه الفذة وشخصيته الثرية، ذات الجوانب المتعددة، فقد كان فقيهاً، مدرساً، واعظاً، شاعراً، مجاهداً ثائراً، سياسياً محنكاً، وطنياً صلباً، رجل دين وعلم وسياسة وحرب، أعطى أنفاسه كلها لأمته وبذل في سبيل حريتها وعزتها حياته كلها، فلم يخذلها في أي موطن من المواطن.

شهدت حياته العلمية نشاطاً كثيفاً قاده إلى عدة مراكز علمية ابتداءً بجامع الزيتونة بتونس، إلى وادي ميزاب بالجزائر، إلى الجامع الأزهر بمصر، ثم انتقل إلى العمل الميداني فأسس المدرسة البارونية في ليبيا وخاض ميدان التعليم وترك فيه بصماته الواضحة، وبنى المساجد وجلس للوعظ والإرشاد، وضرب بسهم وافر في مجال التأليف وخلف لنا ثروة فقهية وأدبية وعلمية لا يستهان بها، وقرض الشعر وكتب المقالة، وأسس مطبعة الأزهار البارونية بمصر وهي التي طبع فيها

(*) أ.د. محمد زرمان، جامعة باتنة، الجزائر.
(**) أ.د. جمعة حقاين، جامعة باتنة، الجزائر.

كتبه وعدداً كبيراً من كتب التراث، وأصدر جريدة (الأسد الإسلامي) التي ترجمت عن نفسه الثائرة وأبانت عن أفكاره الإصلاحية، وعقد صداقات كثيرة مع ثلة من علماء المسلمين الذين كانوا يدافعون عن فكرة الجامعة الإسلامية.

أما نضاله السياسي فقد استوعب حياته كلها، وشغل كل لحظة من لحظات عمره التي أمضاها مدافعاً عن حق بلاده في الحرية والكرامة، ومنافحاً عن وحدة الأمة وعزتها، وباذلاً الجهود المضنية لرأب الصدع بين الإخوة المختلفين، ولم شمل المتنازعين، وتوحيد جبهة المقاومة، والتصدي للمؤامرات الاستعمارية، والمحافظة على نظام الخلافة الذي كان يترنح تحت ضربات القوى الاستعمارية. فقد قاوم الاستعمار الإيطالي مقاومة عنيفة إلى جانب القوات العثمانية، ثم واصل هذه المقاومة الباسلة بعد أن سحبت تركيا قواتها وتركت ليبيا لقمة سائغة في فم الطليان، ولم يتسرب الوهن إلى قلبه ولم يرضَ بالاستسلام حتى بعد أن هزمته الجيوش الاستعمارية الجرارة، ولم تهدأ ثورته إلى أن أُخْرِجَ من بلاده مُرْغَمًا واكتوى بنار النفي سنين طويلة.

وتهدف هذه الورقة إلى التعريف بسليمان باشا الباروني، والاطلاع على جوانب شخصيته الثرية التي جمعت بين جوانحها أوجها عديدة للعبقرية والتميز، وبيان مكانته العلمية والسياسية التي تبوّأها في العالم الإسلامي من خلال الشهادات الكثيرة التي أدلى بها رفاقه في الكفاح وأصدقاؤه ومعارفه وتلامذته، وحتى أعداؤه الذين خَبروا علوّ همّته وسموّ أخلاقه في ميادين السياسة والحرب، ثم التطرق إلى نشاطاته العلمية التي طالت عدة تخصصات كان له في كل تخصّص منها حظ وافر، والوقوف عند نضاله السياسي الطويل تحت راية الدولة العثمانية ثم تحت راية الوحدة الوطنية وما أعقب ذلك من نشاطات سياسية لصالح الحلم الذي ظل يراوده طوال حياته وهو تحقيق الوحدة الإسلامية.

أولا : محطات في حياة الباروني

ينحدر سليمان بن عبد الله بن يحيى الباروني من إحدى السلالات العريقة المعروفة في سلطنة عُمان بالبروانية. وقد هاجر آباؤه الأوائل من موطنهم الأصلي نحو إفريقيا في القرن الرابع الهجري، وحطوا رحالهم بجبل نفوسة بليبيا، وهناك عرف الناس لهم أقدارهم بما لمسوا فيهم من التقوى والورع والتبحر في العلم والصلاح والشمائل الحميدة فأحلّوهم من أنفسهم محلا رفيعا، وشهد التاريخ نبوغ عدد كبير منهم في مختلف مجالات العلم والحكم : " إن المطالع يرى سيرتهم كسيرة الصحابة والتابعين لا تعاظم ولا تكبر، مع العفة التامة والعلم الغزير، والاعتناء بالدين والعدل، كتاب الله حجتهم، وسنة الرسول دليلهم، وآثار السلف الصالح منهجهم، إن جلسوا للحكم عدلوا، وإن تصدروا للتعلم أجادوا وأحيوا، وإن قاموا للدفاع عن وطنهم وملكهم أبلوا ونصروا، وإن بسطوا أيديهم للإحسان أغنوا، وإن شمروا للعبادة صاموا النهار وفي الليل تهجدوا "[1].

وقد ورث سليمان الباروني عن هذه العائلة الشريفة كرم النسب ومتانة الدين وحسن الخلق وعلوّ الهمّة التي أشرف والده على غرسها فيه وتنشئته عليها، ولقنه إلى جانب ذلك أصول الشريعة وقواعد العربية حتى شبّ عن الطوق وأبدى استعدادا خاصا لتحصيل العلم، وذكاءً وقادا، وقدرة كبيرة على الاستيعاب والحفظ، فأراد والده لهذه المواهب أن تتفتّح في فضاء واسع، وأن تجد مجالا حيويا رحبا لتنمو وتتضج فأرسله إلى جامع الزيتونة بتونس والذي كان في ذلك الوقت منارة إشعاع علمي يضم نخبة ممتازة من علماء الأمة القلائل في زمن ركدت فيه حركة العلوم واستنام المسلمون إلى الخمول والجمود وتفشّت بينهم الأمية وقعدوا عن طلب المعالي. وفيه جلس إلى كوكبة من الشيوخ المتميزين وأخذ عنهم، ولبث يغرف من معين العلم هناك لمدة خمس سنوات، أحسّ بعدها

---

(1) أبو اليقظان الحاج إبراهيم . سليمان الباروني باشا في أطوار حياته. الدار العمانية. ١٣٧٦هـ/١٩٥٦ م. ج١. ص٦.

أن نفسه ما زالت تتوق إلى المزيد فيمّم شطر الجامع الأزهر الذي استكمل في أروقته رحلته العلمية ومكث فيه ثلاث سنوات، أما رحلته العلمية الثالثة فقد كانت باتجاه وادي ميزاب حيث الشيخ محمد بن يوسف اطفيّش زعيم المذهب الإباضي آنذاك بلا منازع، وقد أقام الباروني في جنوب الجزائر ثلاث سنوات متتالية استوعب خلالها علوم شيخه في الشريعة والفقه والعربية وتبحّر في المذهب واقتبس من أخلاق أستاذه الذي قرّبه إليه لما رأى فيه من مخايل النبوغ وخصّه بمكانة متميزة بين طلابه، وأفرد له وقتا يعطيه فيه دروسا له وحده دون سائر الطلاب[1]، إذ كان يحبه حبا جما ويعتدّ بصلاحه ونبوغه ويرى له مستقبلا زاهرا وجدوى كبيرة للإسلام والمسلمين[2]. وربطته بأهل البلاد من رجال العلم والأدب والفضل والمال علاقات وطيدة، وظلّت صلاته بهذه المنطقة متينة لم تنقطع على الرغم من بعد الديار وتقلّبات الزمان وما لحق به من الأحداث المروّعة والمآسي الأليمة.

وبعد أن استكمل رحلته العلمية وقفل راجعا إلى بلاده وجد بانتظاره مفاجأة غريبة غيّرت مسار حياته وقلبتها رأسا على عقب حينما اتُّهم بخيانة الدولة العثمانية والعمل على فصل ليبيا عنها، الأمر الذي كلّفه قضاء بضع سنين في السجن. وعندما خرج منه بادر إلى القيام بجملة من النشاطات الثقافية والدينية التي كان يأمل من ورائها أن يزيح غشاوة الجهل عن أبناء الشعب ويدخل بهم عصر النور الذي استأثر به الأقوياء وأذلّوا به رقاب المسلمين، غير أن ملاحقات السلطة العثمانية ومطارداتها له جعلته يضيق ذرعا بمقامه هناك فيمّم شطر القاهرة مرة أخرى، وهناك انخرط في الحياة الفكرية والأدبية والسياسية المصرية التي كانت تطفح بالنشاط، وتعجّ بالأفكار الإصلاحية. فوجد واقعا جديدا يبشر

---

(1) محمد علي دبوز . نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة . المطبعة التعاونية . الجزائر . ط١ . ١٣٨٥ هـ/١٩٦٥م . ج١. ص ٣٧٤

(2) المرجع السابق . ج١ . ص ٣٨٠.

بالتغيير، وانفتح له فضاء واسع من الحرية فانطلق في أجوائه يعبّر عن خلجات نفسه، ويغشى مجالس العلم والأدب والسياسة، ويعقد الصداقات ويقيم العلاقات مع نخبة المجتمع وكبار رجالاته، ويقتحم عالم الصحافة والطباعة ويعبّر عن تأييده المطلق للحركات السياسية التي تحارب الفساد والاستبداد من خلال انتمائه إلى الحزب الوطني بزعامة مصطفى كامل.

وقد فجّرت الفترة التي قضاها في مصر مواهبه المكنونة وملكاته التي وجدت مجالها الحيوي في تلك البيئة الخصبة التي أخرجت للعلن كل ما كان يضطرم في نفسه من نشاط وقوة فكرية. وقد عبّر عن ذلك بقوله :

نزلنا مصر ذات النيل فيها ... رجال العلم كالأسد الضواري
فعلم مدرسي فاق وصفا ... وعلم أزهريٌّ كالدراري
وفيها الحر يبدي كل فكر ... علانية برابعة النهار
بها كل التسامح فهي حقا ... وأيم الله منبع للفخار

وعندما صدر الدستور العثماني عام ١٩٠٨م رشحه أهل الجبل الغربي لينوب عنهم في مجلس المبعوثان العثماني، فذهب إلى الأستانة وبذل جهده لخدمة بلاده التي عانت من إهمال السلطات العثمانية لمدة طويلة علّه يرفع عنها بعض أثقال الفقر والجهل الذي أقعدها عن مسايرة ركب الحياة. ثم باغتته القوات الإيطالية التي غزت ليبيا فأمضى سنوات طويلة يقاومها ويحارب جيوشها الجرارة في صبر عجيب، متحمّلا كل الشدائد، ومستهينا بكل الخطوب والملمّات، طاويا قلبه الكبير على جراح الخيانة والتآمر الخفي الذي عانى منه من المقرّبين الذين آثروا الدّعة والعيش الرغيد فسلّموا إخوانهم المجاهدين للأعداء وخذلوهم في أشد أوقات المحنة.

وقد تمخض فشل حركة المقاومة المسلّحة الباسلة التي قادها الباروني وإخوانه ضد الاستعمار الإيطالي عن إبعاده عن بلاده، فطاف بلاد الدنيا باحثا عن ملجأ آمن بعد أن لفظته تركيا إثر الانقلاب الكمالي وإلغاء نظام الخلافة، لكنه وقع في براثن الاستعمار الفرنسي الذي حاصره في فرنسا ومنع عليه الهجرة إلى أي بلد من بلدان المشرق أو المغرب، ولم يتخلّص من أغلال الأسر إلا بعد أن وصله الإذن من الشريف حسين بن علي لدخول الحجاز لأداء فريضة الحج، ثم توجّه بعد ذلك إلى عُمان.

وفي عُمان تألق الباروني مرة أخرى وأبان عن شخصيته القيادية حينما لم يتوان عن السعي الحثيث لإصلاح ذات البين بين السلطان تيمور بن فيصل آل سعيد والإمام محمد بن عبد الله الخليلي اللذين كانا يقتسمان حكم البلاد التي شطرتها المؤامرات الاستعمارية شطرين : الساحل والداخل. كما بذل جهودا محمودة للإصلاح بين الشريف علي بن الحسين ملك الحجاز وعبد العزيز بن سعود وإيقاف الحرب الدائرة بينهما، غير أن الاستعمار الذي كان يحضّر للمنطقة مستقبلا يتناسب مع مصالحه ونفوذه أجهض هذه المحاولات ووجّه الأحداث نحو خدمة أهدافه الكبرى في المنطقة.

وبعد رحلة استشفائية قادته إلى العراق التي أراد أن يتداوى فيها من حمى الملاريا التي سكنت عظامه، تلقى سنة ١٩٣٨م دعوة رسمية من الملك سعيد بن تيمور يطلب منه أن يكون مستشارا له في عاصمة الساحل فلبى الدعوة وبذل من الجهود في إصلاح حال البلاد ما وسعه الجهد، وعمل جاهدا على تنظيم المملكة على الوجه العصري الموافق لروح الشريعة[1] على الرغم من كثرة العوائق وتجدّد العقبات، غير أن داء الملاريا كان قد نخر جسمه وهدّه هدا، وزاده ضغط الدم العالي ضعفا ووهنا، فكان ينشط تارة ويلزم فراش المرض تارات. وعندما قام

---

(1) أبو اليقظان الحاج إبراهيم . سليمان الباروني باشا في أطوار حياته . ج٢ . ص٢٨.

السلطان سعيد بزيارة الهند صَحبَه معه للاستشفاء، لكنه لم يكد يصل مدينة بومباي بساعات حتى فقد وعيه ثم أسلم روحه إلى بارئها يوم ٢٣ ربيع الأول ١٣٥٩هـ الموافق ليوم ١ مايو ١٩٤٠م.

ثانيا : مكانته

إن العظماء في كل زمان ومكان نقطة مضيئة، وشمعة منيرة، يقودون الجموع ويصنعون التغيير ويبنون للأمم أمجادها، ويحفظون لها مآثرها، ويستنهضون بقوة شخصياتهم الهمم الفاترة والإرادات الضعيفة والطاقات الخاملة والمواهب النائمة ويشحنونها بالفاعلية والحركة فتنطلق نشيطة في معركة الحياة.

وسليمان الباروني واحد من هذه القيادات النادرة التي لا تضعف أمام التحديات، والتي لا ترضى بالاستسلام للواقع المتردّي والهروب من ساحة المواجهة، فقد جُبلَ منذ صغره على التطلع إلى معالي الأمور فكانت سيرته سلسلة من الأعمال الجليلة التي سطّرها التاريخ في صحائف خالدة.

وقد لمس فيه جميع من عرفه وصاحبه وعاشره وتعامل معه هذه الخصال، وأكبروا فيه إباءه وشممه، وقوة صبره وجلده، وسعة علمه، ونفاذ بصيرته، وثباته على مبادئه، وإصراره على إصلاح حال أمته، ولمّ شملها، وبغضه لأعدائها، ونقمته على المستعمر الذي أذلّها واستعبدها وسفك دماء الأحرار من أبنائها، ورغبته الملحّة في توحيدها تحت راية واحدة حتى ملكت عليه هذه الرغبة أقطار نفسه وملأت وجدانه وظلت تضطرم بين جوانحه كالشعلة الملتهبة إلى أن أسلم روحه إلى بارئها.

ويعتبر الشيخ أبو اليقظان الحاج إبراهيم من أبرز من كتب عن الباروني الذي تعرّف عليه حين كان طالبا بوادي ميزاب بالجنوب الجزائري فجمعت بينهما

صداقة متينة تحولت مع الأيام إلى أخوة وثيقة العرى، وظلت المراسلات بينهما متواصلة طيلة عقود من الزمن كان كل واحد منهما على اطلاع تام بأحوال الآخر حتى في عز الأزمات وأحلك الظروف. وقد بلغ إعجاب أبي اليقظان بصديقه الباروني حدا استأذنه معه أن يكتب سيرته، ويسجل تفاصيل حياته، ويرصد المحطات الكبرى التي عاشها حتى تكون قدوة للأجيال، ونبراسا يستضيء به السائرون إلى أهدافهم العليا فأخرج للوجود كتاب " سليمان الباروني باشا في أطوار حياته " في جزئين، وهو بحق وثيقة تاريخية نادرة لهذا الرجل العظيم.

وبعد أن انتهى من تسطير كتابه أجمل شمائل الباروني التي يعزّ اجتماعها في شخص واحد في فقرة يقول فيها : " أوتي الباشا قوة إيمان ونور بصيرة وجودة فهم ورحابة صدر وسعة حلم وسلامة قلب ونزاهة نفس وغزارة علم وحرية رأي وحسن تقدير، وكان ينبع عن تلك المنابع الصافية، لا يعرف مصانعة ولا مداهنة ولا مداجاة ، ولا يصدر عن دافع غرض أو شهوة الانتقام أو حبا في شهرة"[1]، واعترف له إدريس السنوسي برجاحة العقل وبعد النظر وصواب الحكم فقال : "إني مؤيّده في كلّ ما كتب . فهو الرجل الوحيد العاقل المجرّب الذي ينظر إلى الأمور من وجهها الحقيقي "[2] .

وممن شهد له بعلوّ الكعب في الشجاعة والصبر والثبات في ساحات المعارك والتعالي على الإغراءات المادية ومتاع الدنيا الزائل والإصرار على مواصلة الجهاد على الرغم من كل الجراح والآلام اليوزباشي محمد إبراهيم المصري أحد الضباط المشاركين في حركة الجهاد ضد الإيطاليين والذي يقول : " وإن المرء ليدهشه في سليمان باشا قوة احتماله للمكاره، وصبره على الشدائد،

---

(1) أبو اليقظان الحاج إبراهيم . سليمان الباروني باشا في أطوار حياته . ج ٢ . ص ١٢٦

(2) المصدر نفسه . ج٢ . ص ١٠٦.

حتى إنه في سنة ١٩١٣ عندما قام بتأسيس الحكومة الوطنية في طرابلس الغرب، بعد صلح تركيا وإيطاليا المعروف، لم تترك إيطاليا وسيلة إلا استعملتها ضده ، فمن السعي إلى تأليب القبائل ضده، إلى اجتذاب بعض ضعاف النفوس بين الزعماء إلى ناحيتها، إلى حمل فرنسا على منع القوافل التجارية بين تونس وطرابلس، كل هذا وسليمان الباروني يعمل على تذليل تلك العقبات، ومحاربة العدو كلما سنحت فرصة للهجوم من أي ناحية، حتى يئس العدو من الانتصار عليه بالحيلة أو القوة "[١].

ومنهم أيضا الأمير عمر طوسون أحد أحفاد محمد علي الكبير والذي وقف مع المجاهدين في ليبيا وقفة مشهودة حينما شكّل بمصر غداة الغزو الإيطالي لجنة لجمع التبرعات لدعم حركة الجهاد وبدأ بنفسه فوضع في صندوق اللجنة مبلغا ماليا كبيرا، وأنفد بعثة من الهلال الأحمر المصري لمداواة الجرحى والمصابين، ولم يتوقف عن تزويد المجاهدين طيلة سنوات الحرب بالقوافل المحملة بالعتاد والطعام. وقد عرف الباروني عن قرب وامتلأت نفسه إعجابا به وببطولاته فقال عنه : " عرفت الزعيم الباروني المجاهد في الحرب الطرابلسية فأكبرته، وأصبحت له في نفسي منزلة سامية بأفعاله المجيدة وخلاله الحميدة، وبما قدمه لبلده ووطنه من صادق الإخلاص والوفاء. ولا شكّ عندي أنه من الذين باعوا الحياة في سبيل الله ، واشتروا بها الجنة ورضوان الله "[٢].

كما شهد له الشيخ محمد زاهد الكوثري وكيل المشيخة الإسلامية في دار الخلافة العثمانية بإخلاصه العميق لعقيدته، وانتصاره الكبير لدينه، وتضحيته بكل غال ونفيس في سبيل إعلاء كلمة الإسلام فقال عنه : " إن سليمان باشا

---

(١) جبران محمد مسعود . سليمان الباروني وآثاره الأدبية . الدار العربية للكتاب . طرابلس . ١٩٩١ . ص٧٧ .

(٢) سليمان باشا الباروني . الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية . وزارة التراث القومي والثقافة . سلطنة عمان . ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م. المقدمة. ج٢. ص ١٧.

الباروني رجل التضحية في سبيل الإسلام وإعزاز كلمة الإسلام، وقلما يدانيه مُدَان من أهل عصره في هذه الخصيصة "[1].

ويقول صديقه أبو إسحاق إبراهيم اطفيّش : " لقد ترك الباروني باشا زعيم المجاهدين الطرابلسيين فراغا لا يمكن أن يسدّه رجل اليوم. وأين الرجل الذي تجتمع فيه تلك الخصال التي اجتمعت للباروني من علم وشريعة وسياسة رشيدة، ومعرفة تامة بالفنون الحربية وممارسة القتال؟ ويتوّج كل هذا سموٌّ في الأخلاق، وكرم في المحتد، وطاعة لله ورسوله، مما هيّأه لأن يكون مصلحا اجتماعيا لا يجود الزمان بمثله "[2].

وعندما زار مصر ومكث فيها مدة من الزمان كانت كافية لأن يظهر فيها معدنه وتبرز شخصيته المتميزة نال إعجاب كثير من الساسة والعلماء والأدباء والمثقفين الذين ربطته بهم صلات الود والصداقة ، ومنهم الشاعر إسماعيل صبري الذي مدحه بقوله[3] :

يا أفصح الفصحاء غير معارض ... يا أبلغ البلغاء يا بـــاروني
إن يدع الشعراء شأوك قل لـــهم ... هذا المـجال وهـا أنا باروني

وحينما غادر الحجاز وحلّ ضيفا على أهل عُمان استبشروا بقدومه، وكانت مآثره الحميدة وسيرته الجليلة وبطولاته الكثيرة وعلمه الغزير قد سبقوه إليهم. فتبارى الشعراء والخطباء في التعبير عن ابتهاجهم بقدومه، والتيمّن بإقامته بين أظهرهم، فنظموا في ذلك قصائد غراء، من بينها قول الشاعر أحمد بن سليم مهنئا الشعب العُماني بقدوم الباروني إليه :

---

(1) سليمان باشا الباروني . الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية ، ص ١٨.
(2) المصدر نفسه ، ص ١٨
(3) http://www.albayan.ae/sports/1188743290875-2007-09-13-1.789309

هنت عُمان بما حازته بـــلدان إذ أحرزت بك فتـــحا يا سليمان
يا صفقة ربحت هذي البلاد بها ورحمة كلـــها بـــرٌّ و إحـــسان

ومنها قول الشاعر سليمان الكندي :

يا ابن عبد الله قد حزت المقام إذ غـــــدوت الآن ركنا للإمام
بك نلـــنا يا بـــارونيُّ الـــمرام ليس بدعا إن تكن حزتَ السما
كم روايات لـــنا عنـــك أتـــت وأحـــاديث بصـــدق وردت
إنمـا أنـت جـــحيمٌ سُـــعّرَتْ إن نوى مستعمرٌ سلب الحمَى

فهذه الشهادات وأمثالها كثير مما يضيق المقام بسردها تدل كلها على سموّ المكانة التي احتلّها سليمان باشا الباروني في دنيا العلم والسياسة، وتنبئ عن عمق الإجلال والإكبار الذي يكنّه له أبناء الأمة الإسلامية في كل مكان، فهم يرون فيه الزعيم القائد والمصلح المخلص، والمجاهد المغوار، والعالم المتواضع، والفقيه المتفتّح الذي يتعالى على التعصب المذهبي ويحارب الجمود الذي يقتل الأمم ويشلّ قدراتها، والمحبّ الغيور على أعراض أمته وأوطانها، وغيرها من الشمائل الحميدة التي طبعت شخصية الباروني وظهرت جليّة للعيان في كتاباته وأشعاره ومواقفه.

ثالثا : نشاطه العلمي

لقد عرفت حياة الباروني على الرغم من كثرة الاضطرابات والتقلبات التي عاشها نشاطا علميا مكثفا في جميع الميادين. فقد كان الرجل كتلة من الحيوية وشعلة من النشاط المتجدّد. ولا غرو، فقد كان حبّه للعلم جارفا، يدلّ على ذلك تطلّعه إلى الدراسة وهو في سنوات شبابه الأولى في أكبر المراكز العلمية الإسلامية المعروفة آنذاك وهي الزيتونة والأزهر، ثم شغفه بالتعمّق في مذهبه

والتبحّر في علوم الشريعة والعربية الذي قاده إلى الجزائر وهي ترزح تحت نير الاستعمار الفرنسي الذي كان بالمرصاد لكل حركة علمية تقضّ مضجعه أو تهدد وجوده. وقد احتمل الباروني في سبيل طلب العلم سنوات طويلة من الغربة والبعد عن الأهل وهو يستشعر اللذة والرضا في الاغتراف من معين العلماء والشيوخ والمفكرين من ذوي العقول النيّرة والخبرة الواسعة في الحياة، فلاقى ذلك كلّه هوًى في نفسه التواقة إلى الإصلاح والتغيير. وقد زاده تحصيله للعلم ورحلاته المتعددة إصرارا على رفض الواقع الإسلامي المتخلف، وتصميما على إصلاحه وسد الثغرات المفتوحة فيه، وتهيئته لمستقبل أفضل. وفي سبيل تحقيق هذا الهدف النبيل كانت للباروني نشاطات عديدة على عدة مستويات منها :

١ . النشاط التربوي والتعليمي

كان الباروني يدرك جيدا الدور الحيوي الذي تقوم به المدارس ومعاهد التعليم في نهضة الأمم وترقيتها، وقد عاين بنفسه كيف أن الجهل والأمية قد أحالت الشعوب الإسلامية إلى غثاء كغثاء السيل لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا، وكيف أن العلم منح لأوروبا القوة والنفوذ، ومكّنها من السيطرة على مقدرات المسلمين واستغلالها لصالحها دون أن يستطيع أصحابها تحريك ساكن. لذلك نجده بعد أن تحرّر من قيود السجن العثماني الذي دخله بتهمة باطلة، يسارع إلى تأسيس مدرسة في يفرن ويلحق بها مكتبة عامرة بأمهات الكتب ونفائس المخطوطات، ثم يوقف لها الأوقاف لتتمكن من الإنفاق على طلبتها ومدرّسيها، وصيانة مرافقها وهياكلها. وقد أوكل لوالده الشيخ عبد الله الباروني مهمة الإشراف عليها، وكان والده علما من أعلام ليبيا، ووجها بارزا من وجوهها العلمية والدينية. وكانت هذه المدرسة تدرّس لتلامذتها علوم الشريعة والعربية : القرآن الكريم، الحديث الشريف، أصول الفقه، علم الكلام، الفقه، علوم البلاغة، علوم اللغة، الصرف والمنطق والإنشاء.

وهي خطوة جريئة تنبئ عن مشروعه الإصلاحي الذي كان يحلم أن ينشر من خلاله نور العلم بين أبناء وطنه حتى يفتح أعينهم على الواقع الجديد الذي يعيشه العالم من حولهم، لأن ليبيا عانت طوال الحكم العثماني من إهمال تام من السلطة المركزية في مجال التعليم تحت حجة أن معظم سكان القطر الليبي من البدو الرّحل الذين لا تنفع معهم إقامة المدارس وتأسيس المعاهد[1]، فاستشرت الأمية بينهم بشكل كبير، وباتوا في غيبة عن المشهد العالمي الذي تتصارع فيه القوى على مناطق النفوذ ومراكز السيطرة.

غير أن هذه المبادرة الإصلاحية لم تلبث أن ماتت في مهدها قبل أن تبدأ بطرح ثمارها على إثر الغزو الإيطالي الأهوج الذي عمل كما هو دأب الاستعمار في كل مكان على محاربة الثقافة العربية الإسلامية وتجفيف منابعها بإغلاق المدارس والمعاهد العربية والتركية معا، ومصادرة الزوايا ومطاردة أصحابها ومريديها، فغرقت ليبيا مرة أخرى في ظلام الجهل والاستعباد[2]، ولم يكن لدى رجالاتها الأحرار والمتنورين مجال لنشر العلم، إذ كانت الجهود جميعا متوجهة إلى جهاد الغزاة لإجلائهم عن البلاد.

وإذا كان المستعمر الإيطالي قد اغتال في قسوة وعنف أحلام الباروني في بلاده، فإنها عادت مرة أخرى لتنتعش في عُمان، حينما فوّض إليه سلطانها أمور تسيير الدولة وإصلاح شؤونها، فكان من بين أعماله البارزة تأسيس المدرسة البارونية بسمائل، والتي أدخل عليها بعض مناهج التعليم العصرية، وكان ينوي أن يجعلها مدرسة نظامية على غرار المدارس الإصلاحية التي انتشرت في المغرب العربي وتكون نموذجا يُحْتَذى للانتقال بمدارس السلطنة من الطراز التقليدي إلى الطراز الحديث، كما كان ينوي استجلاب الأساتذة والمعلمين الأكفاء

---

(1) راجع : محمد الصادق عفيفي . الاتجاهات الوطنية في الشعر الليبي الحديث . دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع . بيروت . القاهرة . بغداد . ط1 . ١٩٦٩م . ص١١٨.

(2) المرجع نفسه ، ص١٢٢.

للتدريس بها من أنحاء الدول العربية إذا استطاع الحصول على رخصة الدخول من الدول الاستعمارية[1]، مما يدل على أن التعليم كان واحدا من أولوياته الإصلاحية التي يؤمن بجدواها الكبير في نشر الوعي وإحداث النهضة.

٢ . النشاط الإعلامي

عندما زار الباروني مصر للمرة الثانية بعد رحلته الدراسية، كانت الصحافة قد ازدهرت هناك واحتلت مكانة مرموقة في الساحة الثقافية، وأصبح لكل اتجاه جرائده التي تتحدث على لسانه وتبشّر بأفكاره، فاستهوته هذه الحركة الفكرية والأدبية النشيطة التي تواكب الأحداث، وتنقل نبض الشارع، وتستقطب اهتمامات الناس من كل الطبقات، وتعبّر بحرية عن مكنونات الضمائر وبنات الأفكار، فاقتحم هذا العالم العجيب بكل قوة وجرأة وقرر أن يدخل عالم الصحافة من أوسع أبوابه حينما عزم على إصدار جريدة تابعة له يشرف على إخراجها وتحرير واختيار موادها بنفسه، ويضمّنها هذا البحر الزاخر من الخواطر التي تضطرم في نفسه، ويودّ نقلها إلى الناس ليتفاعلوا معه، ويتجاوبوا مع توجّهاته.

فكان أن أسس جريدة " الأسد الإسلامي " عام ١٩٠٦م، ويبدو واضحا من اسمها أن صاحبها يريد بها إثبات قوة الوجود الإسلامي ووقوفه شامخا أمام التحدّيات والعواصف التي تعمل على تحطيمه وتغييبه. ووضع لها شعارا قرآنيا هو قوله تعالى : {وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا} ، وعرفها في الصفحة الأولى بأنها جريدة دينية سياسية أدبية أسبوعية، وكان يكتب صفحاتها بإخلاص وحرارة، وقد أرادها صحيفة مبدأ وفكرة وعقيدة وليست صحيفة أخبار وأنباء.

---

(١) أبو اليقظان الحاج إبراهيم . سليمان الباروني باشا في أطوار حياته . ج٢ . ص ٤٥.

وعندما تسامع أصدقاؤه ومحبوه من العلماء والأدباء في الشمال الإفريقي بما عزم عليه راسلوه مستغربين منه هذه المبادرة وهو من هو في الدين والعلم والأدب وشرف النسب، وكلها في نظرهم خصال جليلة تنأى به أن يخوض ميدان (الجرائين) ويحترف مهنة الجرائد لأنها "وعاء مليء سفاهة، ومعرض يتعرّض لأخلاق الناس، وهي مناط الغيبة والنميمة، ومشغلة تنهى عن العبادة، وتحوي الكلام الفارغ الذي لا يغني كباع فلان واشترى فلان، أو قدم أو سافر وتزوّج فلان"[1].

وقد أدرك الباروني أن معاتبيه قد كوّنوا عن الجرائد فكرة نمطية خاطئة وصلتهم عن طريق أحاديث السمر التي يتداولونها، أو عن طريق من يطالعون الجرائد الأجنبية التي تحفل بالإعلانات وتمتلئ بأخبار الفن وفضائح الأغنياء والنبلاء في المجتمع المخملي الأوروبي، فأراد أن يصحّح هذه المفاهيم لديهم، ويعطيهم الصورة الحقيقية للصحافة النزيهة النظيفة التي تستعمل سلاح الكلمة لتخدم المبادئ العليا، وتدعو إلى الخلال الحميدة، وتستنهض الهمم، وتنشر الوعي، وليرسم لهم الواقع الجديد الذي يتعيّن على المسلمين إدراكه بما زودتهم به الحضارة الحديثة من وسائل تسهّل لهم سبل الدعوة إلى الحق ونشر الحقائق وردّ الشبهات وتفنيد الأباطيل، ولا عليهم إن استعملها غيرهم في غير هذا التوجّه ؛ لذلك ردّ على كلّ من لامه على العمل الصحفي بقوله : " أما في مصر، التي يصدر فيها الأسد، وفي ما يشبهها من الأقطار، فللجرائد شأن وخطة، لها الفضل السامي في خدمة الهيئة الاجتماعية وليست من صنف ما عللوا. وعليه فيسير (الأسد بعون الله) على النهج القويم، وسيبين في الأعداد الآتية سبب ظهور الجرائد ونتيجتها وما لها من الأهمية، دينا ودنيا، حتى يزول ما بخواطرهم من الوهم"[2]. وقد بيّن فعلا ذلك، وأثبت أن الصحافة مهنة نبيلة ، ووعاء مليء علما

---

[1] http://www.tamatart.com/?p=1782

[2] المرجع نفسه .

وأدبا وفضلا، ولم يفُتْهُ أن يدعو إلى الانفتاح على وسائل التمدّن الحديث، والاستفادة من مقومات الحضارة المعاصرة مع المحافظة على دعائم الشخصية الإسلامية والطابع الشرقي.

وقد أخذت فكرة الجامعة الإسلامية من مقالات الأسد الإسلامي حصة الأسد، إذ كانت شغله الشاغل وهدفه الوحيد الذي يرى أن تحقيقه هو الكفيل بصد أمواج الغزو الاستعماري الذي أهلك الحرث والنسل وبات يهدد وجود الأمة وكينونتها الحضارية والتاريخية. ففي عددها الأول كتب مقالة قوية ومستفيضة عن الجامعة الإسلامية التي أصبحت فكرة رائجة بين جميع المسلمين مبيّنا أن أوروبا قد أوجست منها خيفة، لأن المسلمين : " إذا كانوا يدا واحدة على قلب واحد ناقشوا أوروبا الحساب، وناصبوها الحرب، وردّوها إلى حافرتها الضيقة الأرجاء فيما وراء البحر الأبيض شمالاً، وتخلصوا من حمل سيادتها الثقيل "[1]، ثم أشار إلى ما تبذله القوى الأوروبية من جهود مضنية في سبيل زرع بذور الشقاق والخلاف بين الحكام المسلمين لتعرقل تحقيق هذه الجامعة : " فقامت في الأيام الأخيرة متيقظة تخطب ودّ بعضها، وتبرم المعاهدات، وتؤكد الاتفاقات على التعاضد والتعاون في حفظ ممالكها ومستعمراتها نابذة أمر الدين ظهرياً، وتواصت بالضغط على المسلمين وتشتيت أفكارهم، وأذاعت كل ما يوجب النفور بينهم وبين ملوكهم وأمرائهم حتى لا تقوم لهم قائمة، ولا يسمع لهم ذكر "[2].

وتدعيما لفكرة الجامعة الإسلامية أيضا نشر جملة من الأسئلة وجّهها إلى علماء الأمة ومفكّريها وذوي الرأي الصّائب فيها يدعوهم إلى إثراء ومناقشة أسباب تفرق المسلمين، ويحثهم على طرح قضية التعدد والتعصب المذهبي على بساط البحث لإيجاد حلول ناجعة له في سبيل تقليص حدة النزاع ودواعي الفرقة

---

(1) سليمان الباروني. جريدة الأسد الإسلامي. ع١. ١٢ أغسطس ١٩٠٧م. المطبعة البارونية. القاهرة .
(2) المصدر نفسه . ع ١ . ١٢ أغسطس ١٩٠٧م.

التي أنهكت الأمة وزادتها ضعفاً ووهناً، ويطالبهم باقتراح أفضل الطرق لتحقيق الوحدة الإسلامية والخروج من حالة التردي والفساد، وقد جاء في هذه المقالة قوله: " هل توافق على أن من أقوى أسباب تفرق المسلمين تعدّد المذاهب وتباينها ؟ على فرض عدم الموافقة على ذلك ، فما هي في رأيك أسباب التفرقة ؟ وعلى فرض الموافقة هل يمكن توحيد المذاهب بالجمع بين أقوالها المتباينة وإلغاء التعدد في هذا الزمن الذي نحن فيه أحوج إلى الاتحاد قبل كل شيء ؟ "[1].

وفي مقالة أخرى أثار قضية التفرّق الشنيع الذي أصاب المسلمين جرّاء تعدّد المذاهب واختلافها وأثر ذلك على مستقبلهم الدعوي والسياسي معًا، وضرب لهم مثلا طريفا يوضّح أبعاد هذا التعدّد وتداعياته السلبية على المسلمين في كل الميادين فقال : " يوجد الآن من الفرق الإسلامية المتباغضة عدد وافر...فلو أرسلت كل فرقة وفدا من علمائها إلى اليابان للدعوة إلى الإسلام، ومال الإمبراطور (الميكادو) بفطرته إلى قبول الإسلام، وطلب منهم بيان تعاليمه ومبادئه، ورأى منهم بعض الاختلاف، فما يقول الميكادو في الإسلام يا ترى ؟ ثم إذا علم بوجود المذاهب وطلب بيان أصحّها بالاتفاق ليتبعه فماذا يكون الجواب ؟ وهل يقبل التمويه بأن المذاهب كلها سواء، وأنها تغترف من بحر واحد ؟ "[2].

كما هاجم الباروني في جريدته الاستعمار الأوروبي وفضح نواياه وندّد بأعماله الإجرامية في الدول الإسلامية التي احتلها، ورد في مقالة نارية على اللورد كرومز الذي انتقص من الإسلام وأهله وأساء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعجرفة وترفّع، وهاجم الشريعة الإسلامية واتهمها بالتخلف والرجعية والظلامية .وقد فنّد الباروني مزاعم هذا الرجل الذي جثم على صدور المصريين قرابة ربع قرن من الزمان عاث خلالها فسادا في أرض الكنانة، وردّ شبهاته وسفّه

---

(1) زعيمة الباروني . صفحات خالدة من الجهاد : المجاهد الليبي سليمان الباروني . القاهرة . ١٩٦٤ . ج١ . ص ١٨.
(2) المصدر نفسه. ج١ . ص ٢٠.

دعاويه، ودعا إلى تكوين حزب إسلامي من العلماء والمفكرين يسمى " حزب الدفاع عن الإسلام " يرأسه شيخ الأزهر وتكون مهمته الرد على المطاعن التي يوجهها الغرب للإسلام والمسلمين والشبهات التي يثيرها حولهم، ومحاولات التشويه المستمرة التي تطالهم[1].

وأفسح فيها مجالا لنشاطات الحزب الوطني المصري الذي كان يؤيد مساره، ويبارك أعماله، ويرى فيه المرآة العاكسة لروح الشعب المعذّب، والصوت الصادق لمطالب الأمة، ونشر فيها خطب زعيمه محمد فريد، ورثى مؤسسه مصطفى كامل بقصيدة مؤثرة.

غير أن لهجة الجريدة الحارة ونبرتها الصادقة جلبت لها نقمة الاستعمار الذي سارع إلى خنقها ومنع توزيعها في البلدان التي يسيطر عليها ومنها تونس والجزائر، كما حاربتها الدولة العثمانية ومنعت دخولها إلى ولاياتها فتوقفت بعد صدور ثلاثة أعداد منها، وكان صاحبها يهيئ لها مشاريع كبيرة وأحلاماً أكبر، وينوي نقلها إلى طرابلس حالما تنتهي إقامته بمصر فقد كتب في افتتاحية العدد الأول : " فاستخرت الله تعالى وسألته الإعانة على إنشاء " الأسد الإسلامي " وإصداره أسبوعيا مؤقتا في مصر، وهيّأت له مطبعة من أحسن صنف "[2]، غير أن قوى البغي كانت أسرع إليها فكتمت أنفاسها وهي لا تزال وليدة لم تشبّ عن الطوق.

ولئن كان أعداء الأمة قد استطاعوا اغتيال جريدة الأسد الإسلامي في المهد فإن قلم الباروني ظل متوهجا لا يستسلم ولا يهدأ، حيث وجد في الجرائد والمجلات العربية مرتعا خصبا يصول فيه ويجول، فكان يرسل مقالاته في كل حدب وصوب يتناول فيها كل ما يهم الأمة من قضايا دينية واجتماعية وسياسية.

---

(1) http://www.tamatart.com/?p=1782.

(2) زعيمة الباروني . صفحات خالدة من الجهاد : المجاهد الليبي سليمان الباروني . ص١٣ .

ومن بين المجلات التي كانت تستقبل مقالاته مجلة المنهاج التي أصدرها أبو إسحاق إبراهيم اطفيّش في القاهرة عام١٩٢٥م والتي عرفت بتوجهها السياسي والاجتماعي القويين، فكانت تنشر مقالات لكتاب عرفوا بعدائهم الصريح للاستعمار الغربي، وتكشف عن مخططات الإنجليز والفرنسيين الاستيطانية في الحجاز والشام والمغرب العربي بأسلوب تحليلي عميق. وفي الميدان الديني والاجتماعي كانت ترد على مقالات التغريبيين المعجبين بالمدنية الغربية، المشككين في ثراء الحضارة الإسلامية[1]. ومنها أيضا مجلة الفتح لصاحبها محب الدين الخطيب رائد الصحافة العربية والإسلامية والتي صدرت عام ١٩٢٦م وتبنت في تلك المرحلة العصيبة قضايا العالم الإسلامي واستقطبت حولها نخبة من الكتاب اللامعين الذين تصدوا للدفاع عن حقائق الإسلام وحقوق المسلمين في وقت تعرضت فيه الأمة إلى شلاّل هادر من قوى الغزو الفكري المدمّر الذي كان يمارس العبث بثوابتها، ويخرب قيَمِها الأصيلة مشمولاً برعاية الاستعمار الإنجليزي. ومنها مجلة الأخبار وغيرها من المجلات والجرائد العربية. هذا بالإضافة إلى ما كان ينشره في جرائد أبي اليقظان التي كانت تصدر تباعا بالجزائر، إذ كلما صادر الاستعمار الفرنسي واحدة أصدر أبو اليقظان جريدة جديدة تخلفها إلى أن بلغت ثماني جرائد ، وكان للباروني في جلّها كتابات عديدة ولم يتوقف عن مراسلة الصحف والجرائد العربية حتى وهو في آخر أيامه يصارع المرض ويقاسي الآلام المبرحة.

وكانت المواضيع التي يعالجها في مقالاته الصحافية تدور كلها حول واقع المسلمين في ظل الاستعمار الغربي، تستوي في ذلك البلدان الواقعة تحت سيطرته المباشرة وتلك التي أرغمها على توقيع معاهدات حماية وصداقة وتعاون كما هو الحال في بلدان الخليج والجزيرة العربية، كما تناول أيضا جملة من

---

(1) http://istiqama.net/olama/abou-isaaq.htm

القضايا الهامة الدينية والاجتماعية التي كانت تثار بين الحين والآخر. وهكذا نجده ينشر في جريدة وادي ميزاب لأبي اليقظان عام ١٩٢٦م مقالة بعنوان "كلمة عن الخلافة والآثار النبوية "، وفي عام ١٩٢٧م " استسقاء إمام عُمان "، وفي عام ١٩٢٨م " نزول عيسى عليه السلام ". ونشر في جريدة النور لأبي اليقظان أيضا عام ١٩٣٢م "ماذا في الخليج؟ ". وفي جريدة النبراس مشاهداته في العراق، وفي جريدة الأمة لأبي اليقظان كذلك " كونوا كما تريدون وإنما لا تدخلوا طرابلس " عام ١٩٣٥م، ومقالة أخرى بعنوان " المملكة العُمانية بين أنياب لندن والرياض " عام ١٩٣٥م. و" حقيقة الحرب الطرابلسية " عام ١٩٣٦م، و" صفحة رائعة من جهاد طرابلس الغرب " عام ١٩٣٧م، و" القول الفصل في القضية الفلسطينية " عام ١٩٣٧م، و" القول الفصل في القضية الطرابلسية " عام ١٩٣٧م. ومقالة " في المسألة الطرابلسية : من الباروني إلى الأستاذ ظبيان " عام ١٩٣٧م، و" تغلغل نفوذ إيطاليا في تونس " عام ١٩٣٧م[1]. وغيرها من المقالات التي كان يبعث بها والتي تعبّر عن الهموم الثقيلة التي كان ينوء بها صدره جراء حالة الاستعباد والتبعية المقيتة التي تعيشها أمته.

لقد احتل النشاط الصحفي حيزا هاما من حياة الباروني العلمية، إذ وجد فيه متنفسا واسعا للتعبير عما يدور بخاطره من الأفكار التي تتزاحم لتترجم عن آلام أمة ذلّت بعد عزة، وسقطت بعد شموخ، ولتكشف في جرأة وشجاعة مؤامرات الأعداء وخيانة الأصدقاء، وتحلل في دقة وعمق خفايا السياسة الدولية وأبعاد الواقع الداخلي الشائك، ولترسم لنا في الأخير صورة الصحفي الثائر الذي عاش حرا ومات حرا ودفع ثمن صراحته وقوة كلمته غالياً، لكن التاريخ أنصفه ورفع مقامه إلى أعلى عليّين.

---

(1) راجع : محمد ناصر. أبو اليقظان وجهاد الكلمة . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. ١٩٨٠م. ص٣٠١ إلى ٤٦٤.

٣- الكتابة الأدبية

برزت مواهب البارودي الأدبية بشكل واضح في ميدان الشعر الذي بدأ يقرضه وهو فتى يافع وصاحبه طوال حياته يبثه نفثات صدره في الشدة والرخاء. أما نثره فهو أقرب إلى العلمية منه إلى اللغة الأدبية الهامسة الرقراقة، يستجيب له قلمه السيال في ميادين الكتابة الصحفية والتاريخية والمراسلات الإخوانية والخطب السياسية والدينية .

له ديوان شعر سماه " ديوان سليمان البارودي " وطبعه بالمطبعة البارونية بالقاهرة عام ١٩٠٨، وله إلى جانب ذلك عدد كبير من القصائد التي نشرها في الجرائد العربية بسوريا ومصر والجزائر وليبيا والعراق، ولم تأخذ مكانها في الديوان، وقد تولت ابنته السيدة زعيمة البارودي جمعها ونشرها في كتاب.

والملاحظ أن شعره في أغلبه وطني سياسي مغلّف بروح إسلامية إصلاحية تنمّ عن اتجاه صاحبها الفكري بوضوح، كما يتميز ببساطة المعاني والألفاظ، تقريري مباشر، نفسه قصير وخياله قريب، أساليبه خطابية وألفاظه قوية مثيرة تنضح بمعاني الفروسية، يسجل بصدق وحماسة مواقفه السياسية المرتبطة بفكرة الجامعة الإسلامية والمحافظة على الخلافة العثمانية حتى لقب بشاعر الخلافة، كما يسجل بفخر واعتزاز معاركه الطاحنة ضد العدو بكل ما تحمله من الانتصارات والانكسارات والأفراح والآلام، وما تتضمنه من صرخات لحفز الهمم وإلهاب المشاعر وتوحيد الصفوف، والتواصي بالصبر والمصابرة.

ففي قصيدة يصف بها جموع المجاهدين وهي تستعد لخوض المعارك ضد العدو يقول :

لها في الجبال الشامخات معاقل أسود الوغى تقري السباع الجماجما

نفوس ترى حمل السلاح فريضة ترى الرمي حتما قبل أن يتفاقما
لها همم عليا ترى الذلّ خستةً ترى الذود عن أوطانها متحتما
بها من صناديد الحروب جحافل تسيل إذا ما قيل شدوا المحازما
فويل لمن قد ساقه النحس نحوهم هم الحتف إن هزوا اللوا والعمائما

ومن أشهر أشعاره الوطنية التي تمتلئ قوة وعزما وتفيض - في الوقت نفسه - رقة وحنينا قصيدته التي يتحدّث فيها عن النذر الذي نذره ألا يحلق شعر رأسه حتى يخرج الغزاة الإيطاليون من بلاده، وقد برّ بوعده :

هذا هو الشَّعْر الذي شهد الحروب الهائلات
وعليه أمطرت القنابل كالصواعق نازلات
آليتُ أن يبقى إلى أن يعبر الجند القناة
لنرى الغزاة على ضفاف النيل تفتك بالبغاة
ونرى طرابلس العزيزة في ليال باهرات
تختال في برد الهنا بالانتصار على الطغاة
وتسود أعلام الخليفة في البلاد الضائعات
أو هكذا يبقى إذا لم ننتصر حتى الممات

وله إلى جانب الشعر الوطني الذي طغى على إنتاجه الشعري . المدح والفخر والحنين إلى الوطن، ففي الفخر له قصيدة " لكم الطنافس ولي السيوف " التي يفخر فيها بتاريخه النضالي الذي أورثه النفي والغربة والفقر ولكنه بنى له مجدا تليدا رفع به مقامه في دنيا الخائنين والمداهنين والمتآمرين على الدين والوطن :

هي النوائب لي فلا أرضى بها للخاملين
العاكفين على اللذائذ في رضاء المشركين

لهم الطنافس والتنـافس بالغوانـــــي والبنين
ولهـم مــعاقرة الخمور ونقض غزل المسلمين
ولي الجيوب الخاويات مع الكفوف الطاهرين
ولي التبـاهي بالـوقائع فــي كفاح الغاصبين
ولي السيوف المرهــفات الماحيات لكل شين
ولي الجياد الصافنات الصائلات على الدفين
هذا الفخار ولا فخـــار بغيـره في كل ديـن
فلينهض الأحرار إن رامـوا نـجاة الــمؤمنين

ومن قصائده في مدح السلطان عبد الحميد قوله :

ظهرت محاسن ذا الزمان فقابلت بالبشـــر والإقبـال والخير المزيد
إذ عــاد تشييد المـــدارس قربة في ظل سلطان الورى عبد الحميد
جـاد الزمـان على الأنام به فمذ نشر العدالة زلــزل الركــن العنيد
أسد الملـوك به المشارق أشرقت وبه المغارب حفها الرعـب الشديد
نشر المعـارف والعــلوم وبثــها بمــدارس عليا بـــها الدنيا تميـد
خطبت مودته الملــوك تقربـــا وتوقـــيا من حـد صيـقله المبيد

ومنها قصيدته التي قالها بمناسبة المولد النبوي الشريف يناجي فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ويشكو إليه حال أمته ، ويحث الخليفة العثماني على إقامة العدل وإعادة الحق إلى نصابه :

قم يا محمد يا ختام الـــمرسلين وانظر بعينك كيف حال المؤمنين
تجد الأمور تحـــولت عن حالـها والدين في عهد السياسة قد أهين
من ذا لدينك يا مــحـمد بـعد ذا والله أســـدى أجـــره للمحسنين
غير الخليفة في الـورى سـلطاننا من آل عثمان أمير المؤمـــنين

٤- الكتابة التاريخية

أحب الباروني التاريخ وشغف به وقد صحبه هذا الشغف منذ مطلع شبابه وظل ملازما له حتى آخر حياته. إذ كان يدرك بعمق قيمته وفائدته للإنسانية، فهو مخبر تجارب البشر ومستودع أعمالهم. وقد وجه القرآن الكريم المسلمين إلى قراءة التاريخ والغوص في أعماقه واستكشاف حياة الأمم الغابرة وأخذ العبرة من سيرتها فقال تعالى : { قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل }[1]، لذلك كان له في هذا المجال إسهاماته القيمة. ولعل أول ما يلفت أنظارنا إلى كتاباته التاريخية التي وصلتنا هي غلبة التأريخ للمذهب الإباضي وأعلامه وملوكه وأئمته ومسيرته عبر العصور، ويبدو أن ذلك عائد في قسم منه إلى ما أحسّ به من إهمال متعمّد من المؤرخين والكتاب المسلمين تجاه هذا المذهب وأتباعه، وما انجرّ عن هذا الإهمال من كثرة القيل والقال حوله، واختلاق الأكاذيب، وقلب الحقائق، وتشويه الأحداث، فأراد أن يعيد الحق إلى نصابه، ويعطي لهذا التيار نصيبه من التعريف، ويسلط الضوء على قواعده ومبادئه وسير أعلامه، وليثبت في الأخير أنه جزء لا يتجزأ من التاريخ الإسلامي العظيم، وأن استبعاده وإقصاءه كان نتيجة من نتائج التعصب المذهبي الذي سيطر على العالم الإسلامي بعد أن غاب أدب الخلاف وحلّت العصبية المقيتة محله. ومن جملة هذه الكتابات التاريخية نشير إلى ما يلي :

أ- مختصر تاريخ العائلة البارونية

وهو مخطوط لم يعرف طريقه إلى الطبع بعد ، غير أن هناك جانبا من تاريخ هذه العائلة كان الباروني قد بعث به إلى صديقه أبي اليقظان الذي طلب منه لمحة موجزة عن تاريخ عائلته بعد أن عزم على تسطير سيرته الذاتية

---

[1] الروم ، ٤٢.

وإخراجها في كتاب لتكون أسوة حسنة وقدوة حميدة لأبناء المسلمين . وقد ضمنها كتابه "سليمان الباروني باشا في أطوار حياته" وتحتوي على نبذة عن أصل العائلة البارونية ثم ترجمة لتسعة عشر علما من أعلامها ابتداء من القرن الرابع الهجري حتى القرن العاشر الهجري مع ذكر فضائلهم ومناقبهم في الدين والعلم والسياسة والحرب[1].

ب- مختصر تاريخ الإباضية

وقد بيّن في مقدمته الأسباب التي دعته إلى وضعه ويأتي على رأسها اللبس والغموض الذي يكتنف المذهب الإباضي والذي جعل كثيرا من المسلمين يلحقون أتباعه بالخوارج تارة وبالقدرية تارة أخرى مع أنهم برآء من ذلك ، بل هم من بين : " أعدل الطوائف الإسلامية إذ لا إفراط في معتقدهم ولا تفريط "[2]، وهو يسعى إلى تسليط الضوء على هذا المذهب رغبة منه في توحيد صفوف المسلمين وإزالة بعض أسباب الخلاف الذي يمزقهم بسبب الجهل والتعصب والجمود : " ومنها أني أريد من كل قلبي أن يزول الخلاف من بين المسلمين بتاتا أو يتلطف ويخف، أو يبقى ولكن لا يكون مجهولا على الأقل فيجسمه الجهل ويزيده قبحا وبشاعة "[3]، ويدعو إلى الانفتاح على جميع المذاهب الفقهية والوقوف على آرائها وأدلتها لتستأنس نفوس المسلمين بذلك وتذهب الشحناء والبغضاء من قلوبهم وتتقارب مشاعرهم على الرغم من اختلاف مذاهبهم ما دامت الأصول واحدة : " فلنقرأ كل ما بين الفرق الإسلامية المهمة من الفروق لتألف نفوسنا وتستأنس بالمرونة والتكرار بما هنالك فيهون ما كان مُهَوَّلاً، وربما زال واضمحلّ بفضل المطالعة والإنصاف "[4].

---

(1) راجع : أبو اليقظان الحاج إبراهيم . سليمان الباروني باشا في أطوار حياته. ج١ . ص٩ إلى ص٣١ .
(2) سليمان الباروني . مختصر تاريخ الإباضية . ص٥ .
(3) سليمان الباروني . مختصر تاريخ الإباضية ، ص٧ .
(4) المصدر نفسه ، ص ٩

جـ- تعليقات على كتاب "سلم العامة والمبتدئين إلى معرفة أئمة الدين"

وهو من تأليف والده عبد الله الباروني درس فيه جانبا من سير وتاريخ أئمة المذهب الإباضي، تعرض فيه لنشأة المذهب الإباضي ثم عقد فصلا لأسباب ظهوره وانتشاره في أرض المغرب، وأرخ لمسيرته بشمال إفريقيا وصراع أتباعه مع مختلف التيارات السياسية التي كانت سائدة آنذاك، وخصص فصلا آخر في الكتاب لانتشار الإسلام في إفريقيا الغربية (غانا وما حولها) مبينا فضل علماء جبل نفوسة في هذه الفضيلة، وجهودهم في إيصال الإسلام إلى هذه المناطق النائية من إفريقيا وإقامتهم بها لتعليم الناس أصول الدين وتحفيظهم القرآن ونشر العلم بينهم[1].

أما تعليقات سليمان الباروني في الحاشية فقد تناولت جوانب تاريخية وبعض القضايا المختَلَف فيها، كما تناولت أيضا التعريف بالبلدان المذكورة في المتن وضبط أسمائها ووقائعها " مما يتصل بعلم الجغرافيا أو ما يعرف بالمسالك"[2]، وهو أسلوب جديد اعتمده المستشرقون في دراساتهم وطريقة تناولهم وتحقيقهم للتراث العربي.

د- الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية

وهو من أهم كتبه وأشهرها وأنفسها. تذكر المصادر التاريخية أنه يتكوّن من ثلاثة أجزاء، طبع منه الباروني في حياته الجزء الأول والثاني وبقي الثالث مخطوطا شغلته عن تنقيحه وطبعه ما لقيه في حياته من الأهوال والاضطرابات والتنقلات والأحداث الجسيمة التي يشيب لهولها الولدان. أما المشهور والمتداول

---

(1) علي مصطفى المصراتي. مؤرخون من ليبيا: مؤلفاتهم ومناهجهم عرض ودراسة. الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان. ليبيا. ط٢. ٢٠٠٢م. ص٢٥٤ .

(2) المرجع نفسه ، ص٢٥٧.

اليوم بين الدارسين فهو الجزء الثاني فقط، بينما تعرّض الجزء الأول لحريق أتى عليه كله، وضاع مخطوط الجزء الثالث.

ويتضمّن هذا الجزء التأريخ لإمامة طرابلس الرستمية الإباضية وعرض الأسباب التي أدت إلى انتقالها إلى تيهرت بالجزائر، وتأسيس مدينة تيهرت وبعض المدن المحيطة بها مثل وهران والشلف ومليانة، والحديث عن خلافة الإمام عبد الرحمن بن رستم والإمام عبد الوهاب بن رستم والإمام أفلح بن عبد الوهاب، وما جرى بينهم وبين الواصلية المعتزلة من معارك، ومصاهرة ابن رستم لقبيلة لواتة، ومحاصرة طرابلس، والترجمة للعلماء المنسوبين إلى تيهرت، وولاية السمح على البلاد، وولاية أفلح بن العباس على نفوسة ومعاركه مع بني الأغلب، ووفاة الإمام وانقراض ملك بني رستم فيها، واستيلاء الشيعة (الدولة الفاطمية) عليها ورثاء مدينة تيهرت بعد خرابها، وما قيل فيها من الأشعار أثناء ازدهارها وفوق أطلالها، ، وأسئلة وأجوبة وثائقية تاريخية.

وقد استفرغ الباروني في هذا الكتاب جهده ، وسلك في إعداد مادته منهجا علميا رصينا، وعززه بمخطوطات نادرة ومصادر تاريخية مطبوعة في أوروبا: "ولعل النظر في عناوين الكتب والمصادر التي رجع إليها والتي أثبتها في ثنايا الكتاب وأشار إلى مواضع الرجوع إليها يعطي فكرة عن جديّة البحث وعمق الاهتمام والحس العلمي عند هذا الباحث العالم "[1].

هـ - تاريخ الحرب في طرابلس الغرب

وهو مشروع كتاب كان الباروني ينوي إنجازه والتأريخ فيه للحرب التي دارت بين الليبيين والمستعمر الإيطالي والتي كان هو واحدا من أبطالها المغاوير وصانع أحداثها. وقد عزّ عليه أن يخوض شعبه غمار حرب شرسة يقدّم فيها

---

(1) علي مصطفى المصراتي. مؤرخون من ليبيا: مؤلفاتهم ومناهجهم عرض ودراسة . ص٢٦٢.

أسمى معاني التضحية، ويضرب فيها أمثلة رائعة للبطولة والصمود والمقاومة والتضامن ثمّ لا يجد من يطّلع على روائعها ويؤرّخ لأيامها، وبخاصة مع التعتيم التام الذي ضربته الدول الاستعمارية على هذه الحرب، وتجاهل صحافتها لما يجري على أرض ليبيا من فظائع الاستعمار وبطولات المجاهدين : " وجهاد طرابلس وبرقة الذي علم العالم كله ما حصل فيه من عجائب المفاداة بالأموال والأنفس لا يجهله أحد، أما جهادهم العظيم مدة الحرب العامة وما كان فيه من خوارق العادات التي قاموا بها، ولا زال مجهولا عند العالم كله لمنع دول الحلفاء نشر أخباره في صحفهم ، وكانت نتيجته اضطرار إيطاليا إلى قبول الصلح على القانون الأساسي المشهور، فسنفصّل أخباره ووقائعه المدهشة تفصيلا مؤيدا بالصورة الشمسية ووثائقه الرسمية في { تاريخ الحرب في طرابلس الغرب } الذي نسأل الله أن يوفقنا إلى إتمامه وطبعه ليحقّ الله الحقّ ويبطل الباطل ، ويخلّد لأبطال طرابلس وبرقة فخرا يُضْرَبُ به المثل عند الأجيال المقبلة"[1].

وقد اجتهد الباروني في جمع مادة هذا الكتاب ، وحافظ على الوثائق والأضابير والمراسلات والبرقيات وقصاصات الصحف والبلاغات الحربية وصور المجاهدين واستأجر مترجمين لنقل المقالات المنشورة في الصحف الأجنبية حول الحرب إلى اللغة العربية وكل ما يتعلق بهذه الحرب بما ملأ أربع صناديق، وحمل هذه الأمانة معه حيثما حل وارتحل في انتظار أن يسعفه الزمن بالجهد والوقت ليجسّد مشروعه التاريخي : " وأتمنى أن يمنّ الله عليّ باستراحة البدن والقلب فأكتب تاريخ حرب طرابلس من سنة ١٩١١م إلى ١٩١٩م مدللاً بالحجج الرسمية حتى ينكشف الغطاء عن كل ما كتمه أصحاب المقاصد أو زادوه مما لا أصل له "[2]، لكنه قضى نحبه قبل أن يخرج هذا المشروع إلى الوجود ، فتولّت ابنته نشر هذه الوثائق لكنّها كانت تفتقر بشدّة إلى صاحبها الذي كان سيبث فيها

---

(١) المرجع نفسه، ص٢٦٦ ـ ٢٦٧.

(٢) أبو اليقظان الحاج إبراهيم . سليمان الباروني باشا في أطوار حياته. ج٢ . ص١١٤.

الروح وينفخ فيها من عزمه وحماسه ومشاهداته الميدانية ومشاعره الفياضة إذ ليس من رأى كمن سمع.

٥ - إحياء التراث الإسلامي

كان تأسيس مطبعة الأزهار البارونية بالقاهرة عام ١٩٠٦م مبادرة جريئة من البارونى الذي كان يتقد حماسة وحيوية ، ويبحث في أجواء مصر المتفتحة عن كل فرصة تتيح له إفراغ شحناته الفكرية، وتجسيد مشاريعه الإصلاحية والإسهام في حركة النهضة التي كانت في أوج ازدهارها، وعنفوان قوتها. وقد تكبّد لإخراج هذه المطبعة إلى الوجود متاعب جمة، وجمع لها التبرعات من الأهل والأصدقاء وسهر ليالي طويلة يشرف على أعمالها لتكون في مستوى آماله وطموحاته.

وقد أتاح له وجودها نشر إنتاجه الشعري والنثري ، حيث طبع فيها ديوانه الشعري، والجزء الثاني من كتابه " الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية "، ثم وجّه اهتمامه إلى كتب التراث. وكانت موجة إحياء التراث على أشدها في أيامه، وعمليات تحقيق كنوز القدماء تجري على قدم وساق بغية وصل الحبال الفكرية التي كادت تتقطع بين ماضي الأمة وحاضرها طيلة عصور الانحطاط والجمود. فرأى بنظره البعيد أن يخص التراث الإباضي بمزيد اهتمام في مطبعته، إذ كان هذا التراث مجهولا ومنسيا ومغمورا في الزوايا المظلمة بسبب الحصار السياسي والمذهبي الذي ضُربَ على أتباعه منذ القرون الأولى للهجرة، وبسبب الاتهامات المغرضة والشبهات التي أثيرت حولهم على مر العصور.

لقد كان البارونى بإحساسه الوحدوي المرهف الذي يبحث عن كل ما يمكن أن يجمع المسلمين ويسلكهم في صعيد واحد من الفكر والتوجّه في ظل التسامح وأدب الخلاف العالي يهدف إلى إخراج التراث الإباضي إلى النور وعرضه على

العقول وتخليصه من أوهام الماضي وضمه إلى التراث الإسلامي العام باعتباره ثروة فكرية وفقهية قيمة أنتجتها قرائح إسلامية على مدى قرون طويلة ومن العبث أن تُتْرك نهبا للنسيان بعد أن ذهب قسم كبير منها ضحية التعصب المذهبي والأطماع السياسية.

وعليه فقد نال الباروني شرف أن يكون أسبق علماء الإباضية في العصر الحديث إلى نشر هذا التراث وإخراجه للناس[1]. ومن بين الكتب التي حظيت بالطبع في المطبعة البارونية " وفاء الضمانة لأداء الأمانة " للشيخ محمد اطفيّش، و" حاشية الشيخ السالمي على مسند الإمام الربيع بن حبيب " في الحديث، وديوان " السيف النقاد " للشيخ الحضرمي، وديوان " القلائد الدرية " للشيخ التدميرتي. ونظم لمختصر خليل للشيخ خليفة بن حسن القماري على المذهب المالكي، وكتاب " متفرقات : عقيدة التوحيد وشرح التلاتي على أصول الديانات لعامر الشماخي الناسك، الدعاء، خطبة عيد الفطر، خطبة عيد الأضحى، الجنائز " لعمر بن جمبع داوود بن إبراهيم التلاتي الوزاني، وكتاب الأمالي والذيل والنوادر للبغدادي، وديوان أبي نصر فتح بن نوح المالوشائي النفوسي ويحتوي على النونية في التوحيد والرائية في الصلاة، ولامية يرثي بها خاله أبا يحيى زكريا بن إبراهيم الباروني، ومنظومة بائية للشيخ عبد الله بن عمر بن زياد العُماني في الأحكام والدعاوى والبيّنات والأيمان وقصائد أخرى، وغيرها.

رابعاً: نضاله السياسي

لقد استغرق النضال السياسي من الباروني عمره كله، واستنفذ منه جهودا جبارة في السلم والحرب، وكلفته مواقفه المبدئية ثمنا باهظا دفعه من صحته وسنين حياته في وقت كان الاستعمار الغاشم هو الذي يصنع السياسة ويدير

---

(1) http://www.istiqama.net/articles/alturath-alibady.htm

دواليبها على هواه ويفرض منطقها على الآخرين بما يتماشى ومصالحه الحيوية في البلدان الإسلامية التي كانت بالنسبة إليه بقرة حلوبا تدرّ عليه الخيرات الوفيرة والدجاجة التي تبيض ذهبا يملأ خزائنه ويمكّن له في الأرض. وقد برزت نشاطاته السياسية على عدة محاور منها :

١- التعاون مع الخلافة العثمانية

اقتحم الباروني ميدان العمل السياسي في وقت مبكر كان فيه في أوج قوته وعنفوان شبابه يحدوه الأمل الكبير في غد مشرق لوطنه وأمته تحت راية الخلافة الإسلامية التي كان يرى فيها الحبل المتين الذي يعصم المسلمين من التردي في هاوية التمزق الذي يعمل الاستعمار الأوروبي على تجسيده في أرض الواقع على قدم وساق. فقد تم ترشيحه لانتخابات مجلس المبعوثان العثماني ، ففاز بأغلبية ساحقة وأصبح نائبا عن الجبل الغربي لدى الدولة العليّة عام ١٩٠٨م، فسافر إلى الأستانة، وتعلم اللغة التركية في شهرين، وتعرّف إلى رجال السياسة والفكر من العرب والترك، وشارك بقوة في أعمال المجلس، وبذل جهده في تحسين أوضاع بلاده من خلال منصبه، ولفت أنظار مركز الخلافة إلى ما يحتاجه سكان ليبيا من ضروريات تقوّي رابطتهم بدار الخلافة وتدعم علاقاتهم بها وبخاصة مع ظهور بوادر الأطماع الإيطالية فيها.

وكان شديد التمسك بنظام الخلافة العثمانية، تحدوه رغبة جارفة في إصلاحه وتدعيم أركانه وتمتين علاقات المسلمين به لأنه كان يرى بأم عينيه كيف يتجاسر الاستعمار الأوروبي على أمته المغلوبة فينتزع في كل مرة قطعة من جسمها المنهوك، ولا حل لهذا الوضع إلا بالاتحاد تحت مظلة واحدة ترد العدوان وتعيد الأرض المغتصبة، وهذا ناجم عن نظره البعيد للأمور، وحبّه الكبير لأمته والذي جعله يتعالى على كل النوازع القومية والوطنية الضيقة ولا

يراعي في ولائه سوى مصلحة المسلمين العليا التي تقتضي الاتحاد. يقول أبو اليقظان : " إن للباروني باشا في شأن الدولة العثمانية عقيدة راسخة ونظرا واسعا يتجاوز دائرة الوطنية العربية الضيقة إلى أقصى آفاق الوطنية الإسلامية الفسيحة. وقد عبّر عن رأيه فيها في سائر أطوار الشدة والرخاء منه منذ ابتلائه بمحنة السجن إلى أوان حروبه المتتابعة، رغم تخليها عنه مرارا أوان الشدة في حروبه "[1].

٢ - مقاومة الاستعمار الغربي

تفطن الباروني إلى نوايا الاستعمار الإيطالي في احتلال ليبيا قبل أن يصبح المشروع واقعا مفروضا، وقدم - وهو في الأستانة يؤدي واجبه في مجلس المبعوثان - تقريرا سريا إلى القيادة العثمانية ينبه فيه إلى الخطر القادم، ويحث المسؤولين على تعزيز الدفاعات في البلاد، وتنظيم الجيش بها حتى يكون بمستوى التحدي.

غير أن نداءاته لم تجد آذانا صاغية وسط الفوضى العارمة التي كانت تعصف بالدولة العثمانية، والاضطرابات الداخلية التي تتنازعها، والضغوط الخارجية التي توالت عليها لترغمها على الركوع والتسليم وفك عقد الخلافة الإسلامية، الأمر الذي حفّز الجيش الإيطالي على مهاجمة ليبيا وإنزال جنوده بطرابلس يوم ٢٦ سبتمبر ١٩١١م، فانبرى الباروني إلى تلبية نداء الجهاد وانتظم في سلك الجندية العثمانية والمتطوعين من مختلف القبائل وخاض معارك عنيفة ضد الغازي المعتدي الذي اضطر إلى وقف زحفه نحو الداخل واكتفى بالتحصّن ببضعة مدن بالساحل خوفا من المواجهة الشرسة التي يلقاها من المجاهدين، ولم يجد وسيلة ينتقم بها لهزائمه سوى تقتيل الأهالي العزّل.

---

(1) أبو اليقظان الحاج إبراهيم . سليمان الباروني باشا في أطوار حياته. ج١ . ص ٢٠٧.

وبالموازاة مع ذلك، نشط الباروني في مكاتبة الصحف العربية والأجنبية ليشرح لهم الوضع في ليبيا ويبيّن لهم حقيقة ما يجري فيها، وليفضح الجرائم الاستعمارية ويدحض ادّعاءاتها، كما راسل الدوائر الرسمية المسؤولة في الخارج. وعندما أُرْغمَت الدولة العثمانية-مع اشتداد النزاع بين الاتحاديين والائتلافيين، واندلاع لهيب الثورات الانفصالية في البلقان- على توقيع معاهدة أوشي بتاريخ ١٨ أكتوبر ١٩١٢م مع إيطاليا وسحبت بموجبها جنودها وضباطها من ليبيا، رفض الباروني المعاهدة المفروضة ورفع احتجاجا شديد اللهجة إلى العاصمة العثمانية ومما جاء فيه : " إننا لا نرضى بصلح يخلّ بعثمانيتنا، ويجعل للعدو مدخلاً ولو أبرمته الدول ورضيه الخليفة. ونحن إلى الآن نحارب باسم العثمانيين والطرابلسيين، فإذا أبرم الصلح على ما لا يرضينا أمكننا الاستمرار في الحرب باسم الطرابلسيين فقط إلى آخر قطرة من دمائنا، وليس بيننا متقاعس عن الحرب، أو ميال إلى العدو أو مسالم له، وقد أوجبنا الحرب على كل قادر دون استثناء. وما دامت الدول العظمى ملتزمة بالحياد فإننا نحارب باسم دولتنا وموطننا، وإن ظهر منها الوقوف في طريق انتصاراتنا وقوفا غير مشروع فإننا نعد ذلك منها تعصباً، ولذا فإننا سنحارب باسم الدين فقط "[1].

وبادر إلى تنظيم المقاومة الوطنية، ليواصل جهاده على الرغم من قلة الإمكانات وشحّ الموارد وانقسام الصف على إثر تخلّي بعض الزعامات الوطنية عن فكرة الجهاد طمعا في الحصول على الاستقلال من إيطاليا عن طريق المفاوضات بعد أن صرّح السلطان العثماني في معاهدة أوشي بتنازله عن حقوقه في طرابلس وبرقة لأهلهما ومنحهم الاستقلال الداخلي المطلق والتام. وظل مرابطا على الجبهة صابرا محتسبا مع إخوانه إلى أن حصلت معركة جندوبة بتاريخ ١٢ مارس١٩١٣م والتي حشد لها الاستعمار الإيطالي من العدّة والعتاد

---

(1) فاضل المباعي وآخرون . سليمان الباروني المعلم المقاتل. دار العودة . بيروت . ص٢٨.

ما استطاع به أن يضعف مقاومة المجاهدين ويشتّت شملهم، فتفرقت بهم السبل، ولجأ الباروني إلى تونس حيث أسفرت المفاوضات بينه وبين الطليان على ضرورة إبعاده عن وطنه فاتجه إلى لندن التي غادرها بعد فترة وجيزة إلى الأستانة، وهناك لقي التكريم والحفاوة اللائقين بشجاعته وصموده وبطولته وفي هذه الأثناء نال لقب الباشوية، ومكث في عاصمة الخلافة يتلمس الوسائل لخدمة قضية بلاده ورفع نير الاستعمار عن أعناق أبنائها.

وبعد أن استجدت ظروف سياسية عالمية أصدرت الدولة العثمانية فرمانا بإلحاق طرابلس الغرب من جديد بالدولة العثمانية، وعاد الباروني عام ١٩١٦م إلى ليبيا على متن غواصة ألمانية مدعوماً من الدولة العثمانية التي عينته والياً على طرابلس وقائدا عاما للجيش الليبي ليستأنف الجهاد ضد إيطاليا، فقام بتنظيمات داخلية كثيرة حيث عيّن الرؤساء والقادة والقضاة والموظفين ونشر الأمن بين الناس، وعقد مجلس صلح بين ترهونة وورفلة، وبين ورفلة ومصراتة، وخفف حدة النزاع بين السويحلي والسنوسيين، كل ذلك لتدعيم الجبهة الداخلية وتوحيد الصفوف وتوجيه الطاقات كلها نحو المقاومة، واشتعلت من جديد نار الجهاد وفقد المستعمر استقراره لمدة عامين كاملين.

وبعد انهزام تركيا في الحرب العالمية الأولى في نوفمبر ١٩١٨م أعلن الباروني ورفاقه عن تأسيس الجمهورية الطرابلسية استنادا إلى مبادئ ولسون التي تنص على حق الشعوب في تقرير مصيرها، ودخلوا في مفاوضات مع الإيطاليين للحصول على الاستقلال، غير أن ساسة الاستعمار سعوا بين الزعماء الوطنيين بالوقيعة ونجحوا في تفتيت الجبهة الوطنية وإشعال نار الخلاف بين الأشقاء الذين دخلوا في صراع دام خلّف مئات الضحايا وتبخّر معه حلم الاستقلال، وأسفر عن نفي الباروني مرة أخرى من بلاده، فتوجّه إلى إيطاليا طمعا في عدالة الوطنيين المنصفين من أصدقائه، لكنه ما لبث أن غادرها بعد أن علم بما كان

يُبَيّت له أعداؤه من مكائد، ويمّم شطر فرنسا التي فرضت عليه الإقامة الجبرية لمدة عام ونصف العام ذاق خلالها ويلات الغربة والوحدة وفراق الأهل وقلة ذات اليد بعد أن قطعت عنه تركيا مستحقاته المالية إثر الانقلاب الكمالي بدعوى أنه من بقايا نظام الخلافة البائد. ولم يقدّر له الله الفكاك من الأسر الفرنسي إلا بعد أن منحه الشريف حسين ملك الحجاز إذنا بدخول مملكته لأداء فريضة الحج، فبدأ الباروني مرحلة جديدة من حياته، واضطر الفارس المغوار أن يترجّل بعد أن ملأ سمع الدنيا وبصرها، وأدهش أعداءه ببطولاته، وهزّ نفوسهم بإبائه وشموخه، وأبهرهم بعفته ومروءته وترفّعه عن المطامع الدنيوية الفانية ورفضه خيانة بلاده مقابل الأموال الطائلة والأوسمة الرفيعة والعيش الهنيء، وكتب إلى أحد أصدقائه وهو في ديار الغربة يقول معلقا على صورة له : " ولو مدّ صاحب الرسم يده أو ألان جانبه لكان أغنى من قارون، ومع ذلك كلّه لم يتأثّر حزنا ولم يسهر أسى وأسفًا ، بل هو لم ييأس ولم يزل يقول :

يَـوَدُّونَ مـوتـــي ولكنّنـــــي عــلى رغـــم أنفسهم لا أموت[1]

وعلى الرغم من الإبعاد القسري الذي فرّق بينه وبين موطنه إلا أنه ظل يتسقّط أخبار بلاده، ويتتبّع تحركات إخوانه من الوطنيين الشرفاء، ويلتقط الأخبار العالمية ويبحث عن تأثيرها في قضيّة بلاده، ويعتصره الألم وتغشاه الهموم وهو يسمع أنباء القمع والتنكيل الذي يتعرض له زعماء الوطنية الليبيين على يد الاستعمار الإيطالي. وعندما اندلعت الحرب العالمية الثانية كان يتطلّع بشغف إلى كل جديد علّ بلاده تجد متنفسًا للتخلّص من آفة الاحتلال. تقول ابنته السيدة زعيمة الباروني: " إن أبي ظل معتبرا نفسه إلى اللحظة الأخيرة مركزا للمقاومة الوطنية سلبية كانت أم إيجابية. وعلى الرغم من أن مرضه زاد عليه حتى بات لا يستطيع القيام بأعباء عمله الجليل، إلا أنه كان يستطلع أخبار الوطن دائماً، إذ

---

(1) سلسلة نوابغ العرب . سليمان الباروني . رقم ١٣ . دار العودة . بيروت . ١٩٨٥ م. ص٦١.

كان يتتبّع أخبار الراديو إلى الهزيع الأخير من الليل وهو كبير الأمل بإمكان خروج إيطاليا من أرض الوطن واندحارها اندحاراً كلّياً "[1].

وظلت شعلة المقاومة متقدة في نفسه فلم تهدأ سورتها أبدا حتى عندما نزل ضيفاً على سلطان عُمان وإمامهِ، فقد كانت هموم أمته تقض مضجعه وتشغل باله، لذلك سارع بقبول المهمة الدبلوماسية التي أوكلها له كلٌّ من سلطان عُمان وإمامها للسعي بالصلح بين الملك عبد العزيز بن سعود والشريف حسين بن علي اللذين فجرا حربا ضروسا بينهما، غير أن مساعيه لم يكتب لها النجاح لأنها اصطدمت بالإرادة الاستعمارية البريطانية التي كانت تخطط للسيطرة على جزيرة العرب بأسلوبها الملتوي، وكان الباروني يدرك ذلك جيداً، فقد كتب لصديقه أبي اليقظان يبثه حسراته على حال الأمة فقال: " أحرر هذا والفؤاد يتمزق أسفا وتحسرا على الأمة العربية المسكينة لما أعتقده من أن الإنجليز لا يقدمون على حرب بهذه البلاد بأنفسهم ولا يخسرون عليها أحداً من أولادهم قط، بل سيمهدون السبيل لتصادم القوتين العربيتين الإسلاميتين حتى إذا ضعفتا ونفد ما عندهما من مال ورجال وذخيرة احتلتها بكل سهولة وصاحت بملء فيها هذه غنيمتي من الحرب الإسلامية العربية الحمقاء...هذا ورجال العالم الإسلامي يرون إلى اليوم أنهم هم الذين أسقطوا الملك حسينا عن عرش خلافته، وأنهم هم الذين محوا بدهائهم ملكه. أوَلاَ يدرون أن الفاعل لذلك كله هي الدولة البريطانية ولكن بأيدي ودماء المسلمين العرب وهم لا يشعرون !!! "[2].

٣ - الدعوة إلى الوحدة الإسلامية

لقد أدرك الباروني من خلال ثقافته الواسعة، ورحلاته الكثيرة، ومعارفه من رجال الدين والعلم والسياسة، ونظرته الثاقبة للأمور، واستيعابه العميق للواقع

---

(١) أبو القاسم الباروني . حياة سليمان باشا الباروني . طبعة ١٩٤٨م . ص ٢٦.
(٢) أبو اليقظان الحاج إبراهيم . سليمان الباروني باشا في أطوار حياته . ج٢ . ص٨ .

العالمي والمحلّي أن الوحدة الإسلامية ضرورة ملحّة من الضرورات التي يتعيّن على المسلمين السعي الجاد لتجسيدها في أرض الواقع لكونها المخرج الوحيد الذي يدفع عنهم غوائل الغزو الاستعماري، والانقسام والتشرذم، والتبعية والإذلال، ويخلّصهم من أغلال عصور الانحطاط ورواسبه. وكانت فكرة الجامعة الإسلامية آنذاك رائجة في أوساط المسلمين بعد أن أوقد جذوتها جمال الدين الأفغاني وتبناها جمع كبير من أعلام الفكر والأدب والسياسة، وشملها السلطان عبد الحميد برعايته بعد أن فتحت الدول الأوروبية وروسيا عليه جبهات الانفصال من كل جانب[1].

وكان الباروني من أكبر مؤيدي هذه الحركة ومن أشد المتحمسين لها، وكان رأيه في الاستعمار الغربي مطابق تماما لرأي جمال الدين الأفغاني فيه والذي كان يردد في قوة أن " جميع الدول النصرانية متحدة معا على دكّ الممالك الإسلامية ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، وأن الروح الصليبية لم تبرح كامنة في صدور النصارى كمون النار في الرماد، وروح التعصب لم تنفك حية معتلجة في قلوبهم حتى اليوم كما كانت في قلب بطرس الناسك من قبل "[2]، لذلك أبدى ارتباطه القويّ بالخلافة العثمانية لأنه كان يؤمن إيمانا صادقا أنها هيئة نظامية مثالية لاحتواء هذه الجامعة واحتضانها وحمايتها حتى يشتدّ عودها وتتمكّن من الوقوف في وجه الأهوال التي تعصف بالأمة من كل جانب : " إن السلطة العثمانية المستقلة كانت عامل طمأنينة وسلام في العالم الإسلامي. وبمحاولة السياسة الإنجليزية أن تستأصل شأفة هذا العامل صارت سببا لأن تصبح

---

(1) راجع : محمد محمد حسين . الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر . مؤسسة الرسالة . بيروت . ط٦ . ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م. ص ١٨ - ١٩ .

(1) علي عبد الحليم محمود . جمال الدين الأفغاني . دار عكاظ للطباعة والنشر . الرياض . ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م . ص٣٥٧.

الوطنية العثمانية ممثلة قوة إرادة العالم الإسلامي المنتشرة في جميع البقاع الحافلة بالشعوب الإسلامية "[1].

وكان لا يدع فرصة تمر دون أن يثير قضية الوحدة الإسلامية وضرورة العمل الجاد لتحقيقها، نجد مصداق ذلك فيما بثه في كتابه مختصر تاريخ الإباضية عما لحق المسلمين من تفرّق شنيع جراء التعصّب المذهبي، متمنيا من أعماق قلبه أن تزول هذه الغشاوة عن قلوبهم ويفتحوا عقولهم لاستيعاب الاختلافات بين المذاهب تمهيداً لتجاوزها والالتحام صفاً واحداً لمواجهة الهجمة الاستعمارية الشرسة وإنقاذ الأمة من براثن التخلّف والتبعية والاستعباد.

والأمر نفسه يتكرر في كتابه الأزهار الرياضية حين يعرض للمبادرة التي قام بها الإمام عبد الرحمن من مصاهرة إحدى القبائل الكبيرة التي كانت تهدد ملكه فأمن بذلك جانبها وكسب دعمها، ويرى أن هذه الخطوة تعبّر عن تصرّف حكيم يوحّد المتخالفين ويعزّز صفوفهم وتمنى لو أن السلطان عبد الحميد العثماني قد نهج هذا الأسلوب نفسه مع من يخالفونه بأن طلب بناتهم له ولأهله ووزرائه وزوّج بناته للأعيان ممن يعملون على الانفصال عن الخلافة إذًا لاشتدّ عودها وتمكّنت من الصمود في وجه التحديات : " فلو فتح أمراء الإسلام باب المصاهرة بينهم وسعوا في توحيد المذاهب لأصبحوا وكلمتهم واحدة. والحق في ذلك على أعظمهم سلطانا وأشدّهم شوكة في هذا العصر أمير المؤمنين السلطان عبد الحميد خان، فإنه لو صاهر الأمراء المنفصلين عن دائرة نفوذه وحكمه ببنات وزرائه فضلا عن كريماته، لبادروا إلى معاضدته وعضوا بنواجذهم على حبل الاتصال بعرشه "[2].

---

(1) أبو اليقظان الحاج إبراهيم . سليمان الباروني باشا في أطوار حياته. ج١ . ص ٢٠٨.
(2) سليمان باشا الباروني . الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية . ج٢ . ص ١٤٧

وقد بقي محافظا على انتمائه إلى الخلافة العثمانية التي كان يرى فيها الأمل الأخير للمسلمين في البقاء في إطار من الوحدة العامة حتى بعد أن انهزمت تركيا في الحرب العالمية الأولى وفقدت كل مقومات وجودها. فحين دعت سلطات الاحتلال الإيطالي الزعماء الوطنيين إلى إيجاد حل سلمي للأزمة والتخلّي عن الجهاد عام ١٩١٩م، تم على إثر ذلك إبرام صلح بين الطرفين وتكوين مجلس حكومة للقطر الطرابلسي يتكوّن من ثمانية أعضاء من بينهم الباروني. غير أنه اعتذر عن ذلك، ولم يرضَ أن يضع يده في يد المحتلّين وقال لهم بكل وضوح بأنه عثمانيّ ويريد الاحتفاظ بعثمانيته، وبوظيفته في مجلس الشيوخ العثماني "[١].

وحتى بعد قيام كمال أتاتورك بإلغائها، ظل الأمل يراوده في عودتها مرة أخرى لتكون الحبل المتين الذي يتمسك به المسلمون في عالم يموج بالصراع ويستهدف وجودهم استهدافا مباشرا لا مواربة فيه. فعندما أذن له الشريف حسين بن علي بدخول الحجاز لأداء فريضة الحج وهو في غربته الأليمة بفرنسا عام ١٩٢٤م، آثر أن يبلغ حاكم الحجاز بأنه لا يزال على وفائه لانتمائه العثماني فبعث إليه بمقال كان قد نشره في جريدة الصواب التونسية ينتقده فيها انتقادا شديدا بسبب ثورته على الخلافة العثمانية وإبرامه للمعاهدة الحسينية مع الإنجليز[٢]، وذلك حتى يكون على بيّنة من أمره فلا يخضع هناك لأية مساومة، وقد أكبر فيه الشريف حسين هذا السلوك وأذن له بدخول بلاده واستقبله استقبال الأبطال وأكرم وفادته وسهّل له أداء فريضة الحج، وقلده نيشان (الاستقلال الهاشمي)، غير أن ذلك كلّه لم يُغَيّر من قناعات الباروني شيئا وظل متمسّكا بمبدئه فلم يبايع الشريف بيعة الخلافة كما فعل غيره من الزعماء والوجهاء[٣]

---

(١) فاضل العباعي وآخرون . سليمان الباروني المعلم المقاتل . ص ٥٤.
(٢) من أعلام الفكر الإباضي المعاصر. ص١١.
(٣) أبو اليقظان الحاج إبراهيم . سليمان الباروني باشا في أطوار حياته . ج١ . ص٢٠٦.

الذين لجأووا إلى الحجاز لأنه كان يعلم علم اليقين أن هذه الحركات الانفصالية التي يغذيها الاستعمار الأوروبي إنما تهدف إلى تفتيت الكيان الإسلامي وتوزيعه غنائم باردة على القوى العالمية.

وقد عبّر صديقه الحميم إبراهيم أبو اليقظان عن مشاعره الفياضة تجاه الجامعة الإسلامية بقوله : " له نظر واسع لسعادة الإنسانية عموماً، وإلى عزة الإسلام خصوصاً، وإلى إعلاء كلمة الله بوجه أخص، وله اعتزاز كبير بالقومية الإسلامية، ورأي عمومي لمصالح المسلمين، وشغف عظيم بالاتحاد الإسلامي إلى حدّ الفناء فيه دون اعتبار لأي جنس، وكانت سياسته دائما في الجمع لا في التفريق، وفي التكتيل لا في التبديد "[1].

٤ - الإسهام في تنظيم الدول الإسلامية وإصلاحها

ومن جملة نشاطاته السياسية التي برزت بوضوح في مناسبات عديدة موهبته الفذة في تنظيم الدول وتسييرها. وأكثر ما ظهر ذلك في عُمان .فقد أتاحت له إقامته بعُمان وتعظيم السلطان والإمام له ورغبتهما الملحة في الاستفادة من علمه وخبرته الواسعة في إصلاح أحوال السلطنة أن يظهر قدرته الفائقة على إدارة الدولة وتنظيمها، فوضع برنامجا حكوميا رائعا للنهضة بالبلاد في جميع القطاعات الحيوية، فنظم الجيش والمالية والتعليم والصحة[2] وكان يرى أن صلاح هذه المرافق هي القاعدة المتينة لبناء دولة عصرية قوية ، غير أن الرواسب الثقافية القديمة التي كانت طاغية على عقليات الأعيان ورؤساء القبائل وأصحاب رؤوس الأموال كثيرا ما وقفت عقبة كؤودا أمام كثير من المشاريع والبرامج المسطرة وأخرت تنفيذها، بالإضافة إلى الوعكات الصحية التي كانت تصيب الباروني فتجمّد نشاطاته وتؤجل إنجاز إصلاحاته، غير أن هذا لا ينفي

---

(١) أبو اليقظان الحاج إبراهيم. سليمان الباروني باشا في أطوار حياته . ج١ ، ص٦٣.
(٢) المصدر نفسه ، ج٢ . ص٤٤.

أن نظرته إلى تنظيم الدولة كانت نظرة صائبة في كثير من جوانبها، وتدل على شخصية قيادية فذة تستطيع تقييم الأمور وتسييرها في وجهها الصحيح.

الخاتمة

لا نبالغ إذا قلنا أن حياة الباروني العلمية والسياسية كانت لوحة صادقة تنبض بالحياة وتصوّر بعمق الواقع الإسلامي خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين. فقد عاش هذا الرجل العظيم أحداث أمتّه بكل ملابساتها، وسجّل حضوره القويّ في أكثر المجالات حساسية وأهمية : مجالات الدين والعلم والسياسة. ولا يستطيع أحد أن يكتب سيرته دون أن يعرض للتاريخ أثناء ذلك، فقد كان هو أحد صُنّاع هذا التاريخ، ومثلما كانت هذه الحقبة التاريخية مليئة بالمآسي والانكسارات، ومفعمة بالجراح والآلام كذلك كانت حياة الباروني، سلسلة طويلة من الأحداث الجليلة والمواقف المشهودة لصدّ الغارات الهوجاء التي شنّها الأعداء على الأمة، والذبّ عن أعراضها، وحماية بيضتها من أن تستباح سواء في ميدان المعارك الحامية أم في ميدان الفكر والأدب والثقافة فلحقه من جراء ذلك ما لحقه من صنوف الأذى وألوان العذاب.

وبعد أن تعرفنا على أهم محطات حياته، ووقفنا عند مختلف إنجازاته العلمية، وتتبعنا مسيرته النضالية ونشاطاته السياسية توصلنا إلى جملة من النتائج لعل أهمها :

- أن شخصية الباروني شخصية فذة متعددة الجوانب. فقد كان إنسانا متميزا بما حباه الله به من المواهب الكثيرة والملكات المختلفة والصفات العقلية والنفسية التي طورتها نشأته الأسرية وغذتها رحلاته العلمية وصقلتها تجاربه العديدة وأسفاره عبر دول العالم.

- أن من أبرز الصفات التي ميزت شخصية الباروني طوال حياته النضالية وطبعت مواقفه في كل الظروف والمناسبات هي شموخه وأنفته وتعاليه على المساومات والإغراءات ورفضه القاطع لكل أشكال المداهنة والتزلف حتى وهو في أوج محنته، إذ كان رأسماله كرامته ومبدؤه اللذان كان يستسهل التضحية بحياته في سبيل الحفاظ عليهما. وقد سجل له التاريخ مواقف في غاية الروعة والجلال منها رفضه لكل مساومات الاستعمار الإيطالي لوقف الحرب والدخول في مفاوضات على الرغم مما بذله له الضباط الطليان من الوعود بالمنصب الرفيع والأوسمة والأموال، وهذا الرفض هو الذي أثار حنقهم فجندوا للقضاء عليه وعلى إخوانه المجاهدين قوة عسكرية ضخمة مسلحة بالمدافع الثقيلة وأحدث الأسلحة، ومنها أيضا رفصه لمبلغ مالي ضخم تبرع به أحد الضباط المصريين بعد هزيمته أمام إيطاليا في معركة جندوبة ولجوئه إلى تونس فأعاده إلى صاحبه وقال له أنه كان في حاجة إلى هذا المال لدعم حركة الجهاد أما الآن فلا حاجة له به مع أنه فقد كل ما يملك في هذه الحرب، ومنها موقفه من الشريف حسين ورفضه مبايعته بالخلافة كما أسلفنا مع أنه كان في حاجة ماسة للتحرر من الأسر الفرنسي وغيرها من المواقف العظيمة التي تجعلنا ننحني أمام هذا الرجل الكبير.

- أن الباروني قد أبان منذ صدر شبابه عن قدرته الفائقة على قيادة الناس، وتنظيم الجموع، وإقناع المتحاورين، وتوجيه الجهود، واستقطاب الطاقات واستغلالها أمثل استغلال، حيث تجمعت فيه كل المقومات والعناصر التي تجعل منه زعيما محبوبا تمنحه الجماهير ثقتها العمياء ولا تستنكف أن تسير وراءه عن رضى وطواعية.

- أن من أبرز مظاهر شخصيته الثرية ذات الأبعاد الكثيرة جمعه في تناسق عجيب بين النشاط العلمي الكثيف والمستمر والذي لم ينقطع حتى وفاته

وبين النضال السياسي الذي استغرق هو الآخر كل حياته. وقد لفت هذا الجانب انتباه كثير من معارفه وأصدقائه ومحبيه وكل من أرخ له وكتب سيرته، فسماه بعضهم رب السيف والقلم، ونحله بعضهم صفة المعلم المقاتل وما إليها من الألقاب التي تشير إلى هذه الناحية الفريدة فيه.

- أن حياة الباروني كانت عبارة عن سلسلة متواصلة من التنقلات والأسفار والرحلات والاتصالات والمشاريع الكثيرة التي لم يستطع عمره أن يستوعبها كلها. إذ أن نفسه الكبيرة المليئة بالآمال والطموحات لم تكن ترضى بالراحة والهدوء، بل كانت تدفعه دوما إلى السعي في تحقيق هدف معين فإذا انتهى منه أو حالت بينه وبين تحقيقه حوائل لا نرى لليأس أثرا في سلوكه، فيسارع إلى هدف آخر وميدان جديد وأسلوب مختلف يفرغ فيه تلك الطاقة الفياضة التي ظلت تتفجّر بالعطاء إلى أن فاضت روحه إلى بارئها.

- أن الباروني كان يتمتع بقسط وافر من الوعي الحضاري الذي أورثه فكرا متفتحا تجاوز به ما كان سائدا في مجتمعه وفي مختلف المجتمعات الإسلامية آنذاك من جمود وتعصب. لذلك نظر إلى الحضارة الغربية الحديثة نظرة منصفة، ووزنها بعقله الراجح فرأى أن الوسائل التي وفرتها للبشرية من خلال الاختراعات العلمية وسائل حيادية وأن آثارها السلبية أو الإيجابية تتوقف على طريقة استعمالها، فلم يتوانَ عن الاستفادة من منجزاتها الصناعية ومناهجها القائمة على الدراسة والتجربة في سبيل إحداث نهضة إسلامية تجنّب المسلمين مغبة الاندثار بفعل طغيان أمواج التغريب العاتية. فاستثمر الصحافة ومناهج التعليم الحديثة وأنظمة الجيش والإدارة والمطبعة وغيرها من وسائل العصر التي أفادته في تبليغ رسالته والقيام بواجبه نحو أمته.

- أن هموم الأمة الإسلامية وقضاياها المصيرية كانت منذ بداية حياته شغله الشاغل وهمه الكبير. فقد وهب حياته كلها لخدمتها والدفاع عنها، وكشف مؤامرات الأعداء، والمناداة بالإصلاح، ونشر الوعي الاجتماعي والسياسي بين المسلمين. وكان يعتبر نفسه جنديا مرابطا على ثغورها لا يرتاح ولا يهدأ له بال وهو يرى الأخطار تحيط بها من كل جانب، فقد دافع عن الخلافة الإسلامية حتى آخر لحظة، ودافع عن وطنه ليبيا دفاع الأبطال بسلاحه، ثم دفاع الكاتب الحر المستميت الذي لا ييأس ولا يستسلم على صفحات الجرائد، ودافع عن فلسطين عندما بدأت إرهاصات المؤامرة الدولية تتضح فوق أرضها، ودافع عن جزيرة العرب عندما أشعلت بريطانيا الحرب بين الشريف حسين وعبد العزيز بن سعود، ودافع عن الإمارات العربية عندما حاصرتها السفن البريطانية لإرغام شيوخها على توقيع معاهدة الحماية، ودافع ببسالة عن عُمان ونظم جيشها وساهم في تدريبه عندما وصلت أخبار تفيد بإمكان احتلالها من طرف الاستعمار الإنجليزي وتاريخه في هذا المجال عامر بالمواقف الكبرى المشهودة.

- أن مشروع الوحدة الإسلامية كان هاجسا من هواجس الباروني الذي سكن أعماق وعيه فلم يفارقه لحظة. وكانت جميع أعماله الفكرية والسياسية تصب في هذا المجرى. إذ كان يرى في هذه الوحدة ضرورة حيوية تحمي بها الأمة نفسها من غوائل الوحش الأوروبي المُتَتَمّر وبخاصة وهي تعاني من تخلف رهيب في جميع المجالات يجعلها عاجزة عن أدنى مواجهة. وكان يعتقد أن اتحاد المسلمين ومحافظتهم على وحدة أراضيهم كفيل بأن يوفر لهم الجو المناسب ليبدؤوا في إصلاح أحوالهم الاقتصادية والاجتماعية بالتدريج حتى يتجاوزوا مرحلة الخطر كما كان يأمل أن يفعل في ليبيا ثم في عُمان في وقت لاحق، غير أن الظروف الدولية والتمزقات الداخلية كانت أقوى من هذه الأحلام التي تهاوت وذهبت أدراج الرياح.

- أن من أهم صفات الباروني التي تميز بها ترفعه عن التعصب المذهبي ورفضه للجمود الفقهي ودعوته الملحة إلى الحوار بين مختلف المذاهب الإسلامية للالتقاء في منتصف الطريق والتعاون فيما اتفقوا فيه من الأصول الكبرى والتحلي بأدب الخلاف فيما اختلفوا فيه من الفروع، وجعل نصرة الدين هدفا أعلى لا يجوز التضحية به لحساب الخلافات المذهبية، مذكرا في كل مرة أبناء المسلمين بما جنت العصبيات المذهبية على أصحابها خلال التاريخ فمزقت شملهم وأضعفت دولتهم وقضت على الحركة العقلية المزدهرة التي عرفها المسلمون في أول عهدهم عندما كانوا يقتدون بمثلهم الأعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومنبها إلى خطورة الاستمرار في هذا النهج بعد أن تبيّن للجميع ما يعده الأعداء للأمة من مخططات لاكتساح أراضيها واستغلال ثرواتها واستئصال شأفتها من الوجود.

ملامح شخصية سليمان الباروني باشا من خلال مجلة المنهاج

د. عائشة يطو(*)

مقدمة

إنّ الحديث عن شخصية سليمان الباروني باشا حديث ذو شجون، نقف من خلاله على تميّز و ثراء تفرّد بهما هذا المجاهد العظيم و السياسي المحنّك.

لقد اعتنى كثير من الباحثين بدراسة حياة الباروني وآثاره المختلفة، فصدرت في ذلك كتب عامّة و خاصّة؛ إلى جانب مصادر أخرى أرّخت لحياة هذا البطل وأعماله، تتمثّل في تلكم الجرائد والمجلاّت التي نشرت مقالات للباروني، ونشرت أخرى عنه. من أهمّ هذه المجلاّت (المنهاج) لصديقه الشيخ أبي إسحاق إبراهيم اطفيّش الجزائري نزيل مصر.

نسعى من خلال هذه الورقة البحثية إلى التعرّف على شخصية الباروني من خلال كتاباته وكتابات غيره عنه في مجلّة (المنهاج)؛ التي تعدّ بحقّ وثيقة مهمّة تؤرّخ لحياة هذا الرجل، المعدود من " الشخصيات كثيرة العطاء، متعدّدة الجوانب، تعيش في حياتها متعة، وأيضا تتعب في دراستها الكتّاب والباحثين. فوفرة العطاء وخصوبة الإنتاج، وتعدّد الجوانب- بلا شكّ- يجعل الدارس الباحث في حيرة التّعب أو تعب الحيرة... له في مجال السياسة والثقافة والصحافة نشاط جدير بالدراسة والاهتمام... "(1).

(*) د. عائشة يطو، جامعة عبدالحميد بن باديس، الجزائر.

(1) مؤرخون من ليبيا، مؤلفاتهم ومناهجهم، عرض ودراسة: ص٢٥٩ .

المبحث الأول: ترجمة مختصرة لسليمان الباروني باشا:

هو سليمان بن عبد الله بن يحيى الباروني باشا، نسبة إلى القبيلة البارونية العُمانية. وعائلته مشهورة بالجهاد والعلم. ولد عام ١٢٨٧هـ ١٨٧٠م بمدينة (جادو) في جبل نفوسة، و بها قضى طفولته، وأخذ المبادئ الأولى في العلوم في بلدته على يد مشايخ أبرزهم والده عبد الله. ثمّ سافر إلى تونس عام ١٨٨٧م قاصدا جامع الزيتونة لمواصلة المشوار العلمي. أخذ عن أساتذة أجلاّء أشهرهم محمّد النخلي وعثمان المكّي. وقصد بعد ذلك مصر سنة ١٨٩٢م للدراسة في جامع الأزهر، وبعد ثلاث سنوات ارتحل إلى الجزائر حيث معهد قطب الأئمّة أمحمّد بن يوسف أطفيّش ببني يزجن إحدى قرى وادي ميزاب. بقي متعلّما عند شيخه القطب إلى سنة ١٨٩٧م، ثم قفل راجعا إلى طرابلس الغرب.

انتقل في ١٩٠٢م إلى يفرن -مركز الجبل الغربي- التي أسّس بها مدرسة عام١٩٠٤م أسماها:(المدرسة البارونية)، أشرف عليها والده عبد الله، يدرّس فيها العلوم الشرعية واللغوية. كذا أنشأ مكتبة -هي المكتبة البارونية- بمحاذاة المدرسة.

لجأ إلى مصر -نتيجة المضايقات من قبل سلطات البلاد- حيث تمكّن من إنجاز أعمال جليلة في مجال الطبع والنشر والتأليف، وربط علاقات ودّية مع شخصيات مختلفة في عالم السياسة والإصلاح، ومن أعماله هناك إنشاء مطبعة الأزهار البارونية عام ١٩٠٦م، التي طبع فيها تراثا إباضيا وغير إباضي لا بأس به في فنون شتّى؛ مثل ديوان السّيف النقّاد للإمام إبراهيم بن قيس الحضرمي، و وفاء الضمانة (ج٢ وج٣) لقطب الأئمّة أمحمّد بن يوسف أطفيّش. وفي هذه المطبعة كان يطبع أيضا جريدته الأسد الإسلامي.

وعندما أُعلن الدستور العثماني سنة ١٩٠٨م، اختير الباروني نائبا عن طرابلس الغرب في (مجلس المبعوثان) بالآستانة. وكانت عودته إلى بلاده عام ١٩١١م -حين اعتدى الإيطاليون على بلده- لتأدية واجب الجهاد. وعندما أبرم الصلح بين تركيا والمحتلّ لم يعترف به الباروني، فانتقل إلى تونس ثمّ إلى الآستانة، عيّن عضوا ضمن (مجلس الأعيان) نائبا عن طرابلس. وفي ١٩١٤م أرسلته حكومة الآستانة قائدا على منطقة طرابلس الغرب، فعمل على جهاد العدوّ إلى سنة١٩١٦م؛ حيث تمّ اعتراف إيطاليا بحكومة طرابلس، والتوقيع على قانونها الأساسي. قاعدة الصلح مبنية على منح الطرابلسيين دستورا يكفل له حقوقه السياسية والمدنية. لكنّ الباروني رفض هذا الصلح بحجّة أنّه عضو في مجلس الشيوخ العثماني، ويريد الاحتفاظ بعثمانيته.

ارتحل مجدّدا إلى الآستانة عام ١٩١٩م . وهو العام الذي وقع فيه الانقلاب على الخلافة العثمانية، من قبل الكماليين بقيادة مصطفى كمال أتاتورك . لكنّه عاد إلى طرابلس . وقد خابت آماله . بعد ثلاثة أشهر أرغمته السلطات الإيطالية على مغادرة الوطن عام ١٩٢٢م زاعمة أنّه أصبح من العناصر الخطيرة التي تهدّد الأمن داخل القطر. توجّه إلى تركيا ومنها إلى باريس، بعدما خابت مساعيه للسفر إلى تونس، أو الجزائر، أو الشام، أو مصر، بسبب رفض المستعمر الإنجليزي ذلك. فُرضت عليه رقابة بعد اكتشاف أمره -لأنّه دخل باريس تحت اسم مستعار- ومنع من مغادرة فرنسا.

وبعد سنتين من الإقامة الجبرية بفرنسا، انفرجت أزمة الباروني بمنح حكومة الملك حسين الهاشمي رخصة السفر إلى الحجاز لأداء فريضة الحجّ. و قد قلّده هذا الملك نيشان الاستقلال الهاشمي، وتوسّط ملك الحجاز للباروني لدى السلطات الإنجليزية في السفر إلى مسقط وعُمان. كان وصوله إلى عُمان عام ١٩٢٦م، وقد لقي فيهما ترحاباً عظيماً، ورعاية تليق بمقامه.

في هذه الربوع عمل الباروني على التوفيق بين الإمام الخليلي والسلطان تيمور. وأخذ في تنظيم مملكة عُمان، فوضع مخطّطات في مجالات مختلفة. تمكّن من إنجاز أعمال جليلة، منها إنشاء مدرسة نظامية في سمائل. وفي المجال الدبلوماسي اختاره السلطان تيمور لحمل رسالتين؛ واحدة إلى ملك نجد عبد العزيز آل سعود و أخرى إلى ملك الحجاز الحسين بن عليّ من أجل التوسّط في إيقاف الحرب التي قامت بينهما. إضافة إلى هذا، عيّن الباروني رئيسا للوزراء ومستشار الحكومة لدى حاكم مسقط.

وأصيب بحمّى الملاريا وهو بأرض عُمان، فقصد العراق للعلاج، ومنها إلى بومباي في الهند عام١٩٤٠م، حيث كانت وفاته في السنة نفسها.

خلّف الباروني آثارا علمية، حصرها الدارسون في جريدة الأسد الإسلامي التي أصدرها سنة١٩٠٦م، وجريدة الباروني في إسطنبول عام١٩١٨م. إضافة إلى ديوان شعر، وكتاب الأزهار الرياضية في أئمّة وملوك الإباضية، ج٢، ورسالة مختصر تاريخ العائلة البارونية، ألّفها بطلب من أحد المستشرقين. وله تعليقات على كتاب والده الموسوم بـ: سلّم العامّة والمبتدئين إلى معرفة أئمّة الدّين-وهو في سير وتاريخ أئمّة المذهب الإباضي -. وله أيضا مقالات في مجلاّت وجرائد مختلفة، منها: دار الخلافة و الفتح والأخبار والمنهاج وصحف أبي اليقظان[1].

---

(1) سليمان الباروني باشا في أطوار حياته كلّه؛ وحياة سليمان باشا الباروني زعيم المجاهدين الطرابلسيين كلّه؛ ودليل المؤلّفين العرب اللّيبيّين:ص١٤٧ ؛ والأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنّساء من العرب والمستعربين والمستشرقين): م٣ ، ص١٢٩-١٣٠؛ وموسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين: م٣ ، ص٧٠ – ٨٣.

المبحث الثاني : علاقة الباروني باشا بالشيخ أبي إسحاق إبراهيم أطفيّش

يلحظ الدارس أنّ هاتين الشخصيتين قد جمعت بينهما علاقة وطيدة عبر مسيرة حياتهما الطويلة؛ تراسلا كثيراً، من ذلك ما جاء من حديث أبي إسحاق عن طبيعة بعض هذه الرسائل؛ قال : " كان الباروني يكتب إليّ بين آونة وأخرى عن مراحل الإصلاح في عُمان ومسقط وما يعتوره من العقبات... "[1]. ومن الدلائل أيضا على هذه الرابطة القويّة بين الرجلين شهادة الباروني التي أدلى بها من خلال تهنئة وجّهها لأبي إسحاق حين أصدر مجلة المنهاج، جاء فيها : "اهنأ أبا إسحاق بهذا الأثر الخالد، الذي رصّعت به تاريخ حياتك، وأنرت به ليالي تعذيبك في سبيل دينك وبلادك... "[2].

إنّه رجل عرف قدر أبي إسحاق ومكانة صحيفته، التي ستكون أداة جهادية تحقّق من الأهداف ما لم يتمكّن من تحقيقه الباروني. وقبل هذا وذاك، فهما يعدّان من رجال الإصلاح الذين أفنوا أعمارهم في سبيل نهضة الأمّة الإسلامية، وتحرّرها من قيود المستدمر. ولقد استعانوا في ذلك بوسائل شتّى منها الصحافة.

لقد كانت عُمان من الأقاليم الإسلامية التي أولاها الباروني وأبو إسحاق عناية سياسية وإعلامية؛ فالأوّل من خلال المقالات التي كان ينشرها في المنهاج سواء كانت بقلمه أو بأقلام غيره، والثاني من خلال كتاباته في المنهاج أيضاً، بعضها كان عن عُمان.

---

(1) حياة سليمان باشا الباروني، ص١٦ .
(2) المنهاج: ج٣ – م١ – ربيع الأول ١٣٤٤ هـ - ص ١٧٦ .

" كان اهتمام أبي إسحاق بشخصية الباروني، وإعجابه بوطنيته، وتنويهه بصبره وجهاده واضحا من خلال تعليقاته على كتاباته، أو على مواقفه متتبّعا أخباره ورحلاته، ولا سيما إبّان فترة تولّيه الوزارة في عُمان ... "[1].

المبحث الثالث: طبيعة كتابات الباروني وكتابات غيره عنه، مع تحليل بعض النصوص

لابدّ من الإشارة بدءا إلى اهتمام الباروني بالصحافة، ومكانتها عنده، ونظرته إلى ذلك. إنّ الباروني جاهد بقلمه من خلال إصداره لجريدتين، هما: الأسد الإسلامي والباروني، ثمّ اشتراكه بمقالات في صحف مشرقية ومغربية، مثل " الأخبار، والمنهاج، والشباب، والشورى [الصادرة بمصر] ... وجريدة ألف باء [السورية] ... وجريدة النهضة والزمان [التونسيتين] ... وجريدة وادي ميزاب والأمّة [الجزائريتين] ... وجريدة دار الخلافة [الصادرة في الآستانة] "[2].

لقد أدرك الباروني القيمة العالية للصحافة، ودورها الإيجابي، فاتّخذها منبرا ينشر من خلاله آراءه. وجاءت نظرته إلى الصحافة متجاوزة " قيمتها الآنية المتمثّلة في تأثيرها الوقتي إبّان صدورها، إلى الاعتقاد بقيمتها الدائمة القارّة، وأهميتها الباقية التي تفيد منها الأجيال اللاّحقة "[3].

فتحت المنهاج أبوابها لأقلام الإصلاحيّين، وهي أقلام " تصدّت بشجاعة وأصالة لحملات التبشير، والتغريب، والاستشراق ... [ومن بين هذه الأقلام نجد قلم الباروني، إذ كانت له] مقالات سياسية هامّة ... عن واقع الأمّة العربية في صراعها ضدّ الاستعمار الأوروبي ... "[4].

---

(1) الشيخ إبراهيم أطفيّش في جهاده الإسلامي: ص١٢٨ .
(2) سليمان الباروني، آثاره: ص٢٩٦ .
(3) المرجع نفسه: ص٢٨٣ .
(4) الشيخ إبراهيم أطفيّش في جهاده الإسلامي: ص١٢٧ – ١٢٨ .

جاءت أغلب المقالات التي ذكرت سليمان الباروني باشا في المنهاج بقلم الشيخ أبي إسحاق أطفيّش؛ وكانت أكثر المضامين متحدّثة عن عُمان وأخبار الباروني في هذا الإقليم، والأدوار التي قام بها، وصدى زيارته لعُمان من خلال تلك القصائد التي نظمها بعض الشعراء في حقّه، تمدحه وتهنئه بمنصبه الجديد. أمّا ما خصّ كتابات الباروني نفسه فتنوّعت؛ إذ نجد الأشعار التي نظمها في عُمان مدحا ووصفا. أمّا مقالاته السياسية فتضمّنت آراءه في مسألة الخلافة، والمعاهدة الإنكليزية السعودية، مع تحليل لأوضاع الأمّة العربية والإسلامية وما كان يحيط بها من أخطار، إلى غير ذلك من الرّدود ممّا سنقف عليه من خلال هذه القائمة التفصيلية بعناوين المقالات، كما وردت في المنهاج :

* " عُمان " – عبارة عن مقطوعة شعرية – بقلم الباروني: ج١ / م١ / صفر ١٣٤٤ هـ، ص١٢٩.

* " جزيرة العرب – لا خوف على عُمان من المعاهدة " بقلم الباروني: ج٣، م١، ربيع الأول ١٣٤٤ هـ، ص١٦١ – ١٦٥ .

* " العلاّمة صاحب السعادة سليمان باشا الباروني والمنهاج " – رسالة موجّهة من الباروني إلى أبي إسحاق – : ج٣ / م١ / ربيع الأول ١٣٤٤ هـ / ص ١٧٥ – ١٧٦ .

* " الخلافة – رأي العلاّمة الأفخم صاحب السّعادة الباروني فيها " : ج٧ / م١ / رجب ١٣٤٤ هـ / ص ٤٢٠ – ٤٢٢ .

* " الآثار النبويّة " بقلم الباروني: ج١ و٢ / م٢ / محرم وصفر ١٣٤٥ هـ، ص ٤٧ – ٤٨ .

* " من الأستاذ الباروني إلى السنيور موسوليني ": ج١ و٢ / م٣ / محرم وصفر ١٣٤٦هـ،ص ١٨ – ٢٢ .

* " مضارّ المعاهدة الإنكليزية السعودية للإسلام، لصاحب السعادة سليمان باشا الباروني ": ج١، م٤، محرم ١٣٤٧ هـ، ص٢-٢٢ .

* " الأنباء العربية – الدسائس في جزيرة العرب " بقلم أبي إسحاق: ج٢ / م١، صفر ١٣٤٤ هـ، ص ١١٦ – ١٢٠.

* " وثائق تاريخية " – مقدمة لأبي إسحاق مع رسائل من سلطان عُمان وإمام مسقط بعث بها الباروني إلى المجلّة – : ج٣ / م١ / ربيع الأول ١٣٤٤ هـ، ص ١٦٩ – ١٧١.

* " عُمان " بقلم أبي إسحاق: ج٥ / م١ / جمادى الأولى ١٣٤٤ هـ، ص ٢٧٤ – ٢٧٩.

* " سياحة الباروني" بقلم أبي إسحاق: ج٥ / م١ / جمادى الأولى ١٣٤٤ هـ، ص٢٨٣– ٢٨٤.

* " الأستاذ الباروني" – نقلا عن جريدة الشورى – : ج٥ / م١ / جمادى الأولى ١٣٤٤ هـ، ص٢٨٤– ٢٨٥.

* " فرنسا وسعادة العلاّمة سليمان الباروني " بقلم أبي إسحاق: ج٨،م١، شعبان ١٣٤٤هـ، ص٤٦٥ – ٤٦٦.

* " عُمان– نبأ عظيم " بقلم أبي إسحاق: ج١ و٢، م٢، محرم وصفر ١٣٤٥ هـ، ص١٩–٢٢.

* "جريدة ألف باء وعُمان" بقلم عمر الطيبي، ج١ و٢، م٢، محرم وصفر ١٣٤٥هـ، ص٢٢–٢٦.

* " شعراء عُمان والحال الحاضرة " – جاء فيه مجموعة من الأشعار لشعراء عُمانيين نظموها في حقّ الباروني – : ج١ و٢ / م٢، محرم وصفر ١٣٤٥ هـ، ص٢٦–٣١.

* " انقلاب عظيم في شرقي بلاد العرب– وزارة سليمان باشا الباروني في عُمان " بقلم عُماني:ج١ و٢ / م٢ / محرم وصفر ١٣٤٥هـ، ص٦٩ – ٧٢ .

* " شاعر آل سليم والانقلاب الحديث بعُمان " – قصيدة – لأحمد بن سلطان آل سليم: ج١ و٢ / م٢ / محرم وصفر ١٣٤٥ هـ، ص٧٤ – ٧٦ .

* " عُمان " بقلم أبي إسحاق: ج١ و٢ / م٣ ، محرم وصفر ١٣٤٦هـ، ص٣٦ – ٣٨ .

تحليل بعض النصوص الواردة في (المنهاج)

أولا : الأشعار التي قيلت في الباروني

قدم الباروني عُمان، التي لقي فيها استقبالا عظيما من قبل حكّام البلاد والشعب خاصّته وعامّته. ومن الدّلائل على ما ذكرناه القصائد التي نظمت في حقّه؛ قال الشيخ أبو اليقظان : " كان المهرجان المقام للباروني في تلك الربوع لا يدخل تحت وصف، أبّهة وجلالاً وجمالاً، لما اشتمل عليه من مواكب فخمة ومآدب فاخرة، ولما قيل فيه من بليغ النثر وبديع الشعر ... "[1].

إنّ الباروني قد عزم على القيام بمجموعة من الإصلاحات بتكليف من الإمام محمّد بن عبد الله الخليلي، غير أنّ جماعة وقفت من ذلك موقف المُعارض، وأخرى أيّدته وناصرته لإدراكهم المغزى الحقيقي من تلك السياسة الرشيدة، التي سينتهجها المجاهد الحذق. وعبّر كلّ عن سروره بهذا الانقلاب العظيم.

من هؤلاء الشعراء الذين عبّروا عن جلالة هذا الحدث الشيخ أحمد بن سلطان آل سليم، الذي عدّ قدوم الباروني إلى عُمان فتحا مبينا، وأشار إلى الثقة التي وضعها فيه حاكم البلاد. وذكّر بفضائل الممدوح وأعماله حين كان بطرابلس الغرب وإسطنبول. قال:

---

[1] سليمان الباروني باشا في أطوار حياته: ج ١ / ص٢١٠ .

هنت عُمان بما حازته بلـــدان ... إذ أحرزت بك فتحا يا سليمان
ألقى إليك مقاليد الأمــور بــها ... من حثّه لطريق الهدي إيمـان
ومن تحقّق فيك الخير واندفعت ... إلى الصلاح به نفس وعرفان
تركت دورك في الأتراك ألسـنة ... تثني عليك فأنـغام وألحـــان
وموقف لك منه فـي طرابلـس ... ذكر عظيم وآيات وبرهـــان

وبعدما دعا الشاعر إلى السبل المؤدّية إلى التّقدّم والسّلام، ووصف حال الشعب الذي عاش فترات من الفوضى وانعدام الأمن، وكشف عن المتسبّبين في ذلك؛ استنهض قومه لمؤازرة الدّعوة للإصلاح، وقدّم لهم مجموعة من النّصائح ليصيروا في ركب الأمم المتقدّمة. ختم قصيدته بدعوة أخرى إلى مناصرة الزعيم الباروني وطاعته، لأنّه هو الّذي كانوا بحاجة إليه ليأخذ بأيديهم. ويزيد توكيدا لعظمة شخصيته بأنّه المجاهد العامل الّذي يقدّس الوقت ويدرك قيمته. قال:

حيّوا الزعيم وعدوا من تكاثفـكم ... حـــول الزعيم فتعزيز وإذعـان
فهو الذي سرّنا شكر الزمـان به ... من ما أعوزتنا منـه أزمـــان
يرى الخسارة فـي يوم يـمرّ بـــه ... لم يبن مجدا ولم يعقبه شكران[1]

إضافة إلى الشاعر السابق نجد شعراء آخرين، أشادوا بخصال الباروني وهم يهنّئونه بالمنصب الجديد. من هؤلاء الشيخ عيسى بن صالح الطائي قاضي مسقط (ت: ١٣٦٢ هـ) [2]، الذي ذكر أوصاف الرّجال أصحاب الهمم العالية، وهي بلا شكّ توطئة للحديث عن الباروني الذي تنطبق عليه تلكم الصفات. ثمّ راح يكشف عن أوصاف ممدوحه؛ منها الشهامة، وانتسابه إلى سلالة الأمجاد والشجعان. وهذا الرجل الصلب هو منحة من الله لأهل عُمان، لذا عليهم أن

(١) المنهاج: ج١ و٢ – م٢ – محرم وصفر ١٣٤٥ هـ - ص ٧٤-٧٦.
(٢) ينظر ترجمته في معجم أعلام الإباضية: رقم ١٠١٤.

يمدّوا له يد العون. ثمّ يتوجّه بالخطاب إلى الباروني بإقامة دعائم الإسلام، وتجديد عهد أسلافه من الأئمّة ذوي الشأن الرّفيع. قال:

هو الشّهم البروني ذو الـــمزايا ... سليل المجد في الهيجاء ذَمـر
نمته نفوسة شـــرفا وجـــادت ... بـه لعُـمان أيّـــام ودهـــر
ولولا المـزعجـات مـن اللّيالـي ... لمـا اعتورتـه أجراز و بحـر
فكونوا عنده أعـــوان صـــدق ... ولا يـأخذكم حـسد وكبـــر
سليمان أقم للـدّين صـــرحـا ... لقد أودى بـــه طمـع مضرّ
وجدّد عهد من سـلفوا ملـوكـا ... أئمّتـنا لـهم شـــأن وذكـــر
تخيرك الإمام العـــدل فاخـدم ... رضـاه واثبتن فلأنـت بـدر [1]

ومن الشعراء الذين استبشروا خيرا بوزارة الباروني أبو سلاّم سليمـان بن سعيد الكندي (ت: ١٣٧٩ هـ)[2]. لقد دعا في قصيدته المحتفى به للقيام بالإصلاحات، وعدم الالتفات إلى ما تثيره الجماعة المعارضة لمشروع الإصلاح، لأنّها تجهل المقاصد التي يرمي إليها. كذا ناشده أن يضحّي من أجل نهضة البلاد، إلى أن يقول هذه فرصتك فاغتنمها، ولكم اجتهدت وأبديت بالآراء، فها هي ذي الأيّام تخدمك بتوليك منصبا رفيعا، وأصبحت زمام الأمور بيديك، فاجتهد واعمل على إنقاذ عُمان بنشر المعارف وتنظيم الجند وغير ذلك. قال:

قـم سليمـان في صلاح البلاد ... لا تبـــال بقـول أهـل الفساد
فابذل النّفس والنّفيـس وشـمّر ... واصرف الجهد من صميم الفؤاد
إن تعارضك فئـــة فـــي نظـام ... لا تلمـها لجهلـــها بالمـــراد
يابروني هـــذه فرصـــة قـــم ... واغتنمـــها فالدّهر حرب الجواد
طالما قلت واجتهدت وها قـــد ... خدمتـك الأيّام رغـم العنـــاد

---

(1) المنهاج: ج١ و٢ – م٢ – محرم وصفر ١٣٤٥ هـ ص٢٦ - ٢٧ .
(2) ينظر ترجمته في معجم أعلام الإباضية: رقم ٥٩٩.

قد قبضت الزمـام فامض مجدًا وانقذ القطـــر يـا عظيم الأياد
نظّم الجند واجمـع المال واسلك بعُمان سبيل أهـــل الرّشـــاد
وانشر العلم والمـعارف وامـحق أثر الجهل من جميـــع البلاد[1]

وإلى شاعر آخر هو سالم بن سليمان[2] الذي عدّ الباروني من الّذين قدّسوا الوطن، وحموا الدّين. وقومه المغاربة هم الذين تركوا آثارا تشهد على فعالهم؛ لقد هزموا الاستعمار الغربي، وكانوا حصنا منيعا لإخوانهم المشارقة. ولم يستكينوا لرغبة الأعداء، وإنّما جاهدوا وبذلوا النّفيس من أجل الحريّة. وعلى هذا ليس بدعا أن يختار من هؤلاء القوم الذين امتلكوا هذه الصفات وزير، فهو أهل لهذا المقام الرّفيع. ولا يخفى ما قدّمه من أعمال في ميدان الجهاد، إذ هو صاحب الإرادة الفولاذية التي جعلت العدوّ دائما يخشى جانبه. وفي العالم العربي والإسلامي بقيّة عرفت قدره، لذلك اختارته للمهمّات الكبرى منذ رأت جدّه في نشر السّلام. ومن هؤلاء الإمام الخليلي، الذي خصّه بحبّه ورضي عنه، فاصطفاه للوزارة. ثمّ يخاطب الباروني بعظيم العظماء ومن ذاع صيته في الكون، ويصرّح له بأنّ له مكانة عالية، وفضل على الخلق، وهيبة، ويمتلك خبرة في مجال السياسة. قال:

إنّ هذا من حمـــاة كرمـــاً قـدّسوا الأوطان سادوا همـما
وحموا شرعة خـــلاّق السما هم بنو المغرب فاقوا في الزحام
تلك آثار أيـــاديهم تـرى لامعـــات كـــسناء ظـــهر
زحزحوا الغرب فآب القهـقرى وغدوا للـــشرق حـصنا لا يرام
سل بني التاريـــخ مـا شأنهم إذ بدا الطليان خصـــما لـــهم
ما استـــدانوا لهوان الكـــفره ما استـكـــانوا لمراد الفـــجره
ليس بالبـــدع إذا ولـــي بلى ليس بالبـــدع إذا حـــاز العلى

---

(1) المنهاج: ج١ و٢ – م٢ – محرم وصفر ١٣٤٥ هـ - ص ٢٧ - ٢٨
(2) لعلّه (سالم بن سليمان بن عمير بن سليمان الرواحي، ت: ١٣٥٢ هـ). يراجع: معجم أعلام الإباضية: رقم ٤٢٢ .

غير خاف كلّ ما منه بدا ... من عزوم زلزلت قلب العدى
إنّ في العرب بقايا عرفت ... فضله حقا وما عنه ثبت
فاصطفته للمعالي مذ رأت ... سعيه في رفع رايات السّلام
يا سليمان عظيم العظما ... طائر الصيت بأرض وسما
يا شريف النّفس يا عزّ الحمى ... يا بروني أهنيك دوام
لك في الكون مقام وجلال ... وأياد توسع الخلق نوال
وزئير يذر الشّم رمال ... وسياسات فعال وكلام[1]

ثانياً: قصيدة للباروني[2]

أورد أبو إسحاق جزءا من قصيدة للباروني ألقاها بعد خطبة خطبها في يوم جمعة من شهر ربيع الأول (١٣٤٤هـ) بالجامع الأعظم بنزوى، حضرها جمهور من عامّة النّاس وخاصّتهم، من بينهم الإمام الخليلي. يقول أبو إسحاق عن هذه القصيدة: " كان لها في النّفوس وقع عظيم، وتأثير جسيم، وقد جمعت من غرر الحكم والنصائح ما يشهد بصراحة الناظم، وإخلاصه للأمّة جمعاء؛ حيث لم يأل جهدا في إسداء النّصح لعموم أمراء الجزيرة العربية، وإغرائهم على اجتماع الكلمة واتّحادهم يدا واحدة ... "[3]. وعن القصيدة نفسها يقول الشيخ أبو اليقظان: " أفرغ فيها آراءه السياسية إزاء المشاكل الرّاهنة كتوجيهات لعظمة الإمام، ليتوخّاها في سياسته الداخلية والخارجية، وكمنهاج للسير بدولة الإمامة إلى الأمام "[4].

والقصيدة يمدح فيها الإمام الخليلي الّذي وجد عنده كلّ التّرحاب، يذكر فضائله، ويوضّح له السّبيل الأقوم للنّهوض بالبلاد. يقول:

---

(١) المنهاج: ج١ و٢ – م٢ – محرم وصفر ١٣٤٥ هـ - ص ٢٩ - ٣١ .
(٢) وردت ضمن مقال عنوانه: (عُمان) بقلم أبي إسحاق أطفيّش. ينظر: المنهاج: ج٥، م١،جمادى الأولى ١٣٤٤ هـ، ص٢٧٧ - ٢٧٩.
(٣) المصدر نفسه : ص ٢٧٧ .
(٤) سليمان الباروني باشا في أطوار حياته: ج ٢، ص١٢ .

فانهض وشمّـــر فالعوائق جمّـة ولـــذا الزمان سياســة خـرقاء
خلّ القضا لرجاله واعكـف على تنظيم جند فالنّظـــــام دواء
وامح التّداعـي بالقبـــائل إنّـــه سهم العداء ومحنة ســـــوداء
واجمع قلوبا بـــالخلاف تمـزّقت حتّى يـــضمّ شتـــاتهنّ لواء
خذها نصيحة مخلص[1] في دينه ما شابـــــها مـدح ولا إطـراء
إنّي امرؤ ترك المـــديح لأهـــله مذ أنشبت أظفارها الهيجـاء[2]

حفلت هذه القصيدة بالنّصائح الغالية، التي لا تصدر إلاّ عن سياسيّ محنّك، مجرّب مخلص لأمّته، راغب في نهضتها وتوحّدها. إنّه المسلم العامل بقول رسولنا الكريم – صلّى الله عليه وسلّم– " الدّين النّصيحة ". وما يمكن قوله إنّ الشاعر " بحسبه وعلمه ومكانته المرموقة، كان يضنّ بشعره عن الإذلال والابتذال، وهذا ما جعله... صادق اللهجة في أمداحه واضح الشعور... تنمّ أيضا عن مروءة الشاعر ووفائه، وملامح شخصيته "[3].

ثالثاً: الخـــلافة [4]

من شعر الباروني السياسي ما نظمه في مسألة الخلافة، وهي من القضايا التي شغلت العلماء في العالم الإسلامي حينئذ. لقد قدّم لنا رأيه، الذي لا يختلف كثيرا عن آراء الكتّاب الإسلاميّين، العملية المنهجية لا السطحية الوهمية[5].

إنّ أسلوب الخطاب في هذا النّصّ هو أسلوب المواجهة المباشرة؛ صراحة في قول الحقّ، مردّه الصّلابة في الدّين، التي تفرض عليه عدم المحاباة إذا تعلّق الأمر بمسألة خطيرة كمسألة الخلافة. قال:

---

(1) المنهاج: " خذها نصيحة معلم ". والتصويب من ديوان الباروني: ج٢، ص٢٤٦ .
(2) ديوان الباروني: ج٢ / ص٢٤١ – ٢٤٦ ؛ وسليمان الباروني باشا في أطوار حياته: ج٢، ص١٢ – ١٣ .
(3) سليمان الباروني، آثاره: ص١٦٠ .
(4) المنهاج: ج١– م١ – رجب ١٣٤٤ هـ - ص ٤٢١ - ٤٢٢ .
(5) سليمان الباروني، آثاره: ص١٠٧ - ١٠٩ .

إنّ الخليفة لا يكون حمـــــاية ... بـــل هو حامي المسلـــمين منار
ليس الخليفة من يكـون عبـــارة ... عـن هيكل شبه القـــبور يـــزار
إنّ الخليفة لا يكـــون منافـــقا ... أو مـــلحدا أو خائـــنا غـــــدّار
إنّ الخليفة ناظـم الـــــدّنيا وحا ... مي الدّيـــن وهو المؤمن المختار
إنّ الخليفة لا يقـــــيّد بالعـــهو ... د عن الجهاد كما يشا الكفّـار[1]

رابعاً: مضارّ المعاهدة الإنكليزية السعودية للإسلام[2]

أجاب الباروني بهذا المقال عن مقال نشر في جريدة أمّ القرى السّعودية بتاريخ ٢٩ رمضـان (١٣٤٦ هـ)، تضمّن توجيه سباب للباروني ولجريدة ألف باء، ولجريدتين تصدران في الهند، بدافع الاعتقاد السيّئ فيما كُتب حول المملكة العربية السعودية. لقد فضح الباروني خلفيات هذه المعاهدة حتّى يكون النّاس على بيّنة.

بداية أفصح عن المعطيات الأولى التي كانت وراء ما ذكرته الجريدة السعودية، وكان منطلق استفساره بدافع الغيرة على حرمات الله. وقد ردّ بكلّ أدب لأنّه صاحب عقيدة راسخة، مستدلاً بشاهد من الحديث الشريف ليبيّن أنه ليس من صفات المؤمن الشّتم. دعته الضرورة إلى توجيه النّصح إلى حكّام المسلمين، إذ أنكر عليهم تهاونهم في أمر الدّين[3]. يقول الباروني : " هل يشتم ويلعن مسلم ساءه خبر شنيع بلغه وقوعه في بيت الله المقدّس، فكتب يستفهم عن حقيقته متمنّيا كونه كذبا، محسنا الظنّ بملك الحجاز. هذا ما نترك الجواب عنه للمنصفين... أمّا الشّتم خصوصا ممّن كان وراء البحار فمعلوم أنّه سلاح العاجزين، وليس من صفات المؤمنين؛ قال عليه السّلام : (ليس المؤمن بالطّعّان

---

(١) ديوان الباروني: ج٢ / ص٢٢٢ – ٢٢٤ .
(٢) المنهاج: ج١ و٢– م٤ – محرم ١٣٤٧ هـ - ص ٢ - ٢٢ .
(٣) سليمان الباروني، آثاره: ص٣٣٢ - ٣٣٤ .

ولا اللّعّان ولا الفحّاش ولا البذيئ). ونحن ولله الحمد... إيماننا راسخ، وعقيدتنا في التّوحيد لا تتزعزع، فليتيقّن هذا الكاتب أنّ اللّعن لا يضرّ الباروني وغيره من المسلمين عن التكلّم فيما فيه جلب نفع، أو دفع ضرّ عن بلد الله الأمين وبيته الشريف... ولا يمكنهم أن يطمئنّوا لأحد قطّ من أمراء وملوك هذا الزمان، فيما يتعلّق بأمور دينهم؛ فقد خانهم الاعتماد على الرّجال والظّنّ الحسن بهم مرارا، من ابتداء الحرب الكبرى إلى الآن، والمؤمن لا يلدغ من جحر مرّتين... فيلزم الملك ابن السعود وهو اليوم أمين المسلمين على قبلتهم المقدّسة، أن لا يرضى ذلك لأنّ الرّاضي بالشيء كفاعله... "[1].

خامساً: وثائق تاريخية[2]

بعث الباروني بثلاث رسائل إلى (المنهاج)، تفيد اثنتان منها خبر وفوده إلى أرض الحجاز، مبعوثا من قبل السلطان تيمور بن فيصل، من أجل الوساطة للصلح رجاء إيقاف الحرب بين سلطان نجد عبد العزيز بن عبد الرحمن وملك الحجاز علي بن الحسين. وهذه المهمّة التي كلّف بها تعدّ من أهمّ الأعمال التي قام بها وهو في عُمان، وتعكس هاتان الرّسالتان مدى المنزله التي حازها الباروني عند حاكم عُمان.

جاء في الرسالة الموجّهة إلى سلطان نجد ما نصّه : " ... الباعث على تحرير طرسنا هذا الودادي، هو أنّ حامله جناب الشيخ الجليل عندنا سليمان باشا الباروني، أحد رجال الإسلام ومن علماء مذهبنا... وحيث إنّ حامل كتابنا هذا هو على ما نحن عليه من الكدر، كلّفناه بأن يعرب لعظمتكم عن إحساساتنا الدينية توضيحا لما كتبناه هنا؛ فالمرجو اعتماد كلامه في هذا الصّدد، فإنّه الثّقة

---

(1) المنهاج: ج١ و٢– م٤ – محرم ١٣٤٧ هـ - ص ٢ - ٦ .
(2) المنهاج: ج٣ – م ١ – ربيع الأول ١٣٤٤ هـ - ص ١٦٩ - ١٧٢ .

الأمين. ولا شكّ في أنّ لكم الخبرة التّامّة فيه وفي أمثاله، وله تفان وتضحية في كلّ ما يتعلّق بإصلاح حال الأمّة الإسلامية... "[1].

إنّ هذه الرّسالة قد حفلت بالألفاظ والصيغ التي تصوّر لنا جانبا من شخصية هذا السّفير إلى أرض الحرمين؛ إنّه عالم حزّ في نفسه – كغيره من المسلمين الغيورين على دينهم ووطنهم الإسلامي الكبير – ما يحدث من تناحر بين أهل الملّة الواحدة. جعله السلطان تيمور موضع ثقته، فأسند إليه مهمّة القيام بالصّلح بين الحاكمين المتخاصمين، ويتحدّث على لسان السّلطان؛ ولا ريب في أنّ ذلك يعود إلى كونه الأديب الخطيب البليغ، يمتلك من آليات البيان مالا يخفى على أحد. إضافة إلى ذلك فهو صاحب الاستعداد الدائم للتّضحية من أجل سعادة الأمّة.

سادساً: عُمان[2]

أشار أبو إسحاق في هذا المقال إلى إقبال العُمانيّين على توحيد صفوفهم، وذكّرهم بفائدة التوحّد وعواقب التفرّق. ونقل خبر الاجتماع الذي حضره أبرز الشخصيات العُمانية، كذا حضره الباروني. استطرد في الحديث عن أسباب الانتصار مشيرا إلى أثر تواجد الباروني في القطر العُماني، عارضا جوانب من شخصيته، وهي التي أهّلته – ولا شكّ – لأن يكون ضمن هذه الزّمرة من الشّخصيات الكبيرة الصّانعة لتاريخ عُمان. يقول: " ... كان من التّأثير العظيم في الأمّة العُمانية وجود صاحب السّعادة العلاّمة الشيخ سليمان الباروني، وهو من ذوي الحصافة والإدراك السّامي، الّذين خبروا الدّهر وعرفوه، وسبروا أغوار السياسة وتقلّبوا في أطوارها؛ وأصحاب الصّحائف الجليلة، والمواقف[3] الخطيرة،

---

(1) المصدر نفسه : ص ١٧٠ .
(2) المنهاج: ج ٥ – م ١ – جمادى الأولى ١٣٤٤ هـ - ص ٢٧٤ – ٢٧٩ .
(3) في الأصل: الموقف.

نفوسهم فطرت على نفخ روح اليقظة، وتحريك السّواكن من النّفوس إلى العمل في مناهج الحياة... "[1].

سابعاً: انقلاب عظيم في شرقي بلاد العرب؛ وزارة سليمان باشا الباروني في عُمان[2]

في هذا المقال كلام عن المضايقات التي فرضت على الباروني من قبل دول الحلفاء؛ إذ حرّمت عليه التنقّل إلى إحدى المستعمرات الإسلامية، حتّى قضى الله بالفرج، فتمكّن من الحجّ ثمّ السّفر إلى عُمان. ويذكر الكاتب كيف كان الباروني مجتهدا دائب العمل في سبيل نهضة عُمان. قال : " كان الباروني من يوم نزوله مسقط لا همّ له إلاّ النّصيحة، والدّعوة إلى جمع الكلمة، والاتّحاد والنّهوض لمجاراة الأمم الحيّة. فكان هذا حديثه وهو راكب، وسائر، وجالس، وعلى فراش المرض الذي كان ينتابه كلّ مدّة في أكثر البلاد العُمانية "[3].

إنّه الدّاعية الذي عاش من أجل فكرة الإصلاح، ضحّى من أجلها وعمل لها حيثما كان، واتّخذ لها جميع الأسباب. ولم يقبل بالمناصب الكثيرة التي عرضت عليه منذ حلوله بأرض عُمان، لأنّه متيقّن أنّ المنصب إن لم يكن منبرا للإصلاح فلا خير فيه. ولم يقبل بالوزارة إلاّ بعد عامين من العمل المستمرّ من أجل تثبيت أفكاره الإصلاحية في عقول النّاس، والقبول بمشاريعه. يقول صاحب المقال: " جاهد هذا الرّجل في سبيل إيقاظ هذه الأمّة إلى واجبها جهادا مستمرّا، بدون فتور ولا مبالاة ولا يأس حولين كاملين. وقد كلّف مرارا من طرف رجال الإمام بقبول منصب يليق به، فلم يقبل، لعلمه بأنّ فكرته التي يبثّها لم تنضج.

---

(1) المنهاج: ج ٥ – م ١ – جمادى الأولى ١٣٤٤ هـ - ص ٢٧٦ .
(2) المنهاج: ج١ و٢ – م٢ – محرم وصفر ١٣٤٥ هـ - ص ٦٩ - ٧٢ .
(3) المصدر نفسه : ص ٦٩ .

ولو قبل منصبا مهما كان في ذلك الوقت لما توفّق بسهولة إلى إتمام مراده، ولحصلت عراقيل كثيرة في سبيل ما يقصده من الإصلاح "[1].

فصّل الكاتب في الحديث عن أعمال الباروني بعد تقليده الوزارة، وأنهاه بالإشارة إلى استبشار النّاس بهذه الخطّة التي نفّذها قائلا : " الرجل العظيم الذي أحسنت دول الحلفاء صنعا في تضييقها عليه، حتّى ساقه القدر إلى هذه البلاد رحمة ونصيرا... وأجلّ ما يؤمّله العقلاء الآن هو حصول ما كان يرمي إليه الباروني، في سعيه منذ وصل مسقط وعُمان من التّأليف بين السّلطان والإمام وبعض الأمراء، لتصبح البلاد كتلة واحدة كما كانت... ومن رأي الباروني التّباعد عن معاداة أيّ دولة من الدّول أجنبية أو مسلمة، والانشغال بإصلاح الدّاخلية علما واقتصادا. وسيرينا الزّمان قريبا مسلكه؛ وعهدنا به أنّه عديم المثال في التّمسّك والثّبات على المبدأ القويم من قديم الزّمان ... "[2].

فالباروني إذا كان نعمة أنعم بها الله تعالى على عُمان؛ إنّه من القليلين الذين يثبتون على مبادئهم السليمة، بدليل سيرته العطرة التي يعرفها العامّ والخاصّ، داخل موطنه طرابلس الغرب وخارجه.

المبحث الرابع: ملامح شخصية الباروني من خلال هذه الكتابات

حاولنا استنطاق النصوص الواردة في مجلّة المنهاج ذات العلاقة بالباروني، فوجدناها متضمّنة لكثير من الإشارات إلى ملامح شخصيته، نجملها في النّقاط الآتية:

* رائد من روّاد الحركة الإصلاحية، انشغل بهموم الأمّة الدينية، التربوية، السياسية، والاجتماعية.

---

(1) المصدر نفسه : ص ٦٩ – ٧٠ .
(2) المصدر نفسه : ص ٧٢ .

* تقليده منصب الوزارة يقف وراءه إيمان بقدراته التي امتلكها من خلال تجاربه السّابقة في مجال السياسة.

* شخصية أحبّها العامّ والخاصّ في عُمان، إذ استبشروا خيرا بقدومه، وتفاءلوا بما سيقوم به من إصلاحات.

* شخصية المجاهد الذي لم يكلّ ولم ينهزم أمام كثير من الظروف التي لم تخدمه. جاهد بسيفه ثمّ بقلمه؛ فقد اتّخذ كلّ الوسائل حتّى لا يعطّل فريضة الجهاد.

* صاحب مواقف واضحة تجاه المسائل المصيريّة، مثل قضيّة عُمان، وقضية الحجاز، وقضية الخلافة، والمعاهدات المبرمة مع الأعداء...

* كان ذا شخصية إسلامية قويّة واعية، تجلّى ذلك من خلال ردوده التي تضمّن بعضها غيرة على المقدّسات.

* صاحب عقيدة راسخة، فرضت عليه الأدب الرّفيع في التّعامل مع الآخر، والمجادلة بالّتي هي أحسن.

* شخصية ضحّت بالنّفس والنّفيس من أجل إسعاد الأمّة، يعكسه ما أصابه من علل جسدية ولم يتوان في إتمام مشروعه الإصلاحي.

* هو المؤمن النّصوح، الذي مافتئ ينتهز الفرص ليقدّم النّصيحة الواجبة إلى عامّة النّاس وخاصّتهم، في خطبه وأشعاره ومقالاته.

الخاتمة

نخلص في النهاية إلى أنّ مجلّة المنهاج مكّنتنا من الوقوف على بعض ملامح شخصية الباروني. ففي سيرته دروس وعبر كثيرة، هي نبراس نهتدي بها في هذه الحياة الدنيا. ويكفينا القول أنّ في نظرياته السياسية ما يصلح للمدارسة والتطبيق.

ولله درّ القائل : " لقد ترك الباروني باشا زعيم المجاهدين الطرابلسيّين فراغا لا يمكن أن يسدّه رجل اليوم، وأين الرّجل الذي تجتمع فيه تلك الخصال التي اجتمعت للباروني؛ من علم وشريعة وسياسة رشيدة، ومعرفة تامّة بالفنون الحربية وممارسة القتال، ممّا أفاده في جهاده المستمرّ ضدّ الغاصبين المستعمرين. ويتوّج كلّ هذا سموّ في الأخلاق وكرم في المحتدّ وطاعة لله ورسوله، ممّا هيّأه لأن يكون مصلحا اجتماعيا، لا يجود الزمان بمثله "[1].

---

(1) حياة سليمان باشا الباروني: ص٤ .

صورة الباروني في شعر أبي سلام الكندي

أحمد بن سعود السيابي(*)

الباروني في عُمان

وصل الشيخ الزعيم سليمان باشا الباروني إلى عُمان في السابع من شهر محرم عام ١٣٤٣هـ/ الموافق الثامن من شهر أغسطس لعام ١٩٢٤م، بدعوة من السلطان تيمور بن فيصل بن تركي، في أول زيارة للزعيم الباروني إلى عُمان.

وقد استقبله العُمانيون استقبالا حافلا مملوءاً بالحفاوة والحرارة والأريحية، وفي رأيي أن عُمان لم تستقبل زائرا بتلك الحفاوة البالغة كمثل استقبالهم للزعيم الباروني، وأكاد أجزم أن الباروني لم يستقبل في غير عُمان بمثل ذلك الاستقبال.

ولنستمع إليه وهو يصف لنا أحد تلك المشاهد الاستقبالية عن زيارته لبلدة الحمراء حيث يقول : " وكان لدخولنا إلى الحمراء منظر مطرب : وقد تلبد دخان بنادقها ومدافعهم في الجو كالسحاب ،وكنا نمر بين مزارعها الخضراء، تحف بنا الرجال والخيل والمهر ،وقد بلغ عدد البنات والخادمات اللاتي يحملن جرار الماء المغطاة بأكواب الزجاج على رؤوسهن نحو المائة، يراهن الناظر كأسراب الظباء يمينا وشمالا ينادين هل من شراب ؟ ويرى الأكواب والجرار تلمع كالنجوم عند مقابلة الشمس، فكان الموكب من أجمل ما شاهدته من المواكب ".

(*) أحمد بن سعود السيابي، الأمين العام لمكتب الإفتاء، عُمان.

ويصف الشاعر أبو سلام الكندي مشهداً آخر من تلك المشاهد الاحتفائية عندما زار الباروني بلدة " نفعاء " بولاية بدبد بقوله :

أعـــلام نفـــعا بالبشارة تنشـر ... وعـن السـرور بكـــل نـاد تخبر
لما أتى الباروني ســـاحة أرضـها ... أضـحت بهـا سحب التهاني تمطر
أهلاً به من قـادم فـي موكـب ... كـالليث إذ نـار التصـادم تـسعر
تاهت بها نفـتعا فـخارا مثلما ... تـاه الجـواد بـه وتـاه الـمنبر
أضحت مدافعها ترحـب والقـنا ... تبدي التحـية والسـيوف تبـشر
وترى الملأ يتـــهافتون لنـحوه ... فـرحـا وكـل بالتـحية يبـدر
حدقـوا بـه وكـأنه من بينهم ... مـلك يتوج والخـلائق تنـظر
عرفوه حقا قبل رؤيـة شخـصه ... لـما رأوه استـعظموه فكـبروا
لله يوم الوصل أصبـحت القرى ... كلا تطـالبه الوصـال وتنـذر
شرفت به نفعا[1] وطـابت مثلـما ... سعدت به[2] فنجاء[3] وطابت بوشر
آل السيـب[4] لا تزال بـلادكم ... أعـلامـها فـوق المـجرة تنشر

وقد ارتسمت له صورة رائعة وجميلة في الشعر العُماني، حيث انبرى الشعراء العُمانيون، واتفقت قرائحهم شعرا فيه، الكثير من المديح والإطراء والثناء على الزعيم الباروني، وتبارروا في إلقاء قصائدهم في حضرته وحضوره، تغنيا بأمجاده وبطولاته وأدواره السياسية، وجهوده الإصلاحية، غير أن أغزر أولئكم الشعراء شعراً في الباروني، هو الشاعر المبدع البليغ الفصيح أبو سلام الكندي، الذي كان مرافقا له في جولاته ورحلاته العُمانية، فقد قال فيه سبع عشرة قصيدة في الإشادة به علماً وعملاً وجهاداً ومواقف.

---

(١) اسم بلد في عُمان.
(٢) اسم بلد في عُمان.
(٣) اسم بلد في عُمان.
(٤) قبيلة السيابين.

كما رثاه بمرثيتين سكب فيهما دموعاً سخينة عليه.

لذلك رأيت الاكتفاء بشعر أبي سلام الكندي لاستجلاء صورة الباروني المتعددة الأبعاد، نظراً إلى كثرة الشعراء الذين سالت قرائحهم في وصف ذلك الزعيم والإشادة به، الأمر الذي يطول معه البحث والقول، إذا نحن استعرضنا صورة الباروني في أشعارهم.

والشاعر أبو سلام، هو سليمان بن سعيد بن ناصر الكندي، وهو ينتمي إلى أسرة عريقة في العلم، فأبوه الشيخ سعيد بن ناصر الكندي أحد العلماء الكبار في عُمان في عهده.

وعاش الشاعر أبو سلام حياته بين مسقط وبوشر ونزوى وقد توفى سنة ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م وله ديوان شعر غير مطبوع، وهو متأثر في شعره إلى حد كبير بشاعر العرب أبى مسلم ناصر بن سالم البهلاني الرواحي، وقد كلف الشاعر أبو سلام بمرافقة الباروني من قبل الحكومة في مسقط.

على أن صورة الباروني في شعر أبي سلام الكندي متعددة ومتنوعة، لكن أبرزها مايلي:

الباروني مرحبا به في عُمان

كان الباروني أول مكان في عُمان ينزل فيه ويحط فيه رحاله، هو العاصمة مسقط حيث استقبله السيد نادر بن فيصل أخ السلطان تيمور، رئيس الوزراء، وذلك لأن السلطان تيمورا كان في زيارة إلى الهند، وهناك ألقى الشاعر أبو سلام أولى قصائده في الباروني مرحبا به زائراً في عُمان، حيث قال:

هـــذه البشـــــائر جـــــاءت تتهـــادى وبالســـرور تنـــادي

ذا الفـــتى البـــروني جاء هلموا　　يالقومي للثم تـــلك الأيـــادي
صحـــت في الحـــي يالقومي هبوا　　ذا سليمان مصـــدر الـــورّاد
أصبحت مسقـــط بوصـــلك تسمو　　بفـــخار علـى جميع البـلاد
بوركت أرضـها ونـارت سمـــاها　　يا كريم الآبـــاء والأجـــداد

الباروني عالماً

يعد الباروني من العلماء، فهو قد جمع علوما كثيرة، لأنه نهل من منابع العلم عندما كان شابا، وأبرز من أخذ عنهم العلم والده العالم عبدالله بن يحيى الباروني، والإمام محمد بن يوسف اطفيش في الجزائر ،كما أنه درس في الزيتونة بتونس، وبالجامع الأزهر بمصر، لذلك وصفه الشاعر أبو سلام بأنه عالم، حيث قال فيه:

أنت شمس العلوم أنـــت سناهـــا　　بـــك قامـــت دعـائم الارشـاد

وقال فيه:

هو البحر بحر العلم غص فيه تلتقط　　جواهره واقصده يغنـــك نـــائلـه

وقال في رثائه له:

ولكم له مـــن كـــمة منـــشورة　　ومـــؤلف كالـجوهر المـكنون
شهدت علـــى آثـــاره أسـفاره　　أزهاره (٦) حفـلت بحجم فـنون
قد غاض بحر العلم وانطمس الهدى　　بذهـاب هذا الطالع المـــيمون

الباروني مقاوما للمحتل الايطالي

احتلت ايطاليا ليبيا، فكان على أحرار ليبيا مقاومة المحتل لإخراجه منها، وتحرير ليبيا، فكان الباروني في مقدمة أولئكم الرجال الأحرار المجاهدين، وكان

العُمانيون يتابعون جهاد إخوانهم الليبيين، ويعرفون مقاومة الباروني، لذلك الاحتلال البغيض، لذلك كان الشاعر أبو سلام يشيد به عبر عدد من قصائده، ويذكر ذلك له حيث قال:

كم روايات لنا عنك أتت ... وأحاديث بصدق وردت
إنما أنت جحيم سعرت ... لذوي الكفر اذا جاءوا الحمى
كم جواد لك في الحرب ورد ... وشجاع رام لقياك فرد
وزعيم من بني الشرك فقد ... من شبا سيفك نال الألما
سائل الطليان ماذا وجدوا ... من سليمان وماذا شاهدوا
كلما للحرب نارا أوقدوا ... أطفأوها إذ رأوه هجما

وقال في هذا المعنى في قصيدة أخرى:

وكم كرة في المشركين أتى بها ... وإن أوقدوا نارا طفتها ذوابله
حسام الدين الله لم تثن عزمه ... صواعق إرهاب العدا ومعاوله
هو الأسد الكرار في حومة الوغى ... إذا اشتبكت سمر القنا ومناصله
قد أصبحت ايطاليا في مهانة ... لما شاهدت من بأسه إذ تقاتله

وقال في قصيدة أخرى:

سمعنا بما أوقعته في طرابلس ... فحسبك فخرا بالمعارك يرسم

وقال فيه أيضا:

كفى العرب فخرا أنت منهم وكيف لا ... وأنت أبو الهيجاء للحرب مسعر
رأت دول الاحلاف أسرك راحة ... فأبقتك في باريس[1] كالليث تزأر

---

[1] يشير إلى منعه من الخروج من فرنسا بطلب من إيطاليا، فبقى في باريس ومرسيليا حتى توسط له الشريف حسين بن علي ملك الحجاز آنذاك فسمح له بالخروج .

وقال فيه أيضا:

هو الفارس المقدام من شهدت له ... أروبا بما لاقت إذا البحر تسطع
فإن قبضت كفاه سيفا سطابه ... وإن قلما منه الجبابر تخضع
له صدمات في الحروب شهيرة ... تؤرخها أيطاليا حين تصرع
فمن كابن عبدالله جئني بمثله ... إذا ازدحم الفرسان والبيض تلمع

الباروني بطلاً

البطولة في الحروب بل وفي سائر مناحي الحياة، أمر مطلوب ولا شك أنها في مجال الحرب والنزال لها الحسم في الغالب المعتاد، ما لم تكن هنالك ظروف تحول دون ذلك، وقد كان العُمانيون ومن بينهم الشاعر أبو سلام، يتابعون الباروني في جهاده ضد الايطاليين، وما كان يحققه من بطولات في حربه معهم ومقاومته لهم، لذلك جاء وصفه في شعر أبي سلام بأنه البطل في الحروب ومن ذلك قوله :

قم يا رفيقي نلبي دعوة البطل ... نطوي الفلا في دجى الأسحار والأصل
ونترك العيس تهوى والحداة بها ... كأنما سيرها ضرب من الختل
حتى توافى بنا نزوى فننزلها ... عند الهمام فيشفيها من العلل
ذاك الباروني من أم العفاة له ... فيصدرون بفضل الله متصل

ووصفه في قصيدة أخرى بقوله :

بطل الحروب أبو الفوارس من غدا ... فوق المجرة والسماء يحلق
أسد يكر اذا الحروب تأججت ... نارا ومنه أخو البسالة يفرق
ذاك الباروني الذي أروى العدا ... بحسامه البتار فهو موفق

وعندما ولّى الامام محمد بن عبدالله الخليلي الباروني الوزارة التي سماها شاعرنا أبو سلام "**بنت العلا**" قال فيه :

بنت العلا إن المعالي صعبة ... إلا لمثلك أين هم يعلوك
خطبوك أرباب المناصب كلهم ... لولا طلاب المجد ما خطبوك
يتسابقون إليك كل يرتجى ... منك الوصال لانهم عرفوك
زفوك للبطل الغيور وأنت في ... حلل المكارم عندما زفوك
زفوك للبطل الغيور وأنت في ... لابن الباروني أنه لكفوك

الباروني سياسياً

خبر الباروني السياسة من كل جوانبها، وتمرس بها تمرسا طويلا، وتقلبت به كثيرا، بدءا من مقاومة الاحتلال الايطالي في ليبيا، وعلاقته المتوترة مع الدول الغربية، وعلاقته الجيدة مع الدولة العثمانية التي أوصلته إلى عضوية مجلس المبعوثان(الشورى) في تركيا، ثم تنقلاته في العديد من الأقطار، وأقامته لعلاقات جيدة مع حكامها وأصحاب القرار فيها.

كل ذلك أعطاه خبرة كبيرة في شؤون السياسة الداخلية والخارجية، لذلك عند وصوله عُمان أحب أن يفرغ تلك الخبرات السياسية، والتجارب الإدارية لتكون معالم واضحة أو خطوطا عريضة تسير عليها الدولة في عُمان.

على أن قصيدته الغراء التي وجهها إلى الإمام محمد بن عبدالله الخليلي رحمه الله تعالى، تبين ذلك خير بيان، إذ يقول فيها :

فانهض وشمر فالعوائق جمة ... ولذا الزمان سياسة خرقاء
تذر العقول الراجحات بحيرة ... ويرى بليدا من لديه ذكاء
خل القضا لرجاله واعكف على ... تنظيم جند فالنظام دواء

وامـــح التـــداعي بـالقبائل انه سهم العـــدو ومـحنة سوداء
واجمـع قلوبـا بالخـــلاف تمـزقت حتى يضـــم شتـــاتهن لـــواء
ولشبل فيـصل[1] ول طرفك عاقدا معه الخناصـــر فالشقاق شـقاء
دع ما تقـــدم واعـــملن لـــمقبل فـــلآل فيصل همـــة ووفـــاء
وامدد إلى نـــجد يـديك مصافحا صمـصامها بـــل نارها الزرقاء
واعطف إلى سبط الرسول حميد من ضاءت بطلعة بـــدره صـــنعاء
وهنـــالك اتحـــدوا ولا تتفرقـــوا وتعاهدوا ولتـــشهدن حـــواء
ودعـــوا وساوس من يفرق واذكروا مجد الجدود ليســـعد العـقلاء
وضعوا الحدود بـــصورة مـــقبولة ترضي الإله فيطـــرب العقلاء
وليعن كـــل بـــعد ذا ببـــلاده وكنوزها فلـها بتـــلك غـــناء
فعساكر وتجـــارة وصنـــاعـــة وزراعـــة ومـــدراس عـــلياء
إذ ذاك يرجع للجزيـــرة عـــزها ولها جمـــيع المســلمين فدآء

من هنالك كان الشاعر أبو سلام غير مخطئ عندما قال فيه :

يا مرشـــد الأمـم السياسة والهدى أرشد عُمان فأنـت هـاد موفق
ولطالما حنت لوصـــلك ترتـــجي ما أمّلته وأنـت حـر مشـــفق

وقال فيه أيضا من قصيدة أخرى :

ما كل من يولي الأمـور يسوسها إن لـم يكـن في بـحرها عواما
مـا ضل قـوم قلـــدوا آراءهـــم ابـن البرونـــي سيدا وهمـــاما

وقال أيضا :

ولبوا دعا ابـن الباروني واقبـــلوا إلى الـرأي ما يلقيـه يوم النوائب

---

(1) يعني السلطان تيمور بن فيصل.

خبيـــر بـــأحوال السياسـة كلـها لقد حنكته الحرب أيدي التجارب

الباروني مصلحاً

من واقع المعطيات التي كان يتمتع بها الباروني من علوم ومعارف وخبرات، أصبح ينظر إليه إلى أنه مصلح، فهو مصلح ديني ومصلح سياسي، ومصلح اجتماعي، ومصلح تربوي إلى غير ذلك من وجوه الإصلاح، يعرف ذلك عنه من قرأ له رسائله وأشعاره وخطبه، فقد كان من دعاة الجامعة الإسلامية (الوحدة الإسلامية) التي انطلقت في بداية القرن العشرين.

ونظراً إلى تلك القيم الإصلاحية التي كان يدعو إليها في حياته، قال فيه شاعرنا أبو سلام:

هـــذا سليمان بن عـــبدالله قـــد وافـــى إليكـــم فانشروا الأعلاما
قد جاء يسعى في صلاح بلادكم مـتداركا أوطـــانكم قـــوامـــا

وقال مخاطبا له عندما ولاه الامام الخليلي الوزارة :

قم سليمان في صـــلاح البـــلاد لا تبـــال بقـــول اهـــل الـــعناد
إنـــما أنـــت عـــالم كيف اضحت أمـــم الـغرب تـــزدري بالعـــباد
فابـذل النفس والنـــفيس وشـــمر واصرف الـجهد من صميم الفؤاد
نظـــم الجـند واجمع المال واسلك بعُمان سبـــــل أهـــل الرشـــاد
وانشر العلـــم والـــمعارف وامحق أثر الجهل من جمـيع البـــلاد
فبـــهذا و ذاك نـــحيا ونـــرقى ذروة المجد يا طـــويل النـــجاد

وقد أنشأ الزعيم الباروني مدرسة للتعليم العصري في مدينة سمائل عندما كان في مسؤولية دولة الامام الخليلي، وفي ذلك قال أبو سلام :

اذا ما مضى ذاك الزمان أو انقضى فبالبطل الباروني يجتمع الشمل
سعى جاهدا يحيى البلاد مشمراً ينادي وقد زكى مقالته الفعل
علت مفخراً أعلى سمائل فاعتلت بهمته القعساء على غيرها تعلو
فشمر في إنشاء مدرسة بها لإحياء شعب طالما مسه الجهل

رثاء أبي سلام للباروني

غادر الزعيم الباروني الحياة سنة ١٣٥٩هـ/١٩٤٠م في مدينة بومباي بالهند، ذاهبا إليها للعلاج بصحبة السلطان سعيد بن تيمور الذي كان قد اتخذه مستشارا سياسيا، ورثاه شاعرنا أبو سلام الكندي بمرثيتين.

أولاهما مطلعها:

ما بال ركن الدين أصبح منهدم وبلادنا أضحت كليل مد لهم

ويقول فيها:

وترى المعاقل نكست أعلامها حزنا فهل من حادث فينا ألم
أبكي سليمان بن عبدالله ما قد عشت أبكيه بدمع منسجم
لا زال يوليني الجميل حياته فالله يجزيه بأولى نعم
يا ليتني كنت المشيع نعشه كيما أودي ما علي من الذمم
كانت منيته بمباي فكم باك عليه من الأنام وكم وكم

والثانية مطلعها:

إن العروبة والشهامة والحجى قد ضمنت قبرا به الباروني
طابت به شرفا وطابت تربة بمباي فيالله من مدفون

ويقول فيها:

هذا سليمان بن عبدالله من ... ضبط البلاد غدا أليف بطون
ذهب الذي نصب المعالم للعلى ... ودعا إلى إحياء علوم الدين
رحل الفقيد له مآثر جمة ... بالمغرب الأقصى وأرض مزون[1]

الخاتمة

هذه هي صورة الزعيم سليمان باشا الباروني في شعر الشاعر الفصيح أبي سلام سليمان بن سعيد الكندي، كأنموذج لما حظى به الباروني من مكانة رفيعة عند العُمانيين، الأمر الذي جعل الشعراء العُمانيين يبادرون إلى مدحه والثناء عليه، ووصفه بالصفات الجميلة والخلال الحميدة، فهو البطل، وهو المجاهد، وهو العالم وهو السياسي المحنك وهو المصلح الديني والاجتماعي والتربوي.

ولما كان الشاعر أبو سلام الكندي هو أكثرهم شعراً فيه، وأكثرهم تأثراً به، اعتمدنا الصورة المشرقة المتعددة الجوانب والأبعاد للزعيم الباروني من شعر أبي سلام الذي أنشأ فيه سبع عشرة قصيدة، وقصيدتين في رثائه.

---

[1] مزون هي عُمان، ويقال إنه تسمية فارسية، كما سماها السومريون ماجان، واسمها العربي عُمان.

البـــاروني والـــجزائر في ظل الاحتلال الفرنسي

أ.د. أبو القاسم سعد الله (*)

هذه المداخلة تهتم بجزء من حياة سليمان الباروني باشا، وهو الجزء الذي قضاه في الجزائر، أو طلبه من السلطات الفرنسية السماح له بالعيش فيها للعلاج ونحوه، أو تبادل الرسائل والأخبار مع نخبتها، خاصة نخبة ميزاب التي تتفق معه في المذهب والهدف وتمده بالمعلومات، العلنية والسرية، عن الجزائر وتفاعلات رجالها في وقت اشتدت فيه وطأة الاستعمار بعد الحرب العالمية الأولى.

ومن أبرز المتراسلين مع الباروني في هذا المجال الصحفي النشيط إبراهيم بن عيسى المعروف أبو اليقظان صاحب عدة جرائد ينطبق عليها في صراعها مع الإدارة الاستعمارية قول الشاعر : كلما غاب سيد جاء سيد...[1] والعالم التاجر الحاج عمر العنق، والمثقف العامل إبراهيم بن نوح امتياز.. وقد تتبعت الورقة آثار الباروني من حلوله بالجزائر تلميذا على الشيخ محمد بن يوسف اطفيش إلى توليه النيابة عن ليبيا في مجلس المبعوثان (البرلمان)، ثم إلى قبوله القيام بشؤون الإصلاحات السياسية والعسكرية والتعليمية في مسقط بتكليف من الإمام، بل إلى حصوله على الجنسية العراقية (التابعية) التي منحته بعض الحرية في التنقل والتداوي وممارسة السياسة العملية من جديد، رغم إصابته بأمراض مزمنة ومعاناة ابنه.

وقد أظهرت الدراسة أن الباروني كان ابن الجبل الغربي (نفوسة) في ليبيا، وأنه كان يشارك في الحياة السياسية والفكرية في البلاد العربية والإسلامية،

(*) أ.د. أبو القاسم سعد الله، أستاذ التاريخ الحديث المعاصر، جامعة الجزائر، الجزائر.

(1) محمد ناصر: أبو اليقظان ونضال الكلمة، الجزائر، ١٩٨٠م. أما الحاج العنق فهناك معلومات متفرقة عنه إذ نعرف أنه كان يتعاطى التجارة والتعليم وأنه من أنصار الإصلاح في تبسة وقسنطينة وورقلة (وارجلان)، وأما إبراهيم امتياز فيمكن الرجوع عنه إلى كتاب شعراء الجزائر في العصر الحاضر، تأليف الهادي السنوسي، عدة طبعات، أولها سنة ١٩٢٧م في تونس.

معلقا على الأحداث، وله رأي فيما يصدر عن الطرف الآخر من تصريحات وبيانات، كما أظهرت بعد نظره في الممارسات العربية بعد معاهدة سايكس- بيكو وتناقض المصالح الأوروبية في العالم العربي.

حاولنا تقسيم المداخلة إلى عناصر لا يقود بعضها إلى بعض بالضرورة لأن الموضوع رصد لأشتات معلوماتية، وعلى القارئ أن يساعدنا في تكوين رؤية إيجابية مشتركة- إذا أمكن- عن الخاتمة التي ستخرج بها هذه الدراسة.

الإدارة الفرنسية في ميزاب

كانت الإدارة الفرنسية الأهلية في الجزائر كلها، ومنها ميزاب، بأيدي ما يسمى بالمكتب العربي، وهو جهاز إداري لجمع المعلومات وتصريف الأمور وتنفيذ القوانين الفرنسية الخاصة بالاستعمار وقمع الاضطرابات. وهو في معظم مظاهره يقوم مقام البلدية اليوم. وقد جرت العادة أن يترأس هذا الجهاز ضابط فرنسي خبير بشؤون البلاد وعادات الأهالي، ويساعده في مهمته ترجمان وقاض ومحاسب وشاوش.. وحراس. ويقع المكتب داخل أو قرب ثكنة عسكرية تشرف على أمن البلدة أو المدينة. كما أن على الضابط المسؤول أن يكون عارفا بلغة الأهالي (اللغة العربية الفصحى أو الدارجة، مضافا إليها أحيانا بعض الألسنة المحلية)، وعليه أيضا أن يكون دارسا لطوائف الناس وإمكاناتهم التجارية والاقتصادية، وخلافاتهم المذهبية وانتماءاتهم الصوفية ليستثمرها وقت الحاجة. وكان وادي ميزاب في نظر الفرنسيين مركزا هاما في طريق القوافل الصحراوية بين الشمال والجنوب لتعاطي التجارة في أسواق نافقة في اتجاه الشمال نحو المدن الجزائرية واتجاه الجنوب نحو غدامس وغات وتنبكتو. لذلك اعترف الفرنسيون بالجاليات الميزابية المنتشرة في المدن الشمالية الكبيرة كالجزائر

وقسنطينة حيث كانوا يؤلفون نقابات متخصصة في صنع وبيع مواد غذائية معينة باتفاق مع السلطات العثمانية سابقا والفرنسية لاحقا.

ولعل أهم من ذلك كله في نظر بني ميزاب هو أن الفرنسيين اعترفوا بخصوصية المذهب الإباضي، وسمحوا لأهله بممارسة شعائرهم ومحاكمهم طبقا لهذا المذهب، وبتأسيس الكتاتيب القرآنية والمساجد في ميزاب وفي المدن التي تضم جاليات منهم. وذلك يعني اعتراف السلطة الفرنسية بالفقه الإباضي ومرجعيته الأصولية. وكان الشيخ محمد بن يوسف اطفيش (١٨١٨-١٩١٤م) هو العلم المشار إليه في هذا المجال في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، كما أن شرحه كتاب النيل وشفاء العليل أصبح هو المرجع الفقهي لهذا المذهب كما كان الموطأ بالنسبة للمذهب المالكي. ومهما كانت خلفيات الفرنسيين من إحداث هذا " التوازن المذهبي " في الجزائر فإنهم كانوا يأملون أن يستفيدوا منه وقت الحاجة.

وقد تخصص بعض المستشرقين في الدراسات الإباضية وتقاليد بني ميزاب، وكان إيميل ماسكري(١٨٤٣-١٨٩٤م) من المبكرين في دراسة المدن الميزابية والأحوال الاجتماعية والعمرانية فيها (إضافة إلى مدن منطقتي الأوراس والقبائل). ومنهم في هذا العهد أدولف موتلانسكي(١٨٥٤-١٩٠٧م) الذي تولى الشؤون الإدارية في ميزاب مما فتح له شهية الدراسات الفقهية والدينية عموما انطلاقا من المذهب الإباضي. وفي هذا النطاق نشر موتلانسكيمدونة ابن غانم وأعمالا أخرى في الفترة التي كان فيها سليمان الباروني تلميذا في معهد الشيخ اطفيش.

دراسة الباروني في معهد أطفيش

درس سليمان الباروني في معهد الشيخ القطب محمد بن يوسف أطفيش في بني يزقن (يسقن). أثناء دراسته أثرت عليه البيئة بما فيها من أناس جديين وطبيعة صحراوية متقشفة وتقاليد اجتماعية تميل إلى الخشونة والصرامة. ولا ندري ما الذي جعله أو جعل والده يختار له وادي ميزاب أو الشبكة، كما تعرف في التاريخ السياسي. هل هو البعد عن الإدارة العثمانية التي كانت يدها تمتد إلى الجبل الغربي أو قبيلة نفوسة، وكانت ربما تعامل أهل نفوسة معاملة خاصة عرقيا ومذهبيا. أما بنو ميزاب فمعترف لهم ب"أحوالهم الشخصية" الخاصة وبحقهم في الاحتفاظ بتقاليدهم التاريخية تحت الإدارة الفرنسية، وكانوا بحكم المنافسة بين الدولتين، يستطيعون أن يطالبوا بحقوق منصوص عليها في اتفاق بينهم وبين الفرنسيين غير أن هؤلاء افتكوها منهم تحت شعار توحيد البلاد (الجزائر) التي تعتبرها فرنسا أقاليم فرنسية.

لم يكن الشيخ اطفيش مرجعا فقط في المذهب الإباضي وإنما كان أيضا في الشؤون السياسية التي تهم فرنسا وبني ميزاب. لذلك كان الفرنسيون يستشيرون الشيخ أطفيش، ويسمحون له بالحج وزيارة بعض أصدقائه، وقبول الهدايا والأوسمة. فقد نال في هذه الأثناء أوسمة رسمية من الفرنسيين ومن سلطان بني عثمان ومن حكومة تونس تقديرا لعلمه ومكانته[1]. ولا ندري مدى تأثر الباروني بشيخه في ممارسة السياسة والجمع بين العلم وخدمة الأمة الإسلامية. فقد أنشأ الباروني عدة مشاريع تحسب في ميزان الزعامة والتمهيد لصعود نجمه في مصر وليبيا والدولة العثمانية كالمطبعة البارونية، وتعاطي التجارة وتأسيس جريدة الأسد الإسلامي، وطبع كتب التراث الإباضي مثل

---

(1) عن ذلك انظر كتابنا تاريخ الجزائر الثقافي ج ٣، ط. عالم المعرفة، بيروت، ٢٠١١م، ص ٢٦٤.

الأزهار الرياضية، ومختصر تاريخ تيهرت، كما قام بطبع نظم جواهر الإكليل للشيخ خليفة بن حسن عن مختصر الشيخ خليل في الفقه المالكي[1].

ومهما كان الأمر فإن فترة دراسة الباروني على الشيخ اطفيش في ميزاب بالذات في حاجة إلى بحث خاص يحدد عوامل تأثيرها عليه، فهي لا شك قد تركت بصماتها عليه وعلى آرائه فيما يستقبل من الزمان، خاصة عندما كرر الزيارة لميزاب، متتبعا آثار شيخه مجددا الرابطة الروحية والتاريخية معه ومع النخب الميزابية بعده. وسنشير إلى رحلتيه لميزاب فيما يأتي من البحث.

الباروني وسياسة الدولتين العثمانية والفرنسية في المغرب العربي

لم تكن العلاقات بين الدولتين: العثمانية والفرنسية قد توترت إلى الحد الذي تلغي فيه زيارة الباروني للجزائر، وإنما حاولت كل منهما توظيف الزيارة لصالحها بالتأثير على الباروني بجعله يحس أنه في الجزائر كان بين أهله وإخوانه وأن فرنسا صديقة له كما هي صديقة للدولة العثمانية. وكان لسان حالها يقول للباروني عليك الاعتماد على فرنسا عند الحاجة لأنها ذات حدود مشتركة مع ليبيا العثمانية، وإذا واجهتك ضغوط محلية أو دولية فبإمكانك الرجوع إلى فرنسا والدخول تحت حمايتها. ومن أجل بناء هذه الفكرة في ذهنه مهدت له الطريق للاتصال بأبناء ميزاب في مختلف المدن الجزائرية.

لذلك نجده قد أجرى اتصالات مكثفة مع الحاج عمر العنق وابراهيم امتياز وإبراهيم بن عيسى أبي اليقظان.. وقد كان الأخير على رأس البعثة التعليمية الميزابية في تونس. وسنلاحظ أن الباروني قد خص أبا اليقظان بكثير من أسراره ورسائل المكاشفة والشعر الملغز الذي يشير فيه إلى أشياء لا تذكر في النثر إلا

---

[1] عن كتاب الأزهار انظر لاحقا، وعن جواهر الإكليل انظر كتاب إتحاف القاري بحياة الشيخ خليفة بن حسن القاري للشيخ محمد الطاهر التليلي، ط.٢، تالة، الجزائر، ٢٠١٠م.

صريحة. فكان الباروني شاهدا على نهضة الجزائر (نهضة بالمفهوم المحلي) معتبرا الجزائر وطنه الثاني.

جريدة الفاروق وزيارة الباروني الثانية للجزائر

عبرت جريدة الفاروق التي كان يديرها الصحفي عمر بن قدور[1] من الجزائر عن طقوس الاستقبال الاستثنائية التي حظى بها الباروني،أثناء الزيارة الرسمية. وبناء عليها قد سهل له الفرنسيون تحقيق أهدافه. وكان المعلن منها هو زيارة ضريح شيخه القطب أطفيش الذي توفي حديثا (١٩١٤م). وبهذا الصدد سمح الفرنسيون للموظفين وأعيان بني ميزاب وعلمائهم بالتوقف عن العمل واستقباله ومرافقته بشكل احتفالي ضخم. وكانت مهمة توفير الأمن والراحة له أثناء السفر البعيد قد تولتها السلطات الفرنسية.والغالب على الظن أن وصف الرحلة كان بقلم عمر بن قدور ولكن السلطات الفرنسية هي التي وافقت عليه. وهو وصف يدل على أنها وافقت على الزيارة، لأنها، كما قال أبو اليقظان، كانت تخشى اتصال الباروني بأهل البلاد، وخاصة أعيانهم.

العنوان الذي اختارته جريدة الفاروق لرحلة الباروني هو" الباروني في صحراء الجزائر "، وأضاف كأنه سافر من العاصمة إلى بني يزقن في شهر أبريل وهو من شهور الربيع الجميلة في المناطق الصحراوية. وعنوان الفاروق يشبه العناوين التي تتبجح بها جريدة المبشر الرسمية[2] عندما تصف أنشطة السلطة الفرنسية نحو الأهالي. قالت الفاروق إن الإدارة الفرنسية أعطت إجازة

---

(١) عمر بن قدور تحدثنا عنه في الإسهام الصحفي بداية القرن العشرين. وقبل أن ينشئ صحفا باسمه. وقد اشترك مع باروكان صاحب جريدة الأخبار الفرنسية التي أصبحت تنشر ملحقا بالعربية كان ابن قدور هو الذي يحرره ويشرف عليه وكان قد تبنى مذهب الإصلاح الذي دعا إليه الشباب (النخبة) الجزائري. وبعد الحرب العالمية الأولى أنشا ابن قدور بعض الصحف باسمه وأسهم في صحف أخرى. وقيل إنه عذب ونفي إلى الصحراء خلال الحرب العالمية الأولى من قبل الفرنسيين.

(٢) جريدة الحكومة الفرنسية الموجهة إلى الأهالي الجزائريين. وقد ظهرت في نهاية سنة ١٨٤٧م، وكانت تصدر باللغتين، وهي حسب دارسي تاريخ الصحافة العربية ثاني صحيفة بالعربية بعد الوقائع المصرية.

للقضاة والعلماء، وأن بعضهم قد ألقى خطبا ترحيبية بين يدي الباروني، كما رد هو بخطب وكلمات شكر. ثم وصل موكبه إلى غرداية حيث مقر الإدارة الفرنسية. ولم يتوان الباروني عن شكر فرنسا التي وفرت له شروط الراحة والوصول إلى بلدة شيخه حيث قضى ردحا من الزمن تلميذا عليه.

وفي مقر الحاكم الفرنسي استقبل رسميا كما استقبل من العلماء والموظفين، ثم زار ضريح شيخه القطب اطفيش. وكان الباروني مرفقا بشيوخ الناحية الذين منهم الحاج عمر العنق[1]. وردا على هذا الاستقبال الحافل شكر الباروني أصحابه المعتزين به، كما شكر السلطة الفرنسية التي قال إنها قامت على "دعائم الحرية". وزاد في المجاملة حين قال إنها تحب كل ما يسعد رعاياها المسلمين (يقصد الجزائريين ومنهم بنو ميزاب).

ومن جهة أخرى خاطب مستقبليه بقوله اعملوا على ما يرضي فرنسا وابتعدوا عما يغضبها. وهو يقصد بذلك عدم مقاومتها أو إثارة الشغب ضدها. والباروني في هذا الخطاب يذكرنا بنصائح الشيخ محمد عبده للجزائريين قبله بعقد من الزمان حين ألقى على مسامعهم دروساً وخطبا. وربما يلتمس الباحث عذرا للباروني لأن بلاده كانت في حالة حرب ضد إيطاليا التي احتلت ليبيا سنة ١٩١١م، وكان في حاجة إلى دعم فرنسا التي لم يكن يسرها هذا الجار الطماع فيما بقي من شمال إفريقيا ولو كان مثلها جارا لاتينيا.

وربما لذلك سمحت فرنسا للجزائريين في هذه المناسبة بالتعبير عن مشاعرهم الداعمة للدولة العثمانية وحركة الجامعة الإسلامية لأن فرنسا كانت في منافسة حادة مع إيطاليا حول تونس. ومن الجدير بالذكر أن زيارة الباروني المنوه بها حدثت بعد الإطاحة بالسلطان عبد الحميد الثاني بحوالي خمس سنوات.

---

(1) ويظهر أن أبا اليقظان لم يرافق الباروني لأنه كان ما يزال بتونس على رأس البعثة التعليمية الميزابية .

فالجرح عنده كان ما يزال حيا وكانت لجنة الاتحاد والترقي تعيش ربيعها ومشاكلها أيضا مع من دفعوها إلى الثورة والانقلاب. لذلك فإنه من المستغرب أن يكتب صاحب الفاروق، وهو الذي طالما عبر عن ولائه للدولة العثمانية والسلطان المخلوع- بموالاة أحد المنقلبين ودعمه وهو سليمان الباروني الذي عاش سنوات الدراسة في الجزائر فرارا ربما من حكم السلطان " الأحمر "[1].

وقد نفهم من خطاب الباروني الإعلامي المكشوف أنه جاء إلى الجزائر لاجئا سياسيا غير أن الفرنسيين سيكشفون له عن وجههم الحقيقي ويعاملونه معاملة المنبوذ حين كان يبحث عن دولة تمنحه حق اللجوء. وقد أثبت الباروني أنه بقي وفيا للدولة العثمانية قبل وبعد الحرب، مما جعل دول الحلفاء يمتنعون عن إعطائه حق اللجوء (بريطانيا، فرنسا، إيطاليا..)، وسدت إيطاليا في وجهه أبواب بلاده (ليبيا). والغريب أن مصطفى أتاتورك رفضه أيضا لأن الباروني عارض التغيير الذي أحدثه في نظام الدولة العثمانية. لقد رفض الفرنسيون السماح له باللجوء إلى تونس أو الجزائر بعد الحرب، كما طلب ذلك وألح. وقد أصر وزير خارجية فرنسا عندئذ، بون مارشي على أن الباروني لن يدخل فرنسا ولو في المنام[2].

قطع زيارته للجزائر سنة ١٩١٤م

دعنا الآن نترك المجال مفتوحا أمام المجاملات والرسميات فيما يتعلق بتحركات الباروني. كان عليه أن يقطع زيارته لأن الأوامر العثمانية صدرت له بقطع الزيارة فلم يسعه إلا الاعتذار لمضيفيه الفرنسيين والجزائريين، وخاصة بني ميزاب، وعاد مسرعا إلى اسطنبول. ولعل لعودته السريعة علاقة بدق طبول

---

(١) هكذا كانوا يلقبون السلطان عبد الحميد الثاني لأنه كان في نظرهم دمويا وكثير الجواسيس والعداء للغرب المتغطي بالصهيونية والماسونية.

(٢) أبو اليقظان، سليمان الباروني باشا، ج٢/ ٢٠٢.

الحرب ورص صفوف التحالف بين الدولة العثمانية وألمانيا. وسنرى أن الباروني قد لعب دورا بارزا في الحرب بين المحور والحلفاء وأظهر شجاعة فائقة ومغامرة لم يمارسها حتى (لينين) حين هربه الألمان في قطار ليلي إلى روسيا لإخراج بلاده من الحرب الاستعمارية.

زيارة الباروني الثالثة للجزائر

ورغم ما حدث خلال الحرب فالباروني عاد إلى الجزائر سنة ١٩٢٥م. وفي هذه الزيارة التي كانت تبدو علمية وتاريخية توجه إلى أجزاء مختلفة من القطر الجزائري، منها مدينة تاهرت العاصمة الرستمية الإباضية. وفي طريقه إليها سجل انطباعاته شعرا ونثرا، وترك لنا رصيدا أدبيا غنيا، ثم ثروة وصفية وإنسانية للمدن والطرق والمعالم التي مر بها. وشاهد خلال ذلك مدنا خلابة كالقليعة عاصمة العلم والتجارة والتصوف، والبليدة مدينة الورود، وجبال زكار الخضراء الشاهقة، وقالمة الساحرة بمناظرها ومياهها المعدنية الدافقة. ففي القليعة تناول الغداء عند أحد الأعيان الأعضاء في مجلس ولاية العاصمة. (من عائلة الصوفي ابن مبارك) ولا شك أن هذا "العين" تحرك بإيعاز من فرنسا لأنه من رجالها الرسميين[1].

وفي هذه المناسبة قال الباروني شعراً:

بين الجبال وبين حو ... ض البحر أبهى منظر
طود به قصر القليعة ... ذو المناخ الأخضر

---

(1) عضو المجلس هنا يعني مجلس الشؤون المالية، وهو أحد المجالس المعينة من قبل الإدارة لتمثيل الأهالي، ولكن ليس لهم تأثير على سياسة فرنسا بالنسبة على شعبهم.

كان الباروني يترنم بهذا الشعر وهو يسبح في الخيال ويتمتع بصفاء الطبيعة وجمالها، لأنه خصص بعضه أيضا لوصف الشمس المشعة وكرم مستقبليه.

ولا نملك الآن معلومات دقيقة عن خط سيره ولكننا نعرف أنه شاهد أيضا تلمسان.ثم رجع إلى مدينة الجزائر عن طريق قسنطينة كبرى مدن الشرق عبر قالمة. وفي هذه المدينة ألح عليه أهلها -كما قال- أن يزور حماماتها المعدنية الشهيرة. وقد عبر عن إعجابه بقوله إنها " منابع كثيرة تحيط بها جبال شاهقة ذات غابات شجر لها منظر عجيب يقصده الافرنج من أوروبا. " ويبدو أنه زار تلك الناحية في آخر فصل الشتاء لأنه أضاف أن " الثلج ما يزال جامدا " على رؤوس الجبال. وقد وصف الحمامات نفسها بالنظافة والنظام. ورغم البرد فقد أخبر الباروني أنه اجتمع مع ضيوفه حول الحمامات " لتناول الطعام وشرب الشاي " بينما كان بخار الحمامات حولهم يملأ الفضاء.

ومن قالمة سافر ليلا آخذا طرقا معبدة، وخلال سيره تذكر العربة التي يركبها في جبل نفوسة، فقال شعرا رقيقا يفيض حنينا وشوقا إلى مسقط الرأس ومراتع الصبا:

تدفق ماء معدني من الصخر ... يذكرني مما تخلد في الفكر
سبحنا وروحنا النفوس سويعة ... وعدنا وجنح الليل منسدل الستر
وطرق كقضبان اللجين ترصعت به ... الروض من صنف الزياتين والسدر[1]

---

[1] أبو اليقظان، الباروني ج٢/ ٩٨، ١٠١. أبو القاسم سعد الله، بحوث في التاريخ العربي، ط. دار عالم المعرفة، بيروت، ٢٠١١م، ص ٤٠٨.

بين الباروني وشكيب أرسلان وابن باديس

وقع خلاف بين شكيب أرسلان والباروني حول مفهوم الجامعة العربية واتحاد العرب، فكان من رأي أرسلان حصر الجامعة والوحدة في بلدان المشرق المستقلة أما بلدان المغرب فما تزال غير مستقلة ومن ثمة لا يمكنها أن تتحد مع بلدان مستقلة. ذلك أن الاتحاد أو الوحدة لا تقوم إلا بين دول وبلدان مستقلة. وعندما قرأ الشيخ عبد الحميد بن باديس، زعيم حركة الإصلاح في الجزائر رأي شكيب أرسلان أيده قائلا ما معناه إن الشعب المستعمر لا يمكنه الاتحاد مع شعب مستقل. وكان ذلك غمزة في الاستعمار الذي يجثم على بلدان المغرب بما فيها ليبيا. ولكن الباروني انتقد رأي شكيب أرسلان واعتبره نوعا من ممارسة العنصرية بين أهل المشرق والمغرب.

وعندما اتسع الخرق تدخل الشيخ إبراهيم بيوض الزعيم الديني لميزاب عندئذ للتوفيق بين الرجلين البارزين، ونشر رأيه في جريدة الأمة التي أسسها وكان يديرها الشيخ أبو اليقظان. ويبدو أن الباروني تراجع عن رأيه وطلب من أبي اليقظان، باعتباره صديقا للطرفين- الباروني وأرسلان-عدم المس بفكرة الجامعة العربية التي يدعو إليها شكيب أرسلان، والتي جسدتها جامعة الدول العربية، القائمة الآن.

الجزائر في صحيفة الأسد الإسلامي والمطبعة البارونية

وبقدر ما كانت صحف الجزائر تهتم بآراء الباروني في مختلف القضايا المعاصرة، ومنها المذهب الإباضي، وتاريخ مسقط، وحالة زنجبار، وتاريخ بني رستم في الجزائر وليبيا، والسياسة العربية والإسلامية في ضوء التطورات التي كانت تمر بها الدولة العثمانية- بقدر ما كان الباروني ينشر ذلك في صحيفته الأسد الإسلامي التي أسسها في مصر. فقد كان ينشر فيها ما يتعلق بأحوال بلاد

المغرب ماضيا وحاضرا، وكان أصدقاؤه وأنصاره بنو ميزاب يبثون آراءه في مختلف المنتديات ويسهلون وصول صحيفته إلى القراء في الجزائر على أوسع نطاق. وقد ربط الباروني أيضا علاقات تجارية بينه وبين أهل ميزاب.

أما المطبعة البارونية فقد اهتمت بنشر التراث الإباضي وخاصة آثار الشيخ اطفيش. فنشرت له مجموعة من الكتب التي لا تخرج عن خدمة الدين والمذهب. كما نشرت بعض آثار المذهب المالكي ومنها نظم جواهر الإكليل للشيخ خليفة بن حسن القماري. وكانت المطبوعات البارونية تباع في مكتبة السيد يوسف بن مسعود في قسطنطينة. وكان الباروني يتصل بتجار وعلماء منطقة ميزاب الذين عرفهم من قبل. ولكن هذه الحركة العلمية والتجارية تعطلت بسبب الحرب بين الدولة العثمانية وإيطاليا وهي الحرب التي شارك فيها الباروني كما شارك فيها شكيب أرسلان والأمير علي نجل الأمير عبد القادر والأمير عبد القادر (الحفيد) ابن علي.

وعندما أحس الباروني أن الكتب التي نشرها بقيت في مصر ولم توزع كلها وأنه لا يستطيع الرجوع لا إلى مصر ولا إلى الجزائر عرض الموضوع على أصدقائه في الجزائر فاتفقوا على جلب كميات منها (قدرت ب ١٥ ألف نسخة) لبيعها باسمه. وكان ابراهيم اطفيش المهاجر من تونس بعد طرد الفرنسيين له نشيطا في مصر من أجل استقلال مسقط وعُمان، فقام بتنفيذ الصفقة وذلك بتجليد الكتب وإرسالها إلى الجزائر. وعند وصولها بطرق مختلفة كان ابراهيم امتياز هو الذي يقوم بتوزيعها وبيعها رغم أن فرنسا كانت تراقب حركة الكتب بين مصر والجزائر وتخشى من تأثيرها على استقرار السكان. ويذكر أبو اليقظان أن ثلاثة صناديق منها قد وصلت إلى الجزائر[1] .

---

[1] أبو القاسم سعد الله، "العلة ميرانت" في أفكار جامحة، عالم المعرفة، بيروت، ٢٠١١م، ص ١٤٧.

قلنا إن الباروني لم يكن من المتفرجين على ما يحدث في العالم العربي بل كان مشاركا وناقدا وخاصة فيما يحدث في بلاد المغرب. فعندما رأى بعض العلماء الجزائريين ينتسبون إلى قبائلهم لم يرفض ذلك كما لم يرفض انتساب الشخص إلى الجهة أو البلدة. وكان يعلق بذلك على ما نشرته جريدة البصائر حول انتساب بعض العلماء إلى قبائلهم.

ولعل الذي أثار الموضوع هو الشيخ سعيد الزاهري أحد كتاب جريدة البصائر آنذاك ومن أنصار التيار الإصلاحي الوطني. فعلق الباروني على الموضوع قائلا إن الواحد من العلماء ينهي اسمه بكلمة الزواوي أو الصنهاجي، وهذا لا غضاضة فيه فينظره فهو كالانتساب إلى نفوسة وزواوة وزناتة، وهلم جرا، وليس في ذلك شعوبية، كما أنه لا شعوبية في النسب إلى بني هلال وبني راشد وبني حفص، إلخ. أما الغضاضة عنده فهي الانتساب إلى العنصر كالعربي والبربري–المزيغي[1]. فالواجب، في نظره، على أهل شمال افريقيا أن ينتسبوا إلى الإسلام فيقول الواحد منهم إنه مسلم جزائري ومسلم طرابلسي ومسلم مراكشي...دون ذكر كلمة عربي أو بربري.فهو لا يرى استهجانا في الانتساب إلى القبيلة. وخلاصة قوله إن الابتعاد عن الإسلام خطأ واستعمال العنصر خطأ، وإن الواجب هو عدم إعطاء أهمية للعروبة بدعوى إرضاء أقلية غير مسلمة بل الواجب الاهتمام بالإسلام لأنه هو الرابطة الجامعة.

كما حبذ الباروني انضمام علماء الإباضية من بني ميزاب إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين[2]. ورأى أن في إضافة كلمة المسلمين إلى اسم الجمعية هو عين الصواب، وعبر عن سروره بإضافة كلمة الإسلامي للمؤتمر الإسلامي الجزائري الذي انعقد سنة ١٩٣٦ بالعاصمة لأن ذلك هو الاستعمال

---

(١) قال إن النطق المزيغي أصح من المازيغي، أي البربري.

(٢) أنشئت سنة ١٩٣١م برئاسة عبد الحميد بن باديس ونائبه الشيخ محمد البشير الإبراهيمي واستمرت إلى سنة ١٩٥٦م. وهدفها استعادة هوية الجزائر العربية والإسلامية بطريق التعليم بالعربية، وهي الهوية التي حاول الاحتلال طمسها.

الصحيح في نظره إذ ليس في العنوانين كلمة عربية أو عربي. ولبعضهم أن يتهم الباروني نفسه بالشعوبية لانتصاره لهذا التفسير الذي يدعم وصف الإسلامي ويرفض وصف العربي. ترى ما ذا عساه يقول عندما يرى القوم اليوم يفضلون وصف الديموقراطي والليبرالي على وصف الإسلامي والعربي ؟

ولكي يكون على اطلاع بما يجري في الجزائر، وهو إما في مسقط وإما في العراق، طلب من أصدقائه الميزابيين أن يدفعوا عنه الاشتراك في جريدة البصائر التي كان يتابع من خلالها ومن خلال صحف أبي اليقظان أخبار الجزائر. وكان يتكلم عن البصائر باعتبارها جريدة جمعية العلماء المركزية التي صدرت تارة في العاصمة بتحرير الشيخ الطيب العقبي وتارة في قسنطينة بتحرير الشيخ مبارك الميلي الهلالي[1].

وقد أخبر أصدقاءه أنه تأثر من الشقاق الذي حدث بين جمعية العلماء وبعض الأحزاب وهو فيما يبدو يقصد حزب الشعب الذي انتقد الجمعية على مشاركتها في المؤتمر الإسلامي وتحالفها مع الشيوعيين والاندماجيين، وهو المؤتمر الذي قاطعه الحزب.

في مواجهة الفتن والدسائس

جرت في الجزائر فتن عديدة تمس بني ميزاب مثل أحداث مدينة قسنطينة في الخامس من شهر أوت (آب) سنة ١٩٣٦م والتي سماها فتنة. وهي تتمثل بالأساس في مقاطعة التجار اليهود بالمدينة، فلم تحن نهاية العام حتى حول هؤلاء "الفتنة" إلى مقاطعة تجار بني ميزاب. فكتب الباروني إلى صديقه إبراهيم امتياز بأنه كان يتوقع حدوث ذلك. وطلب منه الإسراع بتدارك الوضع ووقف مكائد اليهود التي لا تحصى، حسب تعبيره. والواجب في رأيه على عقلاء وعلماء

---

(1) أعادت دار الغرب الإسلامي طبع البصائر بعد أن جمعت ما تفرق من أعدادها بصعوبة. بيروت ٢٠٠٤م.

الأمة، من العرب وغيرهم، تلافي الأمر. مقترحا أن تكون مقاطعة التجار اليهود تدريجية لأن التجارة قديمة بين الفريقين (بنو ميزاب واليهود). وعندما يتخلص الميزابيون من سيطرة التجار اليهود يتجهون إلى التجارة مع فرنسا مباشرة دون واسطة يهود الجزائر[1].

الباروني والمذهب الإباضي

كانت مراسلات الباروني مع أصدقائه في ميزاب تتناول كل ما يهمه ويهمهم فكأنه كان حاضرا يمارس معهم طقوس المذهب الإباضي، فكان غيورا مدافعا عليه وعليهم رغم بعد الدار وكثرة المشاكل السياسية وتعقد ظروفه الصحية. فإذا واجهتهم مشكلة مع المواطنين المالكية أو مع الفرنسيين أو حتى مع حركة الجامعة الإسلامية ورجالها والقومية العربية ودعاتها- فإنه كان يتدخل بسرعة ويمحضهم النصح لينجوا سالمين دون المساس بالمذهب.

وكان الباروني حذرا لا يريد المساس بالعلاقة المذهبية بسوء، لأنه يدرك أن علاقة الميزابيين مع أهل السنة المالكية كانت حجر الزاوية في معاملاتهم اليومية. ومن جهة أخرى كان يخبرهم بأحواله في مسقط لكي يكونوا في صورة الأحداث. فهو يخبرهم بتكليف الإمام له بإصلاح السلطنة، وبوفاة أحد القضاة البارزين، وهو الشيخ عامر بن خميس الذي " ارتجت عُمان " لفقده، ووصفه بأنه رابع أربعة من أكبر العلماء في عُمان فقدهم الإسلام والعمل بالعلم في هذه السنة (١٣٤٦هـ).

---

(1) تعرف بأحداث قسنطينة، وقد بدأت باعتداء أحد اليهود على مقدس إسلامي وهو الجامع العتيق، فثار المسلمون ضد اليهود وتدخلت الشرطة ومات بعض الأفراد، وكادت الأمور تخرج من أيدي الحكومة وأعيان المدينة. وعن مسألة الأذان والمقاطعة وغيرها مما كان فيه بنو ميزاب طرفا انظر أحمد توفيق المدني حياة كفاح (مذكرات)،ط. دار البصائر، الجزائر، ٢٠٠٨م، ص ٣١١ وهنا وهناك.

كما كتب لأبي ليقظان معبرا عن غبطته بالإصلاحات الجارية في ميزاب، خاصة تلك المتعلقة بالولاية والبراءة التي اعتبرها من الأمور التي لا تدوم رابطة بدونها في ميزاب، قائلا إنه لا نظير لها في الدنيا وإنها ميزة تميز بها المذهب الإباضي النقي. وقد نصح بالعض عليها بالنواجذ في المدن والقرى، لأنها جامعة الشمل، وعليهم ألا يوهنوها " بمسائل السياسة والوطن العمومي فتضيع الميزة والشخصية البارزة لميزاب والميزابيين ". والتمسك بهذه الميزة لا ينافي في نظره اتحاد أبناء القطر كله[1].

ومن الإصلاحات التي حثهم عليها تعلم العلوم الحديثة والقديمة، ونصحهم بتفرغ فريق منهم لإتقان القواعد الدينية والوطنية، وإن لم يفعلوا أصبحوا نقمة. وهو كلام غامض لم نهتد إلى مقاصده منها.

وقد تدخل في صميم السياسة الفرنسية نحو بني ميزاب، وهي مسألة التجنيد الإجباري[2]. فقد كان بنو ميزاب يطالبون بإعفاء شبابهم من التجنيد لأن اتفاقهم مع الفرنسيين سنة ١٨٥٣م يعفيهم منه. وفي نظر الباروني أن الحاكم الفرنسي الجديد (موريس فيوليت)[3] كان متفهما لمطلبهم. فقد كتب الباروني إلى الحاج عمر العنق أنه مسرور بتقدم تفاهمهم مع السلطات الفرنسية حول مسألة التجنيد، وبتساهل الدولة معكم في مسألة التجنيد بهمة الوالي الجديد الحر، فهنيئا لكم بذلك " (١٣٤٥هـ)[4].

---

(١) أبو اليقظان، الباروني ٢/٢١٠.

(٢) التجنيد الإجباري قانون سنه الفرنسيون عام ١٩١٢م وفرضوه على الشباب الجزائري ليحارب معهم تحت الراية الفرنسية، وكانت سحب الحرب العالمية الأولى تتلبد، وشعرت فرنسا بالخطر الألماني وباتساع جبهاتها القتالية. أما قبل ذلك فليس إلا التطوع لأداء الخدمة العسكرية. أما منذ ١٩١٢م فقد أصبح الشباب الجزائري مجبرا على التجند، وهذا ما نازعهم فيه بنو ميزاب ودعمهم الباروني في موقفهم.

(٣) تولى موريس فيوليت حكم الجزائر من ١٩٢٥م إلى ١٩٢٧م، وكان اشتراكي المذهب. وقد استطاع أن يجلب إلى بلاده بعض النخب الجزائرية بسياسته الاندماجية الخطرة التي كانت تبدو سياسة ليبرالية براقة.

(٤) أبو اليقظان، الباروني ٢/٢١١.

وعبر الباروني لأبي اليقظان أيضا عن تألمه من عواقب مسألة الأذان التي رآها دسيسة لتمزيق شمل أبناء الأمة عند تأسيس جمعية العلماء (١٩٣١م)، ومن رأيه أن التحزب للمسألة قد خطط لتمزيق الشمل وتحطيم ما بقي لميزاب من الامتياز الحافظ للدين الحامي للبلاد[1]... كما كان له رأي فيما دار من نقاش بين بعض متعلمي ميزاب حول التليفون في الجرائد وغيرها وصل حد التشاتم. ورغم أنه نصح بالكف عن نشر مثل هذه الآراء فإن المهاترة قد استمرت على مستوى العزابة أيضا.

وللباروني رأي في معنى الحوزة. فهي لا تنطبق على مدينة القرارة ومدينة بريان لعدم اتصال أملاكهما بوادي ميزاب، كما هو الحال في مدينة يفرن التي هي مركز الجبل كله في طرابلس. وإذا كان هناك قرى فاصلة فإنه يجوز التقصير لوجود إمام. أما أهل عُمان فلا يرون الانفصال استقلالا لكل جهة عن الأخرى لأن ذلك قد يؤدي إلى الخلاف رغم وجود قرى متقاربة عندهم.

ويضيف الباروني أن ميزاب تشهد نهضة حديثة، ودليلها وجود الصحف والمطبعة وغيرها من مظاهر الحياة العصرية. وكان يتتبع ذلك فيما يقوم به الأدباء والمتعلمون والتجار. ومن مطالبه الاهتمام بالجامع التاريخي في وارجلان وآثار السلف التي سماها مدافن الأجداد والأعلام. ويبدو أنه كان مهتما بالآثار، كما عبر عن ذلك فيما سماه أطلال تاهرت وغيرها من المدن الرستمية.

---

(1) أبو اليقظان، الباروني ج٢/٢١٢.

الباروني ومعنى الإصلاح العُماني

كثير من رسائل الباروني إلى بني ميزاب كتبها من مدينة سمائل والعراق. فكان يطلعهم على خصوصيات مسقط وعُمان كالقحط والجفاف الذي دام أكثر من عشر سنوات. وقد أخبرهم أن حوالي (١٢٠٠٠) من السكان رحلوا من عُمان إلى زنجبار خلال خمس سنوات لكي يتاجروا ويعملوا هناك.

أما الإصلاح الذي كلفه به الإمام فيتناول المالية والإدارة والتعليم والاقتصاد والنظام العسكري والسياسي داخلياً وخارجياً. وفي رسالة إلى الحاج العنق قال إن إصلاحاته منصبة على ميدان المعارف (التعليم) إذ أنشأ مدرسة كبرى في سمائل، وكان ينوي أن يجعلها أكبر ثانوية في عُمان تتبع نظاما عصريا ويدرس فيها أفضل الأساتذة، " إذا سمحت له بذلك الدول الكبرى ". ولكنه لم ينجز من المشروع سوى الطابق الأول لعدم السماح له بجلب المدرسين. كما حمل أهل عُمان أيضا مسؤولية عدم إتمام المشروع لميلهم، كما قال، إلى النظام القديم.

وكان أصدقاؤه في ميزاب يمدحونه شعرا فيرد عليهم بمثله. وكانت بعض مراسلاته معهم ملغزة أو مشفرة نشر بعضها في جرائد أبي اليقظان، سيما جريدة الأمة. فقد مدحه أبو اليقظان ذات مرة في جريدة وادي ميزاب بقصيدة مطلعها:

خفقت بنود العز والسلطان وعلت جنود سيادة بعُمان

وهي قصيدة قال عنها الباروني إنها قرئت وأطربت السامعين، ولكنه أوصاه بالاعتدال في المدح حذرا ربما من إساءة فهمها سياسيا. وبما كان يخشى أن المبالغة في مدحه تجعله هدفا لاتهامات عديدة.

وكان يرد على بعض الجرائد العُمانية، مثل الفلق، بنشر آرائه على صفحات جرائد الجزائر كالنور لأبي اليقظان والحياة للشيخ باسعيد عدون[1].

الباروني والفقر

من رسائله السياسية أنه أخبر أبا اليقظان عن تلقيه رسائل من بعض أمراء آل عثمان في دمشق يصفون ما كانوا عليه من البؤس والشقاء. وقال إن أحدهم كان متوجها إلى زنجبار سنة ١٣٥٣هـ بحثا عن مورد للرزق. وجاء إلى الباروني يطلب منه رسالة تزكية عند سلطان زنجبار. ولم يتوقف تألمه عند أمراء آل عثمان بل إن ابنه إبراهيم كان يتعرض لآلام المرض مما جعل الأمل مفقودا في رجوعه إلى المدرسة أو الوظيفة. يضاف إلى ذلك أنه هو نفسه قد أصبح يعاني من ضغط الدم حتى أجبره الطبيب على التوقف عن القراءة والكتابة.

وأخبر الباروني أنه نشر تعليقا عن حقوق الطرابلسيين الذين سلمتهم فرنسا إلى إيطاليا في تونس، وأنه راجع الحلفاء لكي يسمحوا له بالالتحاق بعائلته في طرابلس والعلاج في تونس أو الجزائر. وقد توسل لفرنسا بقناصلها وبشخصياتها المتنفذة في المشرق. وطلب من أصدقائه الميزابيين التوسط من أجله لدى الفرنسيين ليسمحوا له بدخول تونس أو الجزائر للاستقرار بأهله، ووعدهم- إذا فعلوا- بتقديم" ضمانة معتبرة "[2].

وأخيراً وصلته وعود بالسماح له باللجوء إلى عدة بلدان، منها أن قنصل فرنسا في بغداد أخبره بسماح دولته له بدخولها مدة ثلاثة أشهر، وأنه بعد دخوله سيكون من السهل عليه تبديل القرار. ثم أعلنت مصر السماح له أيضا بدخولها ثلاثة أشهر، وقد فكر أن ذلك سيكون قابلا أيضا لتبديل القرار.ثم توالت عليه

---

(١) صدرت الجريدة الأخيرة باللغتين عام ١٩٣٣م ولم يظهر منها سوى أعداد.

(٢) لم نفهم من العبارة الأخيرة سوى وعده لهم بعدم التدخل في الشؤون السياسية أو المساهمة في التهدئة التي يطلبونها.

الرخص في الدخول هنا وهناك حتى أننا لم نعرف ما ذا اختار منها غير العراق التي حصل منها على التابعية (الجنسية) بعد إقامة دامت خمس سنوات. ومع ذلك فقد فتحت عليه السماء فكانت مدرارا، وشعر بالأمل ونبض الحياة من جديد:

تأمل يا أبا اليقـــظان وانـــظر تجد ذا البؤس في جنب الملوك
فليس المال للإجـــلال كـــاف ويكفي للعلا حســـنُ السلوك
وسبحان الذي خـــلق البـــرايا عـــلى حِكَمٍ تجِلُّ عن الشكوك

وأضاف إلى هذا أبياتا يمدح فيها المال الذي يقود إلى سلم الجاه والمجد والسؤدد، متسائلا كيف تجتمع الفضيلة والبؤس في شخص واحد، منها البيت التالي:

إن فـــي الـــفـــقـــر شـــرورا ليـــس تُحصـــيها شـــفاه[1]

ويمكن أن نعد هذا رأيا صادرا من تاجر نهم، باحث عن الثروة والمال. غير أن للباروني مبررا في لعن الفقر، ففي الفترة الأولى من حياته كان يقوم على تعاطي المشاريع التجارية، ولا ندري كيف مالت كفته إلى السياسة والحياة العسكرية وخدمة الدولة العثمانية في برلمانها بينما عدد من الليبيين كانوا ثائرين على نظامها، قبليا واجتماعيا. وعندما أنشأ المطبعة البارونية وجريدة الأسد الإسلامي في مصر كان في حاجة إلى رأس مال يعيش منه ويبني به مشاريع تجارية. ثم قاسى الكثير من شظف العيش رغم هذه المحاولات للخروج من دائرة الفقر.

وبعد الحرب العالمية الأولى وسيطرة الإيطاليين على مقاليد السلطة في بلاده أصبح لاجئا في بلدين لا ثالث لهما هما مسقط والعراق. وكان في حاجة

---

(1) أبو اليقظان، الباروني، ج ١٠٢/٢.

إلى المال ليعول به عائلته البعيدة عنه[1] وولده المريض مرضا مزمنا وعلاج صحته بعد أن داهمه المرض ومنعه من تناول أطعمة وأشربة كان يتعاطاها بدون قيود. وكان الباروني قد جرب حياة الرفاه الاقتصادي والنيابة في البرلمان وما فيها من امتيازات وكرامة. وها هو الآن يعيش في فقر مدقع رغم استقبالاته العديدة ومحيطه الاجتماعي الذي يتطلب منه فاخر اللباس والأثاث والطعام والظهور بمظهر العظماء.

بين أطلال تاهرت

زار الباروني مدينة تاهرت القديمة ووقف على أطلالها، وهي عاصمة بني رستم حيث حكمت الأسرة الرستمية ابتداء من عبد الرحمن الذي تذهب بعض الروايات إلى أنه فارسي أصبح من موالي العرب. وتاهرت تسمى أيضا عاصمة الأئمة لأن الحاكم فيها كان يلقب بالإمام وليس الخليفة أو السلطان أو الأمير. فكان منظرها يثير العبرة ويدعو إلى التذكر عند الباروني الذي يعرف أن حكم الأئمة كان يمتد منها إلى قبيلته نفوسة. ومن ثمة سماها مدينة الأجداد.

ومهما يكن من أمر فإنه وصف أطلال تاهرت وصفا حيا وذكر ما خصها به المؤرخون وبعض الأدباء والشعراء الذين نبغوا فيها أو انتسبوا إليها، بمن فيهم بعض أعيان المالكية. ومما يذكر بهذا الصدد أن تاهرت (تيهرت) كانت تسمى تاقدامت أيضا، وقد استعمل الأمير عبد القادر خلال مقاومته للفرنسيين هذا الاسم كما اتخذها عاصمة لملكه، بدل مدينة معسكر، وضرب بها العملة.

يقع كتاب الأزهار الرياضية الذي خصصه الباروني للدولة الرستمية في ثلاثة أجزاء، ولكن المطبوع المتداول منه هو الجزء الثاني فقط. وهو في الحقيقة -كما قال المصراتي- جزء خاص بتاهرت، يتناول نظمها وأئمتها وأطلالها

---

[1] كانت عائلته مقيمة عند أخيه يحي الباروني في طرابلس.

وتاريخها ومذهب أهلها وحياتهم الاجتماعية والاقتصادية. ومن فصول الكتاب : تاريخ تأسيس تاهرت، وبعض المدن المنسوبة إليها، والعلماء المنسوبون إليها. كما تحدث فيه عن واقعة نفوسة مع المعتزلة، وعن زواج ابن رستم من قبيلة لواته.. دون أن يهمل آراء بعض أهل السنة في حضارة تاهرت[1].

الخاتمة

للباروني شخصية طموحة رفعت همته إلى المجد السياسي والعسكري، وكان شاعراً وناثراً، يقف على قمة الجبل الغربي معتزاً بمذهبه وقبيلته. ويظهر في عينيه ذكاء خارق، ومن صورته قصر القامة فعوضها بطربوش عثماني وشعر طويل.

عاش الباروني عصره المليء بالأحداث الجسام. ويطول الحديث لو فصلنا المرحلة التي عرفت الحرب العالمية الأولى وما قام به خلالها من مغامرات تدل على شجاعته وصدق إيمانه في الدفاع عن الإسلام والدولة العثمانية. وفي خضم هذه الأحداث الكبيرة لم ينس الكفاح من أجل استقلال ليبيا ولا علاقته بالجزائريين، وخاصة أهل ميزاب.

---

(1) علي مصطفى المصراتي، مؤرخون من ليبيا، ط١، طرابلس، ١٩٧٧م، ص٢٤٥-٢٦١.

سليمان باشا الباروني ونشاطه السياسي في المهجر
(١٩٢٤-١٩٤٠م)

د. أرويعي محمد علي قناوي (*)

مقدمة

يعد المجاهد سليمان الباروني علماً من أعلام الإسلام ورائداً من رواد النهضة الإسلامية الحديثة خلال الثلث الأول من القرن العشرين حيث وهب نفسه لخدمة قضايا العروبة والإسلام بصفة عامة، وكان له أثره الفاعل والمؤثر في مجريات الأحداث السياسية على الصعيدين الإسلامي والعربي.

تعددت الأدوار العسكرية والسياسية التي قام بها سليمان الباروني على الصعيد الوطني في الداخل والخارج فلم يقتصر دوره على الجهاد العسكري والنضال السياسي في الداخل فحسب وإنما شارك مشاركة فعالة في مقاومة الاحتلال الإيطالي في مهجره حيث ساهم مساهمة فعالة في حرب الأقلام التي نظمها زعماء الجهاد الليبي في المهجر من أمثال بشير السعداوي وعمر فائق شنيب في سوريا، وأحمد زارم الرحيبي في تونس وغيرهم، وقد آزرهم في ذلك أشقاؤهم العرب في منطقتي المشرق العربي والمغرب العربي على حد سواء.

هذا البحث يسلط الضوء على شخصية سليمان الباروني ونشاطه السياسي في المهجر ١٩٢٤-١٩٤٠م، ويهدف إلى الإجابة عن أهم التساؤلات التالية والمتمثلة في من هو سليمان الباروني ؟ وما هي العوامل المؤثرة في تكوين شخصيته الوطنية والإسلامية ؟ وما موقفه من السياسات الاستعمارية في الوطن العربي بصفة عامة والسياسة الاستعمارية الإيطالية في طرابلس الغرب بصفة

(*) د. أرويعي محمد علي قناوي، جامعة بنغازي، ليبيا.

خاصة ؟ وهل كانت له صلات بزعماء الجهاد الليبي في المهجر ؟ وما موقفه من دعاة التصالح مع إيطاليا على حساب قضية الوطن ؟

أولاً : سليمان الباروني : مولده ونشأته والعوامل التي أثرت في تكوينه الشخصي

ينتمي سليمان الباروني إلى فرع البيت الباروني الذي استوطن الجبل الغربي جنوب طرابلس الغرب وظهر ذكره وذاع صيته فيما بين أواخر القرن الرابع الهجري وأوائل القرن الخامس، ويعود أصل البيت الباروني إلى منطقة الجبل الأخضر بعُمان التي جاء منها جده الأول أبو موسى هارون أحد أئمة المذهب الإباضي إلى منطقة جبل نفوسة وسكن بها ونشر بها المذهب الإباضي، ولازال نفع الأسرة البارونية لأهل الجبل دينا ودنيا متواتراً أباً عن جد منحدراً من الأصول إلى الفروع منذ القرن الخامس الهجري إلى يومنا هذا[1].

ولد المجاهد سليمان بن عبدالله الباروني ببلدة جادو سنة ١٨٧٣م وبلدة جادو إحدى المدن القديمة في الجبل الغربي التي افتتحها عمرو بن العاص سنة ٢٢هـ حينما افتتح مدينة شروس التي لم يبق منها سوى اسمها وقد أقيمت قرب موقعها مدينة سميت فساتو أو فساطو التي غلبت تسميتها جادو[2].

تلقى سليمان الباروني تعليمه الأول في المدرسة البارونية التي أسسها والده بمنطقة كاباو واختصت بتحفيظ القرآن الكريم، وعلوم التفسير والحديث النبوي الشريف وعلم الفرائض وغيرها من العلوم الشرعية، ثم انتقل إلى جامع الزيتونة بتونس سنة ١٣٠٥هـ وبقي به فترة من الزمن ما لبث بعدها أن انتقل إلى الجامع

---

(١) أبو الربيع سليمان الباروني ، مختصر تاريخ الإباضية ، تونس : المطبعة السلفية ، ١٣٦٤هـ ، ص ٥٠ .

(٢) الطاهر أحمد الزاوي ، أعلام ليبيا ، بيروت : دار المدار الإسلامي ، ٢٠٠٤ ، ص ١٧٣ . وعبدالسلام محمد شلوف ، معجم المواقع والوقائع الليبية أسماء وتواريخ المدن والقرى والأماكن الليبية ، بنغازي : شركة المجموعة الوطنية للهندسة والإنشاءات العامة ، ٢٠٠٩ ، ص ٢٠٥ ، أنظر ملحق رقم (١)

الأزهر بالقاهرة سنة ١٣١٠هـ لاستكمال تعليمه هناك، وبقي بالأزهر حتى سنة ١٣١٣هـ، حيث وجد في مصر المجال الفسيح والحقل الخصيب فشارك في الندوات والهيئات السياسية والأدبية خطيباً ومحاضراً وكاتباً وأديباً[١].

لقد وجد الباروني في مصر ما شجعه على الكتابة والاشتغال بالصحافة وجود أصحاب الأقلام العربية من أمثال الشيخ رشيد رضا والشيخ عبدالرحمن الكواكبي وأديب اسحاق وأنطوان فرح وكثيرون من أبناء المشرق العربي وخاصة من سوريا ولبنان، وعاصر أيام صدور جريدة المؤيد ونشاط الحزب الوطني، وشاهد حركات اجتماعية أخرى تفتحت في مطلع القرن العشرين، وعاصر عهد كرومر وأزماته الداخلية فتكونت لديه حصيلة هائلة من المعلومات أثرت تأثيراً مباشراً في تكوينه الثقافي والسياسي[٢].

ولقد بلغ به الأمر من شدة حبه لمصر أن نظم قصيدة بعنوان " حب وعتب " مما جاء فيها :

هويتك يا مصر وهل في الهوى صبر ... وأنت التي يشفي بأدوائك الصدر؟
هويتك إذ فيك المعارف أشرفت ... لك الشكر، والشرق العظيم له الشكر
هويتك رياض العلم فيك " بأزهر " ... يعز به دين الهدى ولك الفخر
هويت خصالاً في رجالك أعجزت ... من الغرب أقطاباً لها علناً خروا[٣]

كان سليمان الباروني رجلاً تقدمياً حر الفكر، جمع بين ثقافة القديم وثقافة الحديث فأصدر في القاهرة جريدة الأسد الإسلامي في أبريل ١٩٠٨م وكانت تعني بالقضايا الإسلامية وفكرة الجامعة الإسلامية وكانت آنذاك الدعوة إلى الجامعة الإسلامية فكرة ومبدأ وعقيدة وسياسة تأثر بها الأدب والبحث والدراسة

---

(١) زعيمة الباروني ، سليمان الباروني ، تعريف موجز . بيروت ، دار لبنان ، ١٣٩٣هـ ، ١٩٧٣م ، ص ص ٥ : ٦ .
(٢) المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية بطرابلس ، شعبة الوثائق والمحفوظات ، ملف سليمان الباروني رقم (٩) ، وثيقة رقم (٦٥) نبذة موجزة عن سليمان الباروني بقلم كمال الدين زغلول .
(٣) محمود الصادق عفيفي ، الشعر والشعراء في ليبيا ، القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٥٧م، ص ٢١١ .

التاريخية، وتلمسها واضحة في كتابات أرباب الصحافة والقلم من أمثال رشيد رضا وعلي الغاياتي وعبدالعزيز جاويش من مصر ومن ليبيا أمثال محمد البوصيري وعلي عياد وأحمد الفساطوي ... إلخ[1].

وأيدت جريدة الأسد الإسلامي سياسة الحزب الوطني ومبادئ الزعيم مصطفى كامل وخليفته السياسي محمد فريد، وهاجمت بشدة اللورد كرومر وفندت مزاعمه وافتراءاته على النبي محمد عليه السلام وردت عليه ردوداً قوية مدعمة بالأدلة والبراهين، ودعت إلى تكوين حزب يسمى الدفاع عن الإسلام يضم في عضويته أفذاذ العلماء والمفكرين والكتاب وتكون مهمته الدفاع عن الدين الإسلامي واقترحت أن يرأس الحزب شيخ الأزهر[2].

وفي سنة ١٣١٣هـ انتقل الباروني إلى الجزائر وبقي بها حتى سنة ١٣١٦هـ فأخذ العلم عن أستاذ الأباضية آنذاك بمنطقة تيهرت الشيخ محمد بن يوسف الميزابي، كما اجتمع مع الكثير من علماء تيهرت الأباضيين وقد تأثرت نفسه بما رأى من آثار تيهرت فألف كتابه الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الأباضية، والجزء الثاني هو المطبوع المتداول أما الجزء الأول والثالث فقد جرفهما تيار الضياع، ويشير إلى زيارته لتيهرت كانت عام ١٣١٦هـ وقد ألف كتابه المشار إليه عام ١٣٢٥هـ بمصر أي بعد تسع سنوات من إطلاعه على تيهرت وأطلالها[3].

كما أحب سليمان الباروني السفر والترحال فزار مرسيليا ومالطا وتونس فدون مشاهداته في تلك البلاد وشارك في الندوات والملتقيات العلمية والمناظرات

---

(١) علي مصطفى المصراتي ، صحافة ليبيا في نصف قرن ، مصراته : الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان ، ٢٠٠٠م .

(٢) أنظر قصيدته في حب الحزب الوطني وزعيمه مصطفى كامل ومنهجه الوطني التي سماها مدرسة مصطفى كامل باشا ، في محمد الصادق عفيفي ، الشعر والشعراء في ليبيا ، ص٢١٠-٢١١ . وقصيدته في رثاء مصطفى كامل في علي مصطفى المصراتي ، لمحات أدبية عن ليبيا ، طرابلس ، المطبعة الحكومية ١٩٦٥م، ص٩٠-٩١ .

(٣) علي مصطفى المصراتي ، مؤرخون من ليبيا مؤلفاتهم ومناهجهم ، عرض ودراسة ، طرابلس : الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان ، ١٩٧٧م، ص٢٦٠-٢٦١ .

الدينية والأمسيات الشعرية وترك بصماته الواضحة في ميادين الإصلاح والحركة الفكرية ، لقد بلورت تلك الأفكار شخصية سليمان الباروني ومنحتها أبعاداً جديدة في الفكر الإصلاحي والحركة الثقافية وأهلته منذ صغره للاشتغال بأمور السياسة والمجتمع فأصبح علماً من أعلام الحركة الإصلاحية والفكرية ورجلاً من رجالات الجهاد في منطقة طرابلس الغرب على الصعيدين العسكري والسياسي أو من خلال متابعته لقضية وطنه المحتل طوال فترة إقامته بالمهجر حتى وفاته.

ثانياً : لمحة مختصرة عن النشاط العسكري والسياسي لسليمان الباروني في الداخل

عقب عودة العمل بالدستور العثماني ١٩٠٨م عاد سليمان الباروني إلى طرابلس الغرب ورشح نفسه في مجلس البعوثات العثماني على منطقة الجبل الغربي وفاز في ذلك الترشيح، وعندما هاجمت إيطاليا السواحل الليبية في ٥ أكتوبر ١٩١١م كان سليمان الباروني في مقدمة المجاهدين الذين تصدوا للغزاة الطليان إلى جانب مجاهدي الجبل الغربي الذين تقاطروا إلى طرابلس وشاركوا في معارك الهاني – شارع الشط في ٢٣ أكتوبر ١٩١١م والهاني أبي مليانة في ٢٦ أكتوبر ١٩١١م والهاني سيدي المصري في ٢٦ نوفمبر ١٩١١م[1].

لقد أحدث الاعتداء الإيطالي على طرابلس الغرب ردود أفعال عربية وإسلامية واسعة النطاق وخلق تضامناً واسعاً بين أبناء الأمة العربية والإسلامية ضد الاحتلال الإيطالي واتضح ذلك من خلال الاحتجاجات والمظاهرات التي عمت معظم المدن والقرى العربية والإسلامية في المشرق والمغرب على حد سواء فضلاً عن عقد الاجتماعات وجمع الإعانات المادية دعماً للقضية الليبية ، وكان الأمير شكيب أرسلان قد تقدم بخطة استراتيجية طويلة المدى لدعم حركة

---

(1) خليفة محمد التليسي ، معجم معارك الجهاد في ليبيا ١٩١١-١٩٣١م، بيروت : دار الثقافة العربية ، ١٩٧٢م، ص٤٩٠-٤٩١.

المقاومة الليبية ارتكزت على ثلاث نقاط : الناحية التموينية بحيث تصل الإمدادات التموينية إلى المجاهدين عن طريق البر عبر الأراضي المصرية وذلك بسبب الحصار البحري المضروب على الشواطئ الليبية . ثم الناحية الإعلامية وتتضمن عقد الاجتماعات وجمع الإعانات وإرسال السعاة إلى البلاد الإسلامية من أجل دعم القضية الليبية.

وأخيراً الناحية العسكرية وتتركز على الاستراتيجية الداعية إلى الحرب الطويلة الأمد واستمرار المقاومة لأن ذلك سيؤدي إلى تدخل الدول الأخرى في القضية ويفت في عضد التجارة الإيطالية مما يؤدي إلى خلق معارضة داخلية في إيطاليا نفسها ضد هذا الإجراء، وقد صرح سليمان الباروني بصدد هذه الخطة قائلاً : " لو أخذت الحكومة العثمانية بتفاصيل الخطة التي رسمها الأمير شكيب أرسلان ونفذتها بحذافيرها لما ضاع الأمل في اتخاذ طرابلس وبرقة أو لاستطعنا على الأقل إطالة أمد الحرب ثلاث أو أربع سنوات أخرى "[1].

وفي أعقاب التوقيع على معاهدة أوشي لوزان بين تركيا وإيطاليا في ١٨ أكتوبر ١٩١٢م بمدينة لوزان بسويسرا ووضعها موضع التنفيذ دعا العقيد نشأت بك قائد القوات التركية في طرابلس الغرب والقائم بأعمال الوالي رؤساء المجاهدين في المناطق وزعماء البلاد لحضور اجتماع عام في العزيزية مقر القيادة العامة للتشاور فيما ستؤول إليه أمور البلاد.

وجهت الدعوة إلى كافة الزعماء والأعيان من قبل سليمان الباروني، وفرحات بك الزاوي وكان نصها : " بموجب الأمر الواصل من نظارة الحربية في ٧ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩١٢م والمقرون الإدارة السلطانية لإنهاء الحرب مع

---

(1) روفائيل بطي ، ": شكيب أرسلان ١٨٦٩-١٩٤٦م "، مجلة الكاتب، القاهرة، ٢ شباط ١٩٤٧م، ص٥٦٨ . و.ز.ب ياخيموفتش، الحرب التركية-الإيطالية١٩١١-١٩١٢م، ترجمة هاشم صالح التكريتي، بيروت:دار غندور للطباعة والنشر،١٩٧٠م.

إيطاليا لانعقاد الصلح الذي صار تبليغه وتعميمه. وكنتيجة لما سيعقب هذه التبليغات وما سيحصل بالطبع في حاضرنا من الخلل والتحولات الماسة بالمصالح العامة تأميناً لراحة الأهالي وحمايتها من ذلك، ندعو أعيان وأشراف البلاد للعزيزية اليوم لعقد اجتماع تقرر فيه الآراء في صورة عامة وتطبق فيه الترتيبات "[1].

لبى زعماء الجهاد وأشراف منطقة طرابلس بصفة عامة الدعوة الموجهة إليهم وعقدوا اجتماعهم في العزيزية يوم الجمعة الموافق ١٤ ذي القعدة ١٣٣٠هـ الموافق ٢٥ أكتوبر ١٩١٢م واستمرت اجتماعاتهم لمدة ثلاثة أيام ، وقر قرارهم على عدم إمكانية الدفاع وتحريمه من قبل المفتي، ولكن الباروني وعدد آخر من زعماء الجهاد رأوا وجوب الدفاع وعدم التسليم والقبول بمبدأ التصالح مع الطليان ويؤيدهم في ذلك بعض الضباط الأتراك وعلى رأسهم العقيد نشأت بك الذي بدأ في اتخاذ الإجراءات اللازمة لسحب القوات التركية في البلاد[2].

واستطاع سليمان الباروني وزعماء الرفض تكوين جبهة مقاومة وتصدي في وجه العدو الإيطالي في وقت كانت فيه السلطات العسكرية الإيطالية قد استغلت الانقسام الذي حدث بين المجاهدين وأسفر عن تعدد الزعامات الجهوية مما أتاح لهم المناخ الملائم للتنافس والصراع والخلاف مما أثر سلباً على حركة الجهاد الليبي وهيأ الفرصة للإيطاليين الذين استغلوا بدورهم تلك الانقسامات في استقطاب بعض الشخصيات الفاعلة والمؤثرة في مناطقها إلى جانبهم.

وفي ٣٠ نوفمبر ١٩١٢م وجه المجاهد عزيز علي المصري المرابط بجبهات القتال ببرقة رسالة إلى سليمان الباروني بالجبل الغربي دعاه فيها إلى

---

(1) زعيمة الباروني ، صفحات خالدة من الجهاد ، جـ ١ ، عنيت بجمعها وترتيبها زعيمة سليمان الباروني ، القاهرة : مطابع الاستقلال الكبرى ، ١٩٦٤ ، ص ٢٤٣ .

(2) حبيب وداعة الحسناوي ، " مؤتمر العزيزية ونتائجه على حركة الجهاد في ليبيا ٢٥-٢٨ أكتوبر ١٩١٢ " آفاق تاريخية ، السنة الأولى ، العدد الأول ، طرابلس : الجمعية لتاريخية العربية الليبية ، ١٩٩٦ ، ص ٥٤ ، وزعيمة الباروني ، صفحات خالدة ، ص ٣٥٢ . أنظر الملحق رقم (٢) .

مواصلة الكفاح وعدم التسليم مؤكداً على أن بثبات المجاهدين ينالون عطف الأمم الإسلامية[1].

استمرت المعارك بين المجاهدين الليبيين والإيطاليين مع بداية سنة ١٩١٣م تحت قيادة سليمان الباروني الذي استطاع بخبرته العسكرية تكوين جبهة لصد الزحف الإيطالي نحو الجبل الغربي والقبلة والجنوب فعمل الإيطاليون على استدراج المجاهدين بالطرق السلمية ولكنهم لم يفلحوا فحشدوا كافة قواتهم وهاجموا المجاهدين في معركة الأصابعة الشهيرة بمعركة جندوبة في ٢٣ مارس ١٩١٣م، ورغم المقاومة التي أبداها المجاهدون بزعامة سليمان الباروني إلا أن الغلبة كانت للقوات الإيطالية بحكم تفوقها في العدد والعتاد الحربي ، وتمكن الإيطاليون إثر هذه المعركة من السيطرة على الجبل الغربي فدخلت قواتهم يفرن في ٢٧ مارس١٩١٣م والزنتان في ٥ أبريل ١٩١٣م، وجادو في ٦ أبريل ونالوت في ١٣ أبريل ١٩١٣م [2].

وتشتت شمل المجاهدين وتفرق زعمائهم حيث توغلت مجموعة منهم نحو الجنوب الليبي بقيادة المجاهد محمد بن عبدالله البوسيفي. بينما دخلت مجموعة منهم الأراضي التونسية وفي مقدمتهم سليمان الباروني في شهر أبريل ١٩١٣م حيث أوقفتهم السلطات الفرنسية على الحدود التونسية وجردتهم من أسلحتهم وطالبتهم بالرجوع إلى طرابلس لكنهم رفضوا ذلك واختاروا الهجرة إلى تركيا باعتبارهم رعايا أتراك فسمحت لهم السلطات الفرنسية بالسفر إلى تركيا ولدى وصول الباروني إلى الاستانة عن طريق لندن أنعم عليه السلطان محمد الخامس برتبة الباشوية[3].

---

(١) أبو القاسم الباروني ، حياة سليمان الباروني ، ط ٢ ، القاهرة : (د – ن) ١٩٤٦م . ص ٥٧ .

(٢) خليفة محمد التليسي ، معجم معارك الجهاد ، ص ١٠٨-١١٠ . واتفاق العربان على مقاتلة الطليان . جريدة المحروسة، القاهرة أول مارس ١٩١٣م، أنظر محمد سيد كيلاني ، الغزو الإيطالي على ليبيا والمقالات التي كتبت في الصحف المصرية ما بين ١٩١١-١٩١٧م، لندن ، طرابلس ، القاهرة : دار الفرجاني، ١٩٩٦م، ص٣٣٥-٣٣٦ .

(٣) الطاهر أحمد الزاوي ، أعلام ليبيا ، ص ١٧٤ .

وحالما وصل الباروني إلى أسطنبول ومكث بها عدة شهور وتناهى إلى مسامعه استمرار المقاومة في طرابلس الغرب وبرقة فإنه أرسل رسالة إلى الأمير عمر طوسون بتاريخ ٢٧ محرم ١٣٣٢هـ الموافق ٢٦ ديسمبر ١٩١٣م استفسر فيها عن أخبار المقاومة المسلحة في ليبيا واستشاره فيما إذا كان بالإمكان إرسال بعض الضباط الليبيين من أسطنبول إلى جبهات القتال في برقة أم لا ؟ داعياً إياه للعمل على مد جبهة طرابلس ببعض المساعدات فرد عليه الأمير عمر طوسون برسالة مؤرخة في ٨ صفر ١٣٣٢هـ الموافق ٦ يناير١٩١٤م أكد له فيها على استمرار المقاومة بدليل خيبة المساعي التي تبذل لعقد الصلح بين الإيطاليين والسيد أحمد الشريف ولما كانت الأحوال على هذا النحو مع الأخذ في الاعتبار نقص الإمكانيات المادية فإنه لم يوافقه على إرسال أولئك الضباط في هذا الوقت مذكراً بأنه ليس من السهولة بمكان مدّ طرابلس بأية مساعدة لعدم ضمان أمن الطريق بينها وبين بنغازي[1].

أدى إعلان كل من بريطانيا وفرنسا الحرب على تركيا في ٥ نوفمبر ١٩١٤م إلى تغيرات جذرية في ميدان الجهاد الليبي حيث قرر الأتراك المنسحبين من ليبيا بموجب معاهدة أوشي لوزان المشار إليها سابقاً العودة إلى ليبيا واستئناف الحرب ضد دول الوفاق. رأى الأتراك والألمان ضرورة شغل القوات الإنجليزية المرابطة بجهة حدود مصر الغربية حتى يتسنى لهم غزو قناة السويس فقرروا الاتصال بالسيد أحمد الشريف السنوسي المرابط في جبهة القتال في برقة

---

(1) المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية بطرابلس ، هيئة الوثائق والمحفوظات ، ملف سليمان الباروني رقم (٩) وثيقة رقم (٥٥) رسالة الأمير عمر طوسون رئيس اللجنة العليا إلى سليمان الباروني بتاريخ ٨ صفر ١٣٣٢هـ ، لموافق ٦ يناير ١٩١٤م ملحق رقم (٣) . ومفتاح بالعيد غويطة ، الموقف الشعبي المصري من حركة الجهاد في ليبيا ١٩١١-١٩٣١م، طرابلس : مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، ٢٠٠٣م ، ص٢٤٤ . وزعيمه الباروني ، صفحات خالدة ، ص٤٥٥-٤٥٦ .

لإشراكه في قتال الإنجليز المتواجدين بمصر مستغلين في ذلك الروابط الإسلامية التي جمعته بهم وبدولتهم باعتبارها عاصمة للخلافة الإسلامية[1].

استغل القادة الأتراك الدعوة الحماسية التي أطلقتها منظمة تشكيلاتي مخصوصة إلى كافة الأقطار الإسلامية ومن بينها طرابلس الغرب وبرقة ودعت فيها إلى الجهاد الإسلامي باسم الخليفة العثماني فأصدروا أمرهم إلى السيد أحمد الشريف لتنفيذ مهمة الهجوم العسكري على القوات الإنجليزية المرابطة بمصر وخلاصته أن الدولة العثمانية قد دخلت الحرب والواجب على أهل طرابلس وبرقة مشاركتها في تلك الحرب وسوف يتم تزويدهم بالمال والعتاد اللازم للقتال فيما بعد[2].

وعلى الفور انتقل السيد أحمد الشريف من مقر قيادته في الظهر الحمر بالقرب من درنة إلى بلدة مساعد القريبة من الحدود المصرية بعد أن تناهى إلى سمعه وصول مجموعة من الضباط الأتراك إلى هضبة السلوم ووصول بعض الإمدادات التموينية إلى ميناء البردي، وازدادت شكوك الإنجليز في وصول عدد من المجاهدين الليبيين إلى منطقة السلوم وفي مقدمتهم سليمان الباروني الذي اتهمته السفارة البريطانية في اسطنبول بأنه موجود بمصر وأنه يعمل على تأجيج الثورة فيها تمهيداً للانتقال إلى داخل وطنه لتحريض القبائل الليبية ضد الإيطاليين حسبما ذكرته الجرائد الإيطالية وعنها نقلت بعض الصحف المصرية

---

(1) مصطفى علي هويدي ، الحركة الوطنية في شرق ليبيا خلال الحرب العالمية الأولى ، طرابلس : مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ١٩٨٨م، ص ٥٢ . وأحمد عطية مدلل ، المقاومة الليبية ضد الغزو الإيطالي وتأثيرات الأوضاع الدولية عليها ، أغسطس ١٩١٤-١٩١٥م، طرابلس : مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، ١٩٨٩م، ص١٧١-١٩٠ .

(2) صفحة مجهولة من الحرب الكبرى ، مهاجمة مصر من طرابلس الغرب (حديث مع جمال باشا الغازي ياور أنور باشا الخاص) مجلة الدنيا المصورة، عدد ١٧٩، القاهرة : الأربعاء ٢ شعبان ١٣٥٠هـ ، الموافق ٣٠ ديسمبر ١٩٣١م، ص٦-٧.

مثل المقطم، وقد وصفته تلك الصحف بأنه صنيعة أنور باشا وزير الحربية العثمانية وعميله[1].

لكن السيد أحمد الشريف عندما اتضحت له الأمور رفض فكرة الهجوم على الجيش الإنجليزي في مصر لأنه كان يدرك أن مصلحة بلاده في أن تكون الأسواق المصرية مفتوحة للمجاهدين في وقت انتشرت فيه المجاعة والفقر بسبب الجفاف الذي ساد منطقة برقة في تلك الأثناء لذلك فإنه ما أن أدرك النوايا العثمانية والألمانية حتى اتخذ موقفاً صارماً حيال الضباط الذين وصلوا إلى السلوم وخصوصاً سليمان الباروني الذي اعتقله السيد أحمد الشريف بضعة أشهر بعد أن دار بينهما نقاش حاد حيث أصر السيد أحمد الشريف على معرفة أسباب قدوم الباروني وصحبه إلى هضبة السلوم، فضلاً عن اكتشاف المؤامرة التي دربت لنسف خيمة المجاهد أحمد الشريف السنوسي. وبعد بضعة أشهر من سجنه توسط له الأمير محمد إدريس السنوسي لدى السيد أحمد الشريف فأطلق سراحه فعاد إلى تركيا مع نهاية عام ١٩١٥م [2].

وجدير بالذكر أنه عقب هزيمة الإيطاليين في معركة القرضابية في ٢٨ و ٢٩ أبريل ١٩١٥م سلكت السلطات الإيطالية بطرابلس نهجاً جديداً يعتمد على العملين السياسي والعسكري ففي المجال السياسي عملت على إثارة الفتنة والانقسام بين صفوف الزعماء وسعت إلى استمالة بعض الفئات وتأليبها على الفئات الأخرى (سياسة فرق تسد) وكان أهم ما توخته في هذه الفترة العمل على إحداث انقسام بين مصراته وورفلة ، وبين ترهونة ومصراته، ثم بين زعماء الجبل الغربي ونجحت نجاحاً كبيراً في إحداث الصدع بين الصفوف وحققت بالعمل

---

(١) زعيمة الباروني ، صفحات خالدة ، جـ ١ . ك ١ . ص٤٩٢-٤٩٣، ومفتاح بالعيد غويطة ، الموقف الشعبي المصري من حركة الجهاد في ليبيا ١٩١١-١٩٣١م، ص ٢٧ .

(٢) غويطة ، الموقف الشعبي المصري ، ص٢٧٢ ، زعيمة الباروني، صفحات خالدة، ص٤٩٨-٥٠٠ ، ثم ص٥١٣. المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية بطرابلس ، شعبة الوثائق والمخطوطات ، ملف سليمان الباروني رقم (٩) الوثيقة رقم (٥٣) والوثيقة رقم (٥٤) حوار متبادل بين السيد أحمد الشريف وسليمان الباروني في معسكر معاعد بتاريخ ٢٧-٢٨ ربيع الأول ١٣٣٣هـ - الموافق ١٢ فبراير ١٩١٥م . أنظر الملحق رقم (٤).

السياسي ما فشلت في تحقيقه بالعمل العسكري فأوجدت من ذلك الانقسام قاعدة كبيرة اعتمدت عليها عملياتها العسكرية فيما بعد [1].

وفي عام ١٩١٦م عينت الحكومة التركية سليمان الباروني واليا على طرابلس الغرب فعاد إليها مجدداً في شهر أكتوبر من نفس العام، فاستقبلته الجماهير بفرح كبير لكن الأوضاع السياسية غير المستقرة، وظروف المجاعة والحصار وغيرها من المشاكل المستعصية كانت في انتظاره فعمل على تنظيم جبهات القتال واتخذ من منطقة العجيلات مركزاً لقوات المجاهدين الزاحفين من مناطق الجنوب والجبل الغربي، وعمل بمساعدة بعض الزعماء الآخرين على إخماد نيران الفتنة والحروب الأهلية التي اجتاحت منطقة طرابلس الغرب وخاصة بين منطقة ترهونة ومسلاتة من جهة ومصراته من جهة أخرى، فاستطاع الباروني و زملائه القضاء على تلك الفتنة وتم عقد الصلح بين المتخاصمين في منطقة مسلاته سنة ١٩١٦م، والتي كانت السبب المباشر في الخصومة بين الطرفين حول تبعيتها لكل منهما.

وعلى العموم توجه الباروني إلى غرب طرابلس وزار مقاطعاتها واجتمع بزعمائها شارحاً لهم ما ينوي القيام به في ولايته حتى وصل للزاوية الغربية فاستمر بها وجعلها عاصمة لولايته لتوسطها بين الجبل الغربي والساحل الشمالي والجنوب الشرقي وأنشأ بها حكومة تقوم على تنسيق الجهاد بين المناطق المختلفة بأساليب الاتصال الشخصي بالزعماء الذين ظل كل واحد منهم يسيطر على الشئون العامة في منطقته كرمضان السويحلي في مصراته، عبدالنبي بالخير في ورفلة، أحمد المريض في ترهونة، ومختار كعبار ومحمد الفكيني وبن تنتوش ... وغيرهم، كما كان اتصالهم به أيضاً ليظفر كل منهم بنصيب منطقته من

---

[1] خليفة محمد التليسي، معجم معارك الجهاد في ليبيا، ص٥٨-٥٩ .

المساعدات وغيرها من المؤن والعتاد التي تصل عن طريق الغواصات إلى سليمان الباروني [1].

وكان سليمان الباروني يعلم أن هذه المعونات ترسلها الدولة العثمانية لغرض توجيه الجهاد لمصلحتها ولكن وطنيته الزائدة ومعرفته بالأحوال الاقتصادية السيئة للبلاد حملته على أن يستفيد من الأتراك لصالح أبناء قومه مهما كان الأسلوب الذي كان يتبعه أو الغاية من إرسالها. ومع تصاعد الروح المعنوية لدى المجاهدين الليبيين ونمو الروح الوطنية المطالبة بالتحرير والاستقلال يظهر فجأة خبر هزيمة الدولة العثمانية ويتنادى زعماء الجهاد في منطقة طرابلس الغرب لسد الفراغ السياسي الذي تركه انسحاب الضباط والقادة السياسيين الأتراك من ليبيا للمرة الثانية فعقدوا اجتماعاً موسعاً بمدينة مسلاته في ٣ صفر ١٣٣٧هـ الموافق ٩ نوفمبر ١٩١٨م ضم معظم قادة الجهاد ومشايخ القبائل وأعيان منطقة طرابلس وقرروا إعلان الجمهورية الطرابلسية واختاروا لها مجلساً إدارياً يتكون من سليمان الباروني وأحمد المريض وعبدالنبي بالخير ورمضان السويحلي، كما شكلوا هيئة استشارية تألفت من أربعة وعشرين عضواً يمثلون كافة مناطق إقليم طرابلس وتنحصر مهمة تلك الهيئة في مساعدة مجلس الإدارة بتقديم الاستشارات اللازمة[2].

ودون الخوض في تفاصيل هذه الجمهورية من حيث نشأتها وعلاقتها بالقوى المحلية وعلاقاتها بالأطراف الدولية فإن هذه الجمهورية المنعزلة عن العالم استطاعت أن تنشئ علاقات ندية بالإيطاليين وتفرض عليهم قبول المفاوضات حول أهم المبادئ التي أجمع عليها قادة وزعماء وأعيان طرابلس

---

(1) رفعت عبدالعزيز سيد أحمد ، ومحمد أمحمد الطوير ، تاريخ الجهاد في ليبيا ضد الغزو الإيطالي ١٩١١-١٩٣١م، القاهرة:مركز الحضارة العربية ، ١٩٩٨م، ص ١٥٠ .

(2) مصطفى علي هويدي ، الجمهورية الطرابلسية جمهورية العرب الأولى ، طرابلس : مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ٢٠٠٠م، ص٨٠-٨٤ .

الغرب والتي يأتي في مقدمتها منح الاستقلال لإقليم طرابلس الغرب واحترام اللغة العربية والشعائر الدينية وإقامة علاقات تقوم على الاحترام المتبادل بين الطرابلسيين والإيطاليين وإيقاف الحرب بين الطرفين في ضوء نصوص صلح بن يادم الموقع بين الطرفين في يونيو ١٩١٩م، وإصدار القانون الأساسي للقطر الطرابلسي الذي صدر في ١ يونيو ١٩١٩م وتضمن أربعين مادة باتفاق الطرفين[١].

ثم تطورت الأحداث في إقليم طرابلس الغرب بعقد اتفاق كبير بين زعماء الجهاد بمنطقة طرابلس الغرب على إثر الإعلان عن انعقاد مؤتمر غريان الذي وضع أسس التعامل بين الليبيين وعلاقاتهم بالإيطاليين وذلك في ربيع الأول ١٣٣٩هـ نوفمبر ١٩٢٠م، ثم الإعلان عن تأسيس هيئة الإصلاح المركزية وكانت السلطات المحلية الإيطالية لهم بالمرصاد ووجهت أول ضربة قاسمة تلقتها الجمهورية الطرابلسية هي استمالة السلطات المحلية الإيطالية للقائد العام للجيوش الطرابلسية عبدالقادر الغناي إلى صفها والدخول معه في مفاوضات دون علم بقية زعماء الجمهورية نتج عنها خلاف كبير بين الزعماء وهو هدف طالما سعت السلطات الإيطالية إلى تحقيقه[٢].

وترتب على تلك الخلافات ازدياد الهوة بين الزعماء بسبب اختلافاتهم على مناطق النفوذ القبلية التي تقع تحت سيطرة كل منهم وذلك بفعل السياسة الاستعمارية التي اتبعتها السلطات الإيطالية والمتمثلة في تطبيق مبدأ سياسة فرق تسد التي أثرت تأثيراً مباشراً في وحدة الصف الوطني والتي أشار إليها غراتسياني في كتابه نحو فزان قائلاً : " لقد تم تطبيق نظرية فرق تسد تطبيقاً تاماً على

---

(1) EGGE FONDAMENTALE PERLA TRIPOLITANIA , 1, GIUGNO , 1919 , P 18.

(١) العصر الجديد، عدد٥، صفاقس، الجمعة ١٦ شوال ١٣٣٨هـ، ٢ جويليه ١٩٢٠م، " الاضطرابات في طرابلس "،ص٣.

أحسن الوجوه، تلك النظرية التي كانت بسبب ظروف المكان والزمان والعمل عظيمة النفع ولذلك اتبعناها "[1].

أما الضربة الثانية التي تلقتها رئاسة الجمهورية من قبل السلطات الإيطالية هي سعيها إلى إشعال نيران الفتنة بين الزنتان والرجبان من ناحية وسكان الجبل الغربي من ناحية أخرى واتضح ذلك من خلال رسالة الوالي الإيطالي فولبي إلى محمد فكيني وإلى كافة رؤساء ونجباء قبائل الزنتان والرجبان فكان لها ما أرادت حيث نشب الخلاف بين محمد فكيني، وخليفة بن عسكر عضوي الجمهورية الطرابلسية.

وبالرغم من الجهود المبذولة للم الشمل وتوحيد الصفوف من خلال مؤتمر غريان وقراراته التاريخية والتي تمثل أهمها في انتخاب وفد يسمى وفد الإصلاح بين الزنتان والبربر إلا أن سليمان الباروني (زعيم البربر بالجبل الغربي) وعبدالنبي بالخير (زعيم ورفله) وهما من أبرز أعضاء الجمهورية الطرابلسية لم يشتركا في مؤتمر غريان، ولا في حكومة هيئة الإصلاح المركزية، ولا في الوفد المرسل إلى إيطاليا للتفاوض مع الحكومة الإيطالية حول مطالب الطرابلسيين.

وفي غضون شهر أكتوبر ١٩٢١م وقعت فتنة بين أهالي الرجبان والزنتان من جهة وأهالي يفرن بزعامة خليفة بن عسكر من جهة أخرى فقامت هيئة الإصلاح المركزية بتكليف بشير السعداوي ليكون متصرفاً للجبل الغربي وغريان وليقضي على تلك الفتنة لكنه فشل في مهمته بسبب هجوم الزنتان على مناطق فساطو وطمزين في شهر ديسمبر ١٩٢١م بقيادة خليفة بن عسكر الذي مني

---

(1) adolfo Graziani , Laricong unita del fezzan . Milano , 1934 , p 262.

بهزيمة اضطرته إلى الانسحاب إلى زوارة والبقاء بها حتى سلم نفسه للطليان فقاموا بإعدامه في أواخر شهر يونيو ١٩٢٢م [١].

وعندما فشلت محاولات سليمان الباروني وزعماء الجهاد في المنطقة الغربية في إطفاء الفتن والحروب الداخلية بين أبناء الوطن الواحد خرج المجاهد سليمان الباروني مهاجراً سنة ١٩٢٣م إلى إيطاليا ومنها إلى نيس بفرنسا وبقي تحت الإقامة الجبرية لمدة عام ونصف.

وأثناء إقامة سليمان الباروني بفرنسا أجرى اتصالاً بالزعيم المصري سعد زغلول لإمكانية التوسط لدى الحكومة المصرية بالسماح له بالإقامة في مصر لكن الزعيم سعد زغلول أبدى اعتذاره للباروني قائلاً لو كان الأمر بيدي لما تأخرت في ذلك، وعندما تولى سعد زغلول رئاسة الوزارة المصرية في يناير ١٩٢٤م أرسل إليه الباروني برسالة عبر سفير مصر بباريس يطلب فيها سماح الحكومة المصرية لإقامته في مصر ولكن طلبه قوبل بالرفض فهاجم الباروني سعد زغلول واصفاً إياه بأنه لا يقر شيئاً دون استشارة الإنجليز والطليان وهجاه بقصيدة شعرية مما جاء فيها :

ليستأنف أبطال مصر جهادهم ما سعد منقذهم ولا نوبار
ما سعد إلا مثل سابقه بلا شك ألا فليعلم الأحرار

كما هاجم سليمان الباروني سياسة بريطانيا متهماً إياها بأنها وراء منعه من دخول مصر وذلك بتحالفها مع السلطات الإيطالية بمصر لتضييق الخناق على الزعماء الطرابلسيين إذ أن رفض طلبه في الإقامة بمصر لم يكن سوى استجابة من الحكومة المصرية للمطالب الإيطالية[٢].

---

(١) حول شخصية خليفة بن عسكر أنظر: محمد سعيد القشاط، خليفة بن عسكر الثورة والاستسلام، بيروت:دار المسيرة،١٩٧٨م.

(٢) محمد أبو الأمعاد ، مصر والمسألة الليبية ١٩١١-١٩٣١م (رسالة دكتوراه غير منشورة)، قسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، ١٩٩٠م، ص ٢٩١ .

ولكن إقامة سليمان الباروني بفرنسا لم تدم طويلاً حيث سافر إلى الحجاز عن طريق الاسكندرية – بيروت وجده ١٣٤٢هـ لأداء فريضة الحج وعقب انتهاء موسم الحج سافر إلى عُمان لاستقرار بها وقد لقي ترحيباً كبيراً من قبل السلطان تيمور بن فيصل آل سعيد ومن الشعب العُماني مما شجعه على التفاعل مع المجتمع العُماني بمختلف أطيافه السياسية والدينية.

ثالثاً : النشاط السياسي لسليمان الباروني خلال فترة إقامته بعُمان ١٩٢٤-١٩٢٩م

ما إن وصل سليمان الباروني إلى عُمان واستقر بها خلال سنة ١٩٢٤ حتى انخرط في الحياة الاجتماعية العُمانية وتفاعل مع أبناء عمومته تفاعلاً تاماً في الداخل والساحل على حد سواء ، وأنشأ مدرسة سماها المدرسة البارونية على غرار المدرسة التي أنشأها والده في منطقة كاباو بالجبل الغربي، وقد تولت هذه المدرسة مهمة نشر العلم والمعرفة في عُمان واستمرت في تعليم الناشئة علوم القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وعلوم التوحيد والفرائض وغيرها من علوم العصر لعدة سنوات[١].

ظهر الباروني في عُمان بمظهر الرجل العفيف والوطني الغيور على دينه وأمته الإسلامية فأصبح علماً من أعلام الإصلاح في الأمة الإسلامية نال إعجاب وتقدير سلطان الساحل تيمور بن فيصل، كما نال تقدير واحترام إمام الداخل الإمام محمد بن عبدالله الخليلي اللذين قبلا مساعيه التصالحية بينهما وعلى إثر ذلك قلده السلطان تيمور بن فيصل الوسام البوسعيدي وهو أرقى وسام يمنحه السلطان ، وعينه الإمام رئيساً لوزرائه [٢].

---

(١) زعيمة الباروني ، سليمان الباروني ، تعريف موجز ، ص ١٩ .
(٢) محمد سعيد القشاط ، ليبيون في الجزيرة العربية ، بيروت : الدار العربية للموسوعات ، ٢٠٠٨م، ص ٨٥ .

وفي سنة ١٩٢٤م أرسله السلطان تيمور بن فيصل إلى سلطان نجد وتوابعها الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن سعود في مهمة تصالحية بينه وبين الملك الشريف علي بن الحسين بسبب استمرار الحرب بين الطرفين حول بيت الله الحرام الذي يقدسه الجميع، وحمله رسالة شخصية إلى الملك عبدالعزيز بن سعود مما جاء في آخرها قوله : " وحيث إن حامل كتابنا هذا هو على مثل ما نحن عليه من الكدر كلفناه بأن يعرب لعظمتكم عن إحساساتنا الدينية توضيحاً لما كتبناه هنا فالمرجو اعتماد كلامه في هذا الصدد فإنه الثقة الأمين ولا شك في أن لكم الخبرة الكافية فيه وفي أمثاله وله تفان وتضحية في كل ما يتعلق بإصلاح حال الأمة الإسلامية "[1].

كما كلفه السلطان تيمور بن فيصل بحمل رسالة مماثلة إلى الملك الشريف علي بن الحسين مما جاء فيها قوله : " حامل كتابنا هذا الوجيه المحبوب لدى الدولتين المحترم الشيخ سليمان باشا الباروني أحد علماء مذهبنا ومن رجال الإسلام المعروف لديكم شخصياً وعملاً متوجه إلى ساحة ملككم مضحياً خدماته فيما فيه مصلحة الأمة الإسلامية ولديه إخلاص كامل لقيادة والدكم والدنا. وقد أصحبناه كتابنا هذا لينوب عنا في عرض إحساساتنا وتألمنا العظيم مما لازلنا نسمعه من استمرار الحرب حول حرم الله المقدس بين إخوان مسلمين كلهم يدينون بتعظيم بيت الله الحرام وشعائره المقدسة فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، نسأل الله تعالى أن يلهم الجميع ما فيه حقن الدماء وسرور العالم الإسلامي ووقاية الأماكن المقدسة من كيد الكائدين، وحيث إن الحامل المذكور من الثقاة الأمناء عندنا فلا حاجة إلى التوصية على اعتماد ما يبديه من الفكر فيما فيه الصلاح. كما نلتمس من جلالتكم التنزل إلى تسهيل ما يعسر عليه في

---

[1] نص رسالة السلطان تيمور بن فيصل إلى سلطان نجد وتوابعها في جريدة الشورى ، عدد ٤٨ ، القاهرة : الخميس ٦ ربيع الأول ١٣٤٤هـ-٢٤ ديسمبر١٩٢٥م، " بين ملوك العرب وثائق تاريخية ورسائل ملكية يجب أن تنشر " ، ص ١ . ملحق(٥-أ) .

هذا السبيل فإنه وأمثاله الذين حاربهم الدهر ولا تزال حربا لهم ممن يجب أن نسهل السبل أمامهم ليقوموا بخدماتهم الخيرية الإسلامية "[1].

كما كلفه الإمام محمد بن عبدالله الخليلي إمام المسلمين بعُمان حضور المؤتمر الإسلامي باسم الأمة العُمانية والمزمع عقده بمصر أو بغيرها من البلاد الإسلامية لمناقشة قضايا الخلافة الإسلامية والأماكن المقدسة وقد جاء أمر التكليف على النحو التالي : " بسم الله الرحمن الرحيم – من إمام المسلمين بعُمان محمد بن عبدالله الخليلي إلى جناب المجاهد في سبيل الله الغيور في دين الله أخينا الشيخ سليمان الباروني وفقه الله السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. حيث إن العالم الإسلامي في اضطراب واهتمام لقضية الخلافة والأماكن المقدسة وقد تقرر على ما بلغنا عقد مؤتمر لأجل ذلك فإننا نكلف جنابك باسم الأمة العُمانية أن تحضر هذا المؤتمر الذي سيعقد لهذا الغرض الديني السامي في مصر أو في غيرها من البلاد الإسلامية وليكن رأيك في مسألة الخلافة مطابقاً لقواعد الشرع الصحيحة وهي لا تخفى عليك. أما مسألة الأماكن المقدسة فليكن رأيك فيها مبيناً على حمايتها من عبث العابثين ووقايتها من تسلط كل يد أجنبية مهما كانت مقاصدها وصيغتها. وقد استحسنا جداً تكليف جناب السلطان إياك بالتوجه إلى الحجاز مندوباً من طرفه وحاملاً كتب نصيحة منه إلى المتحاربين حول بيت الله الحرام فنعم الرأي رأيتماه فإن المسألة من أهم ما يجب أن يهتم به كل مسلم وإننا لا نزال في شغل من ذلك والمنتظر من جنابك موافاتنا بالأخبار الصحيحة بدون فاصلة والله تعالى نسأله أن يوفقك والمسلمين أجمعين إلى ما فيه خير دينهم ودنياهم آمين "[2].

---

(1) رسالة من تيمور بن فيصل إلى حضرة الملك الشريف على بن الحسين ، بتاريخ رمضان ١٣٤٣هـ ، وردت في جريدة الشوري، عدد٤٨ ، القاهرة: بتاريخ الخميس ٦ ربيع الأول ١٣٤٤ هـ الموافق ٢٤سبتمبر ١٩٢٥م، ص١. ملحق رقم(٥-ب)

(2) رسالة تكليف من إمام المسلمين بعُمان محمد بن عبدالله الخليلي إلى الشيخ سليمان الباروني ، الشورى ، عدد ٤٨ ، القاهرة: بتاريخ الخميس ربيع الأول ١٣٤٤هـ الموافق ٢٤ ديسمبر ١٩٢٥م، ص ١ . أنظر ملحق (٥-ج).

ورغم انشغاله بمهام الوزارة العُمانية والقضايا العربية والإسلامية إلا أنه لم ينقطع عن متابعة وطنه وتتبع أخباره ولم يتوقف عن متابعة أخبار وحوادث العالم العربي والإسلامي وردة فعلهما عما يجري في طرابلس الغرب وبرقة من أعمال لا تمت إلى الإنسانية بصلة فاتصل بالصحف العربية في العراق والشام ومصر والجزائر وتونس وزودها بمقالاته النارية التي تدحض مزاعم وافتراءات المحتلين الإيطاليين وممارساتهم اللاإنسانية بحق المواطنين الليبيين.

ولما علم سليمان الباروني رئيس وزارة عُمان أن إيطاليا قد عزمت على نقض القانون الأساسي للقطر الطرابلسي الصادر في شهر يونيو ١٩١٩م والذي وضعت مواده بالاتفاق بين المجاهدين الطرابلسيين والهيئة العسكرية الإيطالية وصدقه مجلس الوزراء ومجلسا النواب والأعيان وجلالة ملك إيطاليا ورضيته الأمة الإيطالية جمعاء وحبذته الأمم الشرقية والغربية بما اعترف به من حقوق للطرابلسيين الذين قابلوه بالوفاء للعهد الذي قطعوه على أنفسهم بالتمسك بنصوصه والعمل بما جاء فيه ؛ بعث إلى دكتاتور إيطاليا السنيور موسوليني برسالة مطولة نقتطف منها الفقرات التالية :- ونحن ما كنا نحارب إيطاليا لمجرد بغض فيها أو لعداوة نضمرها لها أو لطمع في درهم واحد من خزائنها أو في منصب من مجالسها بل لمحافظة بعض حقوق ورثناها عن أباءنا فدافعنا عنها لنورثها أبناءنا مسجلة في عهد مسطور، وها هي أوراق وسجلات أسلافك الوزراء بين يديك فراجعها فلا تجد أسماءنا إلا في دفاتر الوقائع والمعارك أما دفاتر المالية والهدايا الثمينة والمطالب الشخصية فلا تجد لنا ولا فخر أثراً ولا ذكراً ... أما ما يترنم به غواة الاستعمار من أن إيطاليا لم تعتد على الطرابلسيين وإنما عادت إلى بلاد أباءها الأقدمين الذين أبقوا أثارهم دالة عليهم فقول لا يقبله سليم العقل ولا ينطبق على شيء من التاريخ الحقيقي فإن بلاد الإيطاليين منذ عرفوا إيطاليا المعلومة بحدودها في كتب الجغرافيا وراء البحر الأبيض ما اجتازوا هذا

البحر إلا غازين أو مسترزقين كما أتوا إلى تونس والجزائر وغيرها وكما أتى العرب إلى قطانيا وسيركوزه وبليرمو وميسينا وغيرها من بلاد إيطاليا التي ملكوها قروناً من الدهر فهل لهم أن يقولوا الآن : تلك بلاد آبائنا وأجدادنا وقد أتى طرابلس من غير الإيطاليين كثيرون كالمصريين والحجازيين والسوريين والترك وعادوا عنها أو احتلوها مدة بعد حروب طاحنة ثم بارحوها فهل لهم أن يدعوا كلهم أنها بلاد أجدادهم ؟ ولو التفتت دولتكم التفافة خفيفة إلى الوراء لرأيتم أن راية إيطاليا كانت قبل خمسة وعشرون عاماً فقط مرفوعة فوق أسوار مرزق في فزان وفوق قصور غات وغدامس على حدود السودان (الغربي) فما بالها رجعت في أول الحرب العامة متقهقرة إلى أن أوقفها البحر فانحصرت داخل أسوار طرابلس وزوارة والخمس تاركة وراءها كل عزيز لديها من مال وسلاح ورجال. أليس أولئك المتقهقرون هم عينهم الفاشستيون الآن ومنهم دولتكم ؟ أم الفاشستية نزلت ومعها رجالها من السماء ؟ لا لا وشرفك ... فالإنصاف الإنصاف والنظر النظر إلى المستقبل ببصائر لا تغفل عن الماضي فإن التاريخ يعيد نفسه كما قيل وقد قال الشاعر العربي :

ما أنت أول سار غره القمر ورائد أعجبته خضرة الدمن

أيها الوزير الخطير إنك قد أعليت شأن الأمة الإيطالية وأحييت مجدها وألبستها تاج الفخار وخلدت لنفسك ذكراً لا ينسى فلا تجعل نقض القانون الأساسي الطرابلسي نقطة سوداء بين أسطر تاريخك الذهبية ، وفي الختام تقبل احترام ابن العزيزة طرابلس الغرب[1].

إن المتتبع لآثار الباروني ومقالاته الصحفية في جرائد ومجلات المشرق العربي والمغرب العربي ليقف عاجزاً عن حصرها بحكم كثرتها وتنوعها وتوزيعها

---

(1) جريدة الشورى، عدد ١٣٦، القاهرة: الخمس ٣٠ ذي لحجة – ١٣٤٥هـ ، " من الأستاذ الباروني إلى السنيور موسوليني " ص١ . أنظر الملحق رقم (٦) .

الجغرافي لكنها كانت صيحات حق مدوية في سماء العروبة سواء في بغداد أو دمشق أو القاهرة أو تونس أو الجزائر لم يفرط فيها الباروني يوماً في حبة تراب من وطنه العزيز ولم يفرق يوماً بين قضيته الوطنية والقضايا العربية والإسلامية بصفة عامة واعتبر أن الاحتلال الأجنبي لطرابلس الغرب وبرقة هو احتلال جزء من أرض العروبة والإسلام وواجب الدفاع عنها يقع على كاهل الأمة الإسلامية بأكملها.

وليس من المبالغة إذا قلنا أنه بفعل تظافر جهود الزعماء الطرابلسيين وفي مقدمتهم سليمان الباروني وبشير السعداوي وعمر فائق شنيب ومحمد علي الحداد ومحمد الأخضر العيساوي والطاهر أحمد الزاوي، وغيرهم كثيرون أن أصبحت القضية الليبية قضية عربية وإسلامية هاجت لها خواطر العرب والمسلمين من المحيط إلى الخليج وبرزت في المحافل العربية الإسلامية وتبناها أصحاب المقامات السياسية وملوك العرب وأمرائهم.

وعلى العموم فإن إقامة سليمان الباروني بعُمان استمرت قرابة السبع سنوات إلى أن داهمته حمى الملاريا وضغط الدم فآثر الانتقال إلى بغداد بعد اتصالات أجراها بالملك فيصل بن الحسين فوصلها في شهر يوليو سنة ١٩٢٩ وقد عبر الملك فيصل عن تقديره للشيخ سليمان الباروني قائلاً : " إنها الشخصية التي يقدرها الجميع والتي يعرف لها كل عربي مكانتها في حقل الكفاح الوطني والقومي "[1].

رابعاً : نشاط سليمان الباروني السياسي خلال فترة إقامته ببغداد ١٩٢٩-١٩٣٨م

---

(1) محمد سعيد القشاط ، ليبيون في الجزيرة العربية ، ص٨٩ .

وفي منتصف شهر يوليو ١٩٢٩م وصل سليمان الباروني رئيس وزارة عُمان إلى بغداد وأقام في دار الضيافة العراقية، وأقيمت له الولائم من قبل المسئولين العراقيين وأصدقائه من رجال السلك الدبلوماسي العربي ترحيباً بمقدمه الميمون، كما حظي باستقبال جلالة الملك فيصل ولقي من لدنه كل رعاية ولطف، ومعلوم أن سليمان الباروني كان مطارداً من قبل السلطات الاستعمارية في الشرق والغرب وعلى الرغم من ذلك فقد كان صديقه القديم عبدالعزيز الثعالبي رجل الحركة الوطنية التونسية في مقدمة مستقبليه ومضيفيه، وخلال زيارته لبغداد التقى الباروني بعدد من رجال السياسة العراقية والمفكرين والأدباء ومن بينهم رستم بك حيدر رئيس الديوان الملكي العراقي وسفير العراق في إيران ومصطفى بك مخلوف قنصل مصر في العراق وعبدالمنعم أفندي عبداللطيف سكرتير القنصلية والشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي وطه بك الهاشمي مدير المعارف العام وساطع بك الحصري المستشار الفني للمعارف رؤوف بك الكبيسي مدير السجون العام وصبحي بك الدفتري عضو مجلس النواب وعبدالله أفندي الحاج الكاتب الثاني للبلاط وبهاء الدين أفندي من الوجهاء وزكي بك قدري وخليفة أفندي شعبان (طرابلسي) وصاحب الفضيلة يوسف أفندي العطا مفتي بغداد[1].

وعندما تم الإعلان عن تكوين اللجنة التنفيذية للجاليات الطرابلسية البرقاوية بدمشق وتولى رئاستها المجاهد بشير السعداوي في شهر أغسطس ١٩٢٨م وشرعت هذه اللجنة في الاتصال بزعماء الجهاد الليبي في المهجر، كان من بين من اتصلت به المجاهد سليمان الباروني طالبة من تزويدها بكافة المعلومات المتعلقة بحركة المقاومة الوطنية المسلحة للاحتلال الإيطالي في طرابلس الغرب حيث جاء في رسالة رئيس اللجنة إلى سليمان الباروني قوله أنه

---

(1) الشورى، عدد٢٤٣ ، القاهرة: الأربعاء ١٠ صفر ١٣٤٨هـ الموافق ١٧ يوليو ١٩٢٩م،"الأستاذ الباروني في العراق"،ص١ .

لا يخفى عليكم أن التاريخ هو حياة الأمم وسجل أعمالها الخالدة التي يقتفي أثره أبناء الأمة وللشعب الطرابلسي البرقاوي من جلائل الأعمال في حروبه مع الدولة الإيطالية ما يكتب بحروف من الذهب، وأن من أكبر العار أن تبقى تلك الأعمال الجليلة في طي الكتمان وتتناسى مع مرور الزمن، ثم يطلب منه مدّ اللجنة بنبذة عن تاريخ جهاده وعن معلوماته عن الصلح الذي جرى في سواني بني آدم . وقد رد الباروني على السعداوي باعتذاره عن تقديم أية معلومات بسبب عدم امتلاكه في الوقت الحاضر للأوراق والوثائق الخاصة بسير الجهاد ، ومفاوضات الصلح حيث تركها في ليبيا ويقول أنه يخاف مخالفة الحقيقة إذا اعتمد على الذاكرة والتخمين[1].

لكنه ظل متابعاً للصحف العربية التي نشرت أخبار الجهاد وقام بتصحيح ما ورد فيها من أخطاء ويتضح ذلك من خلال رسالة بعث بها أبو القاسم سعيد يحي الباروني إلى عمر فائق شنيب يشير فيها إلى أن الباروني مقيم ببغداد وكتب تصحيح وبيان في جريدة المقطم حول ما نشره اليوزباشى محمد إبراهيم لطفي المصري في جريدة الجهاد المصرية تحت عنوان طرابلس الغرب وبرقة صفحة بطولة خالدة . كما تشير الرسالة إلى مساعيه لدى السلطات الفرنسية من أجل نقل عائلته إلى تونس أو الجزائر لقربهما من الوطن ورد السلطات الفرنسية بعدم القبول[2].

ولكن سليمان الباروني كان على اتصال مستمر بزعماء الجهاد في بلاد الشام ومصر وظل متابعاً لمجريات الأحداث في بلاده فعندما أصدر الشيخ الطاهر الزاوي كتابه " عمر المختار الحلقة الأخيرة من الجهاد الوطني في

---

(1) نص خطاب سليمان الباروني إلى بشير السعداوي بتاريخ ١٥ شباط (فبراير) ١٩٣١م، في كتاب تيسير بن موسى ، كفاح الليبيين السياسي في بلاد الشام ١٩٢٥ -١٩٥٠م، طرابلس: مركز جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ، ١٩٨٣م، ص٤٧-٤٨ . أنظر الملحق رقم (٧) .

(2) المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية بطرابلس ، شعبة الوثائق والمخطوطات ، ملف شكري فيصل رقم (١٤) نص رسالة أبوالقاسم سعيد يحي الباروني إلى عمر شنيب بتاريخ ٢٦ شعبان ١٣٥٥هـ الموافق ١١ نوفمبر ١٩٣٦م .

طرابلس الغرب " ورأى فيه بعض الزعماء البرقاويين أنه وضع للطعن في بعض الزعماء البرقاويين وأنه لم يكن دقيقاً في تصويره ، تولى الرد عليه الشيخ محمد الأخضر العيساوي أحد علماء الطرابلسيين بالأزهر فنشر في عام ١٩٣٦ كتاباً تحت عنوان " رفع الستار عما جاء في كتاب عمر المختار ". وقد أيده في ذلك بعض المهاجرين البرقاويين في سوريا ومن بينهم عمر فائق شنيب أمين سر جمعية الدفاع الطرابلسي البرقاوي الذي بعث بمقال إلى مجلة الرابطة العربية بالقاهرة تعرض فيه إلى ذلك الكتاب وصاحبه وأخذ يعد العدة لاستصدار كتاب خاص للرد على تلك المزاعم كان الباروني على علم بذلك ومشاركاً لعمر شنيب في الرأي ويتضح ذلك من خلال رسالة الطاهر أحمد الزاوي إلى عمر شنيب التي يلومه فيها على ما نشره بتلك المجلة من سب واتهام ويؤكد له فيها على انه لم يزرع الفتنة بين المهاجرين وأنه معروف لدى إخوانه بمصر [١].

كما تصدى سليمان الباروني وعمر فائق شنيب أمين سر جمعية الدفاع الطرابلسي بدمشق للدعاية الإيطالية الفاشستية التي أخذ يبثها الصحفي السوري محمد تيسير ظبيان صاحب جريدة الجزيرة ورئيس تحريرها حينما قام بزيارة إلى طرابلس الغرب في شهر مارس ١٩٣٧م ثم انتقل إلى روما فأرسل بالبرقيات إلى صحيفته وإلى بعض الصحف السورية الأخرى يبدي فيها إعجابه بالإيطاليين ويحاول التوسط لديهم بشأن تحسين أوضاع الليبيين في طرابلس الغرب وبرقة أسوة بالأمير شكيب أرسلان، وعندما وجد نفسه محاطاً بكثير من التهم بعث بمقالة إلى مجلة الرابطة العربية لنشرها يدافع بها عن نفسه ويطالب بتشكيل لجنة للتحقيق معه حول ما نسب إليه من اتهامات [٢].

---

(١) المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية بطرابلس ، شعبة الوثائق والمخطوطات ، ملف شكري فيصل رقم (١٤) الظرف السادس وثيقة رقم (٦٧) رسالة من الطاهر أحمد الزاوي إلى عمر شنيب بتاريخ ٢٦ ذي القعدة ١٣٥٥هـ ، والتوقيع يحمل اسم أحمد محمود مؤلف كتاب عمر المختار وهو الاسم المستعار للشيخ أحمد الزاوي .

(١) المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية بطرابلس ، شعبة الوثائق والمخطوطات، ملف شكري فيصل رقم (١٤) الظرف السادس وثيقة رقم (٤١) كلمة عن نشاط الصحفي السوري ظبيان بأنه متطفل على القضية الليبية لمصلحته الخاصة لدى إيطاليا بتاريخ ١١ أبريل ١٩٣٧م. ووثيقة رقم (٥٠) رسالة تأييد باسم لفيف من مهاجري طرابلس وبرقة

كان سليمان الباروني على اتصال بالأمير إدريس السنوسي ويرسل إليه كافة ردوده على دعاة الفاشست من خلال ما نشره في الصحف العربية ويطلب منه أن يرد عليهم عبر صفحات تلك الصحف ويتضح ذلك من خلال رسالة الأمير إدريس السنوسي إلى عمر شنيب وهي رد على رسالة سابقة بعثها إليه مما جاء فيها قوله : " سليمان الباروني كاتبته وشكرته على ما كتبه في الجرائد فرد علي بكتاب وطلب مني أن أكتب هنا بالجرائد موافقاً على ما قاله ... والحقيقة كل ما كتب هنا بالجرائد تصديقاً له أنا على علم منه ولو كان بإمكاني الكتابة بإسمي لما تأخرت ولما أكتفيت بإرسال خطابي له ومعناه أني مؤمن في كل ما كتبه وكما قلتم حضرتكم أنه رجل عاقل مجرب وينظر إلى الأمور من وجهها الحقيقي كل هذا صحيح وقد ذكر لي أنه من مدة يسعى للحصول على إذن في الدخول إلى مصر ويأمل أن الحكومة الجديدة تجود عليه بهذا الإذن حقق الله ذلك " [1].

وتكشف رسالة محمد الأخضر العيساوي إلى عمر فائق شنيب المؤرخة في ٩ جمادي الثانية ١٣٥٦هـ الموافق١٦ أغسطس ١٩٣٧م أن هناك مراسلات بين سليمان الباروني والأمير إدريس السنوسي تتعلق بردوده على دعاية محمد تيسير ظبيان الباطلة ومساندته لعمر فائق شنيب في تصديه لتلك الدعاية حيث يقول :

وقد جاء خطاب لمولانا من الشيخ سليمان الباروني أرسله لي مولانا للإطلاع عليه فوجدت فيه العبارة التالية : " لعلكم اطلعتم على ما نشرته لي

بالقطر المصري لما نشرته جريدة الجزيرة من ردود لعمر شنيب على تدخل الصحفي ظبيان في شئون ليبيا١٩٣٧م. ووثيقة رقم(٥١) خطاب مفتوح أرسله لفيف من مهاجري ليبيا بمصر إلى ظبيان بتاريخ ٨ ربيع الأول ١٣٦٥ هـ ، ووثيقة رقم(٥٢) مقالة صحفية بعنوان " صيحة الحق من الأستاذ محمد تيسير ظبيان الكيلاني إلى سليمان الباروني يرد فيها على التهم التي نشرها الباروني ونعتها لظبيان ويطلب تشكيل لجنة للنظر في هذه التهم والحكم بالبراءة أو عدمها " التهم كلها تتعلق بالقضية الليبية ".

[1] المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية بطرابلس ، شعبة الوثائق والمخطوطات ، ملف شكري فيصل رقم (١٤) الظرف السادس وثيقة رقم (١٧) رسالة من محمد إدريس المنوسي إلى عمر شنيب وهي رد على رسالة بعث بها عمر شنيب تتضمن ١٩ سؤالاً ، بتاريخ ٧ ربيع الثاني ١٣٥٦هـ، ١٦ يونيو ١٩٣٧م. أنظر ملحق رقم (٨).

الرابطة العربية الغراء انتصاراً للمجاهد الصادق الأستاذ شنيب المتفاني في حبكم ضد ظبيان داعية الطليان وقد أثر تأثيراً حسناً في الأندية السورية وبين الإخوان المهاجرين وأرجو أن يكون نائلاً لرضاكم ... إلخ هذا ما جاء في كتاب ذلك الزعيم الكبير تقديراً لجهودكم ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله "[1].

وعلى إثر المحاضرة التي ألقاها الأمير شكيب أرسلان بمقر النادي العربي بدمشق بتاريخ ١٩٣٧/٩/٢٠م والتي تحدث فيها عن قضية الوحدة العربية بين أقطار المشرق العربي واستثنى منها أقطار المغرب العربي مما أثار حفيظة الكثير من أبناء المغرب العربي في كافة الأقطار العربية تنادي أعضاء جمعية الدفاع الطرابلسي البرقاوي بدمشق لتدارس الأمر وقرروا الاتصال بزعماء الجهاد الليبي في كافة الأقطار العربية لمؤازرتهم وخاصة سليمان الباروني للمساهمة بقلمه في التصدي للأفكار التي أعلنها شكيب أرسلان في محاضرته السابقة[2].

وقبل تولي سليمان الباروني مهمة الرد على الأمير شكيب أرسلان طلب من جمعية الدفاع الطرابلسي البرقاوي تزويده بالمعلومات الموثقة من خلال رسالته التي بعث بها إلى أمين سر الجمعية عمر فائق شنيب بتاريخ ١٨ ذي القعدة ١٣٥٦هـ والذي لم يتأخر في الرد على سليمان الباروني بتزويده بكافة الخطب والتصريحات والبيانات الموثقة والتي اعتمد عليها شكيب في تصريحاته وكتاباته السابقة مما مكن سليمان الباروني الإمساك بخصمه في العديد من المواقف السياسية التي تبناها ثم انكفأ عنها[3].

---

(١) المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية بطرابلس ، شعبة الوثائق والمخطوطات ، ملف شكري فيصل رقم (١٤) رسالة من محمد الأخضر العيساوي إلى عمر فائق شنيب بتاريخ ٩ جمادي الثاني ١٣٥٦هـ ، الموافق ١٦ أغسطس١٩٣٧م.

(٢) آراء هامة للأمير شكيب أرسلان في الوحدة ، يجب أن تترك لبنان لأنه موطن ضعف للعروبة ، هل أكثرية سكان طرابلس الغرب وتونس والجزائر ومراكش من البربر ؟ " الجزيرة ، عدد ١٢-٧٠٢ . دمشق : ٢٩ ديسمبر ١٩٣٧م، ص٣٩. وأنظر كذلك "على هامش خطاب الأمير : العروبة في شمال أفريقيا أقوى منها في هذه البلاد أما لبنان فسيكون لنا معه شأن آخر"،الجزيرة عدد ١-٧٠٣ ، دمشق : ٦ نوفمبر ١٩٣٧م، ص١ .

(١) المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية بطرابلس ، شعبة الوثائق والمخطوطات ، ملف شكري فيصل رقم (١٤) الظرف المناص وثيقة رقم (٦) رسالة من سليمان الباروني إلى عمر فائق شنيب أمين سر الجمعية يطلب منه أن

كانت جريدة الرابطة العربية لصاحبها أمين سعيد والتي تصدر بالقاهرة منبراً لسليمان الباروني في الرد على شكيب أرسلان ومقالاته التي دافع بها عن نفسه من خلال جريدة الشباب بالقاهرة وجريدة الجزيرة بدمشق، والشهاب بالجزائر وقد دامت تلك المعركة القلمية بين الطرفين أكثر من عام تعرض فيها الطرفان إلى الانتقادات من قبل مؤيدي ومعارضي الرجلين[1].

وجدير بالذكر أن هناك أطرافا عربية وإسلامية سواء من الشخصيات الإسلامية أو الهيئات المدنية حاولت التوسط بين الطرفين لإنهاء الخصومة بين الطرفين خدمة لوحدة الصف ودفعاً لشماتة الأعداء بعد احتدام الصراع بين الطرفين لدرجة التهديد برفع الأمر إلى المحاكم، ولكن الوساطة التي وضعت حداً لتلك الحملات الصحفية هي وساطة رئيس جمعية دار الأرقم بدمشق والتي طلب فيها من الباروني التوقف عند ذلك الحد من الخلافات التي لا تصب في مصلحة الأمة العربية والإسلامية حيث تشير رسالة سليمان الباروني إلى عمر شنيب أمين جمعية الدفاع الطرابلسي البرقاوي بتاريخ ١٢ صفر ١٣٥٧ هـ إلى تلك الوساطة واستجابة سليمان الباروني لها[2].

خامساً : خاتمة نشاط سليمان الباروني السياسي في المهجر

يعرف الجرائد التي يمكن التعامل معها للرد على شكيب أرسلان الذي استغنى بتحبيه لموسيليني ويطلب منه أن يرسل نسخ من مقالاته إلى كل من تونس والجزائر والمغرب ومصر والهند ليقفوا على حقيقة شكيب . ٣٠ رجب ١٣٥٦هـ .

(٢) المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية بطرابلس ، شعبة الوثائق والمخطوطات ، ملف سليمان الباروني رقم (٩) وثيقة رقم (٤٥) : مسودة مقالة بعث بها الباروني إلى جريدة الأيام يرد فيه على مقال نشرته نفس الجريدة للأمير شكيب أرسلان بخصوص طرابلس الغرب ، بتاريخ ٧ رجب ١٣٥٥هـ . وعبدالحميد باوي ، " الوحدة العربية : هل بين العرب وحدة سياسية ؟ الشهاب . ج١١ ، قسنطينة : عزة ذي القعدة ١٣٥٦هـ، ص٤٧٢ . "ورد الأمير شكيب أرسلان على مزاعم واتهامات سليمان الباروني" ، الشهاب ج١ ، مجلد١٤ . قسنطينة : ٢٠ أبريل ١٩٣٨م، ص١٤-٢٦ ، والمركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية بطرابلس ، شعبة الوثائق والمخطوطات ، ملف شكري فيصل رقم (١٤) الظرف الرابع ، وثيقة رقم (٣٢) رسالة من محمد علي الحداد إلى عمر شنيب ، بغداد : بتاريخ ٢٨ أبريل ١٩٣٨م.

(١) المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية بطرابلس ، شعبة الوثائق والمخطوطات ، ملف شكري فيصل رقم (١٤) الظرف السادس ، وثيقة رقم (٢) نص رسالة الباروني إلى عمر شنيب يخبره فيها بأن رسالة وصلته من رئيس جمعية دار الأرقم يطلب فيها إيقاف الحملة بينه وبين الأمير شكيب أرسلان خدمة لوحدة الصف العربي ودفعاً لشماتة الأعداء .

في سنة ١٩٣٨م وصلت الباروني رسالة من السلطان سعيد بن تيمور آل سعيد يطلب فيها منه أن يقدم إلى مسقط ليكون مستشاراً له فوافق الباروني على ذلك وانتقل عائداً إلى مسقط حيث استقر بأسرته بعُمان[١].

وعندما لاحت في الأفق بوادر الحرب العالمية الثانية جرت مراسلات بين عمر فائق شنيب أمين سر جمعية الدفاع الطرابلسي البرقاوي بدمشق وبين سليمان الباروني حول القضايا التي تمس جوهر القضية الوطنية في تلك الظروف الدولية المتأزمة وتكشف وثائق المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية عن تلك المراسلات سواء بين أمين سر الجمعية وبين الباروني بصفة خاصة أو بين أمين سر الجمعية وزعماء الجهاد الليبي في منطقة المشرق العربي والمغرب العربي بصفة عامة ومن بين تلك الوثائق رسالة بعث بها عمر فائق شنيب إلى سليمان الباروني يشرح له فيها الوضع المتردي الذي وصل إليه المهاجرون من التشتت والحيرة بسبب احتمال نشوب حرب عالمية وما يحاك للوطن من التفرقة بين أبنائه ويطلب منه أن يبدي رأيه بوضوح حول مسألة الإمارة والبيعة والانضمام إلى الأمير إدريس السنوسي أو الانفصال عنه في مساعيه المبذولة لجمع شمل المهاجرين الليبيين بمصر وخوض غمار الحرب إلى جانب بريطانيا في حالة نشوب حرب بين بريطانيا وإيطاليا[٢].

كما كان سليمان الباروني محط أنظار رجال الحركة الوطنية الليبية في منطقة المغرب العربي الذين تطلعوا إلى أن يكون سليمان الباروني بينهم في تلك الظروف العصيبة وبعد ما شرعوا في تكوين نواة خلية عسكرية ليبية مسلحة بلغ قوامها حوالي أربعة آلاف رجل قادر على حمل السلاح تجمعوا في مكان قريب

---

(٢) محمد سعيد القشاط ، ليبيون في الجزيرة العربية ، ص٩٠ ، وزعيمة الباروني ، سليمان الباروني، تعريف موجز، ص٢٠.

(١) المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية بطرابلس ، شعبة الوثائق والمخطوطات ، ملف شكري فيصل رقم (١٤) الظرف السادس وثيقة رقم (٩) رسالة من عمر شنيب إلى سليمان الباروني تحتوي على عدة مواضيع من أهمها محاولة التشتت ومبايعة إدريس السنوسي وخروج عزام وجماعته من البيعة بحجة أن الغرب (طرابلس) ستكون تحت إمرة المويحلي بتاريخ ٢٥٤ أبريل ١٩٣٩م.

من قفصة استعداداً لتسلم الأسلحة من حلفائهم الفرنسيين والزحف على حدود بلادهم في ساعة الصفر[1].

ولكن الظروف الصحية التي كان يمر بها سليمان الباروني لم تكن تسمح له حتى بمزاولة أبسط المهام الإدارية حيث هاجمه المرض من جديد فطلب من السلطان سعيد بن تيمور منحه إجازة للسفر خارج مسقط لعلاج حالته الصحية المتدهورة ولكن السلطان تمهل في منحه هذه الإجازة إلى أن واتت المناسبة بانتظام وفد عُماني رفيع المستوى لزيارة الهند برئاسة السلطان سعيد بن تيمور نفسه وبرفقته سليمان الباروني في رحلة عمل وعلاج وفي مدينة بومباي الهندية وعند فجر يوم ٢٣ ربيع الأول ١٣٥٩هـ ١ مايو ١٩٤٠م وافاه الأجل المحتوم عن عمر يناهز السابعة والستين سنة قضاها في الجهاد بالسيف والقلم والدفاع عن أمته العربية والإسلامية[2].

وجدير بالذكر أنه بعد مضي اثنتين وثلاثين سنة على وفاته أحضر جثمانه من بومباي ودفن بمقبرة سيدي منيذر بمدينة طرابلس التي دافع عنها بسيفه وقلمه دفاع الأبطال.

مما سبق نستنتج أن سليمان باشا الباروني كان رجلاً وطنياً صادقاً ومجاهداً شجاعاً وعالماً نحريراً وشاعراً فحلاً وسياسياً مخضرماً وصحفياً مثقفاً ساهم في كافة مجالات الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية في بلاده أولاً ثم في البلدان التي هاجر إليها واستقر بها طيلة فترة هجرته التي قاربت على ربع قرن من الزمان.

---

(١) أحمد زارم ، مذكرات . ليبيا – تونس : الدار العربية للكتاب، ١٩٧٩م، ص ٢١٧ .
(٢) محمد سعيد القشاط ، ليبيون في الجزيرة العربية ، ص٩٠ .

وقد ساهمت عوامل نشأته وتعليمه الديني ومطالعاته اليومية وجهاده بالسيف والقلم في تكوين شخصيته المتكاملة من حيث العلم والأدب والسياسة والجهاد والخبرة الواسعة مما مكنه من تولي مسؤولية القيادة وإدارة الأزمات وفن التفاوض في الأزمات الصعبة في الداخل والخارج على حد سواء وقد أضحت تلك السمات واضحة في نهجه السياسي طيلة فترة نضاله السياسي في المهجر وحتى وفاته.

كانت أبرز محطات نضال الباروني السياسي وجهاده العسكري متمثلة في عضويته في مجلس المبعوثان التركي نائباً عن الجبل الغربي سنة ١٩٠٨م، ثم جهاده العسكري في معارك الدفاع عن طرابلس والجبل الغربي خلال سنوات ١٩١١-١٩١٢م. ثم تنظيمه لمؤتمر العزيزية في نوفمبر ١٩١٢م. ثم مشاركته في عضوية رئاسة الجمهورية الطرابلسية ١٩١٨م، ومفاوضات صلح بن يادم مع الطليان في سنة ١٩١٩م. ثم هجرته في سنة ١٩٢٣م إلى فرنسا ثم الحجاز ثم عُمان حيث استقر بها سنة ١٩٢٤م وما قام به من أدوار سياسية متعددة تمثلت في تأسيس النظام الإداري بعُمان بشكل أمثل وتكليفه من قبل سلطان عُمان وإمامها بمهام كبيرة لا يمكن لأحد القيام بها غير شخصية تكون في مستوى شخصية سليمان الباروني.

أما نشاطه الصحفي فيقف المرء عاجزاً عن حصره بحكم كثرته وتنوعه وتوزيعه الجغرافي بين العراق ودمشق والقاهرة وتونس والجزائر وساهم بقلمه مساهمة فعالة في جعل قضيته الوطنية قضية عربية وإسلامية هاجت لها خواطر المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها كما كان سليمان الباروني على اتصال وثيق بزعماء الجهاد الليبي في منطقتي المشرق العربي والمغرب العربي طيلة فترة هجرته التي كان الوطن فيها شغله الشاغل فلم تشغله مناصبه الإدارية والسياسية عن متابعة أخبار الوطن من خلال مراسلاته العديدة لكافة الزعماء

الطرابلسيين والبرقاويين على حد سواء وقد استمرت اتصالاته تلك حتى قبيل وفاته بوقت قصير.

إنه بحق المعلم والأديب والمفكر والمصلح والمؤرخ والشاعر والصحفي والسياسي والمجاهد الذي ترك بصمات واضحة في كافة مجالات الحياة السياسية والثقافية والعملية وكان له أثره الفاعل والمؤثر في الأحداث الوطنية والقومية والإسلامية.

المـــلاحـق

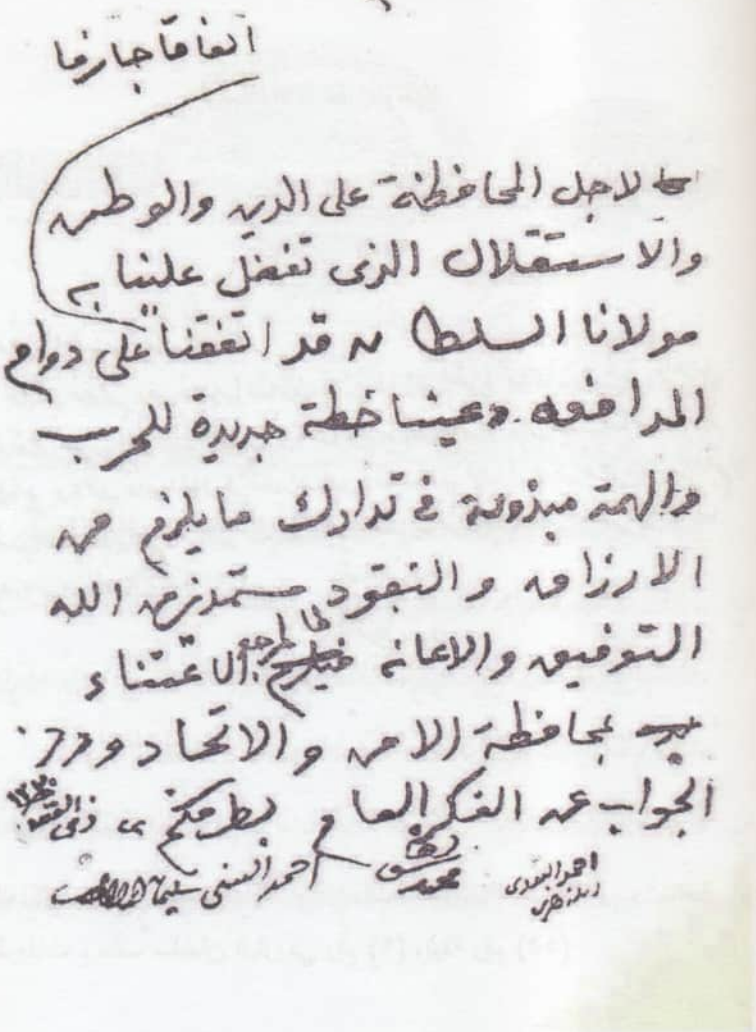
ملحق رقم (١)



سليمان بن عبدالله الباروني ١٨٧٣ - ١٩٤٠

مـلحق رقم (٢)

اتفـــاق سليمان الباروني وبعض زعماء الجهاد على مواصلة القتال بطرابلس الغرب عقب مؤتمر العزيزية في نوفمبر ١٩١٢



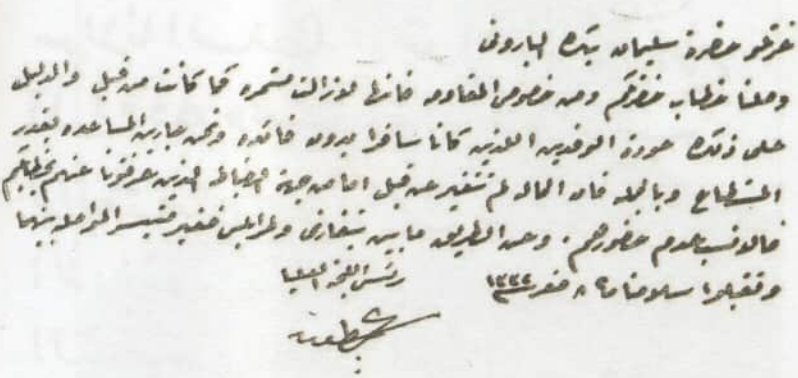
المصدر : المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية بطرابلس ، شعبة الوثائق والمخطوطات ، ملف سليمان الباروني رقم (٩) وثيقة رقم (٦٠)

ملحق رقم (٣)

رسالة الأمير عمر طوسون إلى سليمان الباروني حول المقاومة بطرابلس الغرب بتاريخ ٨ صفر ١٣٣٢هـ

رسالة الامير عمر طوسون





المصدر : المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية بطرابلس ، شعبة الوثائق والمخطوطات ، ملف سليمان الباروني رقم (٩) وثيقة رقم (٥٥)

ملحق رقم (٤) (أ)

الأسئلة التي يوجهها المجاهد أحمد الشريف السنوسي إلى المجاهد سليمان الباروني حول مهمة قدومه لمساعد والتحريض على مهاجمة الانجليز بمصر .

بتاريخ ٢٨ ربيع الأول ١٣٣٣هـ - ١٢ فبراير ١٩١٥ .



المخدوم سليمان بيك الباروني

تحريراً في ٢٨ ربيع أول ١٣٣٣ سنة بجربه

جنبه تعالى المرغوب فضلكم اعطاء الجواب عن هذه الاسئلة

س ذكرتم في جوابكم عن السؤال الاول انه قصدكم مجيئنا كما هو صحيح على الجواب المقصود والمعلوم لدينا فما السبب حينئذ لرجوعكم التوجه بالطاح الى جهتنا الغربية والحال المذكورة تأمركم بالنظر في شؤون الادارة وقضاء حسبما فهم من الجواب المذكور

س ما الغرض من التحريض على مهاجمة الانجليز مع علمكم وبيانكم لنا انه القوة الموجودة لطالما قضى على وشك التشتت من شدة الجوع والاضطهاد حتى انه أخطر والذبح والدبر من الابل المعدة لنقل اثقالهم لسد الرمق فساء كم حالهم فرفقتم لهم مبالغا بدون علمنا شكرناكم على ذلك وارسل التذكرات المقارنة عليكم من سائر الادوار تشاهد بفقد الزاد أيضا

س ذكرتم في احتجاجكم المورخ ٩ ذي الحجة ١٣٣٢ انه السيد محمد ادريس اتول الزيادات الضحايه وفرقها وشتتها على الارض وضاعه دوسها بالارجل على حشره من الناس والحال السيد ادريس تكلم امامكم بنفي ذلك في حضوري وانه العلم الذي كان منصوبا من طرفه عند قدومنا

ملحق رقم (٤) (ص ٢)



المصدر : المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية بطرابلس ، شعبة الوثائق والمخطوطات ، ملف سليمان الباروني رقم (٩) وثيقة رقم (٥٤)

ملحق رقم (٥) (أ)

بين ملوك العرب

وثائق تاريخية ورسائل ملكية يجب أن تنشر

وصل الينا كتاب تاريخي من عطوفة المجاهد الكبير سليمان باشا الباروني الزعيم الطرابلسي وعضو مجلس الاعيان العثماني سابقا . ومعه ثلاث رسائل ملوكية بشأن مشكلة الحجاز ومؤتمر الخلافة العام منها اثنتان من عظمة السلطان تيمور بن فيصل صاحب مسقط ، والثالثة من سمو امام عُمان . وها نحن ننشر هذه الرسائل كلها على التوالي :

بسم الله الرحمن الرحيم

من تيمور بن فيصل إلى حضرة صاحب العظمة سلطان نجد وتوابعها أخينا عبدالعزيز بن عبد الرحمن السعود لا برح في رضى وإجلال

السلام عليكم ورحمة الله، أخوكم يحمد الله الواحد الاحد بحال يسركم ويرجو من الله أنكم بحال تسر اخواننا المسلمين . منذ برهة من الزمن انقطعت مواصلات المكاتبة الودية بيننا فعساه لشاغل خير والباعث على تحرير طرسنا هذا الودادي هو أن حامله جناب الشيخ الجليل عندنا سليمان باشا الباروني أحد رجال الاسلام ومن علماء مذهبنا قصد السفر إلى مركز عدكم الذي أضاءت أنواره أقصى الممالك الاسلامية فلزم تجديد مراسلات الصداقة وروابط المحبة بيننا ولا شك في أنها لا تتغير وبهذه المناسبة أتشرف بأن اصرح لعظمتكم بانني كدر وأسف عظيمين من استمرار الحرب حول بيت الله الحرام المقدس بين اخوان مسلمين كل منهم يعظم هذا البيت المقدس ويحترمه نسأله تعالى أن يوفق الجميع إلى الوصول الى طريق حل ليحقن الدماء ويرضي أهل الاسلام أجمعين . وحيث أن حامل كتابنا هذا هو على مثل ما نحن عليه من الكدر كلفناه بأن يعرب لعظمتكم عن احساساتنا الدينية توضيحا لما كتبناه هنا فالمرجو اعتماد كلامه في هذا الصدد فانه الثقة الامين ولا شك في أن لكم الخبرة الكافية فيه وفي أمثاله وله تفان وتضحية في كل ما يتعلق باصلاح حال الامة الاسلامية وفي الختام أمنى دوام علائق المودة الخالصة وقبول احترامي

رمضان ١٣٤٣

ملحق رقم (٥) (ب)

بسم الله الرحمن الرحيم

من تيمور بن فيصل الى حضرة صاحب الشرف العالى أخينا الملك الشريف علي بن الحسين المحترم دام اقباله واجلاله

السلام عليكم ورحمة الله . اما بعد فان أخاكم يحمد الله جل شأنه في عز من فضله تعالى يرجو انكم في صحة تامة مؤيدين بروح من مالك الملك متوجين بالفوز في كل حركة فيها راحة اخواننا المسلمين آمين

حامل كتابنا هذا الوجيه المحبوب لدى الدولتين المحترم الشيخ سليمان باشا البارودي أحد علماء مذهبنا ومن رجال الاسلام المعروف لديكم شخصيا وعملا متوجه إلى ساحة ملككم مضحيا خدماته فيما فيه مصلحة الامة الاسلامية ولديه اخلاص كامل لشهادة والدكم والدنا . وقد أصحبناه كتابنا هذا لينوب عنا فى عرض احساساتنا وتألمنا العظيم مما لازلنا نسمعه من استمرار الحرب حول حرم الله المقدس بين اخوان مسلمين كلهم يدينون بتعظيم بيت الله الحرام وشعائره المقدسة فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . نسأله تعالى ان يلهم الجميع ما فيه حقن الدماء وسرور العالم الاسلامي ووقاية الاماكن المقدسة من كيد الكائدين .

وحيث ان الحامل المذكور من الثقاة الامناء عندنا فلا حاجة الى التوصية على اعتماد مايبديه من الفكر فيما فيه الصلاح كما نلتمس من جلالتكم التنزل إلى تسهيل ما يعسر عليه في هذا السبيل فانه وأمثاله الذين حاربهم الدهر ولا يزال حربا لهم ممن يجب ان تسهل السبل أمامهم ليقوموا بخدماتهم الخيرية الاسلامية وفي الختام أرجو اتصال حبل المودة المتين وقبول احترامي الخالص والسلام

رمضان ١٣٤٣

ملحق رقم (٥) (ج)

بسم الله الرحمن الرحيم

من امام المسلمين بعمان محمد بن عبد الله الخليلي

الى جناب المجاهد في سبيل الله الغيور في دين الله أخينا الشيخ سليمان الباروني وفقه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . حيث ان العالم الاسلامي في اضطراب واهتمام بقضية الخلافة والاماكن المقدسة وقد تقرر على ما بلغنا عقد مؤتمر لاجل ذلك فانا نكلف جنابك باسم الامة العمانية ان تحضر هذا المؤتمر الذى سيعقد لهذا الغرض الديني السامي في مصر أوغيرها من البلاد الاسلامية وليكن رأيك في مسألة الخلافة مطابقا لقواعد الشرع الصحيحة وهي لا تخفى عليك . أما مسئلة الاماكن المقدسة فليكن رأيك فيها مبنيا على حمايتها من عبث العابثين بها ووقايتها من تسلط كل يد أجنبية مهما كانت مقاصدها وصيغتها . وقد استحسنا جداً تكليف جناب السلطان اياك بالتوجه الى الحجاز مندوبا من طرفه وحاملا كتب نصيحة منه إلى المتحاربين حول بيت الله الحرام فنعم الرأى رأيتماه فان المسئلة من أهم ما يجب أن يهتم به كل مسلم واننا لا نزال فى شغل من ذلك والمنتظر من جنابك موافاتنا بالاخبار الصحيحة بدون فاصلة والله تعالى نسأله ان يوفقك والمسلمين أجمعين الى ما فيه خير دينهم ودنياهم آمين

رمضان ١٣٤٣

المصدر : جريدة الشوري عدد (٤٨) القاهرة : الخميس ٦ ربيع الأول ١٣٤٤هـ الموافق ٢٤ سبتمبر ١٩٢٥ .

ملحق رقم (٦)

جزء من رسالة سليمان الباروني إلى موسوليني رئيس وزراء إيطاليا



العدد ١٣٦ (وامرهم شورى بينهم — قرآن كريم)

الشورى

جريدة سياسية شرقية اجتماعية

٧٥ قرشاً في القطر المصري

ثمن الاشتراك ١٠٠ قرش في فلسطين والخارج

مدفوع سلفاً ٥ دولارات في اميركا والمكسيك

١٥ روبية في العراق والهند وخليج فارس

الشورى

القاهرة في يوم الخميس ٣٠ ذي الحجة سنة ١٣٤٥ — مجموعة تبحث في شؤون البلاد العربية والاقطار الشقيقة

من الاستاذ الباروني الى السنيور موسوليني

« لما علم صاحب الطوفة سليمان باشا الباروني الزعيم الطرابلسي المعروف ورئيس وزارة عمان بخليج فارس ان ايطاليا قد ابطلت الدستور الطرابلسي بعث الى دكتاتورايطاليا بالرسالة التالية وقد تفضل عطوفته فارسل الينا صورتها لنشرها في الشورى قال الاستاذ » :

عمان « مسقط » ١٥ ذي القعدة سنة ١٣٤٥

الى حضرة الوزير الخطير صاحب الدولة السنيور موسوليني

قرأت مع الاسف العظيم في بعض الصحف العربية ما عزمتم عليه من نقض بناء القانون الاساسي لحكومة طرابلس الغرب الذي نظم موادّه بالاتفاق معي انا واخواني رؤساء مجاهدي

وربما سمعت اصوات مدافعنا من الفندق الذي نزلت فيه بجوار السراي الحمراء مقر القائد العام وربما رأيتنا من استحكام قرقارش ونحن نجول بخيلنا ورجلنا في ميدان النضال بين عين زارة وزنزور نقابل قنابل الطيارات المهملة علينا كالصواعق بالفئدة لا تتزلزل وتلقي رصاص دمدم المسموم ونار المدافع الضخمة والسيارات

بحدودها في كتب الجغرافيا وراء البحر الابيض ما اجازوا هذا البحر الا غازين او مستزفين كما انوا الى تونس والجزائر وغيرهما وكما انى العرب الى قطانيا وسيرکوزه و بلرمو ومسينا وغيرها من بلاد ايطاليا التي ملكوها قرونا من الدهر .

فهل لهم ان يقولوا الآن : تلك بلاد آبائنا واجدادنا ؟ . وقد انى طرابلس من غير الايطاليين كثيرون كالمصريين والحجازيين والسوريين والترك وغادروا عنها او احتلوها مدة بعد حروب طاحنة ثم بارحوها فهل لهم ان يدعوا كلهم انها بلاد اجدادهم ؟ . ولو التفتت دولتكم التفاتة خفيفة الى الوراء لرأيتم ان راية ايطاليا كانت قبل خمسة عشر عاما فقط مرفوعة فوق اسوار مرزق في فزان وفوق قصورات

المصدر : جريدة الشوري ، عدد١٣٦ ، القاهرة : ٣٠ ذي الحجة ١٣٤٥هـ ١٩٢٦ ، ص ١.

ملحق رقم (٧)

بسم الله الرحمن الرحيم

الوطني الغيور الشامل البشير بلده السعادة دام موفقا

سلاما واشواقا . اما بعد فقد شرفني كتابكم الكريم المؤرخ ولعذر مانعا فرأجوابه إلى اليوم فاجيد قبول العذر . أقول عالمكم به من خلقه الوفاء لعهوده والمحافظة على مودته الأبطال الذين علوا العالم ووضعوا قواة الدفاع عن الأوطان بدمائهم وأعمالهم فاصبحوا قدوة لكل من يريد إلى مثل ذلك . لبيدان المغرب من الأمم المستفيضة اليوم ويعد اليوم . إن التاريخ أعني فعليكم تحري الصدق وتتبع الوقائع من مظانها وسماعها فان السعادة قد ذكرا ما قرأت في بعض الرسائل المعنونة بتاريخ عرب الاندلس المغرب أخبارا عن وقائعهم وانتصاراتهم وسعادة رأي أهل لها والبعض مبالغ فيها فان أضعف حقيقتها فيلتزم التثبت وكل ما عندي من أوراقه تتعلق بالحرب غيرها فرعندي وأخفاه خاصة العقيقة إذا كتبتم لكم شيئا على سبيل التحفيز فيما إذا كتب الملك شيئا فتتبعوا أيها سألتم عنه في كتابكم وأرشاد المولى أن يوفقكم وإذا ذاكرا اهتمامكم بالسؤال بعض الأمور فاعلم أن لا تقطعوا حبل الاتصال بكم من الإفادة وان آخر جواب فانه الاستقلال . أما وعليكم كتابة في مثل جواب وزارة فرانسا عن طلب الإذن إلى تونس أو الجزائر وهو سهل إمكان ذلك إن شاء الله وكوزارة بيمانيا وغ . وانا أكتب هذا الجواب وهو عندكم تجيبني الرسالة التفصيلية المحتوية على أن العلم أسماء أخذها لأبطال فتفضلوا بإفادتي .

قررت جلب قسم من عائلتي الآن إلى عمان بشمر بيروت ودمشق إلى بغداد وقد كتبت إلى ابني إبراهيم وبينت له الجهة التي يسألوا عنكم ويرفع إذا وصلوا بيروت ليسعوا في تسهيل سفرهم ما يتعب عليهم عند سعادة المندوب السامي وقد كتبت إليه كتابا في ذلك مجلا أكرم الفضل . دمتم موفقين

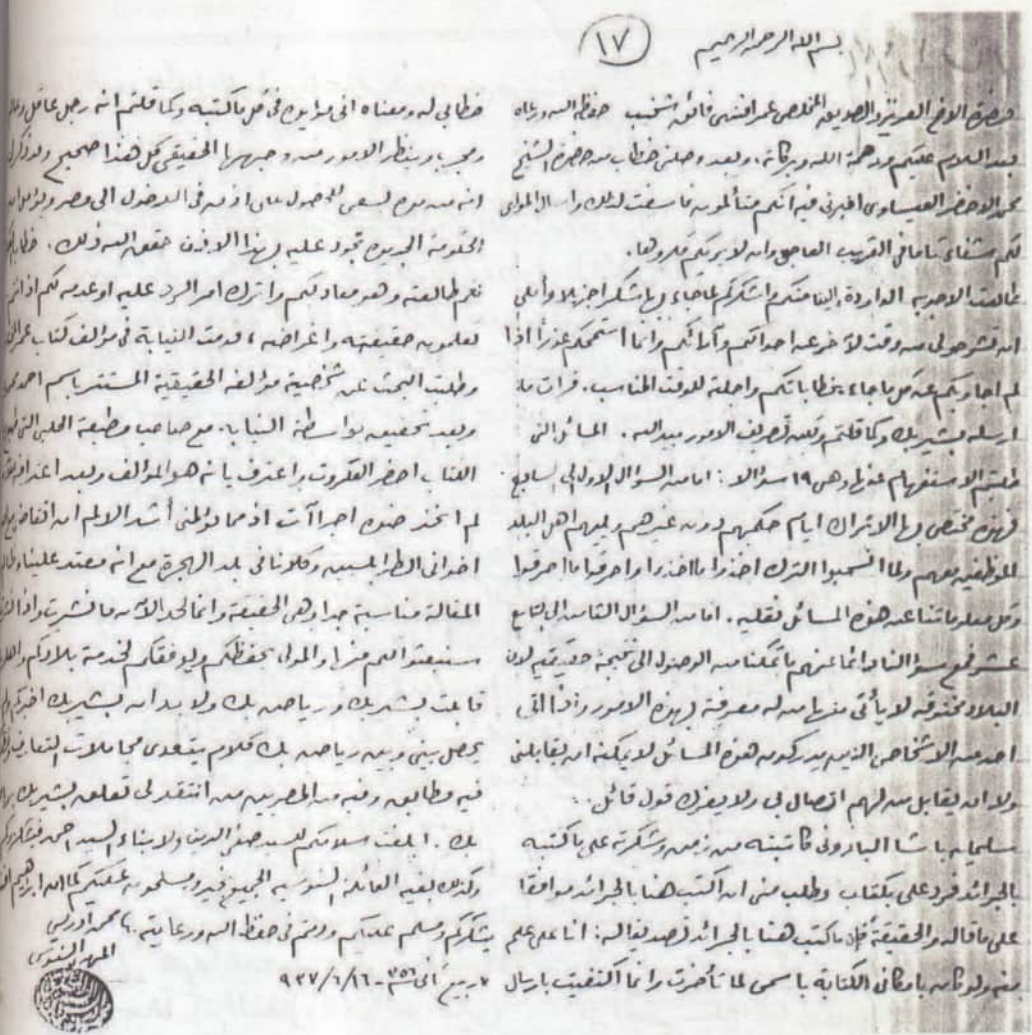
منه أخيكم سليمان الباروني

تاريخ ورود ١٥ شباط ٩٢٦ (فبراير
اجيب عنه ١٦ منه

المصدر : تيسير ابن موسى، كفاح الليبيين السياسي في بلاد الشام ، ص ٤٦.

ملحق رقم (٨)

رسالة محمد ادريس السنوسي إلى عمر شنيب وهي رد على رسالة سابقة بعث بها عمر شنيب تتضمن ١٩ سؤال بتاريخ ٧ ربيع الثاني ١٣٥٦هـ - ١٦ يونيو ١٩٣٧.



المصدر : المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية بطرابلس ، شعبة الوثائق والمخطوطات ، ملف شكري فيصل رقم (١٤) الظرف السادس وثيقة رقم (١٧)

سليمان الباروني دوره في ميدان الجهاد وتأسيس الجمهورية الطرابلسية

١٨٧٣ - ١٩٤٠م

د. أحمد حسين عبد(*)

الباحثة منى جلال علي(**)

حياته

أن تاريخ الجهاد الليبي مليء بالمحطات المهمة التي ينبغي الوقوف عندها درساً للوقائع واستجلاء للحقائق واستفادة من العبر. ويعتبر جهاد الشيخ سليمان الباروني في ليبيا محطة يجب الوقوف عندها ودراستها لأنها تمثل حلقة هامة من حلقات تاريخ ليبيا.

ولد الشيخ سليمان بن عبد الله بن يحيى الباروني الطرابلسي في مدينة جادو من جبل نفوسة من بلاد طرابلس الغرب سنة ١٨٧٣م، وهو من عائلة معروفة في طرابلس، يعود أصله إلى القبيلة البراونية ذات الأصل العُماني، حيث عرف تاريخها منذ القرن الرابع الهجري في مدينة طرابلس بمسيرتها الجهادية والعلمية(١).

درس الشيخ سليمان في جامع الزيتونة بتونس سنة ١٨٨٧م، وأثر فيه كثيراً خضوعها للاستعمار الفرنسي، ومثلت الصدمة الأولى له في حياته، ثم سافر في سنة ١٨٩٢م إلى القاهرة ودرس في الجامع الأزهر لمدة ثلاث سنوات وتستمر رحلة الشيخ الباروني العلمية إذ يسافر إلى مدينة بني يزقن من وادي ميزاب

(*) د. أحمد حسين عبد، جامعة تكريت، العراق.

(**) لباحثة منى جلال علي ، جامعة تكريت، العراق.

(١) أبو اليقضان ابراهيم ، سليمان الباروني باشا في أطوار حياته ، ج١، المطبعة العربية ، الجزائر، ١٩٥٩م، ص٩-١٠.

جنوب الجزائر ليدرس على أيدي علمائها حتى سنة ١٨٩٧م ليعود بعدها إلى طرابلس[١].

واجه الباروني العديد من المتاعب والضغوطات من قبل السلطات العثمانية المحلية، ما اضطره إلى مغادرة طرابلس سنة ١٩٠٢م إلى يفرن مركز الجبل الغربي، فأسس هناك مدرسة سنة ١٩٠٤م سماها المدرسة البارونية، وأنشأ إلى جوارها المكتبة البارونية التي ضمت نفائس الكتب والمخطوطات، ونتيجة لانتقاده سياسة الدولة العثمانية تعرض لمضايقات السلطات الحاكمة التي استمرت بملاحقته، مما أضطره إلى السفر خارج البلاد متجها إلى مصر، حيث وجد في القاهرة المجال واسعاً أمامه للتأليف والنشر فأسس سنة ١٩٠٦م مطبعة باسم مطبعة الأزهار البارونية التي ذاع صيتها في ذلك الوقت بالقاهرة، ولعل أهم انجاز في هذه المرحلة هو أنشاؤه جريدة الأسد الإسلامية التي أرادها صوتاً مدوياً للمسلمين تعرف بواقعهم وتدعوهم إلى وحدتهم والتي صدر العدد الأول منها في عام ١٩٠٨م[٢].

مراحل جهاد الباروني

يمكن أجمال مراحل جهاد الباروني ضد الايطاليين في ثلاثة مراحل :

المرحلة الأولى : تبتدئ من يوم إعلان ايطاليا الحرب على الدولة العثمانية في طرابلس الغرب يوم التاسع والعشرون من أيلول ١٩١١م، وتنتهي عند آخر معركة لها يوم الثاني عشر من آذار ١٩١٣م.

المرحلة الثانية : تبتدئ من أواسط سنة ١٩١٤م وتنتهي في أوائل سنة ١٩١٦م.

---

(١) أبو القاسم الباروني، سليمان باشا الباروني زعيم المجاهدين الطرابلسيين ، ط٢، ليبيا، ١٩٤٨م، ص٤٢.
(٢) المصدر نفسه، ص٤٥.

المرحلة الثالثة : تبتدئ من تشرين الأول ١٩١٦، وتنتهي إلى يوم اعتراف ايطاليا بحكومة طرابلس الجمهورية الوطنية، وإمضاء قانونها الأساسي في الحادي والعشرين من نيسان ١٩١٩م[١].

وفي كل هذه المراحل التي مر بها نضال سليمان الباروني كان له مواقف ومعارك وتضحية في سبيل الوطن. ولقد سعى الايطاليون بكل إمكانياتهم المادية والعسكرية لاحتلال إقليمي طرابلس وبرقة، فما نالوا بعد حرب سبع سنين، سوى السيطرة على بعض مدن الساحل، لم تستطع أن تمنحهم الأمن والطمأنينة، ولا الانتصار الكامل على المقاومة والذي توقعوه بداية الأمر.

استمر الباروني في قيادة حركة المقاومة في طرابلس حتى توقيع معاهدة الصلح بين الدولتين العثمانية والايطالية في مدينة اوشي بسويسرا في الثامن والعشرون من تشرين الأول ١٩١٢م والتي بموجبها اعترفت الدولة العثمانية بالسيطرة الايطالية على ليبيا وسحبت قواتها وموظفيها من طرابلس وبرقة تحت السيادة الايطالية، مما أضطره هذا إلى السفر إلى استانبول والعودة إلى مزاولة عمله كعضو في مجلس المبعوثان العثماني[٢].

في السادس عشر من نيسان ١٩١٦م وصل إلى قصر حمد بمدينة مصراته الليبية سليمان الباروني، قادماً في غواصة ألمانية من استانبول، يحمل فرماناً من السلطان العثماني محمد رشاد الخامس بتعيينه والياً على طرابلس، إذ ارتأت الدولة العثمانية أبان الحرب العالمية الأولى أن تفتح جبهة مناوشات مع الانكليز على الحدود المصرية كجزء من المجهود الحربي ضد بريطانيا، ومن هنا جاء تأييدها للباروني في طرابلس والسيد أحمد الشريف في برقة، وكانت سياسة

---

(١) زعيمة الباروني ، صفحات خالدة من الجهاد المجاهد الليبي سليمان الباروني، ج١، بيروت، ١٩٦٨م، ص١٧٣.
(٢) ابراهيم خليل احمد ، تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني ١٥١٦-١٩١٦م، دار ابن الأثير للطباعة والنشر، الموصل، ١٩٨٩م ، ص٣٤١-٣٤٢.

الأتراك والألمان هي إذكاء نار الثورة في طرابلس واستئنافها في برقة إذ أمكن، وذلك لشغل اكبر عدد ممكن من الجيوش الانكليزية والايطالية، وسرعان ما بعث الباروني برسالة إلى الأعيان يبلغهم فيها قرار السلطان بإعادة ضم ليبيا إلى دار الخلافة العثمانية[1].

الجمهورية الطرابلسية

لقد كان إعلان الجمهورية الطرابلسية محاولة كبيرة لإقامة دولة مستقلة لها دستورها ومؤسساتها، وهياكلها، وبذلك أصبحت لهذه الحادثة سبقاً تاريخياً في عالمنا الإسلامي والعربي، ولذلك لابد من تسليط الأضواء عليها والتعريف بها، ونستطيع القول أن بداية الفكرة ظهرت مع ظهور ورجوع سليمان الباروني في ساحة الجهاد الليبي مرسلاً من قبل الخلافة العثمانية التي خولته الولاية على طرابلس والقيادة، ونقصد بظهوره بعد غيابه المفاجئ من ساحة الجهاد وذهابه إلى استانبول، حيث عاد إليها بعد أن أعلن السلطان محمد رشاد الخامس بإعادة ضم ليبيا إلى الدولة العثمانية.

جاء هذا القرار في وقت كان فيه الطرابلسيون محتاجون إلى المساعدة، ففرحوا به، وكانت سياسة العثمانيين والألمان تستهدف إذكاء نار الثورة في طرابلس واستئنافها في برقة إن أمكن عن طريق وجودهم في طرابلس من شغل أكبر عدد ممكن من الجيوش الانكليزية والايطالية.

قام الشيخ الباروني بعدة إجراءات إدارية ومالية للإشراف على قيادة وتنظيم المجاهدين لمواجهة تحركات الجيوش الايطالية، وفي إطار التنظيمات الإدارية للولاية، تمت الدعوة إلى مؤتمر عام يحضره كل زعماء واعيان البلاد في مدينة

---

(1) خير الدين الزركلي، الاعلام، قاموس تراجم، ط١٦، ج٣، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٥م، ص١٢٩، إبراهيم، المصدر السابق، ج١، ص٢٠٦.

امسلاته يوم السادس عشر من تشرين الثاني١٩١٨م بجامع المجابرة وتم الاتفاق على إعلان الاستقلال من جانب واحد أي دون الرجوع إلى الدولة المحتلة ايطاليا، وتشكيل المجلس العرفي والشرعي. وكان يتكون من مجموعة من العلماء ليتمكنوا من حل القضايا الجنائية والشرعية المعلقة بسبب الحرب وقد ضم ذلك المجلس كلاً من :

١. الشيخ عمر المنصوري مفتياً للولاية.
٢. الشيخ علي الهمالي قاضياً لمصراته.
٣. الشيخ محمد سعيد المسعودي قاضيا للجبل.
٤. الشيخ الزروق ابو رخيص قاضياً للمنطقة الغربية.
٥. الشيخ الشكشوكي قاضيا لورفلة.
٦. الشيخ عبد الرحمن زبيدة قاضياً لورفلة[١].

وفي تلك المرحلة كانت الأوضاع العسكرية تميل إلى صالح المجاهدين، فقد تصاعدت حركة الجهاد ضد ايطاليا، وقام سليمان الباروني بالاتصال بقادة البلاد وزعمائها، وعمل على توحيد الصف ونبذ الخلاف، ومن هؤلاء الشيخ محمد سوف زعيم المجاهدين في العزيزية، والشيخ محمد إدريس السنوسي يطلب منه الانسحاب من سرت قطعاً للفتنة والنزاع، حيث كانت الدولة العثمانية حريصة على دعم ليبيا في تلك الأثناء ولذلك أرسلت الأمير عثمان فؤاد قائداً عاماً بدل الباروني في آذار ١٩١٨م، وكان بصحبته البارون فريد فون توندروف الألماني الذي جاء معه فريق فني لتسيير التلغراف اللاسلكي، وكان الأمير عثمان يحمل لقب القائد الأعلى للقوات الإفريقية[٢].

---

(١) الطاهر أحمد الزاوي، جهاد الأبطال في طرابلس الغرب، ط٣، دار الفتح للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٢م، ص٢٠٣.
(٢) محمد المزروقي، عبدالنبي بالخير داهية السياسة وفارس الجهاد، الدار العربية للكتاب، ليبيا، ١٩٧٨م، ص١٠٢.

تسارعت الأحداث في أواخر الحرب العالمية الأولى، وتلاحقت الهزائم على جيوش الدولة العثمانية وألمانية، وتحطمت جيوشهم، فاضطروا إلى الاستسلام وتوقيع هدنة موندروس في الحادي والثلاثين من تشرين الأول ١٩١٨م، إذ كان لهزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى أثر شيء على حركة الجهاد بطرابلس الوهن وسرعان ما انتشر خبر الهزيمة في مصراته وامتد منها إلى غيرها من المدن الليبية، فاضطربت أحوال الناس، وهاجت نفوسهم وتشوشت أفكارهم، إذ كان هذا سبباً رئيساً في ظهور فكرة الجمهورية الطرابلسية وطرحت على بساط البحث، واشترك فيها رمضان السويحلي، وعبد الرحمن عزام ، وسليمان الباروني، والأمير عثمان فؤاد ومختار كعبار، وانتهت نتائج المباحثات بالموافقة على فكرة تأسيس الجمهورية وأرسلت الدعوة إلى رؤساء القبائل وزعمائها وشيوخها باسم الأمير عثمان لعقد اجتماع عام في أمسلاته لإعلان الجمهورية، وفي يوم السبت الموافق السادس عشر من تشرين الثاني ١٩١٨م اجتمعت الوفود الطرابلسية في جامع المجابرة، وحضر الأمير عثمان فؤاد واخبر المؤتمرين أن الأستاذ عبد الرحمن عزام سيخطب فيهم بالنيابة عنه وسيتحدث نيابة عنه وطلب منهم الموافقة على ما سيطلبه منهم فخطب فيهم خطبة مؤثرة حث فيها الناس على وحدة الصف، ونبذ الخلاف والعمل الجاد للوصول إلى استقلال البلاد، وطرد الغزاة، ثم طرح عليهم فكرة إنشاء حكومة وطنية تتوحد فيها الكلمة وتتولى أمور البلاد، وتنظر في شؤون الأمة، فلقيت الفكرة استجابة من الجميع، وإجماعاً بدون خلاف وسميت الجمهورية الطرابلسية وأجريت الانتخابات في الحال لاختيار أعضاء الجمهورية فأسفرت الانتخابات عن الأتي[1] :

---

[1] الزاوي، المصدر السابق، ص٤٢٢؛ احمد، المصدر السابق ، ص٣٤٢.

أولاً : تشكيل مجلس إدارة الجمهورية

كان أعضاء هذا المجلس أربعة من أقوى الزعماء نفوذا على سكان مناطقهم وهم سليمان الباروني، احمد المريض، رمضان السويحلي، وعبد النبي بالخير، وكانت جميع القرارات والأوامر الصادرة من هذا المجلس توقع بأسماء الأعضاء الأربعة، إظهاراً لاتحاد أصحابها وتقوية لاعتمادها بين الناس، وانتخب إلى جانب الأربعة مراقبا ومديرا ماليا لمالية الجمهورية، هو زعيم غريان مختار بك كعبار، وكان ذا ثقافة عصرية عالية درسها بالمعاهد التركية، حيث كان احد نواب طرابلس في مجلس المبعوثان العثماني باستانبول، وأختير الأستاذ عبدالرحمن عزام مستشاراً للشؤون الجمهورية، وارتبط بمجلس الإدارة جميع الموظفين وشؤون الجهاد، والأمور الاجتماعية[1].

ثانياً : مجلس شورى الجمهورية

شكلت الهيئة الثانية وهي مجلس شورى الجمهورية، والغاية من إيجاده ليساند مجلس الإدارة الحكومية في قيامه بإعمال وواجبات تشبه إلى حد ما، وظائف مجلس النواب والشيوخ في البلدان الأخرى ذات الأنظمة الدستورية، وقد تألف هذا المجلس من أربعة وعشرين عضوا، ضم كافة أعيان الجهات من فزان جنوباً إلى العجيلات شمالاً، ومن سرت شرقاً إلى نالوت وغدامس غرباً واختاروا المجاهد الكبير الشيخ محمد بك سوف زعيم قبيلة المحاميد وحفيد غومة المحمودي صاحب الثورة الكبيرة ضد الأتراك العثمانيين رئيسا لمجلس الشورى، ونائبه يحيى بك الباروني شقيق سليمان الباروني[2].

---

(1) محمد مسعود جبران، سليمان الباروني ، آثاره ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا، ١٩٩١م، ص٤٢٤٠ إبراهيم ، المصدر السابق ، ج١، ص٢٧١.

(2) محمد مسعود فشيكة، رمضان السويحلي البطل الليبي الشهير بكفاحه للطليان، ط١، دار لافرجاني، طرابلس، ١٩٧٤م، ص١٩٥-١٩٦.

وأما باقي الأعضاء فهم كما كمبين في الجدول أدناه:

ت	الاســم	عمله	مكان تمثيله
١	الشيخ عبد الصمد النعاس	عضو أ	ترهونة
٢	الشيخ مفتاح التركي	عضو أ	امسلاته
٣	الشيخ علي بن رحاب	عضو أ	قماطة
٤	الحاج محمد بن خليفة	عضو أ	الساحل
٥	عبد السلام الجدايمي	عضو أ	زليتن
٦	الحاج علي المنقوش	عضو أ	مصراته
٧	محمد المنتصر	عضو أ	سرت
٨	مفتاح التايب	عضو أ	ارقلة
٩	السيد محمد بن بشير	عضو أ	اولاد ابي سيف
١٠	عبد الرحمن بن بركات	عضو أ	من مرزق –فزان
١١	محمد بن احمد الفايدي	عضو أ	الشاطئ
١٢	الشيخ الحبيب عز الدين	عضو أ	غدامس
١٣	ابراهيم ابي الاحباس	عضو أ	الجبل / جادو
١٤	الحاج محمد فكيني	عضو أ	الرجبان
١٥	الشيخ احمد البدوي	عضو أ	الزنتان
١٦	سالم البرشوشي	عضو أ	الجبل– يفرن
١٧	علي بن عبد الرحيم	عضو أ	ككلة
١٨	الشيخ شطيبة	عضو أ	غريان
١٩	علي بن تنتوش	عضو أ	ورشفانة
٢٠	عبد الرحمن شلابي	عضو أ	الزاوية
٢١	علي شلابي	عضو أ	النواحي الاربعة
٢٢	عبيدة المحجوبي [1]	عضو أ	عن صرمان والعجيلات

نلاحظ من هذا الجدول شمول من معظم مناطق الجمهورية في عضوية هذا المجلس وهذا دليل يمثل مدى الديمقراطية والعمل الجاد لإقامة هذا النمط

[1] الزاوي، المصدر السابق، ص٢٢٥-٢٢٦.

الدستوري في أول تجربة في الوطن العربي، رغم ما تتعرضه له ليبيا من استعمار ايطالي يكبل حرية أبنائها.

ثالثاً : مجلسي الجمهورية الشرعي

عرفت الهيئة الثالثة باسم مجلس الجمهورية الشرعي، وكانت أعماله وأحكامه القضائية وفقا لأحكام الفقه الإسلامي على مذهب الإمام مالك وعرف وتقاليد البلاد، واستندت عضويته إلى أربعة من كبار العلماء وهم، الشيخ الزروق بو رخيص (من غريان) ، الشيخ بن محمد الإمام (من الزنتان)، الشيخ عمر المساوي (من الزاوية)، الشيخ مختار الشكوكشي (من مدينة طرابلس)[1].

رابعاً: قسم الجمهورية والبلاغات

لم يستطيع بعض أعضاء مجلس الشورى الاجتماع، بل كان بعضهم غائباً وإنما انتخب توزيعا للمسؤولية وتحقيقا للمساواة والوحدة بين جميع القبائل ، وقبل الانصراف من المسجد اقسم الحاضرون جميعاً يمين الولاء والإخلاص للجمهورية، وتأكيداً لليمين أحضروا مصحفاً وكان من أراد اليمين وضع يده عليه وهذا نص اليمين : " **اقسم بالله العظيم قابضاً بيدي على هذا القرآن الكريم أن أجعل نفسي ومالي فداء لوطني وحكومتي الجمهورية الطرابلسية، وان أكون لعدوها عدوا ولصديقها صديقا، ولقانونها الشرعي مطيعا** " [2].

ثم وزع الأمير عثمان بعض النياشين والرتب على أعضاء الجمهورية وكثير من الأعيان والوجهاء ومن هذا التاريخ اصبحت حكومة الجمهورية

---

(1) فشيكة، المصدر السابق ، ص١٩٩.
(2) الزاوي، المصدر السابق، ص٢٢٦.

الطرابلسية قائمة وأصبح لها عهد في عنق كل طرابلسي يحميها مما يحمي منه نفسه وماله، واصبح واجب عليه الالتزام بما اقسم عليه من الولاء والاخلاص[1].

- بيان الاستقلال

كان أول ما قام به مجلس الإدارة من الأعمال انه أذاع بيان الاستقلال على أبناء الشعب الطرابلسي وقيام الجمهورية الطرابلسية، وذيل بتوقيعات الأعضاء الأربعة بمجلس الإدارة وكان هذا نصه : " **في الساعة الرابعة والنصف من يوم السبت المبارك السادس عشر من تشرين الثاني ١٩١٨م قررت الأمة تتويج استقلالها بأعلان حكومة الجمهورية بإتفاق آراء علمائهم الأجلاء وأشرافها وأعيانها ورؤساء المجاهدين المحترمين الذين اجتمعوا من كل أنحاء البلاد وقد تم انتخاب أعضاء مجلس الجمهورية، وأن الأمة الطرابلسية تعتبر نفسها حائزة لاستقلالها الذي اكتسبته بدماء أبنائها وقوتها منذ سبع سنين، وسعيدة بالوصول إلى هذه الغاية التي هي اشرف ما تصل إليه الأمم وتهنىء أبنائها بتمام نجاحهم واتحادهم على الثبات محل الدفاع عن وطنهم وحكومة الجمهورية الجديدة والتوفيق من الله تعالى وحده . سليمان الباروني ، أحمد المريض، رمضان السويحلي، عبدالنبي بالخير** "[2].

وفي أثناء إعلان البلاغات والبيانات السياسية عن الجمهورية، كانوا قد اختاروا المتصرفين والقائمين، ونقل بعضهم، وعين موظفي المناطق وعين موظفي العمل في مجالس الجمهورية، كما عين لقيادة الجيش الجمهوري اللواء الفخري عبدالقادر الغناي وهو من بنغازي، ولكنه لم يكن من المقدرة القتالية

---

(١) المصدر نفسه، ص٢٢٧.
(٢) فشيكة، المصدر السابق، ص١٩٩-٢٠٠.

المطلوبة، وبلغ من ضعفه أن سلم الزاوية الغربية للطليان في الأول من كانون الثاني ١٩١٩م[١].

كان لإعلان بيان استقلال الجمهورية الطرابلسية أحسن الأثر في نفوس الشعب الطرابلسي ونشاط سرى في جميع مرافق الحياة أحس الناس بتطور غريب في حياتهم السياسية اعتقدوا أن مصدره هذه الجمهورية التي رأوا فيها فتحاً مبيناً، وثمرة من ثمرات جهادهم الموفق، ولم يكن سكان المدن في طرابلس اقل فرحاً بهذه الجمهورية من إخوانهم المجاهدين، فقد كان شعور الطرابلسيين متجهاً إلى ناحية واحدة هي التغلب على الطليان، وكانت الجمهورية مثالاً بارزاً في التعبير عن هذا المعنى، فكانت في محل الإجلال والتعظيم من نفس كل طرابلسي، وقد رأى أعضاء الجمهورية أن الوضع الحربي يقضي بأن يقيم كل عضو من أعضاء الجمهورية في منطقة نفوذه يصرف أعمالها كيفما يرى محتملاً تبعة أعماله، فأقام رمضان السويحلي في مسلاته، وأحمد المريض في ترهونة، وسليمان الباروني في العزيزية والزاوية، وعبد البني بالخير في ورفلة[٢].

وعندما تلقى الايطاليون بلاغ اعلان الجمهورية، أعلنوا فوراً أن دولتهم ترفض بكل تصميم الاعتراف بقيام واستقلال الجمهورية الطرابلسية، بل أكدت استئناف الحرب الضارية معها إلى أن تخضع البلاد لحكمها بالقوة[٣]. لذلك مارست ايطاليا القوة ضد الطرابلسيين، ولكن بدون جدوى، واضطرت لدخول مفاوضات ثم تتويجها بانعقاد صلح (سواني بنيادم) وعقد ذلك الصلح في ليلة السابع عشر من نيسان ١٩١٩م في قرية سواني بنيادم، غرب مدينة طرابلس نحو اثنا عشر كيلو متراً، وأعتبر الطرابلسيون ذلك الصلح انتصاراً سياسيا وعسكرياً على خصمهم المتعجرف العنيد وأصدرت أيطاليا القانون الأساسي الذي

---

(١) أحمد ، المصدر السابق، ص٣٤٢؛ الزاوي، المصدر السابق، ص٢٢٨.
(٢) إبراهيم ، المصدر السابق ، ج٢، ص٥٤.
(٣) فشيكة، المصدر السابق، ص٢٠٢.

جعل الفرد الطرابلسي، في مصاف الفرد الايطالي في الحقوق السياسية والاجتماعية[1].

علق القائد الايطالي غرازياني على فوز العرب بهذا القانون فقال : **"تلاشى به كل أمل لسيادتنا الفعلية على طرابلس، وأصبح السبيل ممهداً للطمات شديدة نتلقاها، وقد كان من جانبنا تسليماً حقيقياً، وهذا الدستور يمنح عرب طرابلس تفوقاً وامتيازات مدنية وسياسية واسعة، دون أن يتحملوا – كما هو الحال في البلاد المتمدنة – أعباء واجبات ثقيلة . في مقابل ممارسة الحرية بمفهومها الحديث"**[2].

– القواعد الأساسية للقانون الأساسي

القانون الأساسي أو الدستور، أشتمل على أربعين فصلاً ولكن قواعده الأساسية ارتكزت في ستة عشر مادة منه ونصها حرفياً كما يأتي :

١– تسمى الحكومة (حكومة طرابلس الغرب) .

٢– يدير أمور قطر طرابلس مجلس حكومة مؤلف من ثمانية أعضاء وطنيين ينتخبهم مجلس النواب الطرابلسي من بين أعضائه، ومن عضوين ايطاليين ينتخبهم النائب العام .

٣– يرأس هذا المجلس حاكم عام بيده السلطات الملكية والعسكرية ، معين من جانب ملك ايطاليا (لم يحدد القانون الحاكم فقد يكون عربياً أو ايطالياً) .

٤– يسن قوانين البلاد مجلس ينتخبه الأهالي يتمتع بما لمجالس الدول الأخرى المتدمنة من سلطات وحقوق، وتكون مدته أربع سنوات، كلما جدد انتخابه جدد مجلس الحكومة من بين أعضائه .

---

(١) الزركلي ، المصدر السابق، ج٣، ص١٢٩؛ فشيكة ، المصدر السابق، ص٢٠٢.
(٢) علي محمد الصلابي، تاريخ الحركة السنوسية في افريقيا ، ط١، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٥م، ص٣٩٥.

٥- لا تنفق ضرائب البلاد إلا فيها حسبما يقرره مجلس نوابها في وصفها وتوزيعها وجبايتها.

٦- لايطبق من القوانين الايطالية في طرابلس إلا ما يقبله مجلس النواب الطرابلسي . ويوافق عليه لمصلحة البلاد.

٧- ينظم من أبناء البلاد جند وطني بالتطوع حسبما تقتضيه الحاجة وقائده هو الحاكم العام.

٨- للوطنيين حق التوظف في الوظائف ملكية وعسكرية وقضائية و صحية وغيرها بالامتحان

٩- التعليم الأهلي حر تحت إشراف الحكومة.

١٠- اللغة العربية رسمية كاللغة الايطالية .

١١- ينتخب الاهالي رؤساء البلديات في العاصمة والملحقات.

١٢- يؤلف مجلس شرعي تستأنف إليه الأحكام الشرعية وهو يعين القضاة.

١٣- للطرابلسيين الحائزين على شهادات عالية. الحق في مزاولة المهن الحرة كالطب والمحاماة وغيرها في ايطاليا كما هو في طرابلس .

١٤- الطرابلسي والايطالي متساويان في الحقوق .

١٥- الأوقاف تدار من قبل هيئة إسلامية .

١٦- تراعى حرية الدين والتقاليد الوطنية كما في السابق.

وختمت مواد الدستور أو القانون الأساسي البالغ نيفاً وأربعين فصلاً بتوقيعات الآتي أسماؤهم : عن الطرابلسيين : سليمان الباروني، أحمد المريض، رمضان السويحلي، أحمد الصويعي نيابة عن عبد النبي بالخير، وعن الطليان :

الجنرال ماجور تارديتي، رئيس الدائرة السياسية، الجنرال باسكانو رئيس هيئة اركان حرب الجيش الايطالي[1].

عملت الحكومة الايطالية وبشدة على نقض العمل بالقانون الأساسي، ونشر الفتن والدسائس بين الزعماء للقضاء على الجمهورية، إذ قام الوالي الايطالي بتعيين أعضاء مجلس الحكومة والذي اجتمع في مدينة طرابلس وحاولت هيئة الحكومة أن تباشر أعمالها في دائرة سلطتها، لكنها أصطدمت بسلطات الوالي الايطالي الذي رفض اعتبارهم أصحاب قرار فهم هيئة استشارية لا أكثر حسب رأيه[2].

لذلك أعلن الطرابلسيون في الثالث من أيلول ١٩١٩م رسمياً عن تأسيس حزب الإصلاح لأجل الدفاع عن مكاسب البلاد، وإيقاظ الوعي الجماهيري السياسي وتولى رئاسته أحمد المريض، كما انشاؤا جريدة اللواء الطربلسي لتكون لسان حال الحزب، قد دعمت الحكومة الوطنية الحزب في مطالبه بتنفيذ ما ينص عليه القانون الأساسي، إلا أن الايطاليون نجحوا في زرع الفتنة والشقاق والتناحر بين زعماء الحركة الوطنية وبين زعماء المناطق الطرابلسية، ثم بين العرب والبربر وبين البدو والحضر، وعجز الزعماء الوطنيون المخلصين في إخمادها ولم وحدة الصف الوطني، حيث كانت أكبر الفتن الحربية الطاحنة بين الزنتان والبربر سنة ١٩١٦م والتي راح ضحيتها عدد كبير من الطرفين، وخلفت من الضغائن بين الفريقين ما كان سبباً من أكبر الأسباب في الحرب الثانية التي دارت رحابها في سنتين ١٩٢٠-١٩٢١م[3].

---

(١) فشيكة، المصدر السابق، ص٢٠٩.
(٢) الصلابي، المصدر السابق، ص٤٠١-٤٠٢.
(٣) الزاوي، المصدر السابق، ص٢٦٧،٢٢٦-٢٦٨؛ محمد فؤاد شكري، السنوسية دين ودولة، دار الفكر، القاهرة، ١٩٤٨م، ص٢٥٢.

استغل الايطاليون ذلك الصراع وتلك الفتن فهاجموا المدن الطرابلسية وسيطروا على عدد منها ولم تستطع الحكومة الوطنية التي تكونت بعد الصلح أن تصنع شيئاً وكل ما تقرره لاينفذ لان الزعامات كانت تتناحر داخلها، وذلك لا يستغرب من حكومة في جمهورية لها اربعة رؤساء، وهكذا ولدت الجمهورية وفي جسمها جراثيم هلاكها، وذلك لوجود أربعة رؤساء يحكمونها[1].

ونتيجة لهذه التطورات الخطيرة والانشقاقات العظيمة التي وقعت بين زعماء لذلك عقد مؤتمر غريان ١٩٢٠م إلا أن هذا المؤتمر لم يخرج بنتيجة من سلطات الاحتلال الايطالي التي ترفض كل مايقدمه قادة الجمهورية الطرابلسية، فضلاً عن غياب كبار القادة عنها، فرمضان السويحلي قتل في نضاله مع الطليان، وسليمان الباروني أمتنع الحضور، لانه كان متأثراً بالحرب التي وقعت بين الزنتان والبربر وارسل إليه أحمد المريض بعد انتخابه رئيسا للمؤتمر بانه مستعد للتنازل له عن الرئاسة فأبى وحاول المؤتمر اقناعه فامتنع ، وكذلك امتنع عبد النبي بالخير عن الحضور، وبذلك حكم على هذا المؤتمر بالفشل قبل انعقاده[2].

قرر سليمان الباروني أن يبقى بعيدا عن السياسة واضوائها واعتزل العمل السياسي، وهو متيقن في أعماق نفسه أن هذا الأمن تحت الحكم الايطالي لن يستمر، وهنا توالت الدسائس مرة أخرى ضد الباروني الذي اتهم بإحداث الفتنة في صفوف المواطنين، فلم تلبث السلطات الايطالية إن طلبت منه مغادرة البلاد سنة ١٩٢٢م فاضطر مكرها إلى مغادرتها، إلى استانبول ثم انقرة، سافر بعدها إلى باريس التي استقر بها لمدة سنتين تحت المراقبة الشديدة، واتيح له السفر لأداء مناسك الحج [٢٧]. وبطلب من الباروني لزيارة أخوانه العُمانيين، توسطت له

---

[1] المرزوقي، المصدر السابق، ص١٠٣.
[2] الزاوي، المصدر السابق، ص٢٩٩-٣٠٤؛ المرزوقي ، المصدر السابق، ص١٢١.

الحكومة العربية لدى السلطات البريطانية لتسمح له بزيارة مسقط، وقد رحب بهذه المبادرة كل من السلطان تيمور والإمام الخليلي، ووصل عُمان أوائل سنة ١٩٢٦م، واستقبل استقبالا رسميا حافلا، فعينه سلطان مسقط مستشاراً لحكومته سنة ١٩٣٥م فاستقر فيها إلى أن مرض بالملاريا مما اضطره السفر إلى الهند للعلاج فتوفي فيها سنة ١٩٤٠م[1]. وبذلك انتهت حياة هذا المناضل الكبير الذي أفنى حياته في النضال ضد الاستعمار ومجاهداً لبناء وطنه، والذي على يده تأسست أول جمهورية في الوطن العربي متحدياً الاحتلال الايطالي وقواته العسكرية التي رفضت قيام هذه الجمهورية.

الخاتمة

يعد سليمان الباروني من أبرز زعماء الحركة الوطنية في ليبيا عامة وطرابلس خاصة، إذ قاوم هذا المناضل الاحتلال الايطالي، وقاد العمليات العسكرية ضده في طرابلس، ثم على يده انطلقت نواة تشكيل أول حكومة وطنية في طرابلس وبرئاسته تشكلت أول جمهورية في الوطن العربي وهي الجمهورية الطرابلسية.

أن من الأمور الخطيرة التي مرت بها البلاد خلال السنوات ١٩١٦-١٩٢٣م أن أنقسم زعماء ليبيا إلى قسمين بالنسبة للأوضاع الدولية في بداية الحرب العالمية الأولى، مما ضاعف من قوة الخلاف، وحدث تنازع على النفوذ وصل إلى حد القتال بين الأشقاء، وبعد هزيمة الأتراك والألمان، وخروجهم من ليبيا جاءت فكرة الجمهورية الطرابلسية، ولم يستطع الزعماء أن يتغلبوا على أهوائهم الشخصية فانتهى بهم الأمر إلى مقتل رمضان السويحلي، وهجرة سليمان الباروني من البلاد إلى عُمان، حيث أصبح مستشاراً لحكومة مسقط بدولة عُمان

---

(1) الزركلي، المصدر السابق، ج٣، ص١٢٩؛ إبراهيم، المصدر السابق، ج٢، ص٢٣٠.

وتوفي أثر مرضه في بومباي بالهندسة ١٩٤٠م[1]، أما عبد النبي بالخير توفي في الصحراء الكبرى أثناء هجرته إلى تونس بسبب العطش، وأحمد المريض توفي في الفيوم بمصر عام ١٩٤١م. أن الدرس المهم من كل هذا هو أن يتغلب الزعماء على أهوائهم من أجل المصالح العليا للبلاد والعباد وإلا أصبحت بلادنا فوضى يسهل عندئذ لأعدائنا اختراقها واحتلالها، وتشتيت رجالها ونفيهم والعبث بمصالح وخيرات هذه البلاد واستغلالها أبشع استغلال.

---

[1] الباروني، سليمان باشا الباروني، ص٢٧٢؛ الزركلي، المصدر السابق، ج٣، ص١٢٩-١٣٠.

دفاع المجاهد سليمان باشا الباروني عن حدود ليبيا من خلال اللائحة التي قدمها إلى رئيس الوزراء العثماني سنة ١٩١٠م

أ. د. جمعة محمود الزريقي(*)

مقدمة

ولد المجاهد الكبير العلامة سليمان بن عبد الله بن يحيى الباروني في مدينة جادو بجبل نفوسة سنة ١٢٩٠ هـ/١٨٧٣م ، وهو ينتمي لأعرق الأرومات العربية العُمانية، وهي " البروانية " أخذ العلم عن والده منذ الصغر، واعتنى به حتى بزغ نبوغه وسافر من أجل طلب العلم إلى عدة أماكن منها الجزائر ومصر، بدأ إنتاجه العلمي في الظهور بالتأليف والكتابة في الصحف ثم اختير عضوا في مجلس المبعوثان (النواب) نائبا عن جبل نفوسة سنة ١٩٠٨م إلى سنة ١٩١١م ولما وقع الاعتداء الإيطالي على ليبيا جند نفسه في خدمة الجهاد، وشكل قوة من المجاهدين وشارك في النشاط السياسي، وساهم مع بقية المجاهدين في إنشاء الجمهورية الطرابلسية، وبصورة عامة فتاريخه حافل بالأعمال، فهو رجل علم، ودين، وسياسة، وجهاد، وقيادة، أغنى المكتبة بالعديد من المؤلفات ودواوين الشعر والمقالات السياسية والاخوانية وغيرها، وبصورة عامة فإن سيرة هذا البطل وجهاده لا تكفيه هذه الأسطر القليلة، انتقل إلى جوار ربه مساء يوم الأربعاء ٢٣ ربيع الأول سنة ١٣٥٩هـ/١/٥/١٩٤٠م في مدينة بومباي بالهند ، ثم أعيدت رفاته إلى طرابلس ودفن في مقبرة الصحابي الجليل سيدي منيذر(١).

(*) أ.د. جمعة محمود الزريقي، المستشار في المحكمة العليا- طرابلس، ليبيا.

(١) تراجع ترجمته في كتاب حياة سليمان باشا الباروني ، زعيم المجاهدين الطرابلسيين لأبي القاسم الباروني، الطبعة الثانية ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م، وكتاب أعلام ليبيا ، للشيخ الطاهر أحمد الزاوي ، دار المدار الإسلامي ص ١٧٣-١٧٤ ، الطبعة الثالثة ٢٠٠٤م، طرابلس، ليبيا، دليل المؤلفين العرب الليبيين، ص١٤٧-١٤٨، أمانة الأعلام والثقافة، طرابلس،

انتخب المجاهد سليمان باشا الباروني سنة ١٩٠٨م عضوا في مجلس المبعوثان (النواب) عن الجبل الغربي في ظل الحكم العثماني لليبيا، وخلال المدة التي شغلها في هذه العضوية قدم العديد من الخدمات لبلاده من بينها دفاعه عن حدودها الغربية، ومن خلال وثيقة مترجمة عن اللغة التركية يتبين أنه قدم مذكرة إلى الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) العثماني حول النزاع على الحدود بين طرابلس وتونس أثناء احتلال الفرنسيين لها، وهي مؤرخة في ١٠ فبراير ١٩١٠م، وتتكون من إحدى عشرة صفحة.

تبين الوثيقة نبذة عن كيفية ظهور النزاع على الحدود بين طرابلس وتونس، ثم تجاوز الفرنسيين للحدود الليبية منذ بدايتها وحتى سنة ١٩١٠م تاريخ تقديم المذكرة، لتسلط الضوء على هذه الخلافات، وقيامهم باحتلال بعض المناطق، ومحاولاتهم فرض السيطرة على الأهالي فيها، كل ذلك بتفصيلات دقيقة ووقائع صريحة ذكرها في لائحته من أجل الحفاظ على بلاده بما عرف عنه من غيرة ووطنية صادقة، ظهرت مما كان يهدف إليه من كتابة هذه المذكرة.

وردت في الوثيقة حوادث كثيرة ذكرها المجاهد سليمان باشا الباروني يستدل بها على الخلافات التي كانت دائرة بين السلطات العثمانية من جهة والسلطات الفرنسية التي كانت تحتل تونس آنذاك، والوسائل التي كانت تتبعها تلك السلطات في سبيل الاعتداء على أملاك الليبيين العقارية والمنقولة، كما أشارت إلى بعض الاتفاقيات التي عقدت من أجل إنهاء الخلافات الحدودية.

ليبيا١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، كتاب سليمان الباروني آثاره،أ.د. محمد مسعود جبران، الدار العربية للكتاب، ١٩٩١م، طرابلس، ليبيا .

الصراع على الحدود بين فرنسا والدولة العثمانية

احتلت فرنسا الجزائر سنة ١٨٣٠م، وبين الجزائر وليبيا حدود مشتركة تمتد من مدينة غدامس إلى مدينة غات، كما أعلنت حمايتها على تونس بموجب معاهدة عقدت بتاريخ ١٨٨١/٥/١٢م ومنذ ذلك التاريخ تخوفت ليبيا من هذا الاحتلال لذا وجه الوالي محمد نظيف باشا (١٨٨١-١٨٨٢م) رسالة إلى الدولة العثمانية، مؤرخة في ١٤ يونيو ١٨٨١م، طلب فيها إجراء بعض الإصلاحات في ولاية طرابلس الغرب، كان من بينها : العمل على إنهاء المنازعات القائمة بين القبائل التونسية والليبية في مناطق الحدود، وترتيب نقاط على طول الحدود لتكون مراكز للدوريات وإنشاء ثكنة ما بين زوارة ونالوت، والاهتمام بمدينة غدامس بوضع كتيبة من المشاة لحمايتها وكذلك الاهتمام بالمناطق الحدودية الأخرى مع الجزائر [١].

قامت انتفاضة كبيرة في تونس بعد احتلال فرنسا لها خلال شهر يوليو ١٨٨١م، وأدى ذلك إلى نزوح عدد كبير من المواطنين التونسيين المعارضين للاحتلال الفرنسي ولجوئهم إلى طرابلس الغرب، وقد لقوا تشجيعا من الدولة العثمانية، وذلك ما دعا فرنسا إلى تعزيز قواتها على الحدود، والاعتداء على بعض المناطق، وبالمقابل عززت القوات العسكرية في ليبيا جنودا وذخيرة للمحافظة على الأمن كي تصد تحركات فرنسا، ومنع القبائل من التحرك في اتجاه البلدين، لهذا قلقت فرنسا من تلك التعزيزات واحتجت لدى الحكومة العثمانية على ذلك[٢].

---

(١) الوثائق العثمانية ، المجموعة الأولى ، ترجمة الأستاذ محمد الأسطى ، إعداد: خليفة محمد الدويبي ، وثيقة رقم (٢٧)، ص٩٤-٩٩، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، رقم (٧) ، طرابلس ، ليبيا ، ١٩٩٠م .

(٢) الصراع التركي الفرنسي في الصحراء الكبرى، عبد الرحمن تشايجي، ترجمة د. على أعزازي، مراجعة محمد الأسطي، تقديم د.محمد الجراري، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، ص ١١٥ – ١١٦ ، طرابلس ، ليبيا ، ١٩٨٢م .

استمرت الأطماع الفرنسية في الأراضي الليبية وازداد تخوف السلطات العثمانية من قيام فرنسا بإعادة رسم الحدود، وتحرك قنصل فرنسا في قابس باستدعاء جنرال فرنسي للقيام بذلك وإدخال بعض المناطق الليبية ضمن الخريطة المقترحة، فقامت سلطات الولاية بإشعار مجلس الوزراء العثماني الذي اجتمع بتاريخ ٢٢ ديسمبر ١٨٨٧م ويرفع مذكرة للسلطان العثماني يشرح له الأمر، ومما ورد فيها: "يجب أن لا نعطي الأعداء فرصة للتدخل إلى أمور هذا الجانب وأن لا نهمل في محافظة هذه الولاية الحدودية لذلك يتوقف الأمر على إنشاء بروج في الحدود المذكورة ووضع قوات كافية للمحافظة فيها"[1] وهذا يدل على أن الاعتداءات على الحدود الليبية الغربية متكررة من قبل فرنسا.

استمرت الخلافات على الحدود بين فرنسا والدولة العثمانية، وحدثت العديد من المناوشات بين الطرفين، فكل منهما ترغب في السيطرة على بعض المناطق والمدن، وعلى الأخص الطرق التجارية التي تدر دخلا ماليا يستفاد منه، لذلك وجد الطرفان نفسيهما في حاجة إلى وضع اتفاق لضبط الحدود الليبية التونسية والليبية الجزائرية، ومن مصلحتهما الاتفاق على ذلك، فطلبت فرنسا تحديد حدود طرابلس-تونس في ١٧ نوفمبر ١٩٠٩م، ووافق الباب العالي على هذا الطلب في يناير عام١٩١٠م، وكانت هذه أول خطوة لتثبيت نفوذ الدولتين وسيتلوها خطوة تحديد حدود طرابلس-الجزائر وحدود السودان [2].

تشير المصادر إلى شروع الدولة العثمانية وفرنسا في تشكيل لجان لضبط الحدود المشتركة بين البلدين، وخاصة ما بين تونس وطرابلس، وشرعت اللجنة المشتركة في اجتماعاتها خلال سنة ١٩١٠م في مركز الولاية بطرابلس، وفي مثل هذه الأحوال يستعد كل طرف في حماية الهنترلاند الخاص به، ويقوم بتجهيز

---

(١) الوثائق العثمانية ، المصدر السابق وثيقة رقم (٣٢)، ص ١١٧ -١١٩ .
(٢) الصراع التركي الفرنسي في الصحراء الكبرى، ص٢٣١ .

ما لديه من وثائق وخرائط ومستندات، ويحكي لنا المؤرخ الليبي محمود ناجي عن ذلك فيقول : إن لجنتنا اشتركت في العمل، وهي تكاد أن تكون خالية البال واليد، ولا تملك تحت يدها خريطة من تصميم أركان الحربية العثمانية، ولا بين أعضائها رجال ذوو خبرة بالشؤون المحلية، أما الفرنسيون فقد كانوا مجهزين بوثائق عديدة وبخرائط من مقاسات مختلفة، صغيرة وكبيرة، حتى المراكز العسكرية وغيرها من المناطق كانوا مجهزين بتصاميم صحيحة لها، كانت لجنتهم مؤلفة من هيئة تتابع هذه الأمور منذ سنوات طويلة .... "[1].

أهمية اللائحة في حماية الحدود الليبية

لهذا فإن اللائحة التي قام بكتابتها المجاهد سليمان باشا الباروني وتقديمها إلى الصدر الأعظم العثماني(رئيس الوزراء) في سنة١٩١٠م تعتبر ذات فائدة كبيرة في مساعدة اللجنة المكلفة بدراسة الحدود مع الجانب الفرنسي ، وهي التي ستكون محلا للدراسة في هذا البحث، وقد تم نشرها ضمن كتاب الوثائق العثمانية باللغتين العربية والتركية، وهي تحمل رقم (٤٥)، في (٢٧) صفحة، ص٢٠٥-٢١٩ بترجمة العالم الجليل الأستاذ محمد الأسطى[2] وتوجد نسخة مرقونة منها لدى مكتبة دار سبها بطرابلس، اقتصرت على النص العربي فقط، وهي مطابقة للنسخة المطبوعة.

محتويات اللائحة

ورد في بدايتها (اللائحة التي قدمها سليمان الباروني نائب الجبل الغربي (نفوسة) في البرلمان العثماني إلى الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) حول

---

(١) تاريخ طرابلس الغرب، تأليف محمود ناجي، ترجمة عبد السلام أدهم، محمد الأسطى ، منشورات الجامعة الليبية، كلية الآداب، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م. بنغازي، ليبيا .

(٢) الوثائق العثمانية، المجموعة الأولى، طرابلس ليبيا، ١٩٩٠م وما بعدها .

النزاع على الحدود بين طرابلس وتونس بتاريخ٢٨/كانون الثاني/١٣٢٥هـ، توافق أواخر محرم ١٣٢٨هـ، ١٠ فبراير ١٩١٠م، يليها التصدير إلى الجهة المقدمة إليها :

إلى مقام الصدارة السامي

" حضرة صاحب الفخامة ؛ علمنا بأن مفاوضات رسمية ستبدأ لحل مشكلة حدود طرابلس – تونس التي شغلت بال عامة سكان الولاية منذ مدة .

إنني فضلاً عن الخرائط الأجنبية، وما جاء في ما كتبه الرحالة عن حدود البلدين، فقد رأيت تقديم نبذة عن الحوادث التي وقعت في الماضي آملا أن تكون حججا تستعين بها اللجنة التي ستعين من طرفنا لحل مشكلة الحدود ".

يتبين من هذا التصدير للائحة أن المجاهد الباروني لا حظ أن الوفد الذي سوف تشكله الدولة العثمانية لدراسة الحدود مع الجانب الفرنسي قد تنقصه الخبرة والوثائق والمستندات فنيه الدولة العثمانية إلى عدة مصادر يمكن الاستعانة بها، وهي : –

(١) الخرائط الأجنبية المتداولة بين الدول أو المنشورة في المصادر، ويبدو من اللائحة أنه قدم معها خريطة مرفقة.

(٢) ما كتبه الرحالة العرب أو الأجانب من معلومات حول حدود طرابلس وتونس.

(٣) نبذة عن الحوادث التي وقعت في أوقات سابقة بين السكان أو جنود الدولتين وهي التي سوف يغطيها من خلال معلوماته التاريخية.

لذلك دفعه حسه الوطني وغيرته على بلاده لوضع ما يعرفه من معلومات تاريخية حول مشكلة الحدود بين البلدين لتكون معينا للوفد الليبي العثماني في بحث مشكلة وضع الحدود بينهما، فأشار في البداية إلى كيفية ظهور النزاع على الحدود وأسبابه، وهي أن الحكومة الفرنسية قررت منح مكافأة

لمن يأتي بمواشي أهل الجبل التي ترعى داخل حدود تونس الأمر الذي شجع الجندرمة التابعة لها على اغتصاب حيوانات الأهالي التي ترعى داخل متصرفية الجبل، وعند مراجعة أصحابها تقوم بفرض غرامة لاستردادها، إلى جانب الاعتداءات الأخرى.

الاعتداءات التي تمت على حدود ليبيا الغربية من قبل القوات الفرنسية : تفصيلات عن تجاوز الفرنسيين عبر حدودنا

أعطى المجاهد الباروني في البداية فكرة إجمالية عن الحدود في سنة ١٣٠٦ هـ/١٨٨٨م فقال: إن خط الحدود، كما رسم في الخريطة المرفقة، يبتدئ شمالا من ساحل البحر في بحيرة البيبان ويتجه جنوبا إلى أن ينتهي في قرعات الحسي شمال غربي غدامس، وهو يبعد عن سيناون بمسافة ٢٥٠ كيلومتر، وهذه حدودنا المعروفة منذ القدم، ولم يدع التونسيون ولا الجزائريون تملك شبر داخله، ولم يتجاوزه إلا عابر سبيل أو ضال في طريقه.

ثم بدأ في سرد الاعتداءات التي قام بها الفرنسيون ابتداء من السنة المذكورة، منها أن المأمور الفرنسي بتطاوين أرسل إلى شيخ وازن طالبا منه أن يجمع عشر المزروعات التي في موقع كنبوت، وهو من أراضي الجبل، ورفض الأهالي دفع الضريبة إلى دولة أجنبية، فأرسل أحد رؤساء الجندرمة ومعه مجموعة من الفرسان ، فهجموا على السكان، وأخذوا المحاصيل وغصبوا جملة من الماشية. وفي سنة ١٣٠٧هـ، هجموا مرة ثانية على مناطق أخرى واستولوا على كمية من الحبوب، وفي سنة ١٣٠٨هـ، قام أحد عملاء فرنسا وبصحبته الجندرمة بمنع أهالي نالوت من الحرث، فوقعت معهم مشادة قتل فيها أحد المواطنين الليبيين، كما قام بتحريض عدد من القبائل للهجوم على مزروعات

أهالي نالوت ووازن فاستولوا على كميات من الحبوب. تلك الحوادث التي تضمنتها اللائحة تفصيلاً، والتي يمكن تناولها باختصار :-

١ – اعتداء الجندرمة التابعة للمأمور الفرنسي في تطاوين على موقع كنبوت التابع للجبل الغربي، في أوائل سنة ١٣٠٦ هـ، وغصب جملة من الأغنام والإبل والبقر والمحاصيل وإفساد بعضها.

٢ – استيلاء الجندرمة التابعين لفرنسا بعد اجتيازهم للحدود على بعض قرى الجبل في تضجغت وأم الزكار ومغرى والفدن، واستولوا على كميات من الحبوب وأفسدوا باقي المزروعات وقع ذلك سنة١٣٠٧هـ.

٣ – كلفوا سنة ١٣٠٨هـ بعض أعوانهم بممارسة الإرهاب والتحرش حيث قاموا بمنع الأهالي من الحرث كما قاموا بالإغارة ونهب المزروعات من أهالي نالوت ووازن في موسم الحصاد وحملوا معهم ما يقارب من أربع ألاف غرارة من الحبوب وأحرقوا الباقي .

٤ – بعد الوقائع السابقة ترك أهل وازن أراضيهم أسفل الجبل ، واكتفوا بحرث الأراضي الواقعة فوق الجبل بالاتفاق مع أهالي نالوت وكان ذلك سنة ١٣٠٩هـ، إلا أن الفرنسيين قاموا بتحريض القبائل التونسية فاستباحوا المزروعات وقاموا بنهب المحاصيل ونقلوها إلى أماكنهم وأفسدوا باقي المزروعات[1].

الاعتداءات التي تمت على حدود ليبيا الغربية من قبل القوات الفرنسية

بينت اللائحة التي قدمها المجاهد سليمان الباروني الاعتداءات التي تمت من قبل القوات الفرنسية واحتلالها لبعض المناطق من ليبيا، ونبهت إلى الخطر المحدق بالبلاد، في الوقت الذي كانت الدولة العثمانية قد تراخت في حماية ليبيا،

---

[1] الوثائق العثمانية، المجموعة الأولى، ص ٢٠٨ – ٢١٠ .

وقصرت في إرسال الجنود إليها، بل أخذت منهم عددا لا بأس به وأرسلتهم إلى اليمن، كما أنها لم تقم بفرض التجنيد على سكانها حتى يكونوا مستعدين لأي طارئ أو عدوان تشنه فرنسا على حدودهم أو إيطاليا التي بدأت تكشر عن أنيابها لغزو ليبيا، وقد رفعا عضوان من أعضاء مجلس النواب عن طرابلس لوما ضد وزارة حقي باشا واتهموها بالتقصير في حق طرابلس[1] وفيما يلي تفاصيل الاعتداءات التي وردت في اللائحة :-

١ - احتلال ذهيبة سنة ١٣٠٩هـ، وقد كانت في الزمن القديم إحدى قرى نالوت وجميع قضايا سكانها المدنية والشرعية تفصل في محاكم نالوت قام مأمور الحكومة الفرنسية بطرد أهالي وازن من عدة مواقع، وجاؤوا بعدة أسر تونسية وأسكنوها هناك ، ولكن أهل الجبل ثاروا عليهم وأخرجت تلك الأسر، إلا أن السلطات الفرنسية حشدت ٨٠٠ فارس من الجندرمة و ١٥٠٠ من أهالي تونس واحتلوا ذهيبة وأنذروا أهالي وازن بتخريب قريتهم، ولم يفلح تدخل السلطات المحلية العثمانية في ردعهم حيث انسحبوا ثم عادوا فاحتلوها وشيدوا بها قصرا وحوانيت.

٢ - بعد احتلال الفرنسيين لذهيبة، قاموا بطرد قبائل الصيعان من منطقة قروع الصيعان وهي تقع في الجهة الشرقية من ذهيبة وتنسب إلى تلك القبائل من القديم ، وكانت تجبى أعشارها الدولة العثمانية، لكن السلطات الفرنسية احتلتها وأنشأت فيها أبنية حكومية لهم.

٣ - احتلال موقع الجنين الذي يقع جنوب غربي وازن، وهو مرعى لهم ولأهالي نالوت من القديم وبناء على تخوف الأهالي من احتلاله قامت السلطات

---

[1] هما ناجي بك وصادق بك، الوثائق الأمريكية المجموعة الأولى، ترجمة شمس الدين عرابي بن عمران، إعداد مصطفى حامد ارحومة، ص٤٨ نشر مركز دراسات جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، سلسلة الوثائق التاريخية رقم٤ ، طرابلس ليبيا ١٩٨٩م.

المحلية بإرسال مفرزة عسكرية إلى الجنين، ولكنهم لم يتخذوا مبان لإقامتهم بل أكواخ، ولم تمض مدة طويلة حتى هجم الفرنسيون فجأة عليهم وأسروهم وخربوا أكواخهم وأسسوا في الجنين أبنية حكومية وخطا للاتصال البرقي.

٤ – الاعتداء على سيناون بعد استقرار الفرنسيين في ذهيبة والجنين حيث وجهوا أنظارهم نحو الجنوب لاحتلال سيناون وغدامس، وعندما تجاوز جنودهم الحدود هب أهل الجبل وقاموا بأنفسهم بحماية الحدود، فهجموا على المفرزة الفرنسية وغنموا أسلحتهم مع بعض الغنائم الأخرى، ولم يعد الفرنسيون إليها.

٥ – بعد خيبة أمل الفرنسيين وقهرهم في وقعة سيناون، وجهت فرنسا أنظارها إلى بئر الزار والمنتصر وغدامس، باتخاذ سياسة التغلغل السلمي، وذلك بتقديم الهدايا لأعيان ووجهاء المنطقة، وانتهجت سبيل الحياد بإظهار المودة والمحبة للتجار وتعهدت بحماية قوافلهم، ومع ذلك قام ضابط فرنسي مع أسرته وبعض العساكر بالنزول في مكان لا يبعد عن مدينة غدامس وزعم أنه فوق أراضي معدودة من أملاك فرنسا، إلا أن السلطات المحلية أجبرتهم على الانسحاب[1].

تأثير لائحة الباروني في الاتفاق العثماني الفرنسي حول الحدود

لم ينس المجاهد الباروني أن يذكر رئاسة مجلس الوزراء العثماني بما تم الاتفاق عليه سابقا حول الحدود الليبية التونسية، فبعد استعراضه للحوادث السابقة، أشار إلى الاتفاق الذي حصل بين باي تونس ووالي طرابلس أحمد راسم باشا ١٨٨١– ١٨٨٣م على تشكيل لجنتين، لجنة عن الجانب الليبي ضمت: أحد ضباط الأركان ومتصرف الجبل الغربي، ومفتي الولاية مع بعض الوجهاء

(1) الوثائق العثمانية ، المجموعة الأولى، ص٢١٢– ٢١٦ .

من طرابلس والجبل، ولجنة عن الجانب التونسي ضمت نائبين تونسي وفرنسي ومترجم وعضوين آخرين من وجهاء تونس.

اجتمعت اللجنتان في زوارة، وتبين من خلال الوثائق والمستندات والحجج الشرعية والوقفيات التي قدمها النوائل والصيعان ونالوت بأن الحد الفاصل بين القطرين : وادي العشوش، ثم يشير إلى تهاون الجانب الليبي بتفريطه في بعض الأراضي، ربما لعدم خبرته أو انعدام الوثائق والمستندات لديه، فقال : وبناء على تراخي لجنتنا وتساهلها، انتهت المفاوضات باعتبار الأراضي التي بين وادي العشوش وأم النار أراضي حيادية [1].

هكذا نجد المجاهد سليمان الباروني محرضا على حقوق بلاده والدفاع عنها، ولا عجب في ذلك فهو يمارس نشاطه الثقافي والتنويري من خلال مسيرة حياته، ووعيه بالخطر الذي يمثله التوسع الاقتصادي والسياسي للدول الأوربية التي تهدد باحتلال ولاية طرابلس، لذلك كان حماسه القومي ردة فعل على التقسيم الاستعماري للإمبراطورية العثمانية، لذلك انضم مع بعض زعماء طرابلس إلى جمعية الاتحاد والترقي، وكان أحد زعماء الإصلاح في بلدان شمال أفريقية[2] لذلك كانت السلطات الفرنسية، ومن خلال سفيرها في طرابلس تتبع خطواته، وتقدم التقارير عنها إلى الحكومة الفرنسية [3].

يبدوا فرنسا كانت تعلم بأطماع إيطاليا في ليبيا؛ لذلك أخذت تضغط على الدولة العثمانية بالاعتداءات التي أشار إليها المجاهد سليمان الباروني في اللائحة المذكورة، حتى تسيطر على أكبر مساحة من البلدان المجاورة، وعندما يقدم إليها أي احتجاج على انتهاكاتها الحدودية، كانت ترد بأن الحل الوحيد هو

---

(1) الوثائق العثمانية ، المجموعة الأولى، ص٢١٤.

(2) تاريخ ليبيا في العصر الحديث، منتصف القرن السادس عشر – مطلع العشرين ، ن ، أ ، بروشين، ترجمة وتقديم الدكتور عماد حاتم، ص٣٨٩ -٣٩١، نشر مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس ، ليبيا ، ٢٠٠٥م .

(3) الوثائق الفرنسية ، المجموعة الرابعة ، ترجمة خالد زكي ثابت ، إعداد علي صالح قريميدة ، نشر مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، سلسلة الوثائق التاريخية ، ٣٧ ، طرابلس ، ليبيا ، ٢٠٠٢م .

تحديد الحدود، لذلك طلبت في ١٧ نوفمبر ١٩٠٩م تحديد حدود طرابلس تونس، وكانت هذه أول خطوة لتثبيت نفوذ الدولتين (فرنسا وإيطاليا) في أفريقيا، وسيتلوها خطوة تحديد حدود طرابلس – الجزائر وحدود السودان[١].

بادر المجاهد سليمان الباروني أثر هذه الأحداث إلى تقديم هذه اللائحة حتي ينبه اللجان المتوقع تشكيلها لرسم حدود البلدين، ويزودها بفكرة تاريخية وبيان بالأراضي التي تدخل في نطاق بلاده ليبيا، لذلك كان تقديم اللائحة بتاريخ ١٠ فبراير ١٩١٠م، على أثرها " اجتمعت اللجنة المشتركة في طرابلس بتاريخ ١١ إبريل ١٩١٠م لتحديد حدود طرابلس – تونس، وتحديد الحدود من البحر حتى غدامس، وهذا العمل الذي استمر حتى ١٩ مايو ١٩١٠م " حيث تم توقيع الاتفاقية الخاصة برسم حدود طرابلس تونس[٢].

ويبدو أن هذه الاتفاقية كانت في صالح فرنسا أكثر مما هي في صالح ليبيا، حيث فصلت الحدود كافة النقاط المائية التي تقع في الجهة الغربية من الخط الفاصل الذي يبدأ من رأس جدير مارا من الشمال في سمت الجنوب، حتى يصل إلى غدامس، يقول المؤرخ الليبي محمود ناجي : " إن من جملة الغرائب التي نتجت عن هذا التحديد السقيم بتركه الكثير من الوديان الخصبة والمياه الغزيرة الطرابلسية إلى تونس هي قضية إدامة الحقوق التصرفية في إقبال المساكن والصهاريج والحقوق والبساتين من أملاك أهالي ولايتنا المتروكة في جانب تونس، إن رعايانا المساكين لا يستطيعون التصرف في هذه الأملاك وهم تحت جناح دولتنا، فكيف يستطيعون التصرف فيها بعد إلحاقها بمنطقة النفوذ الفرنسية "[٣]، ويضيف المؤرخ التركي عبد الرحمن تشايجي : قد حددت حدود

---

(١) الصراع التركي الفرنسي في الصحراء الكبرى، ص ٢٢٨ – ٢٣١.
(٢) المصدر السابق ، ص ٢٣٣ ، أيضا الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي شارل فيرو ، نقلها عن الفرنسية الدكتور محمد عبد الكريم الوافي ، ص ٧٤٧، نشر المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان ، طرابلس ، ليبيا ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٣م.
(٣) تاريخ طرابلس الغرب، ص ٢١١ – ٢١٢ .

طرابلس تونس وفقا لنظرة فرنسا .. إن عدم معرفة مندوبينا بالبلاد والأرض وضعف علمهم واستعدادهم انتهى بتحديد الحدود لغير صالحنا "[1].

الخاتمة

نصل بعد استعراضنا للائحة التي قدمها المجاهد سليمان باشا الباروني لمجلس الوزراء العثماني سنة ١٩١٠م، ودراستها إلى النتائج التالية : -

(١) يعتبر المجاهد سليمان الباروني من زعماء ليبيا الذين نذروا حياتهم وسخروا جهدهم في سبيلها والدفاع عنها، وقد استشعر خطر تطلعات فرنسا ورغبتها في التوسع داخل الأراضي الليبية، فأراد أن ينبه الدولة العثمانية لكي تتخذ الاحتياطات اللازمة لذلك.

(٢) يتمتع المجاهد علاوة على الحسن الوطني بخبرة كبيرة بحدود ليبيا الغربية ومعرفة تامة بما تضمه المناطق من معالم وسكان، وعلى دراية بتاريخ الصراع الحدودي بين فرنسا التي تحتل تونس والجزائر والدولة العثمانية، وهذا ما تدل عليه اللائحة التي قدمها آنذاك.

(٣) أعطت اللائحة صورة واضحة للحالة التي كان يعاني منها السكان في المناطق الحدودية الغربية من تذمر وإهمال واضح من قبل السلطات العثمانية في الدفاع عن مصالح الرعايا التابعين لها.

(٤) لم تكن الدولة العثمانية في المستوى المطلوب كدولة راعية لمواطنيها، لأنها في تلك الفترة كانت في حالة من الضعف الذي تبين من خلال اللجنة التي شكلتها لدراسة الحدود الليبية التونسية مما جعلها تخسر الكثير من الأراضي والمناطق التي ضمت للسلطات الفرنسية في ذلك الوقف.

---

[1] الصراع التركي الفرنسي في الصحراء الكبرى، ص ٢٣٣ .

(٥) تمتع المجاهد سليمان الباروني بروح وطنية، ومثل بلاده في مجلس النواب بكل صدق وأمانة، ونقل للسلطات العثمانية ما يشعر به سكان غرب ليبيا من خطر وما يعانونه من مصاعب وأهوال جراء الاعتداءات الفرنسية على حدود ليبيا.

(٦) إن النتائج التي أسفرت عن الاتفاق العثماني الفرنسي حول الحدود كانت مخيبة للآمال، للجانب الليبي التركي بينما كانت في صالح فرنسا وخليفتها الدولة التونسية، ولكن شروع إيطاليا في احتلال ليبيا لم يمكن السلطات العثمانية من مواصلة بحث الموضوع.

الملاحـق

صورة من الصفحة الأولى من اللائحة باللغة العربية

الى مقام الصدارة السامي

حضرة صاحب الفخامة :

علمنا بأن مفاوضات رسمية ستبدأ لحل مشكلة حدود طرابلس ـ تونس التي شغلت بال عامة سكان الولاية منذ مدة .

انني فضلاً عن الخرائط الأجنبية وما جاء في ما كتبه الرحالة عن حدود القطرين فقد رأيت تقديم نبذة عن الحوادث التي وقعت في الماضي آملاً ان تكون حججاً تستعين بها اللجنة التي ستعين من طرفنا لحل مشكلة الحدود .

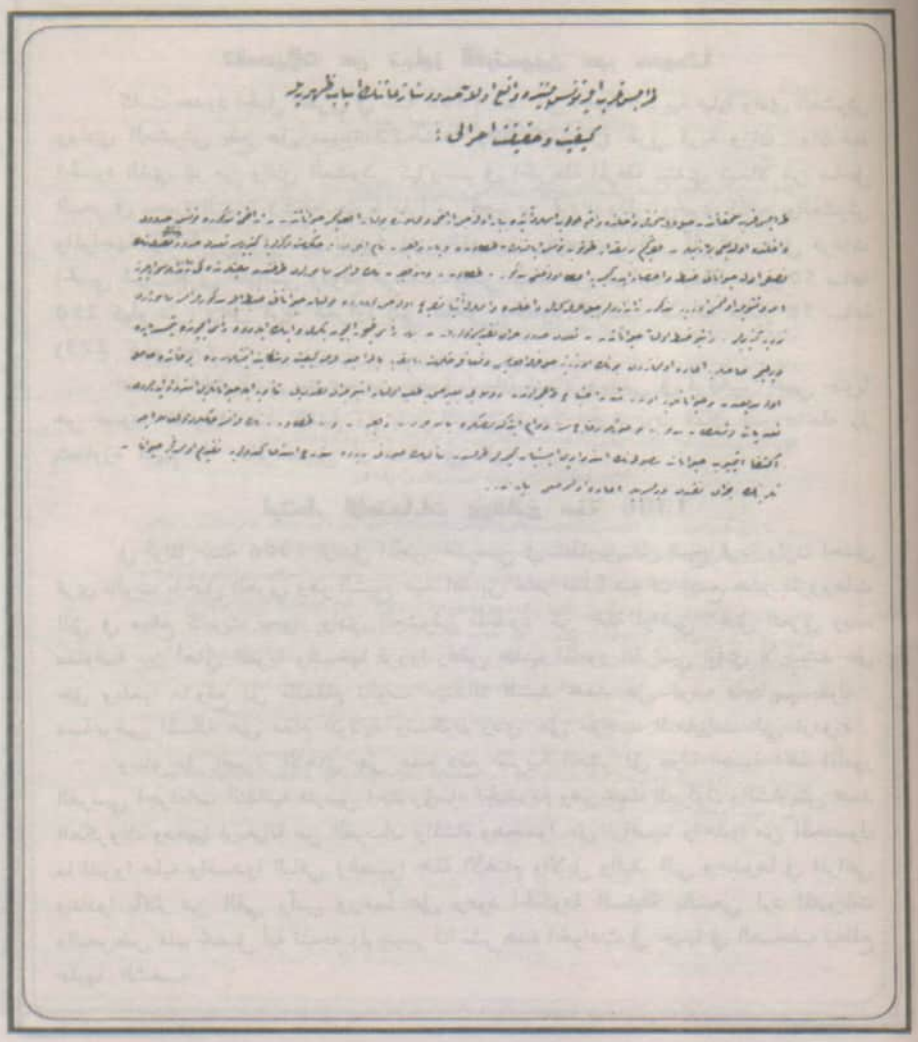
28 كانون الثاني سنة 1325
(10 فبراير 1910م)
نائب الجبل الغربي
سليمان الباروني

كيفية ظهور نزاع الحدود بين طرابلس وتونس وحقيقة اسبابها :

أولاً قررت الحكومة الفرنسية منح نصف مواشي أهل الجبل الغربي التي ترعى داخل حدود تونس لمن يأتي بها الى مركزي تطاوين وذهيبة وأمرت فرسان الجندرمة (حرس الحدود) وحرضتهم على ذلك . وقد اقبل الفرسان المذكورون على اغتصاب حيوانات الأهالي التي ترعى داخل أراضي متصرفية الجبل بدعوى انها أراضي تونسية وعندما يتصل اصحابها بالمسؤولين الفرنسيين في خصوص ارجاع حيواناتهم يرغمون على التوقيع في محضر بان حيواناتهم كانت ترعى داخل الحدود التونسية ويكلفون بدفع غرامة مالية قدرها 20 بارة عن كل رأس من الغنم و70 بارة عن كل رأس من الإبل والبقر .

ورغماً عل شكوى الأهالي من هذه التعسفات فلم تتخذ حكومة العهد السابق أي اجراء يذكر في خصوص انصافهم .

صورة من الصفحة الأولى من اللائحة باللغة التركية



مسألة الزار والمنتصر وغدامس

بعد خيبة أمل الفرنسيين وقهرهم في وقعة سيناون التي كان لها تأثير عظيم في نفوس التونسيين والجزائريين وجهت انظارها الى بئر الزار والمنتصر وغدامس باتخاذ سياسة التغلغل السلمي وذلك بتقديم الهدايا لاعيان ووجهاء المنطقة وانتهجت سبيل الحياد باظهار المودة والمحبة للتجار وتعهدت لهم بحراسة قوافلهم لتحويل طريق تجارة طرابلس الى قابس في تونس .

ومنذ سنة تقريباً طرق سمع قائمقام غدامس بان ضابطاً فرنسياً واسرته وبعض عساكر الجندرمة «السبابيس» بأسرهم حطوا في مكان لا يبعد عن غدامس سوى مسير ساعة (5 كيلو مترات) فارسل القائمقام ضابطاً وبرفقته البعض من افراد حامية غدامس الى المكان المذكور ولما سأل الضابط العثماني الضابط الفرنسي عن سبب وجودهم في المحل اجاب الضابط الفرنسي انه في اراضي معدودة من أملاك فرنسا وان وجوده فيها بناء على أمر من رئيس جمهورية فرنسا وعلى أثر ذلك أمر الضابط العثماني جنوده باستعمال الشدة والتهديد باطلاق النار اذا لم ينسحبوا وهكذا اجبرت الشرذمة المذكورة على الانسحاب ولكن الفرنسيين لا زالوا يترددون على المنطقة بدعوى الاطلاع والزيارة كما يزعمون .

25 كانون الثاني سنة 1925 — نائب الجبل الغربي
10 فبراير 1910 — في البرلمان العثماني
سليمان الباروني

دور الشيخ سليمان الباروني في مواجهة الاستعمار الإيطالي

د. عاشوري قمعون (*)

مقدمة

تتميز شخصية الزعيم الليبي سليمان بن عبد الله الباروني (١٨٧٠-١٩٤٠م) بتعدد اتجاهاتها واهتماماتها. فهو رجل عالم، وفقيه، ومؤلف، ومجاهد، وزعيم سياسي، وشاعر، وصحافي، وسيد بين أهله وعشيرته. ارتبط بعلاقات صداقة مع الكثير من العلماء الجزائريين، وراسل الشخصيات الدينية والزعماء السياسيين المسلمين، ملتمسا منهم يد العون والمساعدة في حربه ضد الطليان عام١٩١١م، ومن بين هؤلاء : الشيخ محمد الهاشمي بن الشيخ إبراهيم الشريف، رئيس الطريقة القادرية بكل من سوف وتقرت، وذلك حينما عين سليمان مندوباً للجهاد سنة ١٩١٥م.

١- القائد الفذ سليمان الباروني

ولد سليمان بن عبد الله بن يحي الباروني عام ١٢٨٧هـ/١٨٧٠م في مدينة جادو من أعمال جبل نفوسة الواقع إلى الجنوب من مدينة طرابلس بليبيا، من أسرة بربرية ذات جاه ونفوذ[1]، ولها فروع في جادو وكاباو وجربة. كان أبوه عبد

(*) د. عاشوري قمعون، المركز الجامعي بالوادي، الجزائر.

(1) فاضل السباعي وآخرون: سليمان الباروني(المعلم المقاتل) ص٤١ صالح ناصر: سليمان الباروني باشا (١٢٩٠هـ/١٨٧٣م – ١٣٥٩هـ/١٩٤٠م) ص ١.

الله الباروني متكلما وفقيها وشاعرا، تولى التدريس في مدرسة البخابخة بالقرب من يفرن[1].

وكان الباروني رجلا متعدد الثقافات واللغات، إذ سافر إلى جامع الزيتونة بتونس عام ١٣٠٥هـ/١٨٨٧م، حيث تتلمذ على شيوخ فخام، من أبرزهم : سالم بوحاجب، والشيخ محمد النجار، ومحمد المكي بن عزوز، وعثمان المكي، ومحمد النخلي. وفي سنة ١٣١٠هـ/١٨٩٢م سافر إلى القاهرة، حيث درس بالجامع الأزهر مدة ثلاث سنوات. وفي سنة ١٣١٣هـ/١٨٩٥م شد الرحال إلى بني يسقن، من وادي ميزاب جنوب الجزائر، حيث جلس إلى قطب الأئمة الشيخ اطفيش الذي تعهده بالرعاية والعناية. وكان الشيخ اطفيش مرجع الإباضية في العلم الشرعي واللغوي. وقد توطدت علاقته برجال العلم وأعيان الفضل بغرداية، وأقام هناك حتى سنة ١٣١٦هـ/ ١٨٩٧م. وقد واجهته المحن الشديدة منذ شبابه، فتوجه عام ١٩٠٢م إلى يفرن، مركز الجبل الغربي، وبها أسس مدرسة سنة ١٩٠٤م سماها المدرسة البارونية، وتولى الإشراف عليها والده الشيخ عبد الله الباروني، وكانت مدرسة نظامية تدرس العلوم الشرعية واللغوية. وأنشأ إلى جوارها المكتبة البارونية التي تزخر بنفائس الكتب والمخطوطات. وتابع في هذه الفترة تأليف كتاب " الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية ". ولعل الباروني ضاق ذرعا بمضايقات السلطات الحاكمة التي ما فتئت تلاحقه. فعزم على السفر خارج البلاد متجها إلى مصر، وبالقاهرة وجد المجال فسيحا للتأليف والطبع والنشر، والالتقاء بالعلماء. فأسس بها عام ١٩٠٦م مطبعة سماها: مطبعة الأزهار البارونية، أخذ يطبع فيها ما يراه صالحا من كتب الحديث والتاريخ والأدب. ولعل أهم إنجاز في هذه المرحلة هو إنشاؤه جريدة الأسد الإسلامي التي

---

(١) تعرف بمدرسة البخابخة أو مدرسة الباروني. أسسها سالم أبو الهول اليفرني حوالي سنة ١٧٩٨م، وقامت بدور تنويري كبير في تحفيظ القران الكريم وتدريس العلوم الشرعية. وقد جدد بناؤها وافتتحت من جديد عام ١٩٠٤ على يد الشيخ عبد الله الباروني ونجله سليمان.

أرادها صوتا مدويا للمسلمين، تعرف بمواقعهم وتدعو إلى وحدتهم. (صدر منها ثلاثة أعداد فقط)، ثم توقفت لأسباب سياسية ومادية. وصدر أول أعدادها في أفريل عام ١٩٠٨م[١].

٢- المناصب التي تقلدها الباروني

عين الشيخ رسمياً في ٢٤ جويلية ١٩٠٧م عضوا في مجلس الأمة العثماني (مجلس المبعوثان) نائبا عن طرابلس الغرب، حينما كانت من بين ولايات الدولة العثمانية. كما عين عضوا في مجلس الأعيان العثماني، فلبث فيه مدة اثنتي عشرة سنة[٢].

ولما أعلن الدستور عقب ثورة حزب تركيا الفتاة، انتخب سليمان نائبا عن لواء الجبل، واستدعي إلى الآستانة التي درس فيها اللغة التركية لمدة شهرين بذل فيهما جهدا عظيما. وعندما ظهرت للعيان أطماع إيطاليا الفاشستية في ليبيا، عزم سليمان على الحصول على صفقات السلاح من حكومته. ولما نزل الإيطاليون طرابلس يوم ١١ أكتوبر سنة ١٩١١م، كان الباروني من أنشط ثوار المقاومة العربية، التي جعلت تركيا تقرر الوقوف بثبات في وجه هذا العدوان. وظلت على موقفها حتى بعد توقيع معاهدة الصلح التركية الإيطالية في لوزان يوم ١٨ أكتوبر سنة ١٩١٢م[٣]. واشتبهت الحكومة العثمانية في سليمان، الذي اعتقدت أنه يغذي الآراء الانفصالية، ويعمل على ترويجها بهدف تأسيس إمارة إباضية، وأقيمت عليه الدعاوى، ولكن الأحكام التي صدرت في حقه لم تنفذ تنفيذا كاملا، لما أثارته من اضطرابات وخاصة في الجبل، وصدر العفو عنه.

---

(١) صالح ناصر: المرجع السابق ص١٤١ أبو القاسم سعد الله: "سليمان الباروني، أضواء وملاحظات". الثقافة، العدد ١١٠-١١١، الجزائر :سبتمبر/ديسمبر ١٩٩٥م، ص٢٣٢.

(٢) أبو القاسم سعد الله: نفسه.

(٣) د. محمد عبد الكريم الوافي، الطريق إلى لوزان، الخفايا الدبلوماسية والعسكرية للغزو الإيطالي لليبيا، منشورات جامعة قاريونس، ط/٢، ١٤٠٩هـ- ١٩٨٨م، ص ٢٠٩، ٢١٦.

على أن السلطات العثمانية طلبت منه تقديم نفسه في الآستانة، ففر إلى القاهرة. ثم رجع إلى ليبيا، وقاد معارك الجهاد ضد الغزو الإيطالي[1].

٣- علاقة العائلة البارونية بالجزائر

نعلم بأن الباروني قام بزيارة الجزائر خلال أعوام ١٨٩٦-١٨٩٩م، حيث تعلم في بني يسقن بغرداية على يد الشيخ محمد بن يوسف أطفيش[2] (١٨٢١-١٩١٤م)، مما أتاح له التعرف على حياة بني ميزاب في مختلف القرى. كما تعمد زيارة مواقعهم التجارية والاقتصادية والثقافية في المدن الجزائرية الأخرى، واندمج مع السكان فصار كأنه واحد منهم.

وقد جاء أحد علماء العائلة البارونية، وهو الشيخ محمد بن يوسف الباروني، الذي كابد العناء وتجشم الأخطار، وقطع الفيافي والأمصار، حتى وصل إلى بلدة قمار، فنزل عند قاضيها السيد العيد بن أحمد بن سعد، وتوسل به إلى القائم بأسرة الشيخ خليفة بن حسن[3] من أحفاده، بأن يسمح له بالاطلاع على منظومته في متن الشيخ خليل في الفقه المالكي، فامتنع هذا من أن يشاهد الكتاب في غير بيته، لأنه رأى أن ظهور الكتاب وانتشاره، يبطل عليه احتكاره. فاهتدى الزائر إلى تدبير حيلة ذكية، وهي أن يستعير الكتاب لليلة واحدة بقصد النظر فيه للبركة. ودفع مقابل ذلك مالا كثيرا، وهيأ له لوازم الكتابة وعدد الناسخين، ووزع عليهم تلك المنظومة، ليقوم كل منهم بتدوين ما طلب منه،

---

(١) فاضل العباعي وآخرون: سليمان الباروني(المعلم المقاتل) ص٨-١١.

(٢) محمد بن وسف بن عيسى أطفيش: ولد عام ١٢٣٧هـ/١٨٢١م بغرداية، واشتهر بقطب الأمة. أبرز عالم إباضي بالمغرب الإسلامي في العصر الحديث. أسس ببني يسقن معهدا صار قبلة لطالبي العلم من داخل الوطن وخارجه، وألف الكثير من المصنفات في الفقه والتاريخ والنحو. تخرج على يديه الكثير من الطلاب. وتوفي بها يوم السبت ٢٥ ربيع الثاني عام ١٣٣٢هـ/١٩١٤م.(من وضع الباحث)

(٣) ولد ببلدة قمار بتراب سوف بالجزائر عام ١١٢٣هـ/١٧١١م، وبعد أن حفظ القرآن، رحل الشيخ خليفة إلى خنقة سيدي ناجي بالزاب الشرقي(بسكرة)، حيث تعلم وعلم بها. ألف مجموعة من المدونات، أشهرها: جواهر الإكليل نظم مختصر الشيخ خليل، وهو كتاب في الفقه المالكي يزيد عن ثمانية آلاف بيت. يتميز بجودة النظم ودقة التوصيف للمعلومات. وقد طبع بالمطبعة البارونية بمصر سنة ١٨٩٩م.

وعليهم أن يرابطوا لإنهاء أعمالهم قبل الفجر. وبالفعل تمت المهمة، وأخذ الشيخ الباروني الوافد على بلدة قمار النسخة كاملة، وقفل عائدا إلى بلاده. وما جاء عام ١٣١٨هـ/١٩٠٠م، إلا والمنظومة مطبوعة بالمطبعة البارونية بمصر، ومذيلة بكلمة الناشر ومسجلة الطبع محفوظة له. ولولا هذه الحيلة الرائعة، لضاع الكتاب مثلما ضاعت كنوز معارف كثيرة[1].

وقام الباروني مرة أخرى عام ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م بزيارة إلى الشيخ أطفيش تقديرا وإجلالا لأستاذه الذي صار طاعنا في السن، ونوه بفضله وأثنى عليه بقصائد، ونشر بعض مؤلفاته في مصر.كما التقى بالشيخ إبراهيم أبي اليقظان[2](١٨٨٨-١٩٧٣م) في بني يسقن بغرداية. وقد شجعه الباروني على إنشاء مطبعة عربية في الجزائر، وإصدار الصحف التي عطلتها فرنسا.كما زار الجزائر العاصمة، وعنابة، وتبسة، وقالمة، وورقلة، والبليدة، والمدية، والقليعة، وجبل زكار، وتلمسان، وقصر البخاري، والجلفة، والأغواط، وبريان متجها نحو غرداية.كما تعرف على بعض رجالها وعلمائها. وقام أيضا بزيارة زاوية الهامل الرحمانية القاسمية ببوسعادة، رفقة أستاذه الشيخ أطفيش. وكان يرى أن أهل الجزائر يتصفون بغيرة دينية عميقة، وبالتشدد في الحق، بيد أن الاستعمار قد كبلهم بسياسة التجهيل، فقل فيهم العلماء والمثقفون بعكس مصر وتونس. وعندما قام بزيارته ما قبل الأخيرة عام ١٩٠٧م، لاحظ أن السكان بدؤوا يستيقظون على

---

(١) الطاهر التليلي: إتحاف القاري بحياة الشيخ خليفة بن حسن الأقماري، مخطوط بيد مصنفه عام ١٩٤٤.

(٢) إبراهيم بن عيسى حمدي أبو اليقظان: ولد بمدينة القرارة بولاية غرداية بالجزائر يوم ٢٩ صفر ١٣٠٦هـ الموافق ٥ نوفمبر ١٨٨٨م. حفظ القرآن الكريم، ثم أخذ في تعلم الفنون من عربية وشرعية على يد أستاذه الشيخ الحاج عمر بن يحيى. ثم سافر إلى مدينة بني يسجن ليكمل دراسته على قطب الأئمة الشيخ اطفيش الحاج محمد ابن يوسف. وفي سنة ١٩١٢م، سافر إلى تونس وواصل دراسته في جامع الزيتونة ثم الخلدونية. وفي سنة ١٩١٤م ترأس أول بعثة علمية جزائرية إلى الخارج، وكانت وجهة البعثة إلى تونس. وفي سنة ١٩٢٠م، كان عضوا بارزا في الحزب الحر الدستوري التونسي، وتربطه بزعيمه عبد العزيز الثعالبي صداقة شخصية. وفي سنة ١٩٢٦م، أصدر أولى جرائده "وادي ميزاب" تحرر وتوزع في الجزائر وتطبع في تونس، أصدر ثماني جرائد ما بين ١٩٢٦ و١٩٣٨م. وفي سنة ١٩٣١م، أسس المطبعة العربية، وهو أول رجل جزائري يؤسس مطبعة وطنية حديثة في الجزائر. له مؤلفات عديدة. توفي في القرارة يوم الجمعة ٢٩ صفر ١٣٩٣هـ/ ٣٠ مارس ١٩٧٣م.(من وضع الباحث).

أصداء الحركة العلمية في تونس. وقد أتاحت له زيارته التعرف والاتصال بعلماء المناطق التي زارها[1].

٤- انتفاضة أهل غريان

كان لمدينة غريان دور الريادة في الجهاد. حيث تحتل موقعا استراتيجيا، لعب دورا كبيرا في الكفاح. وفي عام ١٩١٥، شهدت غريان ثورة شعبية ضد الطليان بعد معركة القرضابية في سرت التي انتصر فيها المجاهدون، والتي أدت إلى حدوث ثورات شعبية في مصراتة، وترهونة، وورفلة، ومسلاتة، والنواحي الأربعة، والعزيزية. ثم وصلت إلى مدينة غريان وباقي المدن الليبية الغربية، فأدت إلى إجلاء ٤٤٠٠ جندي إيطالي عن غريان. وكان لزعيم وجهائها "الهادي كعبار" دور ملحوظ في النضال المسلح، وهو أحد أعضاء الجمهورية الطرابلسية، وصديق رمضان السويحلي زعيم مصراتة.

وبعد نقض الطليان لصلح بنيادم في مصراتة، حاولوا دس المؤامرات في غريان، فأقاموا فتنة بينها وبين ترهونة انتهت بصلح بين الإخوة. وبعد حادثة الأسرى الذين قبض عليهم رمضان السويحلي في مصراتة، ردا على إخلال الطليان باتفاقية الصلح، علم أهل غريان أن الصلح ملغى، فهاجموا الطليان في قصر الحكومة في المدينة عام ١٩٢٠م، وأسروا منهم ٧٠ جنديا إيطاليا.كما أغاروا على سيارة البريد الإيطالي بالقواسم، وقطعوا خطوط الاتصال التي تربط العزيزية بمدينتهم[2].

---

(١) أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق ص ٢٣٧-٢٣٨.
(٢) ويكيبيديا الموسوعة الحرة.

٥- تعاطف أهل سوف مع ثوار غريان:

لقد ألهب الشيخ العلامة إبراهيم بن عامر[1] حماس المجاهدين بتقريظ قصيدة مؤثرة جدا، ولكن باسم مستعار يدعى محمد السوفي، اتقاء بطش الفرنسيين المتحالفين آنذاك مع الإيطاليين. وقد بعثها كاملة إلى سكان طرابلس، ولاسيما أهل غريان، يحثهم على التصدي ومجابهة الطغاة المستبدين. وكان لهذه القصيدة صداها لدى الأوساط الشعبية، أثارت حميتهم وزادت في صمودهم، وهذا نصها:

يـا لـيت فـي غريان سمح الطله ... دورات تبـــري كـــامنات العـله
لحزان تذهـــب والـــدرك يـجلى ... ونصير فـي نزهات كيف العـــيد
يا ليت في غـــريان لي ربـــاعه ... من الصغر ثاروا ملازمين الطاعه
اليـــا جـي العـايط يبدروا فزاعه ... يقسوا العـــدو عـن رفعـة التقعيد
يا ليت في غريـــان لـــي رفاقه ... من الصـغر ثـاروا للعدو فـلاقه
لا يـرفـعوا لـــواي لا بنداقـــه ... كـــان الثمانيات صنـعة سيدي
يا ليـــت فـي غريان ياتي صغاري ... يصغوا كلامي يحضروا فـي نهاري
يصلوا العدو صمـــصام حرق النار ... يحـموا رجـالي نـــوشة التصـــهيد
يا لنـــدرا غـــريان بـــاتش فـايز ... في المال يحـــمل والغـنائم حـائز
بابـــور دولي بالمـــراكز جـــايز ... من غيـر توقـيف ولا تحـــييد
يا لنـــدرا غـــريان بـاتش نـايم ... وبـــات ضـده فـي لـهموم يـلايم
يصبـــح بحـــرنا بالبـرارط عايم ... فيـــه لبـابر هـــاربه بتبـــديد
يـا لندرا غريـــان باتش هـــاني ... وبـــات ضـده فـي لهموم يعاني
بالـــموت والتجـــريح والغـرقان ... والمال يـغدي وزايـــد التنـــكيد

---

[1] الشيخ إبراهيم بن عامر، شيخ جليل، ولد بالوادي عام ١٨٧٥م. واشتهر بعد تخرجه من جامع الزيتونة بعلو كعبه في ميدان الشريعة والعربية. تطوع لتعليم الشباب والشيوخ. وله مصنفات عديدة في أغراض مختلفة. تولى منصب باش عدل في بلدة كوينين، ثم في مدينة الوادي. توفي يوم الأربعاء ٢٠ جويلية ١٩٣٢م، ودفن بجبانة أولاد أحمد في اليوم الموالي. ارجع إلى عاشوري قمعون: الشيخان. مطبعة مزوار، بالوادي، ٢٠١٠ ص٣٨.

يا لندرا غـريان بـــاتش عالـــي وبـــات ضـده فـي لهموم يكالي
مخـذول بيـن الناس كالـــزوالي ما ينصـراش رفيـــق بـالتوديـد
يـــا لنـــدرا غـريان باتش رايـض وبات ضـــده من الغلب يتفايض
منكوب من سلـطان ليهم غايـــظ قومه ينادوا بكلمـــة التـــوحـيد
يـــا لندرا غريان بـــاتش هـادي بـعد الزعـازع من طمع الاعادي
جاته جمـاعـة اذلال من لـــوغاد من رعبـــهم يقسوا عـلى التسنيد
يا لنـــدرا غـــريان باتش زاهـــي بـــافخار جـات الناس بيه تباهي
وعدوه حـازن في المصايب لاهيـ وامـــلام مـــن لـجناس بـــالتفنيد
يـــا لندرا غـــريان بـاتش شاره وعـدوه مـن لنـــكاد قلـبه داره
مـــن حرب زادت علحبش مكـــاره جا حـــيها مـــخلوع بالتـــهديد
يا لـــــندرا غريـــان باتش طارب بهلاك طايش كان فيه يحـــارب
ضاقت عليه اليـــوم كـل مسارب دفع الخطـــيا وقلـــة التقـعيد
يـــا لـندرا غريـــان فيكش ظنـي فيكش مزايا اللـــي عليها نغنـــي
تنصر عـــــلام الدين تقلب عني تمسى ســـعيدا وصـاحب التشييد
يا لنـــدرا غريان فيكـــش نـــعره فيكش جـــماعة حـــازمة بـالنغره
شجعان ما يولوش وقت الـــدغره يصلوا العدو ويشـــعله بـلا تبريد
نـــا ريت يـا غريان تحمي ناسك شقت جموع اللي ترموا عن ساسك
تمسى تناغي فـــي السما بقنطاسك تقطع طمع من قال هم جهد ايدي
نا نـقول يا غـــريان كانت قومك يـــذوبوا عليك ويزعفوا من شومك
ما يتـرضوش اليوم يرخص سومك غلـــب الدنى وحـكومة التشديد
نـــا نقول يـــا غريان ماكش واطي حـــتى التسمـع بـالعيار الخاطي
يبـــدا رذيـل النـــاس فيك يباطي ردف عـليه النـــاس بـــا محميد
نوصيك يا غريان صـــد اشـــواره حصن عليه بالبـاب عنـــد ازواره
واسقيه من كاس العذاب مـــراره واصـــل عليه الحـــب بالتغـريد

نوصـــيك يا غريان جيب مقابص واجمع القوم الـــعاريا واللابـــس
واهـجم علـــى الحيطان هد طرابس تحوز الظفر مـــن غير ما تكويد
ننبـــيك يا غريـــان هـذي وصايـه راهي جميع النـــاس لـــيك مرايه
يحصوا الفعايل كـــامله بـــاشـفايه هذاي نصحي ليك بـــالتوكيد[1]

٦- موقف الشيخ الهاشمي الشريف من الثورة

ونظرا لهذه العلاقة الجيدة التي ربطت بلاده بالجزائر، فقد أرسل مبعوثا إلى الشيخ الهاشمي[2] بن إبراهيم الشريف[3] طالبا منه التأييد المادي والمعنوي، أي الفاتحة والبركة الصوفية، زيادة على المساعدة العسكرية في حربه ضد الطليان عام ١٩١٥م. علماً أن الشيخ الهاشمي، كما تؤكده المراسلات، كان محبا جدا للخلافة العثمانية، ويرى أن بلاد سوف هي جزء لا يتجزأ من أرض الخلافة، وهذا ما يؤيد اتهام الفرنسيين للطرق الصوفية بمناصرتها لحركة الجامعة الإسلامية. وورد في إحدى المراسلات من الباروني إلى السيد سالم بن أحمد : "قد وصلني جوابك من غدامس... " وهذا هو جواب إلى " حضرة الشيخ الهاشمي في وادي سوف، بلغه إليه ليرسل إلينا جوابه سريعا، واطلب لنا منه الفاتحة. " فما أهمية الجواب السريع المنتظر من الشيخ الهاشمي الذي وصف في مكان

---

(١) إبراهيم بن عامر: الصروف في تاريخ سوف. ج٢. مخطوط بيد كاتبه أحمد بن عبد الباقي مفتاح يوم ٢٩ جوان ١٩٧٠م، ورقة ٥٠-٥١.

(٢) هو الشيخ الهاشمي بن الشيخ إبراهيم، ولد بنفطة عام ١٨٥٣م. أسس زاوية البياضة حوالي عام ١٣٠٤هـ/١٨٨٦م، ووصل نفوذ الطريقة القادرية في عهده حتى توات وتيميمون وغات وغدامس. كان الشيخ ذكيا جدا وسخيا جدا، يحترم أهل العلم. توفي بالوادي في ٢٣-٩-١٩٢٣م، ودفن بزاويته بالبياضة. ارجع إلى عاشوري قسعون: المرجع السابق ص١١١.

(٣) هو الشيخ إبراهيم بن أحمد بن محمد بن عطية الشريف. أصله من قبيلة البوازيد العربية الهلالية المنتشرة بين فوعالة وطولقة. ولد بنفطة عام ١٢٢٩هـ/١٨١٣م. تتلمذ على الشيخ أبي بكر بن أحمد الشريف، شيخ زاوية توزر. ثم قام بتشييد زاوية برأس العين بنفطة عام ١٢٥١هـ/١٨٣٥م، انتشر صيتها عبر ربوع الوطن الجزائري والتونسي. كما أسس زاوية حوالي عام ١٨٥٠م، بحي سيدي علي دربال جنوب بلدة الرباح، عين على رأسها الشيخ علي بن قديري لإمامة المصلين وتعليم الصبيان القرآن الكريم والفقه. وشيد مدرسة بالمنعة بولاية باتنة عام ١٢٨٠هـ/١٨٦٣م، أسند إدارتها إلى عائلة بلعباس. توفي عام ١٢٩٢هـ/ ١٨٧٥م، ودفن بزاويته بنفطة. ارجع إلى عاشوري قسعون: الشيخان. مطبعة مزوار الوادي، ٢٠١٠م، ص٥٨.

آخر بأنه "صاحب النفوذ في تلك الجهات. "[1] ومن الواضح جدا أن إخوة الشيخ الهاشمي كانوا قد أسسوا زوايا وأضحوا مقدميها. فصار محمد الإمام في زاوية الرباح بالوادي، والحاج أحمد في الحمامات، والشيخ علي في رأس العيون بولاية تبسة، ومحمد الطيب في الرويسات بولاية ورقلة. وأيضا محمد الكبير في نفطة، ومحمد الحسين في ثنية الأحد بقبلي، والشيخ محمد العربي في قفصة، ومحمد الأزهر في زاوية القصور قرب الدهماني بوسط الإيالة التونسة، بالإضافة إلى ليبيا.

ولعل اتصالات أخرى قد تمت بين الباروني والإخوة الشيوخ الآخرين طلبا للمساعدة[2]. والمهم من كل هذا أن الشيخ الهاشمي توجه إلى مقر رئيس الدائرة العسكرية بتقرت المدعو قاسطون كوفي[3] Gaston Cauvet بعد أن اتصل بمقدمه، الرجل الثري عمر حمروني[4] وعرض عليه الرسالة، واتفق الاثنان على إقحام الشيخ البشير[5]، شيخ الطريقة التجانية بتماسين في القضية، وذلك بإرسال

---

(1) زعيمة سليمان الباروني: صفحات خالدة من الجهاد، للمجاهد الليبي سليمان الباروني، ١٩٦٤م، مطابع الاستقلال الكبرى، ص ١٣٣-١٨٤؛ أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق ص٢٤١.

(2) عاشوري قمعون: "نور عائلة الشيخ إبراهيم بن أحمد الشريف في الحركة الوطنية الجزائرية". مجلة البحوث والدراسات، العدد الثالث، (الجزائر: جوان ٢٠٠٦) ص ٧٤-٧٥.

(3) كان رئيس الدائرة العسكرية وقتذاك يسمى الرائد كوفي (١٨٦٠-١٩٥٠م) Cauvet Gaston Commandant ولد في مدينة دواي Douai بفرنسا عام ١٨٦٠، ثم انخرط في الجيش الفرنسي، وتولى الحكم بالوادي ما بين عامي ١٩٠٠م و ١٩٠٢م. ثم ترأس دائرة تقرت العسكرية يوم ٢١ أكتوبر ١٩١٤م حتى٣١ جانفي ١٩١٩م. له مجموعة كبيرة من المؤلفات، منها مدونات حول سوف والسوافة، Notes sur le Souf et les Souafa وما يتعلق بالصحراء الجزائرية. توفي يوم ٢٤ مارس ١٩٥٠م ببير مراد رائس بالجزائر، ودفن هناك. انظر عبد الحميد نجاح: منطقة ورقلة وتقرت من مقاومة الاحتلال إلى الاستقلال. منشورات جمعية الوفاء للشهيد تقرت مطبعة الأمل للطباعة بالوادي ٢٠٠٣ ص١٩٩.

(4) هو عمر بن علي بن محمد بن العاسي بن عون بن صالح الحمروني، من أولاد عيسى، وهم أكبر بطون الوادي المنتمين إلى عرش أولاد خليفة بالأعشاش. عاش يتيما، حيث تركه والده صغيرا. ولد بالوادي خلال عام ١٨٨٨م، وله أخوان وأخت: صالح وبالقاسم(١٨٩٤-١٩٦٠م) وهنية. وكان يقيم بتقرت. تزوج وأنجب ثمانية ذكور وأربع إناث. عينه الشيخ الهاشمي مقدما، وكان صاحب أموال طائلة، ونخيل كثيرة في تقرت ووزيتن بالوادي. وقد كون هذه الثروة الكبيرة بنفسه، ولم يرثها عن والده. نزل عنده الشيخ الهاشمي ضيفا، عندما استدعاه لتقرت الحاكم العسكري، الرائد كوفي قاسطون. كما استدعى معه قائد المصاعبة محمد الصغير منماني، العائد من أداء فريضة الحج، في مكتب الحاكم العسكري، فلامه على انتفاضته التي قام بها عام ١٩١٨م، وقال له: فعلتها، وتسببت في مجيء المنغل لبلادي! يتضح من هذا أن الشيخ سبق له أن تحدث مع القائد منماني في هذا الشأن. توفي عمر حمروني يوم السبت غرة ربيع الثاني سنة ١٣٧٩هـ/ ٣ أكتوبر عام ١٩٥٩م بعمالة وهران، وحمل جوا ليدفن بمقبرة سيدي يوسف بالوادي. انظر شهادة الميلاد رقم ١٢٨٠ المؤرخة يوم ٠٧-١١-٢٠٠٩م؛ لقاء مع عبد الله حمروني، ابن أخ عمر وصهره، يوم السبت ٠٤ ديسمبر ٢٠١٠م؛ مصطفى سالمي: المرجع السابق ص ٢٤.

(5) الشيخ البشير الأول بن محمد حمة، ولد بتماسين عام ١٨٦١م، وتولى مشيخة الطريقة التجانية عقب وفاة والده يوم ١٩١٢/١٢/١٦م. توفي ودفن بتماسين يوم ١٩١٨/٨/٠٥م. انظر: La Zaouia Tijaniya de Témacine, modernité et Continuité, Kouinine, El-Oued, 2008, P.14.

جواب باسمه لسليمان الباروني، بعد أن وضع عليه الشيخ الهاشمي ختما باسم الشيخ البشير، وبعث الرسالة ليلا إلى ليبيا بواسطة رجل من أولاد نائل مقيم بتقرت. ثم اتصل الشيخ الهاشمي صباحا برئيس الدائرة العسكرية، وعرض عليه الرسالة التي وصلته من الشيخ الباروني. ثم قال له : إن الشيخ البشير قد قبض رسالة أيضا وأجاب الباروني. فبعث الحاكم من يتعقب أثر الرسول ليعيده عندما يدركه. وعندما حضر المبعوث وقرئت الرسالة في حضرته، قال الشيخ البشير: أن الختم خاتمي، والجواب ليس جوابي، ولم يكاتبني الباروني ولا راسلته. فرد عليه الحاكم: أنت أنكرت ونحن نحقق في الأمر. وعندما عرضت على أحد حكام الوادي السابقين الذي كان حاضرا، ولعله فورنييه (١٩١١-١٩١٤م) Fournier أخبوهم بأن هذا أسلوب الشيخ الهاشمي[١].

وفعلا، جهز الشيخ الهاشمي حملة عسكرية قوامها 350 مجاهدا على نفقته الخاصة، مدججين بالعتاد الحربي ليساعدوا إخوانهم المجاهدين الليبيين. ومن الرجال المشاركين فيها: ابن أخيه محمد الإمام[٢]، الشيخ الأمين الشريف[٣] على رأس الحملة، يرافقه خديم الزاوية القادرية وشاعرها الشهير الحاج سعد المياسي الوصيف[٤]، بالإضافة إلى مجموعة من العسكريين السابقين في الجيش الفرنسي، ومنهم: محمد قدادرة المدعو حمة أبوكة من نزلة الوادي، والحاج علي

---

(١) كان القايد الحسين زبيدي حاضرا أثناء تلاوة الرسالة على الشيخ البشير بتقرت، وأخبر الشيخ أحمد خراز بذلك.

(٢) هو الشيخ محمد الإمام بن الشيخ إبراهيم بن أحمد بن عطية الشريف، شيخ الطريقة القادرية بنفطة. ولد خلال عام ١٨٦٤م بنفطة، وأمه فاطمة من بلدة تامغزة بتونس. نشأ في رحاب والده، فقرأ القرآن، ودرس العلوم، ولما بلغ ٢٤ عاما، قدم إلى الوادي عام ١٨٨٤م، وأسس زاوية بالرباح . كان من الرجال الصالحين، وكان يرفض رؤية الفرنسيين، ويمتنع عن مقابلتهم. ومن أهم أعماله في الزاوية: الحث على حفظ القرآن وفعل الخير، وحث أهل الجهة على التعاون وإقامة العرس الجماعي. توفي ليلة القدر عام ١٣٢٢هـ/ ٠٤-١٢- ١٩٠٤م، ودفن بزاويته. ارجع إلى عاشوري قمعون: المرجع السابق ص ١١١.

(٣) هو الشيخ الأمين بن محمد الإمام الشريف، شيخ الطريقة القادرية بالرباح. ولد خلال عام ١٨٩٠م، وحفظ القرآن الكريم على يد الحاج أحمد عصيلة. حج عام ١٩٢٩م، وكان على خلاف كبير مع ابن عمه الشيخ عبد العزيز في موقفهما من الثورة. قتل على يد رجال الثورة الجزائرية في أكتوبر عام ١٩٥٥م، في خنقة تامغزة بتونس، بحجة الدعاية ضد الثورة، ودفن بجوار جده الشيخ إبراهيم، بزاوية نفطة القادرية. انظر: عاشوري قمعون: المرجع السابق ص٩٤ .

(٤) الحاج سعد عتيق زيد: ولد سعد بن نصر عتيق بالرباح خلال عام ١٨٩٦م. وهو من أصل إفريقي زنجي. كان يعمل *راعيا لدى الحاج الأمين الشريف، وكان شاعرا كبيرا للطريقة القادرية*. قال شعرا عند مقتل الحاج لأمين: المايسة تبكي على بابا ها الحق ليها والصواب معاها، توفي بالوادي عام ١٩٨٢م ودفن بالرباح. انظر أحمد زغب: أعلام الشعر الملحون لمنطقة سوف ج٢ ص١٠٠.

بن عون النويلي(١٨٧٣-١٩٦٧م)، الساكن بحي أولاد أحمد بالوادي، ومسعود شركة من سيدي عبد الله بالوادي، وعبد الله قريشة، المدعو خروسة، من حي تكسبت بالوادي، والعربي غنبازي من الرياح، والعربي داود والأخضر داود من شعانبة الرياح، والطاهر داود، من شعانبة بوقفة بحاسي خليفة، ومعمر بن البشير دردوري من حاسي خليفة، وسالم بن علي الربيعي من قمار، والهادي بديدة من الرقيبة، والبشير بن الحاج عباس من ليزيرق[1].

٧- تأسيس جمهورية طرابلس

شارك البارودي في فترة الحرب الأولى لتحرير ليبيا (١٩١١-١٩١٢م) من الإيطاليين إلى جانب كل من أنور باشا، والأمير علي بن الأمير عبد القادر، وشكيب أرسلان، ومصطفى كمال (أتاتورك فيما بعد) وغيرهم.ثم هرب إلى تونس وإستانبول، ورجع عام ١٩١٥م والياً وقائداً للنضال بتأييد من ألمانيا والدولة العثمانية على أثر انضمام إيطاليا إلى جانب الحلفاء. وشكل البارودي مع أعيان طرابلس هيئة قيادية، وهي التي سميت بمجلس الجمهورية الطرابلسية الذي ترأسه محمد سوف المحمودي[2]، وعين يحي البارودي، أخو سليمان نائباً له[3].

وتتألف الجمهورية الطرابلسية من الجزء الغربي من ليبيا. ومما لا ريب فيه أن فكرة تكوين الجمهورية تبلورت عقب هزيمة دول المحور في الحرب العالمية

(*) لقاء مع علي بن بكار الحاقة يوم الأربعاء ٢٠١٢-٥-٠٢ بزاوية سيدي سالم بالوادي على الساعة ١١ صباحاً.

(١) محمد سوف المحمودي: ابن الحاج محمد اللاغي المحمودي، وحفيد الشيخ غومة المحمودي، من قبيلة المحاميد المشهورة في طرابلس الغرب، وندبه في صميم العرب من بني سليم. ولد في وادي سوف بأرض الجزائر سنة ١٨٥٧م، وتربى في بيت العز والفروسية والكرم.فكان عزيز الجانب، فارساً مغواراً، شجاعاً كريماً إلى أبعد حدود الشجاعة والكرم. عرفته البيداء والخيل، وألفته معا مع الحروب وميادين القتال، فكانت له فيها جولات حفظها له التاريخ في صحائف من عرفوا من العرب بالبطولة. عينته الدلطات العثمانية عام ١٨٨٢م قائم مقاماً في منطقة الحوض. وحارب الطليان في غير هوادة من سنة ١٩١١م إلى سنة ١٩٢٣م، حيث تغلب الطليان، فهاجر إلى مصر. توفي بقرية المتراس بالإسكندرية في ١٩٣٠/٧/١٥م.

(٢) أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق ص٢٣٢-٢٣٣.

الأولى،وتوقف الدعم التركي- الألماني للمقاومة الليبية ضد الاحتلال الإيطالي. واتضحت الفكرة بكل جلاء في مدينة مصراتة على إثر اجتماع بين الشيخ سليمان باشا الباروني والمجاهد رمضان السويحلي. اجتمع عدد كبير من أعيان وزعماء المنطقة الغربية من البلاد في جامع المجابرة بمدينة مسلاتة، في يوم السبت ١٣ صفر ١٣٣٧هـ، ١٦نوفمبر ١٩١٨م، حيث تم في هذا الاجتماع التاريخي الإعلان عن قيام الجمهورية الطرابلسية، وقاموا بانتخاب أربعة أعضاء لمجلس الجمهورية الوليدة، هم : رمضان السويحلي، وسليمان الباروني، وأحمد المريض، وعبد النبي بن الخير. وتعد بذلك أول جمهورية في الوطن العربي[1].

٨- اعتزال الباروني السياسة ووفاته

وبعد اعتراف إيطاليا المزيف بالحكومة الوطنية الليبية عام١٩١٩م، اعتزل العمل السياسي. ونفي الباروني من بلاد طرابلس في ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٢١م، لما قاوم السياسة الانهزامية التي حاول بعض الليبيين اتباعها. فأقام زمنا في أوربا وفي الحجاز، ثم شخص إلى مسقط ضيفا على السلطان سعيد بن تيمور. ومن هناك مضى إلى داخل عُمان، ونزل في رحاب محمد عبد الله الخليلي، إمام الدولة الإباضية الصغيرة التي ظلت قائمة إلى عهد قريب في الجبل الأخضر، وهناك منح لقب وزير، ووكل إليه أمر إعادة تنظيم الدولة. ثم عاد إلى مسقط من بعد، حيث عين سنة ١٩٣٨ مستشارا للسلطان، ومنح سلطات واسعة، غير أن الموت عاجله في بومباي بالهند عندما ذهب ليعالج من داء حمى الملاريا في ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٥٩هـ/ ٢٣ ماي عام ١٩٤٠م[2].

---

(١) مصطفى علي مويدي، الجمهورية الطرابلسية جمهورية العرب الأولى، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ط١، م٢٠٠٠، ص ص ٧٩، ٨٠ ؛ محمد اسعد الطويّر، معارك الزاوية، ص ٥٦، ٥٧.

(٢) فاضل الدباعي وآخرون: سليمان الباروني(المعلم المقاتل) ص٥٦،٥٤، ٦٨.

الخاتمة

مما سبق ذكره، يتضح لنا أن الشيخ سليمان الباروني كان بحق الطود الأشم، والفارس المغوار في الكفاح المسلح الذي كان يعتبره فرض عين على كل ليبي ضد الاستعمار الإيطالي الغاشم. لهذا عكف جاهدا على رص الصفوف، وشحذ الهمم، ولو كلفه ذلك الذهاب بعيدا. إذ لم يتوان في مد يده لكل من يعتقد قادرا على الوفاء بالتزاماته الدينية وتعهداته الأخوية تجاه أشقائه في النسب والدين. لقد راسل السلاطين والعلماء ورجال الطرق الصوفية ليعرف بقضية بلاده، وليحصل على المساعدات التي تمكنه من الصمود والتصدي للعدوان الظالم. وهكذا استطاع أن يظفر بالمساعدات العسكرية التي استجاب لها الشيخ الهاشمي الشريف على التو، فأمده بحملة عسكرية قوامها حوالي (٣٥٠) مجاهداً، لبوا نداء الواجب، واتجهوا زرافات ووحدانا نحو البلاد الليبية، بيد أن الظروف العويصة وبعد المسافة وقطع الفيافي القفار، وتعرض المتطوعين للأخطار لم يمكنهم من الوصول مبكراً، ورغم هذا قام الشيخ الهاشمي باقتفاء أثره وانتقض في ثورة عارمة على مقر الحاكم العسكري بسوف، النقيب بواز،(١٩١٤-١٩١٨م) Capitaine Boise وذلك يوم ١٥/١١-١٩١٨م، وقد خلد عطر الذكر، شاعر الثورة الجزائرية الملهم، مفدي زكريا في إلياذته الشهيرة هذه الملحمة، حيث قال :

ويا وادي سوف العرين الأمين ... ومعقل أبطالنا الثائرين
ومأوى المناجيد من أرضنا ... وأرض عشيرتنا الأقربين
وريض المحامد أحرار غوما ... ومن حطموا الظلم والظالمين
ودرب السلاح لأوراسنا ... وقد ضاقت السبل بالسالكين
وضرغامها الهاشمي الشريف ... يذيق "بواز" العذاب المهين

وكم كان سوف لضم الصـــــفوف وجمع الشتات الحريص الضمين[1]

النتـائج

من خلال الدراسة التي أجريتها على الموضوع الآنف الذكر، يمكننا التوصل إلى النتائج التالية :

- يعود تفرد شخصية الشيخ الباروني بخصوصيات مميزة إلى تنوع مشارب ثقافته سواء في ليبيا، أو الجزائر، أو تونس، أو مصر، أو تركيا.
- قوة شخصية الباروني تأهيل لقيادة وطنه.
- استجابة الشيخ محمد الهاشمي السريعة للجهاد في ليبيا، دليل على وشائج القربى.
- التضامن يتجلى في تحفيز شعراء سوف لأهل غريان في ثورتهم ضد الطليان.
- الاتحاد سبيل لانتصار العرب والمسلمين عامة.

[1] مفدي زكريا: إلياذة الجزائر. المطبعة المؤسسة للكتاب، الطبعة الثانية، الجزائر ١٩٩٢م، ص ٧٦.

الدور السياسي للشيخ الباروني من خلال مجلس المبعوثان

د. علي عمر الهازل(*)

مقدمة

في تقديري أن البحث في شخصية الشيخ سليمان الباروني، يجعل الباحث يقف حائراً أمام الكم الهائل من المعلومات عنها، لان هذا الشيخ كان كثير العطاء، ومتعدد الاتجاهات السياسية والثقافية ، وهذا ما يجعل البحث فيه وعنه، يحيط به نوع من الصعوبة، من حيث اختيار موضوع البحث، وكيفية معالجته ، فحياة هذه الشخصية تستحق الدراسة بكل عناية ودقة وموضوعية .

الشيخ سليمان الباروني شخصية من تلك الشخصيات المؤمنة المخلصة لبلادها، ورجل من رجالات الأمة العربية، والإسلامية، كان لها مواقف نبيلة، وأعمال جليلة، يذكرها تاريخ ليبيا الحديث فيحمد له العطاء الجهادي والسياسي والإثراء الثقافي، في مراحل دقيقة، وقاسية من الزمن عانى فيه وطنه من ويلات تلك المراحل.

(*) د. علي عمر الهازل، المركز الليبي، ليبيا.

على أية حال لا أدعى أنني أتيت بشيء جديد، أو قمت بشمولية الدراسة، والبحث ولكن كل ما في الأمر، هو أن هذه الورقة، أرى أنها عبارة عن محاولة لفتح أذهان وعيون الباحثين، عن هذه الشخصية، ودوره وما قام به من خلال عمله في مجلس المبعوثان العثماني، وتسليط الضوء عن هذه الفترة، بالتحليل والدراسة العلمية الدقيقة .

لقد رأيت من الواجب في مقام البر بهذا الشيخ العالم الفاضل المناضل بالقلم والبندقية والذي كان له أثره في الحياة بشكل عام في ليبيا، أن أقوم بما مكنني منه رب العباد من جمع مادة وثائقية من خلال محاضر مجلس المبعوثان، وبعض الكتب التي تناولت الشيخ الباروني من خلال ذلك المجلس، تبين ذلك الجهد المحمود والمشكور.

مجلس المبعوثان

يتكون البرلمان العثماني من مجلسين، ينتخب الأول من طرف الشعب، وهو ما يسمى بمجلس المبعوثان، ويعين أعضاء الثاني من قبل السلطان، وهو ما يعرف بمجلس الأعيان، عضوية مجلس الأعيان، تكون مدى الحياة، في حين عضوية مجلس المبعوثان، تتجدد كل أربع سنوات، والنواب لا يمثلون دوائرهم فقط، بل هم لكل العثمانيين، المجلسان المبعوثان والأعيان مستقلان عن بعضهما، ولكنهما يجتمعان في نفس الزمن، فإذا حدث أن تعطل الأول عن الاجتماع، فإن الثاني أيضاً يؤجل اجتماعه، وعند اللزوم قد يجتمعان في مكان واحداً تحت أسم المجلس العمومي ، يجتمع المجلسان خلال شهر نوفمبر من كل

سنة، ويفتتح بأمر الإرادة السنية من طرف السلطان، وتنتهي جلساته في شهر مارس، ويستطيع السلطان ان يستدعى المجلسين فى الحالات الطارئة[1].

ملاحظات مجلس المبعوثان عن شخصية الباروني

وصل الشيخ سليمان الباروني كعضو في مجلس المبعوثان، لأول مرة حيث قام بتمثيل منطقة الجبل العربي- يقع الجبل الغربي في غرب ليبيا، ويبدأ من غريان شرقاً وينتهي بنالوت غرباً، ويعرف أيضاً بتسمية جبل نفوسة وهى الأقدم- منذ ١٩٠٨م، غير أن مضبطة تعينه وصلت إلى مجلس المبعوثان، وطرحت على المجلس في جلسته التي عقدت يوم الاثنين بتاريخ١٩٠٩/٢/١٥م، وتمت الموافقة عليها، وتم قبول الباروني لعضوية المجلس، وكانت الملاحظات حوله تشير إلى أنه لم يكن يحسن اللغة العثمانية بشكل جيد، إلا أن أسمه كان من أكثر الأسماء المعروفة وهذا نتيجة لاتصالاته وأنه شرف لمجلس المبعوثان أن يكون معه إنسان مثل سليمان الباروني، فهو رجل فاضل، وعالم ومحرر أحدى الصحف[2].

انتخابه لمجلسي المبعوثان والأعيان

لقد تم انتخاب الشيخ سليمان الباروني، كمندوب عن منطقة لواء الجبل الغربي، بتاريخ١٩٠٨/١٢/١٧م، وأستمر عمله في مجلس المبعوثان حتى سنة ١٩٢٠م، على الرغم من عودته إلى أرض الوطن في أواخر سنة ١٩١١م، ولم يداوم بالعمل في المجلس، بسبب تعرض بلاده للغزو الإيطالي، منذ تلك السنة التي عاد فيها من أجل قضاء أجازاته السنوية، بين أهله في مدينة جادو- التي

---

[1] د. اورغان سعد الله كولوغلو ، قائدان ليبيان مع مصطفي كمال ، منشورات المركز الثقافي – المكتب الشعبي الليبي ، انقره ، ١٩٨١م ، ص٢٠- ٣٠ .

[2] ليبيا و الليبيون في سجالس النواب العثمانية ، تأليف د. اورخان سعد الله كولوغلو ، ترجمة د. عبد الكريم عمر أبو شويرب ، مخطوط غير منشور بقسم النشر بالمركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية ، ص٥٧ .

تقع في منتصف الجبل وتبعد عن مدينة طرابلس ٢٠٠ كيلو متر في اتجاه الجنوب الغربي على وجه التقريب – موطن أسرته، ولكن انتخابه أستمر بتزكية كمندوب للواء الجبل حتى ١٩٢٠م، وفي سنة ١٩١٤م تم تعيينه في مجلس الأعيان، وأستمر فيها حتى سنة ١٩٢٠م، حيث قدم اعتذاره عن عدم مواصلة عمله في المجلس وأرسل برقية بذلك جاء فيها : " حيث أنى مريض ومزاجي متعكر فأنى لا أستطيع الحضور إلى المجلس ... وأرجو من رفاقي الكرام التفضل بمنحى إجازة مدة شهر ونصف وذلك لمرافقتهم وتوصيل اسرتى ثم العودة... "[1] ولكنه لم يعود إلى عمله في المجلس، لأن المجلس تم حله بإرادة سنيه بتاريخ١٩٢٠/٤/١٢م، وهكذا غاب المبعوثان إلى الأبد، وظل في ذمة التاريخ.

لقد تم انتخاب أو بمعنى اختيار الشيخ سليمان الباروني، لأول مرة عضواً بالشعبة الخامسة الخاصة، بمجلس المبعوثان[*] بتاريخ ١٩٠٩/٢/١٧م ، وفي السنة الثانية، وأثناء افتتاح المجلس والاجتماع الأول له تم اختيار الباروني في الشعبة الثانية [**] وكان ذلك بتاريخ١٩٠٩/١١/١٤م[2].

كما تولى عضوية بعض اللجان بمجلس المبعوثان، حيث كان عضو اللجنة العسكرية وذلك بتاريخ ١٩١٠/٤/١٢م، وتولى كذلك عضوية لجنة

---

(١) يقصد بإحدى الصحف جريدة الأمد الإسلامي ، أسسها الشيخ سليمان الباروني في مصر سنة ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م ، وهي جريدة تعنى بالقضايا الإسلامية ، أسبوعية وكل صفحة قسمها إلى خمسة أعمدة ، واعتمد في تحريرها على أسلوب سهل بعيد عن التكلف ، لم يصدر منها إلا ثلاثة أعداد فقط لمزيد من المعلومات يمكن الرجوع إلى : يوسف بن يعقوب المعوني، سليمان باشا الباروني وآراؤه في الإصلاح السياسي والفكري ، بحث تخرج إشراف د. محمد عبد الرحيم الزياني، معهد العلوم الشرعية، وزارة الأوقاف والشئون الدينية، ملحلة عمان ٢٠٠٤-٢٠٠٥م، ص١٥٦.

(*) يقصد بالشعبة الخامسة ، شعبة الخارجية بالمجلس .

(**) يقصد بالشعبة الثانية – شعبة المالية والميزانية بالمجلس.

(٢) جريدة ضابط مجلس الأعيان امتانبول ، ١٩٥٤م ت-و ١٢٨ ، الاجتماع الخامس ، الاثنين ٢-٢-١٩٢٠م- ٢٠.

الاستدعاء بمجلس الأعيان، وقد تم إقرار ذلك في جلسة المجلس الثالثة، بتاريخ ١٩٢٠/٢/٢٦م[١].

دوره في المجلس

في هذه النقطة يصعب حصر دوره في المجلس، وهذا يحتاج إلى كتابه كتب، وليس سطور لبحث مقدم المؤتمر أو لندوة، ولكن سوف أتحدث فقط عن دوره في مجلس المبعوثان، فيما يخص مهمته كمندوب عن بلاده.

فيما يتعلق بدوره يمكننا أن نقسم ذلك إلى قسمين، الأول قبل الاحتلال الإيطالي لليبيا والثاني، بعد الاحتلال الإيطالي لليبيا.

١- القسم الأول : دوره قبل الاحتلال الإيطالي لليبيا

كان دورة في هذا القسم، ينصب عن مناقشة القضايا التي تهم بلاده، فنجده بتاريخ ١٩١٠/٣/٧م، يطرح قضية الجفاف في ليبيا، على مجلس المبعوثان، حيث أشار إلى أن استمرار القحط والجفاف لمدة غير قصيرة، وان ذلك جعل السكان يعانون من الضيق ، ويشير في نفس هذا السياق، إلى أنه في هذه السنة ١٩١٠م، أدى هطول الإمطار إلى فيضانات، وغمرت الوديان بسيولها مدينة طرابلس وضواحيها، الأمر الذي نتج عنه تهدم (٣٠٠) مسكن في الساحل[٢]، و(٢٦) مسكن في منطقة مسلاته [٣]، وفي منطقة المنشية[٣٣]، فقد أدت الأمطار إلى جرف المزارع ، وقد أعتبر (٢٣٠) شخصاً مع حيواناتهم في عداد المفقودين، وهو ما جعل الأهالي يقومون بجمع الأموال لهم[٤].

---

(٢) ليبيا والليبيون في مجالس النواب العثمانية مصدر سابق ، ص ٩٧ – ١٥٩.
(٣) تقع منطقة المداحل إلى الشرق من مدينة طرابلس وتبعد عنها حوالي خمسين كيلو متر.
(٣٣) تقع مدينة مسلاتة إلى الشرق من مدينة طرابلس وتبعد عنها حوالي مائة وعشرين كيلو متر.
(٣٣٣) المشاحية الشرقية لمدينة طرابلس.
(١) محاضر مجلس الأعيان ، مصدر سابق ، ت- وث ٢-٢ الاجتماع الثالث، الخميس ٢٦- ٢ – ١٩٢٠. أ- ٨٢.

وبتاريخ ١٩١١/٣/٢٧م، نجده يقدم مذكرة طلب أموال إلى بلدية طرابلس، من أجل مواجهة أزمة نقص الغذاء، الناتجة عن استمرار حالة الجفاف منذ أربع سنوات.

وبتاريخ ١٩١٠/٦/٢٠م، نجده يقدم طلب مع غيره من نواب يشرح فيه سوء الأوضاع الاقتصادية في ليبيا ، جاء فيه ما يأتي : " حيث أن ولايتنا مستثناه من مبدأ المساواة، في رد الديون، وخصوصاً أنها تعاني من حالة القحط، منذ ثلاث سنوات، وقد تسبب الجوع والتيفود وغيره من الأمراض المعدية، في وفيات قرابة (٣٠%) من السكان، كما أن قرابة (٢٠%) منهم قد هاجروا إلى تونس، أو مصر، أو الجزائر، لكسب لقمة العيش ، وكذلك فانه بسبب نقص المحاصيل الزراعية هذه السنة، واستمرار حالة الجفاف، وعوضاً عن منحهم نفقة من خزنة الدولة ، فانه من الممكن أن تؤمن وسائل عيش لبعضهم، بواسطة تشغيلهم في إنشاءات الطرق، وهكذا فمن تكاليف إنشاء الطرق، يمكن صرف مبلغ سبعة آلاف ليرة من مخصصات الولاية، وتبليغ نظارة الأشغال بذلك..."[1].

وبخصوص قضية الحدود بين ليبيا، وتونس، والجزائر، قدم الشيخ سليمان الباروني طلب إلى مجلس المبعوثان، لمناقشته بتاريخ ١٩٠٩/٦/٥م، وقد جاء فيه ما يأتي {... لقد قام الفرنسيون بقتل حركة التجارة التي هي أهم وسيلة لمعيشة السكان بوضع أيديهم على الآبار ومصادر المياه في طريق القوافل... } وذكر المجلس بوجوب وضع حدود معينة بين الدولتين[2].

وعن تصنيع اللاقبي – وهو ذلك العصير المستخرج من النخيل، بعد قطع رأس النخلة، الأمر الذي يؤدى إلى جفاف تلك الشجرة – نجد الشيخ الباروني يقدم مقترح، يطلب فيه منع تصنيع اللاقبي، ويجب أن يغرم كل من يقوم بذلك،

---

(1) ليبيا والليبيون في مجالس النواب العثمانية ، مصدر سابق ، ص١٠.
(2) المصدر السابق ، ص١٢.

بدفع غرامة تقدر من (٥- ١٠) قطع ذهبية، ويطلب كذلك التخلص من أية كمية من مشروب اللاقبي، ومنع شرب الخمور بشكل عام، مهما كان نوعها في ليبيا، على اعتبارها بلد مسلم، ولا يوجد فيه غير المسلمين من السكان الأصليين، بل أكثر من ذلك يطلب إضافة قانون جديد، يسمح بضرب الذين يتناولون الخمر بكثرة، ويؤذون الناس[١].

لقد كان له دور في السياسة الداخلية للدولة العثمانية، فنجده يرفض رفع مخصصات البيت الحاكم للدولة العثمانية، ويرفض كذلك قانون يمنح السلطان العثماني، عزل الوزراء، وإبداء الموافقة على إصدار قانون يخول السلطان خلع الصدر الأعظم ، وكذلك يوافق على اقتراح بشأن ترقية العسكريين الذين ظلموا وتقرر تصفيتهم بمعدل درجة واحدة ، وكذلك التصويت لوزارة إبراهيم حقي باشا (١٩٠٩-١٩١١م) بالثقة، ومنح الحكومة الحق في قفل وتوقيف الصحف، التي تنشر معلومات مشوهة عن الدين الإسلامي ، ونجده يوافق أيضا على تقسيم الكنيسة الواقعة بين بطريركية الروم، وكنيس البلغار - باسطنبول- بحيث يكون صاحب الكنيسة من يتحصل على الأكثرية من الأصوات ، ويوافق على زيادة المخصصات، لإنشاء الكنائس والمدارس ، واعتبار تغطية المصروفات من مخصصات الحكومة واستقراض مبلغ (٢,٥) مليون ليره للطرق في مختلف أنحاء الدولة العثمانية[٢].

هذا بصفة عامة أهم ما قام به الشيخ سليمان الباروني من دور في القسم الأول ، وهي أراء واقتراحات، وأسئلة تتعلق بالمشاكل المحلية لبلاده، وكذلك الدولة العثمانية ، وفي نفس الوقت لا أستطيع الجزم بان كل ذلك قد تمت الإجابة عنه ، وخاصة ما يخص المالية والمدفوعات ، وفي تقديري أن هذا الأمر

---

(٢) المصدر السابق ، ص ١٩-٢٩.
(١) نفس المصدر ، ص ٣٠ - ٣١.

لم يكن خاصا بليبيا ، بل الأمر ينطبق على كل الولايات الأخرى فقد تم إهمال الأسئلة، وعدم الإجابة عليها .

٢- القسم الثاني : دورة بعد الاحتلال الإيطالي لليبيا

كان دوره في هذا القسم ينصب في إمداد مجلس المبعوثان، بالمعلومات عن سير الحرب بعد غزو إيطاليا لليبيا، لأنه في هذه الفترة، فترة اندلاع الحرب سنة ١٩١١م كان في إجازة من المجلس في بلاده وحتى سنة ١٩١٣م ، حيث غادر ليبيا، ووصل إلى استانبول في أواخر سنة ١٩١٥م.

خلال هذه الفترة تولى الشيخ سليمان الباروني، قيادة فرق المتطوعين من الجبل الغربي، وبتاريخ ١٩١١/١١/١م، قام بإرسال أولى برقياته، وتليت من منصة المجلس، وكان المجلس في جلسة طارئة وخاصة عن الحرب الإيطالية في ليبيا ، وقد جاء في تلك البرقية ما نصه: "بالأمس نزلت مع مجموعة من المتطوعين من الجبل إلى الساحل وبعد أن اشتبكنا مع الأعداء في مصادمة ضارية تمكنا من القضاء عليهم وإخراجهم من موقع الثكنة واليوم سنتحرك إلى طرابلس وسندخلها بإذنه تعالى "[1].

وفي جلسة المجلس بتاريخ ١٩١١/١١/٩م، تليت برقية ثانية قادمة من جبهة القتال في ليبيا تحمل توقيع الشيخ سليمان الباروني، وقد جاء فيها مانصه: " أنني قادم من ميدان الحرب أن الوضع العسكري هناك لصالحنا أن الروح المعنوية للأعداء محطمة"[2]، لقد كانت المعلومات التي يرسلها الشيخ الباروني عن سير آلة الحرب في ليبيا ذات أهمية في مجلس المبعوثان حيث ترتب عن ذلك ما يأتي:

---

(1) جريدة مضابط مجلس المبعوثان العثماني، استانبول ١٩٣٩م ، م – ث، الاجتماع رقم ٨٨ الخميس ١-١١- ١٩١١م، ب ٢٧.

(2) نفس المصدر السابق ، ب ٢٨.

أ- تقديم اتهامات لحكومة إبراهيم حقي باشا الصدر الأعظم ، في تلك الفترة بالإهمال والانحراف الذي أصاب السياسة العثمانية، وبشكل خاص إهمال ولاية طرابلس الغرب، من الخطر الإيطالي، وكانت الاتهامات على النحو الآتي:

١- كان من الواجب أن يكون عدد الجنود العثمانيين في ولاية طرابلس (٤٠) ألفا، ولكن العدد خفض إلى خمسة آلاف، وأرسل الباقي إلى اليمن.

٢- تأخير تجنيد السكان، وأعدادهم عسكرياً، بفترة كافية قبل الغزو الإيطالي.

٣- لم يتم تجديد البنادق التي يبلغ عددها (٤٠)ألفا، ولم تجلب المدافع كذلك.

٤- على الرغم من أن إبراهيم حقي باشا، على علم بنية إيطاليا غزو ليبيا، فإنه لم يقدم أي تحذير عن ذلك.

٥- القيام بتعيين موظفين، لا يعرفون اللغة المحلية.

٦- لقد تم تغيير الضباط المحليين الذين يعرفون اللغة المحلية، والمناطق، والطرق.

٧- التأخر في تعيين وإلى للبلاد، وكذلك تأخر تعيين قائد الجيش، الأمر الذي جعل موقعهما شاغرين مدة طويلة.

٨- لم يتم تقديم المساعدة اللازمة للأهالي، من جراء القحط المستمر لمدة أربع سنوات، وهو ما دفع جزء من السكان إلى الهجرة خارج ولاية طرابلس الغرب.

٩- لم يتم تقديم المعلومات، والتعليمات اللازمة، لدعم المقاومة، مما سهل عملية الغزو.

إن هذه النقاط تشير بشكل واضح، وخصوصاً في الفقرات الثانية، السابعة والثامنة، إلى إن الشيخ البارودي كان قد طرحها في أثناء وجوده في جلسات مجلس المبعوثان، وقد طلب أكثر من مرة الاهتمام بها، وتحديد المسئولية من اجل القيام، بالاستعداد لتنفيذ تلك المطالب[1].

ب- وجه السلطان العثماني محمد رشاد الخامس، رسالة ثناء للمجاهدين الوطنيين بولاية طرابلس الغرب جاء فيها ما يأتي .. { .. قام العدو بالتعرض للأهالي ولأكبر مقدساتنا بالولاية واللواء - يقصد لواء بنغازى - وقتل الشيوخ والعجزة، والنساء والأطفال، وترك من أثار الوحشية والظلم ما يرتعد له الضمائر وتقشعر منه أحاسيس ... أن الأهالي بطرابلس الغرب وبنغازى من القبائل العربية من شجعان العربان، وأولادهم محبي الوطن، والجنود الموجودون هناك، ومن ألتحق بهم من الضباط والإفراد العثمانيين، جميعهم أضافوا فصولاً للتاريخ العسكري العثماني المجيد، وقد حازوا تقدير كل جهات الوطن، محافظين على العدل والسكون واستمروا في الكفاح الحربي والسياسي وذلك للمحافظة على القطرين المذكورين وينتظرون إزالة هذه الكارثة الحالية .. }[2].

وقد رد الشيخ سليمان الباروني، على تلك الرسالة ببرقية جاء فيها : "..إلى رئاسة مجلس المبعوثان دار السعادة، يجب أن نثق في الله سبحانه وتعالى حيث أنه حتى لو أنتصر العدو في بعض الأيام، فإنه في النهاية سيقهر ويتراجع لا محالة، لقد هاجم العدو ست مرات من قلعة الفضة بقوات كبيرة وقام بقصف كثيف من قواته البرية، ولكنه في كل مرة والله الحمد يصاب بهزائم منكرة.

---

(1) ليبيا والليبيون في مجالس النواب العثمانية، ص ٣٥ .
(2) المصدر السابق، ص ١٩٣.

في الوقت الحاضر جرت محاربة بتاريخ ٥/٨ فقام جندونا بصدد هذا الهجوم، بشكل يفتخر به الجميع، أن كل مراكز المجاهدين من فروة(*) إلى جنزور(**) تجعلنا نفتخر ونتباهى بالمجاهدين لما يحملونه من شعور فياض نحو الخلافة والدولة العثمانية.

الأصدقاء المحترمين أمامنا يوم ستجعل كل الإنسانية أما في غاية السرور أو غاية الغم معاذ الله، في ذلك اليوم ستجعلون الأمة الإسلامية في قمة السعادة وأن خط المعركة أما أن ينهى المطامع أو لا قدر الله فاتحة للتقسيم.

يا أصدقاء لا تتركونا أننا نفدي أرواحنا ونقدم حياتنا من أجل سلامة الأمة ونحن في كامل الثبات والعزم مع المجاهدين وأن اعتمادنا على وعده تعالى، فإن يكن منكم مائه صابرة سيأتي اليوم الذي تنته فيه المظالم والعدوان.

يجرى الآن نقل الأسلحة والتموين من السواحل إلى الداخل وطرد الإيطاليين منها، أن الحرب وصلت إلى درجة شديدة فهذا سيؤدى ولاشك إلى قهر وإفلاس إيطاليا وسيسقطها من صنف الدول العظمى.

أن شرعتم في المصالحة فأي وجه سيبقى لكم لتواجهوا الدول الحرة والعالم الشرقي والدول الإسلامية بشكل خاص، وأننا في دورتكم هذه واجتماعكم هذا الأمر الوحيد الذي نطلبه منكم حتى لو تركتكم فإننا استناداً إلى مفاخر وانتصارات السلطان عثمان ومحمد الفاتح سنستمر في الدفاع إلى أن نقهر وننكل بالعدو إلى أخر أنفاسنا ونتحصل على شرف الاستشهاد.

أننا استطعنا بحمد الله أن نوقف زحف وتقدم العدو إلى الداخل فلا يزال كما كان منذ ثمانية أشهر، وفي الليل يحول العدو الساحل إلى جهنم لكثرة ما

(*) جزيرة فروة تقع في شمال غرب ليبيا وتبعد عن الحدود التونسية الليبية حوالي مئتين كيلومتر.
(**) مناحية من ضواحي طرابلس تقع إلى الغرب وتبعد عنها حوالي عشرة كيلومترات.

يرمى من قنابل إلا أنه لم يوفق في وضع قدمه على الأرض.." سليمان الباروني نائب الجبل الغربي، الذهبيات بتاريخ ١٩١٢/٦/٥م[١].

وبتاريخ ١٩١٦/١١/١٤م وبعد تعينه وإلى طرابلس الغرب، نجده يرسل برقية إلى مجلس الأعيان العثماني جاء فيها : .. { إلى مقام الرئاسة الجليلة السيد الرئيس المحترم ، في هذه الزيارة لطرابلس الغرب تحصلت على نتائج طيبة وتم استقبالي بحفاوة بالغة تدل على مظاهر الصداقة والطاعة للحكومة العثمانية، وقد حاولت ما أمكن تنفيذ وتسهيل أوامر الحكومة السنية، أقدم لكل رفاقي الكرام التحيات والاحترام، وأول جمعه هنا صليتها بمسجد قضاء زليطن[٢] مع جموع كبيرة من المسلمين وكلمتهم بخطاب باسم السلطان وانهينا اللقاء بالدعاء للحكومة السنية عضو مجلس الأعيان العثماني وإلى قائد طرابلس الغرب سليمان الباروني}[٣].

لعل أهم الأدوار السياسية التي قام بها في بلاده هو عندما أعلن السلطان العثماني محمد رشاد الخامس (١٩٠٨-١٩٢٤م) استقلال القطر الطرابلسي بمرسوم سلطاني بتاريخ ١٧ أكتوبر ١٩١٢م قبل توقيع معاهدة أوش لوزان بيوم واحد، حيث أعلن الشيخ سليمان الباروني استقلال طرابلس وقيام دولة بها، وهنا أود أشير إلى إن هذا الإجراء أو الإعلان يعتبر في وجهة نظري هو أول استقلال يتم إعلانه في بلادنا ليبيا وبأيدي وأصول ليبية خالصة، حتى وأن كانت هناك دولة سابقة قامت بطرابس عرفت باسم الدولة القره مانلية (١٧١١-١٨٣٥م) ولكنها لم تكن ذات أصول ليبية صرفة، إذ كان المؤسس أحمد باشا ١٧١١- ١٧١٥م ينتمي إلى أصول عثمانية.

---

(١) المصدر السابق، ص٣١٦، ٣١٧.
(٢) مدينة زليطن تقع إلى الشرق من مدينة طرابلس وتبعد عنها حوالي مائة وثمانون كيلو متر.
(٣) المصدر السابق، ص٣٢٠.

حاول الشيخ سليمان الباروني أنشاء دولة في منطقة الجبل الغربي نتيجة للفراغ السياسي والاقتصادي والعسكري الذي تركته الحكومة العثمانية بعد إعلان تنازلها على السيادة في ولاية طرابلس وبرقة ، وقد جاء ذلك واضحاً جلياً في برقية أرسل بها الشيخ الباروني إلى بعض الدول الأوربية، و إلى الدولة العثمانية نفسها وقد ورد نصها كما يأتي : " إلى وزراء الخارجية في لندن، باريز ، برلين، ويانـة، بترسبورغ، دار السعادة، روما، أي إلـى بريطانيا، وفرنسا، وألمانيا، والنمسا، والمجر ، وروسيا، وتركيا، وإيطاليا، لـي ألفخر بأن أشعركم بأن الدولة العثمانية قد منحت القطر الطرابلسي استقلاله وقد أتفق جميع سكان الجهات الجبلية والمناطق الجنوبية على المحافظة على استقلالهم وتعهدوا بالتضحية في سبيل الدفاع عنه إلى أخر رمق من حياتهم، وأفتخر بإشعاركم بأنني توليت رئاسة الحكومـة المستقلة التـي شكلناها باتفاق الآراء، وعليه يرجى عد حكومتنا في مصاف الدولة المستقلة المعترف بها ومراجعتي بوصفي رئيسا لها في كل ما يتعلق بالأمور المتعلقة بالمناطق الداخلة في حدودها وهي:-

أورفلة، والمناطق الجنوبية من القطر الطرابلسي (إلى فزان وغات) وجميع المناطق الجبلية، وفي المناطق الساحلية ابتداء من العجيلات إلى الحدود التونسية "[1].

وفي برقية أخرى مرسلة من الشيخ سليمان الباروني من مركزه بيفرن إلى أمبرطور ألمانيا يطلب فيها ما يلي:-

١- الاعتراف بالاستقلال الذي منحته الدولة العثمانية للبلاد الليبية.
٢- التوسط لدى ملك إيطاليا للاعتراف بالاستقلال والكف عن حقوق الليبي وإلا اضطروا لمواجهته دفاعاً عنها[1].

---

(1) ملف سليمان الباروني ، وثيقة رقم ٧٨، تعريب محمد الاسطى ، تاريخ الوثيقة ٢٧-١٢-١٩١٢م شجعة الوثائق العربية، المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية طرابلس-ليبيا.

مما تقدم يتضح أن الشيخ الباروني مع أخوانه المجاهدين اتفقوا على تكوين دولة ويكون هو رئيسها، ونجدهم أيضا يحاولون كسب أعتراف الدول الأوروبية بما فيها إيطاليا نفسها، وعن حدود الدولة يذكر الباحث الاستاذ علي البوصيري ما نصه :-

" .. يمكن أن نتبين خطاً واضحاً للحدود لهذه الدولة على الأقل يخص الجهة الشمالية أما من الناحية الشمالية الغربية فحدودها واضحة فهي الحدود التونسية والجزائرية، وكذلك فيما يخص الحدود الجنوبية، أما أخر نقطة لها في الشرق فهي أراض ورفلة في الشمال الشرقي من هذه الدولة، كما أنه لا يوجد لدينا تحديد لها من الناحية الشرقية، ولعل السبب الذي دعا الباروني إلى عدم تحديدها من هذه الجهة، هو عدم تقدم الإيطاليين إلى منطقة الجنوب عبر منطقة سرت، وبذلك لا يكون هناك مجال لوضع حدود، ربما اتخذت حجة من قبل الإيطاليين على عدم امتداد حدود الدولة إلى الشرق أبعد من ورفلة.. "[2].

بدأت الدولة المعلنة في أواخر شهر اكتوبر سنة ١٩١٢م في تنظيم نفسها في الرقعة الواقعة تحت سيطرتها فلقد أستمر نفس الموظفين الذين كانوا يعملون مع الإدارة العثمانية في أداء إعمالهم ، واهتمت كذلك بتنظيم البريد والبرق والهاتف، كما قامت بفتح مكاتب لها في ورفلة[*]، وغدامس[**]، وغات[***]، كما قامت باتخاذ إجراءات عسكرية حيث جرى نقل مقر القيادة العسكرية والسياسية ومخازن التموين والعتاد إلى منطقة الرابطة الواقعة بقرب مدنية غريان.

---

[2] وثيقة رقم٤٤، بتاريخ ٢٥ محرم سنة ١٣٣١هـ.

[1] علي البوصيري علي، المقاومة الليبية ضد الاحتلال الإيطالي في الجزء الغربي من ليبيا ، أكتوبر ١٩١٣- أغسطس ١٩١٤م ، سلسلة الدراسات التاريخية ٢٤ ،الطبعة الأولى ، منشورات مركز الجهاد الليبين للدراسات التاريخية ، طرابلس – ليبيا ، سنة ١٩٩٨م، ص٣١.

(*) مدينة ورفلة أو بني وليد ، تقع جنوب مدينة طرابلس وتبعد عنها ثلاثمئة كيلو متر.

(**) واحة غدامس تقع في أقصى الجنوب الغربي وتبعد عن طرابلس سبعمائة كيلو متر.

(***) واحة غات تقع في أقصى الجنوب وتبعد عن طرابلس ألف وثلاثمئة كيلو متر.

أما في الجانب الاقتصادي فقد قررت حكومة المجاهدين تدبير موارد مالية لسداد متطلبات الحرب ومرتبات الموظفين والجنود عن طريق جباية الزكاة والأعشار لذلك باشرت في تعيين المأمورين لجمع زكاة الحبوب والحيوانات.

لقد أشرت إلى وجود حكومة للمجاهدين وهذا يعني أنه كان هناك رئيس وزراء وإنها حكومة بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، ولكنها في الواقع الأمر هي عبارة عن جهد بادر به الشيخ سليمان الباروني للحصول على اعتراف دولي، يستطيع من خلاله إن يدخل في مواجهة إيطاليا سياسياً، و في نفس السياق أنها حكومة جاءت في ظروف غاية في الصعوبة، فالبلاد في حالة حرب، وإيطاليا كانت قد احتلت العاصمة طرابلس وأغلب مدن الساحل الليبي ، وفي طريقها لاستكمال الاحتلال لباقية البلاد، وهذا ما حصل فعلاً، إذ ما كانت نهاية سنة ١٩١٣م تصل، حتى وصلت القوات الإيطالية إلى أقصى جنوب ليبيا، وتم القضاء على الدولة التي أعلن الشيخ سليمان الباروني عن قيامها في منطقة الجبل الغربي[1].

لقد كانت الحكومة الإيطالية على وعي شديد من حيث أن إنشاء دولة أو حكومة وطنية في أي بقعة من الأراضي الليبية، سوف يكون عقبة كبيرة في سبيل تقدم قواتها واحتلال ليبيا فنجدها لم تمهل الشيخ سليمان الباروني وزملاءه المجاهدين الوقت الطويل والكافي لبناء الدولة، والتقدم إلى الأمام، فقد سحقت القوات الإيطالية الدولة المعلنة في يوم ٢٣ مارس ١٩١٣م.

الخاتمـــة

وأخيراً أقول إن الدور الذي قام به الشيخ سليمان الباروني، في مجلس المبعوثان، وكذلك الأعيان كان له أثر في الاهتمام بولاية طرابلس الغرب، وأن

---

(1) بيلارد نيلي، الفيلق، ترجمة عبد الرحمن العجيلي، المطبعة الحجرية للقيادة العامة للقوات المسلحة الاستعمارية، طرابلس-ليبيا سنة ١٩٣٥م، ص٦٠-٦٥.

كان ذلك في أضيق نطاق، وهذا راجع إلى إن الدولة العثمانية نفسها كانت في حالة عجز، ولم يتوقف دوره فقط على مناقشة القضايا التي كانت تخص بلاده، بل نجده يناقش في قضايا أو يطرح مسائل تهم وطنه الأكبر العربي، وعالمه الإسلامي، وكان يشارك في رسم السياسة العثمانية الخارجية، والداخلية من خلال عضويته في أكثر من شعبة، ولجنة بمجلس المبعوثان، وكان على علاقة جيدة مع كل أعضاء المجلس، والحكومة، وهذا يتضح من خلال الاطلاع على محاضر اجتماعات المجلسين ويظل أهم أدواره السياسية هو محاولته أنشاء دولة في ليبيا ولكنه فشل ذلك نتيجة للقوة الإيطالية التي قضت على الفكرة في وقت مبكر.

موقف العالم المجاهد سليمان الباروني
من مسألة إلغاء الخلافة العثمانية عام ١٩٢٤م

د. عز الدين عبد السلام العالم[*]

مقدمة

في سنة ١٩٢٤م، أقدم مصطفى كمال (١٨٨١ – ١٩٣٨م) مؤيداً من الجمعية الوطنية الكبرى على إلغاء الخلافة، ونفى عبد المجيد آخر الخلفاء العثمانيين، بعد أربعة قرون من توليهم الخلافة الإسلامية، وقد تم القضاء على نظام الخلافة على مرحلتين، الأولى في نوفمبر ١٩٢٢م، عندما تم فصل السلطنة عن الخلافة، والثانية في ٣ مارس ١٩٢٤م، بإلغاء الخلافة نهائياً، وقد أحدث هذا القرار اضطراباً داخل العالم الإسلامي، نتيجة زوال هذه المؤسسة الرمز الديني والسياسي للمسلمين، وفي هذا الشأن تلقى سليمان الباروني رسالتين من تونس تدلان على حالة الاضطراب الذي حدث في الأوساط الإسلامية بسبب إلغاء الخلافة التركية، وتبيان مدى شدة المناقشات التي كانت تثرى، والأفكار المتبادلة بين المسلمين حول هذا الموضوع في كل البلدان الإسلامية، وتوضحان المخاوف الاستعمارية في أن تساهم هذه المسألة في تغذية النزعات الوطنية والإسلامية، وبعث الصحوة الإسلامية، وصعود التضامن الإسلامي في العالم كله، وفيما يتعلق بموقف سليمان الباروني من هذه المشكلة لاحظ وزير المستعمرات الإيطالية فيدرزوني (fiderzini) في تعليقه على الرسالتين

---

[*] د. عز الدين عبد السلام العالم، جامعة المرقب، ليبيا.

الموجهتين لسليمان الباروني بالخصوص مستنداً إلى معلومات تلقاها في رسالة من الوجيه البنغازي علي الكيخيا ميل سليمان الباروني لمعاضدة الحكومة التركية ومناصرتها للاحتفاظ بسلطة الخلافة، ويبدو أن علي الكيخيا لم يكن موافقا لتوجه سليمان الباروني، وهو ما يفهم من حديثه إلى سليمان الباروني في بعض اجتماعاتهما، ويعلل فيدرزوني ميل سليمان الباروني لدعم الخلافة المنهارة، باستفادته من بعض الحكام الأتراك الذين قدموا له المساعدات السخية في بعض المسائل[1].

واستتبع سقوط الخلافة العثمانية نهوض المساندين لها للدفاع عنها، ومحاولة إقناع المسئولين الأتراك والدول الكبرى بالتراجع عن هذا القرار، والتفكير والبحث فيما تثيره مسألة شغور الخلافة من اشكاليات، ومحاولة إحيائها وبعثها مجدداً في صورة جديدة. وشكلت مسألة إلغاء الخلافة في ليبيا مثلما هو الشأن في البلدان الإسلامية الأخرى قضية ذات أهمية كبرى، بأثر الارتباط التاريخي بين ليبيا والخلافة العثمانية لحوالي أربعة قرون، وإن كانت ليبيا قد فقدت ولاءها السياسي للعثمانيين عام ١٩١١م، فإن الليبيين ظلوا مرتبطين بولائهم الروحي والديني لدولة الخلافة وعاصمتها القسطنطينية إلى تاريخ إلغائها سنة ١٩٢٤م[2].

وقد ظل الشعور بالعطف والحنان إلى موطن الخلافة العثمانية قوياً ومتيناً رغم دخول البلاد تحت الاستعمار الإيطالي، وتجلى هذا الارتباط والتضامن بين الشعب التركي والليبي أثناء فترة الحرب التركية الإيطالية ١٩١١ – ١٩١٢م، وخلال الحرب العالمية الأولى عندما احتلت الجيوش الأوروبية استانبول في ١٦ مارس ١٩٢٠م، حيث انشغل الرأي العام الليبي بهذه الأحداث معبراً عن تأييده

---

(١) طرابلس، المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية ، شعبة الوثائق الأجنبية، ميكروفلم رقم (٢٦٣)، مراسلات إلى وزارة المستعمرات في روما عن سليمان الباروني (١٩١٥ – ١٩٢٥م)، وثيقة رقم(٨٢)، رسالة من وزارة المستعمرات إلى ولاية طرابلس رقم (١٠١٩١)، بتاريخ ١٧ مايو ١٩٢٤م.

(٢) حول موقف البلدان المغاربية من مسألة الخلافة، انظر: محمد الشعيوني، موقف البلدان المغاربية من مسألة الخلافة (١٩١٤– ١٩٢٦م)، رسالة دكتوراه الحلقة الثالثة ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، قسم التاريخ ، ١٩٩٢م.

لتركيا بأشكال عديدة من التضامن والمناصرة، وعندما أُلغى منصب الخلافة في مارس ١٩٢٤م، وخلى العالم الإسلامي لأول مرة في تاريخه من هذا المنصب أصيب الرأي العام الليبي بصدمة قوية وهزة عنيفة، وصارت هذه المسألة مشكلة المشاكل، ومن أهم أحداث الساعة حيث، أثارت جدلاً فكرياً واكبته الصحافة المحلية بكل دقة واهتمام[1].

فكيف كان سليمان الباروني ينظر إلى تركيا لما كان مقر الخلافة يتعرض للاحتلال ؟ وكيف تغير موقفه وتباين بعد قرار الإلغاء ؟ وما هي رؤيته لبعث وإحياء وتجديد الخلافة ؟ وما هي تصوراته المستقبلية لمؤسسة الخلافة ؟

وكان سليمان الباروني، قد أفصح عن رأيه في هذه المسألة كسياسي عربي ومفكر إسلامي في مقابلة له مع جريدة لاتريبونا (latribuna) الإيطالية التي يمولها المصرف التجاري (Bank commercial) وأصحاب الصناعات البحرية في جينوا[2]، يوم ٢ أبريل ١٩٢٠م، حول مذكرة الاحتجاج التي قدمها المعني إلى الحكومة الإيطالية، وتتضمن موقفه من قرار الحلفاء بعزل القسطنطينية، وإلغاء الخلافة، وموضوع المضائق، ورأيه حول معالجة هذه المشكلة، ومحاولة إعادة بناء مؤسسة الخلافة وتحديثها في خطاب تاريخي طموح، ينتصر للفكر السياسي الرسمي ومؤسساته، ويعكس خبرته السياسية وتوجهاته التحديثية الإصلاحية.

وأحاول في هذه الدراسة المساهمة في إزالة اللبس الذي اكتنف موقف سليمان الباروني من هذه المسألة، والإجابة عن التساؤلات التي طُرحت حولها، ويأتي هذا في إطار التعريف بمواقفه من مختلف القضايا والمشاكل الدولية كمشكلة نزع السلاح ، وتصفية الاستعمار ، والمشاكل الإسلامية العامة، كالوحدة

---

(1) انظر مثلاً: قاسم الجميلي، صفحات من تاريخ ليبيا الحديث والمعاصر، طرابلس: مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ٢٠٠٣م، ص٧٩، ١٢٦.

(2) بـاولو مـالتيزي، ليبيا أرض الميعاد، ترجمة عبد الرحمن سالم العجيلي، مراجعة محمود علي الناذب، ط٣، طرابلس: المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية، ٢٠١٠م، ص٥٨.

الإسلامية، ومشكلة الخلافة[1]، والمشاكل والقضايا الوطنية التي عاصرها والتي مازال الكثير منها مثار نقاش وجدل حتى الآن، مثل : المسألة الأمازيغية، والإباضية، والحرب الأهلية، وسواها، فعلى الرغم من تعدد الدراسات العربية حول سليمان الباروني، فنادراً ما يعرج أصحاب هذه الدراسات على موقف الباروني من قضية الخلافة، وهذا هو السبب الذي دفعني لتخصيص هذه المساهمة في هذا الموضوع استكمالاً للجانب المهمل من أدوار سليمان الباروني، إذ يسهم التأريخ لهذا الجانب في استيعاب تناقضات هذه الشخصية التي تتطلب معالجتها الاستقصاء والبحث في معظم مراحل حياتها، لاسيما أن سليمان الباروني نفسه لم يتردد في إبداء رأيه حولها، خاصة بعد اطلاعي على وثائق نصية مهمة محفوظة بملف سليمان الباروني الشخصي في شعبتي الوثائق العربية والأجنبية بالمركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية بطرابلس، وعددها (١٢٨) وثيقة أجنبية، (١٢٠) وثيقة عربية، تغطي الفترة الزمنية الواقعة بين سنتي ١٩١١ – ١٩٢٥م، ومعظمها رسائل متبادلة بين وزارة المستعمرات الإيطالية والحكومة الإيطالية في ليبيا، والسفارات الإيطالية في تونس، ومصر، ومسقط، وفرنسا، وكان بعضها مراسلات بين الباروني وشخصيات رسمية إيطالية، ويكتسي أغلبها أهمية تاريخية وتتضمن معلومات عن أصل عائلة الباروني، وأحوال وحياة سليمان الباروني، وصلاته واتصالاته بالدولة الإيطالية، وأعيان البلاد، وهو ما سيمكنني من تقديم رؤية موضوعية منهجية منصفة للباروني ونشاطه التحديثي تجاه مؤسسة الخلافة.

وترتكز الدراسة على فرضية رئيسية مؤداها وجود مستويات ودوائر تراتيبية عديدة في سلم الولاءات في شخصية الباروني، تتوحد فيها عدة أبعاد إسلامية

---

(١) أولى الباروني اهتماماً كبيراً بمسألة نزع السلاح حيث قدم عدة مذكرات مستفيضة في ديسمبر ١٩٣٢م إلى مؤتمر نزع السلاح بجنيف، وتناولت مراسلاته مع رئيس المؤتمر هندرسون وزير خارجية (الجلدر) خلال عام ١٩٣٣م آراءه ومقترحات جيدة حول الموضوع المشكل ، للمزيد أنظر: أبو اليقظان الحاج إبراهيم، سليمان الباروني في أطوار حياته، ج٢، الجزائر: المطبعة العربية، ١٩٥٦م، ص١٢٧ - ١٤٥.

وعثمانية وإثنية عرقية بربرية ومذهبية إباضية، تعمل في توافق وتتفاعل في إطار واحد جامع لمشروع سليمان الباروني السياسي.

وسيتعامل الباحث منهجياً في هذا البحث مع مجموعة من النصوص الباروني، وهو ما يلزم منهجياً تقنين وتفعيل هذا التعامل، وطرح إشكالية الخطاب الباروني، والقراءة المعمقة لبنيته لتقدير مدى انسجامه مع النسق الفكري لمنتجه وتوافقه وتفارقه مع القراء والمثقفين في عصره، وفق خطة بحثية تستوجب اتباع المنهج الفيلولوجي، أي منح أي مصطلح وارد في النص الباروني المعني الذي كان يحملة في الفترة التي كُتب فيها، وليس المعنى أو المفهوم الذي اكتسبه لاحقاً، مع ضرورة الفصل بين القراءة المتوخاة والتأويل، إذ البدء بالتأويل يجعل النص المقرَأ نصاً آخر، وستسير قراءتنا وفقاً لمستويين، المستوى الأول، ويتم خلال عرض الخطاب أو التعرف عليه كما بناه صاحبه، أو كما ورد في المصادر النصية الأخرى الموازية، وهذا المستوى يسميه أحد الباحثين بالقراءة الاستنساخية، أما المستوى الثاني، فيتم فيه تفكيك الخطاب، قصد إعادة بنائه عبر مرحلتين، التشخيص، والتركيب[1].

قنوات التأثير على موقف سليمان الباروني من الخلافة:

١. الخلفية الفكرية لسليمان الباروني وأثرها على موقفه من الخلافة العثمانية

ولد سليمان الباروني في جادو سنة ١٨٧٣م، وأخضعه والده لبرنامج تعليمي ديني صارم ضمن مساقات التعليم الديني الأهلي المستقل، وهو ما يعكس رؤية والده التحررية المنفلتة من قيود وتوجهات مؤسسات التعليم

[1] حول الخطاب وإشكالية قراءاته ، أنظر: محمد عابد الجابري، الخطاب العربي المعاصر : دراسة تحليلية نقدية ، ط٢، بيروت: دار الطليعة، ١٩٨٥م.

الرسمي[1]. يسمح ركام المعلومات الشخصية عن سليمان الباروني بالرغم من طابعها التمجيدي بملاحظة بعض الجوانب المهمة ذات الصلة بتكوينه الفكري، فهو أولاً قد تكون في فضاء الجامعة الزيتونية بين عامي ١٧٨٨م، ١٨٩٢م، ثم توجه إلى مصر بين سنتي ١٨٩٢م، ١٨٩٥م، بعدها انتقل إلى وادي مزاب بغرداية بالجزائر لمرافقة الشيخ محمد يوسف اطفيش ثلاث سنوات أخرى حتى عام ١٨٩٨م، ثم عاد مجدداً إلى مصر عام ١٩٠٦م، والتحق خلالها بجمعية الاتحاد والترقي لتركيزها على مبدأ الأخوة العثمانية إلى جانب الفكر الدستوري الذي يتضمن سيادة القانون والمؤسسات ، وإتاحة الفرص أمام الكافة للانخراط في النشاطات السياسية وعلى رأسها منظومة الخلافة[2].

وكان انضمام سليمان الباروني لجمعية الاتحاد والترقي التي نفذت انقلاب عام ١٩٠٨م، قد مثل صلة جديدة له وإطلاله على منحى سياسي تحرري جديد وتصوراته وبرامجه النازعة نحو التحديث الفكري والتنوير العقلي الذي أسهمت العقيدة الاتحادية في تجسيده وانطلاقته، من خلال صحفه الأربعة : الترقي، المرصاد، العصر الجديد، والكشاف التي فتحت الباب على مصراعيه أمام مناقشة واسعة لوضع الدين والقوى الدينية ومستوى علاقتهما بالسلطة في الولاية الطرابلسية، حيث تراجعت مكانة السلطان الخليفة إلى المرتبة الثانية في سلم اهتمامات الفئة المثقفة الطرابلسية التي أنبرت تؤكد على مفاهيم عصرية بديلة تقدس الانقلاب، الحرية، المساواة، القانون الأساسي والبرلمان التي أسهمت إلى حد كبير في تضاؤل النظرة المقدسة للحكم الثيوقراطي العثماني من جهة، وكسر القيود الدينية التي كبلت الخطاب الثقافي قبل الانقلاب من جهة أخرى، وشرع

---

(1) أبو اليقظان الحاج إبراهيم: المرجع السابق، ج١، ص٤٩.

(2) المرجع نفسه، وحول العلاقات الثقافية بين أباضية المغربين الأدنى والأوسط أنظر: مسعود مزهودي، العلاقات الثقافية بين أباضية جربة وأباضية المغرب الأوسط في القرنين الرابع والخامس الهجري"، مجلة حوليات الجامعة التونسية، العدد ٣٩، ١٩٩٥م، ص٣٠٥.

المثقفون الطرابلسيون في إطراء ومغازلة مزدانتين بالإجلال والتعظيم للدستور الذي غدا عند سليمان الباروني أساس الإصلاح والتحديث[1].

ويكشف ما سبق تعرض الباروني للمؤثرات الفكرية والتوجهات السياسية المشرقية والمغربية في آن واحد، واكتسابه هوية عثمانية وإسلامية متأثراً بكتابات وأفكار محمد رشيد رضا ومحمد عبدة وجمال الدين الأفغاني وعبد العزيز الثعالبي وابن باديس ومصطفى كامل[2] عن الرابطة الإسلامية ويوتوبيا الجامعة الإسلامية وفعاليات نقاشها المثار في أخريات القرن التاسع عشر والعقد الأول من القرن العشرين حول الدولة النموذج المنتظر حلولها محل الدولة العثمانية المتداعية وشروطها وطبيعة نظامها ، وهو ما ينعكس بجلاء في مقترحاته وأطروحاته النظرية في إنتاجه القلمي التأليفي، وفي مقالاته الصحفية، ومراسلاته مع المفكرين والمصلحين حول الدولة المثلى وتصوراتها[3].

٢. الصحافة

مثلت الصحافة قناة رئيسية نهل منها سليمان الباروني واتخذها مهنة ومساراً حياتياً وثقافياً، إذ دأب الباروني على قراءة الصحف ومتابعة ما كانت تنشره صحف الفترة، لذلك أسهمت الصحافة في لفت انتباهه إلى قيم ومفاهيم عصرية ، وعرفته بالحياة الدستورية والنيابية[4].

٣. الحياة النيابية والدستورية

---

(١) قاسم الجبيلي : المرجع السابق، ص٨٣.

(٢) تكشف رسالة بعث بها سليمان الباروني إلى محمد رشيد رضا ولع الأول بمطالعة آثار الأخير، لاسيما كتابه الوحي المحمدي، وقد جعلها المؤلف في مقدمة تقريظات كتابة تحت عنوان: كلمة عجلى لرب السيف والقلم العالم العلم سليمان باشا الباروني"، أنظر: محمد مسعود جبران : المرجع السابق، ص٢٦٢.

(٣) طرابلس، المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية، شعبة الوثائق الأجنبية ، ميكروفيلم رقم (٢٦٣)، مراسلات إلى وزارة المستعمرات في روما عن سليمان الباروني (١٩١٥ – ١٩٢٥م)، وثيقة رقم (٤)، مذكرة تتناول الحالة الشخصية لسليمان الباروني ورعويته.

(٤) علي مصطفى المصراتي، صحافة ليبيا في نصف قرن، بيروت : مطابع الكشاف، ١٩٦٠م، ص١٨.

مثلت الحياة النيابية والدستورية قناة ذات تأثير حيوي على سليمان الباروني الذي كان نائباً في مجلس المبعوثان العثماني خلال الفترة (١٩٠٨ – ١٩٢٠م)، إذ هيئات له عضويته فرصة الاطلاع على دقائق الأمور في الولاية، فضلاً عما تركته عاصمة الدولة العثمانية استانبول المنفتحة على الثقافات العالمية من مؤثرات على ذهنيته، وتطوير قدراته وطموحاته السياسية، نتيجة احتكاكه بشخصيات مهمة من بين المثقفين الأتراك الذي مثلوا قناة مهمة تمثل من خلالها الثقافة الغربية بعد أن أتقن اللغة التركية[1].

ثانياً: التوجهات السياسية لسليمان الباروني وانعكاساتها على موقفه من الخلافة العثمانية

كان سليمان الباروني صاحب ثقافة واسعة وتجربة سياسية ثرة عايشها في عدة أقطار إسلامية، فضلاً عن أنه شخصية قيادية محنكة، يمكن أن توصف بالثورية أو منظمة للثورة وللمقاومة الليبية بداخل القطر الطرابلسي، وبالجبل بوجه خاص، وأصاب شهرة واسعة في معظم أرجاء العالم الإسلامي، وكانت غايته السياسية تتوجه إلى إحداث تغيير في الثقافة السائدة في مجتمعه عبر وسائل وأدوات مؤسسية محددة، مثل : الدستور، الصحافة ، والتنوير الديني[2].

وقد يعين التحليل المنهجي لسيرته وآثاره بخاصة، كتابه الأزهار الرياضية عن الكشف عن تلازم البعدين المذهبي الإباضي، والإسلامي في تكوينه متداخلين مع البعد الثالث العثماني، ويُرى ذلك منعكساً في رؤيته للتحديث السياسي والاجتماعي وأدواته، كما تجسدت في معالجته للتأليف التاريخي، فقد

---

(1) عمر رمضان حمودة، أثر انقلاب ١٩٠٨م بالدولة العثمانية في المنحنى التحديثي للفئة المثقفة في ولاية طرابلس الغرب من ١٩٠٨ – ١٩١١م، طرابلس، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، ٢٠٠٦م، ص٧١.

(2) طرابلس، المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية ، شعبة الوثائق الأجنبية، ملف بحوث ومقالات ، وثيقة رقم(٩١)، مقابلة صحفية مع الباروني حول القسطنطينية والخلافة ، الناشر جريدة لاتريبونا الإيطالية (LATRIBUNA) تاريخ ٢ أبريل ١٩٢٠م (انظر الملحق).

سمحت سياحته في الجارتين تونس ومصر ووادي مزاب بالجزائر بتقوية انتماءاته الإباضية المتولدة لديه بالوراثة في الأساس، كما أكسبته رحلاته الأخرى في أصقاع العالم الإسلامي توجهه العثماني حيث، كان تسوحه في الحواضر الإسلامية مختبراً أظهر الحاجة لبروز الهوية الإسلامية لكونها أداة ضاغطة للناشطين السياسيين للخلاص من الاحتلال الأوروبي[1].

وهكذا، كانت هذه النمطية من الاتجاه السياسي المتوضع في دولتي الجوار القريب، وامتداداتها في البلدان الإسلامية البعيدة مسؤولة عن تشكل الوعي بالكيان العثماني لديه في ارتباط بالهوية الإسلامية، فقد أوحت إليه زياراته إلى تونس بفكرة التدرج في العمل الاجتماعي كأداة ناجحة للتغيير في البنية المحلية في ظل تصوراً رحب لإدماج الأقلية الإباضية واستيعابها، وإفساح المجال لها للمساهمة بإيجابية في تفاعلات المجتمع الإسلامي ويضمن لها حقها في صنع تاريخها وبناء مؤسساتها وترسيخ نفوذها[2].

وتحيل المتابعة الدقيقة لأفكاره وآرائه المنشورة في جريدته الأسد الإسلامي عام ١٩٠٧م، وجريدته الأخرى المسماة الباروني ١٩٢٠م، وفي الصحافة العربية في مشرق الوطن العربي ومغربه إلى الكشف العميق لتصوراته السياسية لمفهوم الجامعة الإسلامية والخلافة العثمانية، والمسألة الإباضية، والخلافات والصراعات الأهلية، وعوائق تطورها وطرائق إنجاحها، والمفترق والمتفق في ما بينها، وهو ما يكشف عن إمتلأ وفاضة بفكر سياسي حديث يعتمد الإصلاح وينادي بالتغيير والتطوير، ويطرح أفكار المشاركة السياسية أمام بعض الفئات والطبقات الاجتماعية في حدود تصوره لمبدأ الشورى في الحكم الإسلامي الذي يختص به أهل الحل والعقد، أما العامة فيجب تجنيبها ميدان المشاركة السياسية، ويعبر

---

(١) سليمان الباروني: الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية ، القاهرة: المطبعة البارونية ، ١٣٢٥هـ ، ص١٢.
(٢) عفاف أحمد الباشا، المؤرخون الليبيون في القرن التاسع عشر : دراسة في الثقافة والمنهج، بيروت: دار المدار الإسلامي، ٢٠٠٨م ، ص١٧٦.

تأكيده على الدورين القيادي للنخبة والانقيادي للعامة عن توجهه لبناء قاعدة اجتماعية تدعم أهداف المؤسسة القيادية العليا منتجة القرارات والسياسات، ويحمل العلماء الشبان مسؤولية الانشقاقات النخبوية، وينزه قمة النخبة عن استهداف تقويض المجتمع[1].

في حال ترتيب الأولويات الرئيسية في توجهات الباروني (الإبن)، فإن البعدين العثماني والإسلامي يأتيان في الصدارة، يليهما البعد المذهبي، ويتحدد البعد العثماني بالعالم الإسلامي الخاضع للسلطة العثمانية، بينما يتأطر البعد الإسلامي عنده بالفضاء الإسلامي مكوناً من الفضاء الأول العثماني مضافاً إليه الهند وبلاد فارس، أما التوجه الوطني فهو في وعي سليمان الباروني التاريخي مجالٌ للنفاذ إلى العالمين العثماني والإسلامي من جانب، وإطارٌ للانكفاء على الذات النفوسية البربرية الإباضية من جانب آخر، وهو ما يعكس قوة هويته الإسلامية المعززة بأدوات وآليات مؤسسية، وفي المقابل يكشف ضعف وتدني في هويته الوطنية المبددة المهترية بأباديد الجهوية المذهبية والإثنية[2]، وتحيل المتابعة التاريخية لسيرته على إيمانه بقدرة الإسلام على تحقيق الهوية الجامعة لأهل المغرب معتبراً إياه الوجه الخالص للوطنية[3].

ويتضح مما سبق، وجود مستويات عديدة من الولاء في شخصية سليمان الباروني تتساكن فيها أبعاد عدة إسلامية وعثمانية ومذهبية، تعمل في توافق، وتتفاعل في فضاء واحد، يعبر عنه مشروع الباروني السياسي على المستوى الجهوي الإباضي، والوطني القطري والقومي العربي :

---

(1) محمد مسعود جبران، سليمان الباروني ، آثاره ، ليبيا – تونس : الدار العربية للكتاب، ١٩٩١م، ص٤١.

(2) حول مفهوم الوطني في فكر سليمان الباروني ، أنظر: خالد سليمان الباروني ، الأثر الديني في فكر الشيخ سليمان الباروني ، قسم التاريخ ، أكاديمية الدراسات العليا، ٢٠١٠م، ص٩١.

(3) المرجع نفسه ، ص٩٢. وشدد الباروني في إحدى مراسلاته على تجنب العنصريات والعصبيات الضيقة ، الهادفة إلى طمس الشخصية الإسلامية المغربية عن طريق محاولات تنصير البربر في المغرب العربي ، لكنه لم ير بأساً في الانتساب إلى الهويات القبلية لكونه لا يترتب عليه انقسام، أنظر: أبو اليقظان: المرجع السابق، ص٢١١، ومحمد مسعود جبران: المرجع السابق، ص٢٦٨.

١. مشروع الباروني الجهوي الإباضي: مشروع تكوين إمارة مستقلة في الجبل الغربي

تشهد نشاطات عبد الله الباروني (ولد في كاباو ١٨٢٠م وتوفي في ١٦ أبريل ١٩١٣م) في الوسط الإباضي من جهة ، وتحركات ابنه سليمان من جهة ثانية على وجود مؤشرات لمشروع سياسي يستهدف تكوين دولة إباضية في الجبل وتأسيس إمارة مستقلة إحياءً للدولة الرستمية بالجبل، وقد تنبهت السلطات العثمانية عام ١٨٩٨م إلى هذا النشاط، فهل يشير هذا إلى مشروع منظم شارك فيه أعيان الإباضية من علماء ووجهاء ؟

استندت التهمة الموجهة إلى سليمان الباروني الذي اعتقلته السلطات العثمانية عام ١٨٩٨م بتهمة تدبير الانفصال بالجبل إلى جملة دلائل توضحها وثيقة اتهام رسمية صادرة عن مجلس الولاية قوامها : أسفار الباروني وزياراته ليتهرت عاصمة الدولة الرستمية، ومشروع كتابه الأزهار الرياضية في تاريخ الإباضية، ومراسلاته المشفرة مع والده، وتصدير مراسلاته بألقاب سلطانية مسبوقة لإسمه، مثل : السلطان الغازي، أبو الربيع سليمان الباروني، وصوغه لقانون معتمد لجمعية سرية، تسنى للسلطات كشفها من خلال مراسلة لأتباعه بالجبل[1]، فإلى أي مدى كانت تتجه أهداف سليمان وطموحاته ؟ وما مدى مصداقيتها ؟ تسمح بعض المؤشرات بترجيح تأطر الفكرة وأهدافها وأدواتها عند الباروني من خلال توجهه مع والده إلى دعم علاقاته مع علماء عصره من الوسط الإباضي سواء داخل الولاية أو خارجها، في جربة ومزاب وعمان من

---

(١) زعيمة الباروني، صفحات خالدة من الجهاد ، ج١، القاهرة: مطابع الاستقلال الكبرى، ١٩٦٤م، ص٨٧، وعفاف الباشا:المرجع السابق، ص١٧٢.

أمثال : سعيد الشماخي الوكيل التجاري للإيالة التونسية في مصر، والشيخ محمد بن يوسف اطفيش من بني مزاب، وسعي آل الباروني إلى توجيه الأنظار إليهم، وحماسهم الشديد في تقوية المذهب الإباضي، وتدشين المدرسة البارونية في يفرن عام ١٩٠٤م، وسعيهم إلى كسب النفوذين الإداري والاجتماعي، وهو ما يؤكد أن هذا المشروع هو مشروع مشترك بين الباروني الأب والابن تحت تأثير الضعف العثماني وترهل الدولة التي كانت تدرك الأبعاد السياسية والاجتماعية لظاهرة التأليف والتأريخ البارونية، وكانت تبحث عن أدلة مادية لتطويق مشروع آل الباروني[١].

وفي حين تؤكد الباحثة عفاف الباشا أن مشروع آل الباروني ليس إلا محاولة لتعزيز نفوذ العلماء الإباضيين في الجبل، وتطلبت خطة إدماج الأعيان في هذا المشروع توسعة العمل لتستهدف ظهور الإباضية كجماعة مذهبية متجانسة خاصة ذات حضور فعال موازية للأغلبية السنية، ومماثلة لإباضية بني مزاب في الجزائر، وإيقاف التحول الكاسح إلى المالكية، ودفع الدولة للاعتراف بالنفوذ الإباضي في الفضاء الجبلي بشكل دائم، فإنها تستبعد وجود مشروع انفصالي في أجندة آل الباروني السياسية، وتعلل انتفاء مشروعيته بسبب التركيبة القبلية القائمة على أساس حركة الصفوف التي تضم قبائل مالكية إلى جانب قبائل إباضية[٢].

أوجد الانسحاب التركي الرسمي من ليبيا بعد معاهدة أوشي لوزان في أكتوبر ١٩١٢، فراغاً سياسياً، برزت خلاله جماعات سياسية محلية حاولت أن تفرض نفسها في ظروف كانت خلالها جماهير الشعب تخوض النضال الدامي أمام العدو الذي باغتها، ولم تكن هذه الجماهير تملك حياله قيادة وطنية سياسية

---

(١) سليمان الباروني، الأزهار الرياضية، ص٣٠٢.
(٢) عفاف الباشا، المرجع السابق، ص١٦٣.

واحدة لقيادة الكفاح الوطني، ولذا حاولت هذه الزعامات التي طفحت على الساحة السياسية بناء إدارات وحكومات سياسية تحت نفوذها، غير أن تطورات الأحداث السياسية بفعل صلف الاحتلال الإيطالي قد أجبرت معظم هذه القيادات ومناصريها على الهجرة خارج البلاد، وفي طرابلس كما في برقة ظهرة قيادات عديدة أفرزتها الأوضاع الاجتماعية والسياسية، وهي قيادات متباينة وذات أطماع مختلفة لم تساعد على بروز قيادة واحدة لهذه الزعامات، غير أن الشيخ سليمان الباروني، وهو أحد القادة والزعماء السياسيين من الجبل الغربي استطاع تكوين إدارة له في المنطقة الواقعة بين الرابطة والوطية، متخذاً من الرابطة وجندوبة ومرتفعات أبو بدر مقراً لإدارته[1].

وجاء إعلان سليمان الباروني لاستقلال إقليمه استناداً إلى الفرمان السلطاني الذي منح البلاد حق الاستقلال متمشياً مع القرار الذي اتخذه فريق الرفض في مؤتمر العزيزية المنعقد في يوم ٢٥ أكتوبر ١٩١٢م[2].

ولأجل إضفاء الصبغة السياسية على هذا الاستقلال قام الشيخ سليمان الباروني بالإبلاغ عنه تلغرافياً لبعض الدول الأوروبية، ومنها بريطانيا وفرنسا وألمانيا[3]. كما أرسل وفوداً حُملت برسائل لحكومات هذه الدول من أجل الاعتراف باستقلال الإقليم الواقع تحت إدارته[4].

وبهذه الصورة ظهرت جبهة أخرى للمقاومة في غرب البلاد مكونة من مجاهدي الجبل الغربي والعجيلات وأولاد أبي سيف وزوارة وغيرهم، ويعكس تنظيم هذه الجبهة وعي سليمان الباروني بأن إدارته للصراع على أعلى المستويات

---

(١) طرابلس، المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية ، شعبة الوثائق العربية، ملف سليمان الباروني، رقم (٩)، وثيقة رقم (١٤)، رسالة الباروني إلى امبراطور الدولة الألمانية والمؤرخة في ٨ صفر ١٣٣١ هـ (١٩١٣م).

(٢) عز الدين عبد السلام العالم ، تاريخ ليبيا المعاصر السياسي والاجتماعي (١٩٢٢ – ١٩٤٨م) ، طرابلس : مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ،٢٠٠٠م، ص٤٦.

(٣) طرابلس ، المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية ، شعبة الوثائق العربية، ملف سليمان الباروني رقم(٩)، وثيقة رقم (٤٤)، برقية سليمان الباروني إلى وزراء خارجية الدول الأوروبية ، المؤرخة في ٢٧ ديسمبر ١٩١٢م.

(٤) الطاهر الزاوي ، جهاد الأبطال في طرابلس الغرب، ط٣، بيروت: دار الفتح لبيبا، دار التراث العربي، ١٩٧٣م، ص١٧٧.

سنسمح له في نهاية الحرب بالاتفاق مع الإيطاليين على إنشاء كيان مستقل في الجبل تحت سلطة بربرية، وهو الكيان الذي لم يوفق في الحصول عليه من الباب العالي[1].

وفي سبيل تحقيق هذه الغاية عمل على التخلص من معارضيه، مثل محمد فكيني، ونائب الجبل أحمد فاضل، وفرحات بي، ثم شرع في مفاوضة الحكومة الإيطالية، حيث عقد اجتماع في يفرن يوم ٨ نوفمبر ١٩١٢م، بين موسى قرادة، وسليمان الباروني، ويوسف خريبيشة، وسالم بالحاج من جانب، والكونت سفورزا (Sforza)، والفارس سان فليب (san filippo) عضوي البعثة العلمية الإيطالية اللذين كانا مسجونين بفزان أثناء الحرب الإيطالية التركية ، وقد أرسلوا إلى يفرن بعد أن تم الإفراج عنهم بموجب اتفاق السلام، وأثناء ذلك الاجتماع اقترح سليمان الباروني منح سكان الجبل الاستقلال غير المشروط، أو منحهم نوعاً من الحكم المحمي كما هو الشأن في مصر، لكن محاولته باءت بالفشل، برغم تجديده التفاوض بشأنها في باريس وروما عام ١٩١٣م، من قبل مفاوضية موسى قرادة وعلي الشنطة من جانب، والمهندس ديسي (Dessi)، والكونت سفورزا من جانب آخر[2].

وكان رئيس الحكومة الإيطالية جوليتي (Gioliti) شديد المعارضة لفتح مفاوضات مع الباروني، ورد على الوزير برتوليني (Bertolini) الذي ألح على الموافقة للبربر لإنشاء ولاية بحكم خاص بقادة منتخبين برسالة شديدة اللهجة تبخر على أثرها مشروع الحكم الذاتي للبربر، كما كان المحافظ راني (Ragni) والعقيد ليكوي (Leguio) يعارضان أي اتفاق مع البربر[3].

---

(1) المصدر السابق، ص١٧٨.

(2) انجلوديل بوكا، على مقربة من المشنقة: محمد فكيني والاستعمار الإيطالي (ملحمة الكفاح المسلح والنضال السياسي)، منشورات ميلالي ، ٢٠٠٨م، ص٤١.

(3) فرانشيسكو كورو: "سليمان الباروني : حلم تحقيق إمارة مستقلة في الجبل الغربي ومعركة الأصابعة ١٩١٣م" ترجمة د.إبراهيم أحمد المهدوي ، مجلة جامعة قاريونس العلمية، السنة الثالثة، العدد الرابع، ١٩٩٠م، ص١١٨.

وقوضت معركة جندوبة / الأصابعة يوم ٢٣ مارس ١٩١٣، أحلام سليمان الباروني وطموحاته السياسية التي كان يسعى إلى تحقيقها في الجبل حيث، أصدرت الحكومة المركزية الإيطالية قراراً رسمياً أعلنت فيه صراحة معارضتها الشديدة لقيام إمارة مستقلة بالجبل[١].

ولم تفلح محاولات سليمان الباروني تحريض زعماء القبائل على مواصلة الكفاح ضد القوات الإيطالية من أجل تحقيق حلم تأسيس إمارة مستقلة رغم تجاوب بعض الزعماء معه من أمثال، موسى قرادة، وساسي خزام، وأحمد الكور، وسليمان بن ساسي، وسالم البرشوشي، وسالم البارودي، وعيسى كوسة، ومحمد قرادة، وعثمان بن كافو، وعيسى بن يحيى ، ويوسف خريبيشة، وسواهم، بينما فضل زعماء آخرون العيش بسلام ورفع الأعلام البيضاء أمام القوات الإيطالية الزاحفة على الجبل، وهو ما يوضح وجود حالة من الإنقسام بين سكان الجبل حول تأسيس تلك الإمارة المستقلة ذاتياً التي لا يمكن أن تقوم بدون اعتراف الحكومة الإيطالية وإشرافها على الرغم من زعامة سليمان الباروني لتلك الإمارة، كما أن تأسيس مقاطعة مستقلة بالجبل لم تكن فكرة مقبولة لدى العرب، ولم يكن بمقدور الحكومة الإيطالية تحقيق مطالب البربر في إقامة إمارة مستقلة لهم، لأن ذلك سيستتبع منح الاستقلال الذاتي لكافة مقاطعات الإقليم الطرابلسي، بالإضافة إلى أن عملية انتخاب الزعماء المحليين بتلك المناطق تعد من العوامل التي سوف تقلل من سيطرة الحكومة، فلربما يؤدي ذلك إلى تعيين شخصيات تكون شديدة الولاء والتمسك بسليمان الباروني ومعارضة للحكومة الإيطالية مما يؤدي إلى نتائج سلبية لن تكون لصالح تهدئة سكان المستعمرة إطلاقاً[٢].

---

(١) المرجع نفسه.
(٢) المرجع السابق، ص١٣٥.

وعلى الرغم من امتناع حكومة طرابلس عن تأسيس إمارة مستقلة ذاتياً للجبل، فإن وزير المستعمرات بيرتوللينى ظل مقتنعاً بأن القاعدة الأساسية للمفاوضات لم تمانع في اختيار لائحة قرارات لتدارك المخاوف والعواقب من تلك المبادرة الخطرة على كيان المستعمرة السياسي، وكانت نتيجة اجتماع سليمان الباروني بزعماء قبائل العلالقة والعجيلات، والصيعان، والنوائل المخصص لمناقشة خضوع تلك القبائل جميعاً واستسلامها للسلطات الحكومية الإيطالية بطرابلس، هجرة سليمان الباروني ومحمد سوف المحمودي إلى تونس التي وصلها مع رفاقه في يوم ٩ أبريل ١٩١٣م، وقابل الكوماندانتور بوتسيني (Bottesini) قنصل إيطاليا حيث ، طلب منه امكانية معاودة المفاوضات مع روما، غير أن القنصل طالبه بضرورة الخضوع للحكومة الإيطالية، وفي تونس عقد سليمان الباروني مؤتمراً صحفياً مع بعض الصحف الفرنسية أعلن فيه تمسكه بالمطالبة باستقلال جبل نفوسة، وأشاعت الصحف الصادرة في تلك الفترة فشل المفاوضات من أجل استقلال الجبل، واستئناف الكفاح المسلح، وعبثاً حاول سليمان الباروني مقابلة وزير المستعمرات الإيطالية ،كما سعى للحصول على العفو العام من العقيد راني حاكم الإقليم الطرابلسي، والسماح له بالعودة مع رفاقه إلى إقليم طرابلس، لكن طلباته المتكررة بهذا الشأن جوبهت بالرفض[1].

ولما كانت شخصية سليمان الباروني مثيرة للمخاوف لدى الدوائر الاستعمارية كافة في الوطن العربي فقد راقبت تحركاته عن كثب، فالإيطاليون الذين احتلوا بلاده لاحظوا طموحة الجارف، فقرروا مراقبته وفرض الحراسة عليه ومنعه من العودة إلى وطنه، فيما لم يتوان الفرنسيون عن إبعاده عن الأراضي

---

(1) طرابلس، المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية، شعبة الوثائق الأجنبية، ميكروفلم رقم ٢٦٣، مراسلات إلى وزارة المستعمرات في روما عن سليمان الباروني (١٩١٥ – ١٩٢٥م) ، وثيقة رقم ٥٧، رسالة من ولاية طرابلس الغرب إلى وزارة المستعمرات ، تتضمن التقرير الذي حرره الرائد بوريللو (Borriello) عن اجتماعاته مع سليمان الباروني في نابولي بتاريخ ١٥ يناير ١٩٢٣م، وتشدد الوثيقة على أهمية ألا يرجع الباروني إلى طرابلس التي يرغب في الرجوع إليها بسبب فقدانه وظيفته في مجلس المبعوثان العثماني ، وترى أن وجوده في طرابلس الغرب كان دائماً ضاراً بالاستقرار، وترى أنه بوصفه موظفاً عثمانياً فهو أجنبي تماماً أو يكاد عن هذا البلد الذي يريد الرجوع إليه .

التونسية والجزائرية والسورية التي تحت سيطرتهم، أما البريطانيون فقد حرموه من دخول الأراضي المصرية[1].

وهكذا، فإن التفاوض مع المحتل أو مهادنته لتحسين شروط الاستسلام، أو الاستمرار في المقاومة وفقاً لنهج الباروني سارت في واقع الأمر في مسارات متوافقة مع شروط استمرارية زعامته المحلية والتفاوض على استحقاقاتها السياسية، فقد انتهى الأمر بسليمان الباروني إلى الاعتراف بحقوق إيطاليا على الأراضي الليبية، والتسليم بالهمة العالية التي تولتها إيطاليا في تلك الأراضي، كما أنه انغمس في السياسة البربرية الإيطالية بوعي أو بغيره تحت تأثير ادعاءات النهوض بالثقافة البربرية، ومقاومة دعاوى استغلال العنصر العربي للعنصر البربري، فما فتئ الباروني يبلور رؤية متقدمة للمسألة البربرية تعتمد على إعادة الاعتبار للغة البربرية وثقافتها وخصوصيتها بوصفها عنصراً تركيبياً للثقافة الوطنية كما أفرزها التاريخ، لكن الباروني ظل ينفي على الدوام في مساجلاته ورودوه الصحافية حقيقة مشروعة السياسي الهادف لإقامة إمارة مستقلة في الجبل، مؤكداً على أن قوام مشروعه هو الإسلام والوطن[2].

٢. مشروع الباروني الوطني القطري: مساهمة الباروني في مشروع الجمهورية الطرابلسية (نوفمبر ١٩١٨ – أبريل ١٩١٩م)

مثلت تجربة الجمهورية الطرابلسية التي استمرت عملياً حوالي سنة ونصف من مؤتمر مسلاتة في ١٦ نوفمبر ١٩١٨م إلى مؤتمر سواني بن يادم في أبريل ١٩١٩م، محطة رئيسية في تاريخ التجربة السياسية لسليمان الباروني ، ولغيره

---

(1) طرابلس، المركز الوطني للدراسات التاريخية الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية ، شعبة الوثائق الأجنبية ، ملف ميكروفلم رقم (٢٦٣)، مراسلات إلى وزارة المستعمرات في روما . وثيقة رقم ٦ برقيات ورسائل متبادلة بين مختلف الدوائر في إيطاليا وليبيا والقسطنطينية تتحرى في مدى ثقة سليمان الباروني وميوله السياسية.

(2) جريدة الأمة، العدد ١٠٨، ١٩٣٧م، والعدد ١٣٤، ١٩٣٥م.

من الزعماء الطرابلسيين بين سنتي ١٩١٨م، ١٩٢٤م، وقد فشلوا خلالها في تجاوز قيود الجهوية الضيقة في العمل السياسي الوطني ، فخلال شهر أكتوبر ١٩١٨م، لاحظ سليمان الباروني ضعف القوة العسكرية العثمانية في جبهات القتال المواجهة للقوات الإنجليزية والإيطالية، وتهاوت بذلك آمانيه في عودة العثمانيين إلى طرابلس خاصة عندما توقفت الغواصات الألمانية عن إمداد المقاومين بأدوات القتال، وشروع ممثل السلطان العثماني الأمير عثمان في إجراءات مغادرة البلاد، وهو ما وضع البلاد فجأة في حالة فراغ سياسي ناشئ عن الانهيار المفاجئ للنواة القيادية الموحدة التي مثلها الأمير عثمان التي تحولت إلى مركز استقطاب بالنسبة لأغلب الكتل القيادة وعلى رأسها سليمان الباروني الذي حصل منذ عام ١٩١٦م، على تفويض من الباب العالي بمنحه صفة ممثل السلطان العثماني في ليبيا، مستغلاً هذا التفويض في إعادة ترتيب علاقاته بالزعماء المحليين، وهو ما أدى إلى توتر العلاقة بينه وبين محمد فكيني[1].

ولدت فكرة الجمهورية عند طرح مشكلة ملء الفراغ السياسي المستحدث بأثر التخلي العثماني النهائي عن طرابلس سنة ١٩١٨م، وربما يكون عبد الرحمن عزام قد ناقش هذه الفكرة بصورة عجلى مع سليمان الباروني، وبعض الضباط العثمانيين المرافقين للأمير عثمان، ويبدو أن اقتراح النظام الجمهوري على الزعماء الآخرين مثل مفاجأة بالنسبة لهم أو مكيدة، وكانت المعضلة الكبرى التي واجهت تنفيذ الفكرة المقترحة هي انتخاب رئيس الجمهورية، وكان الحل الذي وُفق إليه المجتمعون هو انتخاب مجلس رئاسة مكون من أربعة زعماء أُطلق عليه مجلس الجمهورية، يضم : سليمان الباروني (الجبل الغربي) ورمضان السويحلي (مصراته)، وعبد النبي بالخير (بني وليد)، وأحمد المريض (ترهونة)،

---

(١) انجلوا ديل بوكا: المرجع السابق، ص٤٥، د. المولدي الأحمر، الجذور الاجتماعية للدولة الحديثة في ليبيا : الفرد والمجموعة والبناء الزعامي للظاهرة السياسية ، بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٩م، ص٣١٧.

وكانت التجربة الزعامية والسياسية الثرة لكل واحد منهم تدفع باتجاه تعزيز التوجهات الإقليمية البدوية الصراعية، ورغم أن سليمان الباروني لا يتحدر من وسط بدوي، ويتوفر على ثقافة سياسية متجاوزة للثقافة القروية والبدوية لفضائه الجبلي ومتساكنيه، إلا أنه تورط في حروب محلية وأعطى فرصة للمجموعات التي تزعمها كي تمارس هذه الصراعات، وفق ثقافتها البدوية النازعة للصراع وفي إطار مبدأ الاستقلالية ، كما تأججت صراعات أخرى بين أعضاء مجلس الجمهورية ، واتهم بعضهم بعضاً بالخيانة والتعاون مع قوات الاحتلال[1].

ولم يأت أبريل ١٩١٩م حتى تخلى الزعماء عن مشروع الجمهورية، وانخرطوا في مباحثات مع سلطات الاحتلال في سواني بن يادم في أبريل ١٩١٩م، لضمان بعض الحقوق المدنية والسياسية، وتشكيل حكومة محلية تتولى بشكل ذاتي إدارة الشؤون العامة تحت السيادة الإيطالية، وفي الوقت الذي رفض فيه سليمان الباروني الانضمام إلى هذه الحكومة بشكل مباشر، فإنه أدخل أحد أقاربه ضمن تشكيلتها وهو الشيخ يحيى الباروني، ولما كان دخول منافسيه الكبار، مثل : محمد فكيني الرجباني، وعلي الشنطة الزنتاني، وأحمد الفساطوي، والهادي كعبار الغرياني، إلى هذه الحكومة محدداً لنفوذ سليمان الباروني في الجبل الغربي، فسرعان ما اندلعت الحروب بين المجموعات التي يتزعمها سليمان الباروني، والأخرى الخاضعة لزعامة محمد فكيني لإعادة التوازنات القبلية إلى سابق عهدها وفي خضم هذه الصراعات الدامية توقف نشاط الحكومة الطرابلسية،وتعطل القانون الأساسي الذي قامت على أساسه حكومة القطر الطرابلسي لانعدام الاستقرار والتهدئة[2].

---

(١) طرابلس، المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية، شعبة الوثائق الأجنبية ، ميكروفلم رقم (٢٦٣)، مراسلات إلى وزارة المستعمرات في روما عن سليمان الباروني (١٩١٥ – ١٩٢٥م)، الوثيقة رقم(٣١)، رسالة من سليمان الباروني إلى وزير الدولة رومي (Rosi) لشؤون المستعمرات ، بتاريخ ٢٤ يناير ١٩٢١م.

(٢) كتب سليمان الباروني إلى السلطات الإيطالية ما يظهر جلياً احترامه للدستور الممنوح لليبيين عام ١٩١٩م، وتوعد الخارجين عليه أو الساعين للمساس به بالتأديب الشديد سواء أكانوا من علية القوم أو من مرؤوسيهم ، كما أثنى الباروني على التعليم الأساسي الإجباري ، وطرح على المسؤولين حاجة البلاد إلى طرق مواصلات لتفعيل العلاقات التجارية .

ولم تفلح محاولات الزعماء الطرابلسيين المجتمعين في مؤتمر غريان في يوم ١٧ نوفمبر ١٩٢٠م، في إخماد الحرب الأهلية الطاحنة في الجبل وتحقيق المصالحة الوطنية المنشودة لغياب قطبا الصراع سليمان الباروني ومحمد فكيني اللذان ظلا خارج اتفاقات المؤتمر وغير معنيين به، كما رفض سليمان الباروني مبادرة المؤتمرين إلى توحيد الزعامة الوطنية في شخصية توافقية حظيت بتزكية واسعة، هي شخصية إدريس السنوسي، لذلك تعطلت الفكرة التي نودي بها في بيان المؤتمر الختامي سنتين أخرتين إلى حين انعقاد مؤتمر سرت ١٩٢٢م، بعد أن غادر سليمان الباروني البلاد بصفة نهائية[١].

٣. الاتجاهات العربية عند سليمان الباروني : آراؤه حول مشروع المؤتمر العربي العام (١٩٣٢م)

في ظل ظروف الإحباط والاحتلال والتجزئة ظهر عدد من المفكرين العرب الرواد ممن يحمل لواء الدعوة للقومية العربية[٢]. وكان سليمان الباروني قد انجذب إلى هذا الفريق، ولم تخرج أفكاره عن القومية العربية والوحدة العربية عن نظرة الرواد الأوائل للقومية العربية، وهو ما يتضح من متابعة آرائه حول بعض القضايا العربية المعروضة للمناقشة في المؤتمر العربي العام، بعد تلقيه خطابين من قادة العرب في فبراير ١٩٣٢م يطلبون بيان رأيه في تلك القضايا[٣].

ويؤكد سليمان الباروني على أن أعمال المؤتمر العربي المزمع عقده حينها يجب أن تتحدد في المساعي الموصلة إلى تحرير البلاد العربية المستعمرة بشكل

حتى يعم البلاد الاستقرار والتفاهم، أنظر: طرابلس: المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية ، قسم الوثائق الأجنبية، ميكروفلم رقم (٢٦٣)، مراسلات إلى وزارة المستعمرات في روما عن سليمان الباروني (١٩١٥ – ١٩٢٥م)، وثيقة رقم (٧)، مقابلة صحفية مع سليمان الباروني ، بتاريخ ٢١ نوفمبر ١٩١٩م.

(١) المصدر السابق، وثيقة رقم (٢٥)، برقية سرية من ميركاتللي (mercatelli) في طرابلس إلى وزارة المستعمرات بتاريخ ٢ يناير ١٩٢١م.

(٢) إبراهيم أحمد العدوي، قادة التحرير العربي في العصر الحديث ، القاهرة، نهضة مصر، ١٩٥٨م، ص٢٧.

(٣) أبو اليقظان الحاج إبراهيم : المرجع السابق، ص١٥٤.

تفاوتي تمايزي تدريجي بين تلك البلدان أخذاً في الاعتبار لسياسة الاستعمار الأوروبي المتباينة تجاه كل قطر، فهناك حاجة ماسة لرفع الحماية الفرنسية عن مراكش وتونس بصورة عجلى، أما الجزائر فتتطلب انتداباً مؤقتاً تحت حكومة وطنية برئاسة أمير وطني، وفي طرابلس يعتقد بضرورة تنفيذ قانونها الأساسي، وتحقيق استقلالها الداخلي الذي صالحت عليه إيطاليا في عام ١٩١٩م، وكانت مصر الدولة الوحيدة التي تستحق الاستقلال التام الناجز برأيه، في حين تحتاج سوريا إلى ضم أجزائها المبعثرة تحت لواء واحد مستقل ، أما فلسطين فأساس إرساء دولتها هو إلغاء وعد بلفور[١].

وهكذا، يتضح طرح الباروني لمسألة التدرج في وصول الممالك العربية للاستقلال، ومن تم الانتقال إلى وضع أساس الاتحاد الجامع وربطها مع بعضها في شكل تعاهدي عن طريق التفاهم مع رؤساء الكتل الحزبية السياسية لكونهم يمثلون أممهم تمثيلاً مقدراً عند المستعمر[٢]، ورأى الباروني أن الاشتغال بمناقشة توحيد مسميات الحكومات العربية، وتوحيد أعلامها، وغيره من المسائل مما حوته بنود المؤتمر الأربعة والعشرين، يعد مضيعة للوقت، لكونها أموراً ثانوية تلحق تحرير البلاد ولا تغير من مركز المستعمر وحقيقة الاحتلال[٣].

٤. توجهات الباروني التحديثية

تطرق سليمان الباروني في كتابه الشهير الأزهار الرياضية إلى موضوع تحديث الدولة، والنهوض بمجتمعها، وهو الموضوع الرئيسي كما يبدو الذي تدور حوله محاور الكتاب، وكان يتوجه في دعوته التحديثية إلى إصلاح المجتمع العربي والإسلامي عامة، وكانت تجربته مستوحاة من مشاهداته وأسفاره ورحلاته

---

(١) المرجع نفسه ، ص١٥٧.
(٢) المرجع نفسه، ص١٥٨.
(٣) المرجع نفسه ، ص١٥٩.

العربية والأوروبية، وأيضاً بتأثير تجاربه الخاصة التي عاشها أثناء تقلده للوظائف السياسية السامية في ليبيا وفي عُمان، ومن ثم لم تكن أفكاره مجرد تصورات نظرية تجريدية بل كانت ممارسة حية التزم فيها بقضايا وطنه وهموم أمته[1].

طرح الباروني معالجة واقعية لموضوع الحريات السياسية ، وقانون الدولة، والملل والمذاهب وإصلاح المنظومة التربوية، والاقتباس الانتقائي عن الغرب بما يحقق المصالح المتجددة المسايرة للعصر، وتنظيم الاقتصاد، ولكونه سر ازدهار الدولة ولغز اطمحلالها، فهو الذي يمنح الدولة القدرة على النهوض، لكنه يقف باستمرار وراء تشتت الجماعة الواحدة لاسيما بين العامة أو الجماعات المهمشة[2].

كما يكشف أدب الباروني نزعاته السياسية الإصلاحية، وثورته على الإفلاس والتخلف الذي تلبست به أمته، ويدلل أيضاً على الطموحات الواسعة التي كانت تجول في نفسه التي أذهلها تقدم الغرب الحضاري، وترسم لنا الآمال التي كان يرجوها لوطنه من ظهور المنتجات التقنية الحضارية، مثل السكك الحديدية، والكهرباء، والهواتف، وشيوع الصحافة، وازدهار الصناعات[3]. والملاحظ على نزعة الباروني الإصلاحية مع تعويله على العمل الفردي، إيمانه بأن الإصلاح الفعلي إنما يتم من القمة "الخلافة والخليفة" ويتحقق بولاة أمر المسلمين الذين إذا هُدوا إلى الحق هُديت معهم رعيتهم، وهذا وحده خير ما يفسر تعلقه بالخلافة الإسلامية ومدحه المرسل للخليفة عبد الحميد الثاني، ويعلل دعوته الملحة للأمير محمد باي الناصر حاكم تونس لزيارة القسطنطينية، وكافة

---

(1) الأزهار الرياضية، ص٨٢.
(1) المرجع السابق، ص٨٣.
(2) محمد مسعود جبران: المرجع السابق، ص٩٣.

ولاة الأمر والساسة المسلمين إلى الالتفاف بدار الخلافة، وإلى ندبهم للأخذ بأسباب النهضة والإصلاح في بلدانهم[1].

ويبدو أن الباروني وإن كان قد نهج نهجاً تحديثياً إلا أنه غلبت عليه اتجاهاته المحافظة من خلال رفضه للثورة أياً كانت مسبباتها، وجعل الإصلاح شأناً من شؤون علماء الأمة، أما العامة فليس لها إلا تقديم الشكوى وطلب إصلاح شؤون الأمة، وتظهر معالجته الإصلاحية نوعاً من التوفيقية بين الوفاء بمتطلبات التحديث والتغيير، والمحافظة على أبجديات السلطة الرسمية، وهو ما جعله يؤكد على أن عملية التحديث وآلياتها تعد شأن من شؤون النخبة التي تديرها تحت إشراف الدولة[2].

فهل ما سبق يلمح إلى بروز اتجهات علمانية في مسار الفكر الباروني ؟ إذا كانت العلمانية في سياقاتها التاريخية تعني فصل الدين عن الدولة أو عن مؤسساتها، ونزع القداسة عن كل ما هو مقدس من قيم رمزية، فإن الباروني قد أخذ بجانب منها ذي صلة تحررية تتصل بالخروج عن تقديس القيم الرمزية السياسية التقليدية، لكنه ظل ملتزماً بعدم الفصل بين الدين والدولة منخرطاً في إطار سلفي أصولي[3].

ثالثاً: موقف سليمان الباروني من الخلافة العثمانية

إن موقف سليمان الباروني من الخلافة العثمانية، يعد في الحقيقة امتداداً لتوجهاته الإصلاحية التحديثية، وتتنزل مواقفه في محيط سياسي، مما يجعلنا نقسمه إلى أدوار ثلاثة مسايرين في ذلك تطور الأحداث السياسية في البلاد العربية والإسلامية.

---

(1) المرجع نفسه، ص٩٥.
(2) المرجع نفسه، ص١٦١.
(3) المرجع نفسه ، ص١٦٢.

١. ١٨٩٨ – ١٩٠٨م : من اعتقال سليمان الباروني إلى إعلان الدستور العثماني.

٢. ١٩٠٨ – ١٩٢٤م : من استبداد الاتحاديين بالحكم إلى إلغاء الخلافة.

٣. ١٩٢٤ – ١٩٤٠م : من استفحال أمر "العلمانية" إلى وفاة سليمان الباروني.

وقد امتاز كل دور بموقف سياسي معين تجاه مشكلة البحث.

١. الدور الأول : ١٨٩٨ – ١٩٠٨م: من اعتقال سليمان الباروني إلى إعلان الدستور العثماني

يتمحور الفكر السياسي الباروني حول الخلافة العثمانية في إطار غير منفصل عن نظرية الإمامة/ الخلافة، لدرجة يمكن القول أن فكره السياسي الإسلامي هو موازٍ لتطور نظرية الإمامة، التي يفضي تقصيها عنده إلى استنتاجين، هما : حضور الحاكم وغياب المحكوم، فالعلاقة بين الطرفين هي أحادية الجانب فنادراً ما يتم استحضار المحكوم في فكر الباروني الإباضي، فالأمة عنده لا تشمل جميع المحكومين، بل نخبة يتم اصطفاؤها نتيجة عوامل محددة، وتحمل عنده مصطلح " أهل الحل والعقد "[1]، وربط سليمان الباروني في معالجته للتاريخ العثماني بين الخلافة ببعديها الديني والدنيوي، لكنه ظل مؤيداً للدستور والمبادئ الجديدة في الحكم، في إطار مؤسسة الخلافة التي تتولى الإشراف على البعدين الديني والدنيوي مفضلاً استخدام مصطلح الإمامة الشائع السير في التقليد الإباضي ليعبر عن تلازم هذين الجانبين، خلافاً للدارج

---

(1) يستعمل الفكر السياسي السني أيضاً مصطلح الخلافة بنفس مصطلح الإمامة ، أما في الفكر الشيعي فيتم التمييز بين الخلافة التي لا تفيد إلا معنى النيابة بعد النبي، أما الإمامة فتفيد إضافة إلى ذلك السلطة المستمدة مباشرة من الله، ولم تكن الخلافة / الإمامة هي النمط الوحيد المعترف به كشكل للحكم بل ساير الفكر السياسي العربي الإسلامي التجربة التاريخية للأمة، وأقر شرعية السلطنة كشكل من أشكال الحكم في الإسلام ، للمزيد أنظر: ضريف محمد، تاريخ الفكر السياسي بالمغرب: قراءة تأسيسية ، الدار البيضاء : أفريقيا الشرق، ١٩٩٠م، ص٣٧.

المستساغ من ربط للخلافة في البعدين الديني والروحي لدى بعض المفكرين المسلمين المعاصرين له، مثل : جمال الدين الأفغاني، ومحمد رشيد رضا، وهذا يوضح أن سليمان الباروني لم ير شأنه شأن مفكري النهضة الإسلامية تعارضاً بين الديمقراطية الغربية، وبين نظام الحكم في الإسلام القائم على الشورى والحقوق والحريات، والقانون المدني بمعزل عن الأعراق والملل والمذاهب[1].

لا يرفض الباروني ابتداءاً الشكل الوراثي للحكم، إذا استحق المورثون الخلافة لا من مبدأ الوراثة، ولكن من منطلق الأهلية والكفأة المتأتيتان من الإعداد التربوي لهذا المنصب الرفيع، وفي ما يتعلق بالخلافة العثمانية، فالبرغم من أنه لم يشكك في شرعيتها صراحة، فإنه فرق مثلما فعل غيره من المفكرين المسلمين بين إمامة الشورى والرضا بين المسلمين، وبين مُلك انتزع بالقوة، وهو ما قد يحيل إلى التشكيك في شرعية الخلافة العثمانية، وتعد الإشارة إلى المشكل المذهبي الإباضي عند سليمان الباروني بحسب عفاف الباشا نوعاً من الإيماء إلى تفريط الدولة في واجباتها الشرعية، لكن هذا الاتجاه الباروني لا يؤشر دائماً إلى مطاعن عميقة في شرعية الخلافة العثمانية، ولا يمكن إدراجه ضمن مخطط عملي في مشروعه الذي تأطرت معالمه أولاً في إيمانه بالتغيير التدريجي الذي سيحققه القانون والصحافة والتنوير الديني، وثانياً في بقاء مؤسسة الخلافة في مواجهة الغرب، وهو الأمر الذي اختبرت فعاليته في العالم الإسلامي من خلال أطروحة الجامعة الإسلامية، أما الوجه الثالث، فيُظهر الدولة العثمانية بوصفها راعية لمؤسسة الخلافة[2].

---

(1) المرجع نفسه ، ص١٨٩.
(2) المرجع السابق نفسه.

٢. الدور الثاني ١٩٠٨ – ١٩٢٤م: من استبداد الاتحاديين بالحكم إلى إلغاء الخلافة

لقد كانت فاتحة هذا الدور الثاني إعلان الدستور العثماني ٢٤ يولية ١٩٠٨م، مع ما تبعه من خلع السلطان الأحمر عبد المجيد الثاني (٢٧ أبريل ١٩٠٩م)، وخاتمته إلغاء مصطفى كمال للخلافة العثمانية (٣ مارس ١٩٢٤م)، وهو دور تميز بموقف قوي متين لسليمان الباروني من الخلافة العثمانية وتعزيز مقامها، وخير مثال يجسد وفاءه لهذه المسألة والتزامه بها مقاله المنشور تحت عنوان : **الجامعة الإسلامية وأوروبا والمذاهب في الإسلام**[١]، لا يسلم الباروني في مقاله المذكور الناقد بإمكانية تطبيق فكرة الجامعة الإسلامية ابتداءً بسبب كثرة الشعوب المسلمة، وتأسيس الإمارات، وتوسع ظاهرة التمذهب، وما صاحب ذلك من الفساد السياسي والمذهبي، مع تأكيده على السبب الرئيسي المعوق لظهور الجامعة الإسلامية، المتمثل في ما كان يجري بين أمراء الجزيرة العربية وبين الدولة العثمانية، رغم إيمانه بأهمية الجامعة الإسلامية وعمله لإزالة العقبات الكأداء التي كانت تقف دون تحقيقها[٢].

وعندما توقفت جريدته الأسد الإسلامي عن الصدور، والتحق الباروني بمنصبه في عضوية مجلس المبعوثان (١٩٠٨ – ١٩٢٠م)، أسهم ببعض المقالات في جريدة " دار الخلافة " التي كان يصدرها بلديه عبد الوهاب عبد الصمد، كما أنشأ جريدة وطنية قومية اتجهت إلى إظهار الولاء للخلافة، والرد على العلمانيين، كما ناقش الباروني قضية الخلافة ومقاصد الاستعمار من تفتيت الأمة في مقال نشره في جريدة الصواب التونسية تحت عنوان " **معاهدة الحجاز**

---

(١) الأسد الإسلامي، العدد الأول، (أنظر الملحق).
(٢) المصدر السابق.

الحسينية الإنجليزية "[1]، وكان الانقلاب الدستوري عام ١٩٠٨م، قد آثار شعور الغبطة والابتهاج في نفس الباروني، وفي أكتوبر ١٩٠٨م، ألقى الباروني خطبة في مجلس المبعوثان ذكر فيها بحياة الخليفة عبد الحميد الثاني واستنزافه للأموال العامة الأمر الذي برر عدله وعد الباروني اعتراض البعض على هذا العزل في غير مصلحة الدولة، وفي هذا الطور أقام الباروني علاقة مع رجال الحكم العثمانيين من أعضاء جميعية الاتحاد والترقي، وصار رئيساً لجمعية الاتحاد والترقي فساطو[2].

وبعد الاحتلال الإيطالي للبلاد عام ١٩١١م، ومعاهدة أوشي لوزان في أكتوبر ١٩١٢م، التي اعترفت فيها ايطاليا دون أي تحفظ ولا حذر، كما يعتقد ألدو براندينو (A.Prandino) في كتابه سياسة إيطاليا الإسلامية في ليبيا – بسلطة الخليفة الروحية في ليبيا، وضمان الدعوة له في الصلوات العامة، وهو ما يعني في الحقيقة إعطاء الحق له في تمديد سلطته في الإقليم المتنازع عليه، والتمكين للديوان العثماني، أي لحزب آخر إمبراطوري النزعة تابع للباب العالي، لذلك أبدت إيطاليا اشمئزازاً لا يمكن التغلب عليه تجاه تدخل الخليفة في شؤون مستعمرتها، وارتباط رعاياها من المسلمين بعلاقات مع القسطنطينية[3].

وكان ما سبق دافعاً لإيطاليا لتقلد مسؤولية إدارة الحياة السياسية والمعنوية للعالم الإسلامي بواسطة اطلاق مراكز ومؤسسات ثقافية مختلفة، واستقلالات قضائية ودينية، وعزل القسطنطينية، ومنع الخلافة التي تسكنها من مزاولة نفوذها المتطرف– كما تعتقد – على الأهالي، لا سيما النخبويون منهم من أمثال سليمان الباروني ومن على شاكلته ممن يوالون الخلافة العثمانية [4].

---

(1) محمد مسعود جبران: المرجع السابق ، ص٢٩٧.
(2) خالد سليمان أبو رأس: المرجع السابق، ص٦٥.
(3) Aldo prandino malrezzi , L,Italla ei,islamin libia, firense– Milano, fratell: Treves, Editori, 1913, p190.
(4) Ibid, p.191.

ولم يكن أمام سليمان الباروني وهو يقاوم الاحتلال منذ نزوله السواحل الليبية عام ١٩١١م، إلا أن يعتمد السلاح ذاته الذي استعمله المستعمر، ونعني به المجال الرمزي من دين ولغة وتراث، شأنه في ذلك شأن معظم الزعماء الذين قادوا الحركات الوطنية في المغرب العربي الذين وعوا الاستعمار وصورته باعتباره اجهازاً على الأنا العربي الإسلامي في صورته الثقافية، وليس محصلة لتطور منظومة ظلت تتفاعل مقوماتها منذ القرن السادس عشر[١]، وبناء على هذا التقليد الذي اصطبغ به الفكر الباروني، وقع اللجوء إلى موضوع الهوية حيث، حظي بعد الدفاع عن الهوية في خطاب سليمان الباروني بمكانة متميزة، وهو الواقع الذي تؤكده الوثائق المؤرخة لمسيرة نضاله الوطني، وتشهد عليه انتاجاته الفكرية التي وجهت نشاط حركته النضالية وأطرتها سياسياً وفكرياً، فالاصرار على أن تحافظ الهوية الإسلامية على قوامها المستقل لم يكن في صلب نشاطه الوطني، ولا حتى في جذوره الاجتماعية فحسب، بل غذت الهوية الإسلامية محور دعوته إلى تنسيق العمل، واستثماره فكرة الجامعة الإسلامية، والرابطة العثمانية[٢].

وتبنت السياسة الإيطالية الدينية نظام ديني في ليبيا ممثل للنظام النمساوي المجري أو مطابق تماماً له المعلن عنه في ١٥ أبريل ١٩٠٩م، ورأت الإدارة تجنب الدخول في أية خلافات دينية ، والتقليل من سلطة خليفة القسطنطينية الروحية وسلطة شيخ الإسلام، وإقامة علاقات مع مشائخ الحركة الدينية الإسلامية والزعماء الدينيين[٣].

---

(1) Roberto Cantalapo: L,Italia Musulmana , Lavoce Ahonima Editrice, Roma, 1928, PP.149 – 292.

(٢) د. امحمد مالكي: الحركات الوطنية والاستعمار في المغرب العربي ، بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٤م، ص٢٩٢.

(3) Masdi, A, "L,indizzo Della Politica Indigena in Libia", Nuova Antologia, Quintaripm Marzo- APrile, 1912, vol. Civ. III , P.683.

ولعل ما سبق يقودنا إلى البحث في المنطلقات الفكرية التي أطرت رؤية سليمان الباروني إلى الآخر الأوروبي باعتباره عدواً كافراً، لا يمكن أن يواجه إلا بالعودة إلى الدين على نهج السلف الصالح، ويرى أن قوة العدو المحتل قمينة بأن تُقهر، ويقع تجاوزها بإقامة تعليم يصون للغة روحها ويحفظ للثقافة أصولها ومكوناتها العربية الإسلامية، فهل تم تفكير سليمان الباروني في موضوعات الوحدة الإسلامية بعقل ما ضوي تراثي إسلامي ويتحرك ضمن اشكالياته ؟ أم اعتمد تفكيره الإطار المرجعي للمركزية الأوروبية الحديثة ؟

يكشف الاستقراء التاريخي انشداد الباروني إلى النموذجين معاً إذ بقدر ما شكلت التجربة العربية مصدره الفكري، بقدر ما استهوته بعض المظاهر المشرقة في الفكر السياسي الأوروبي، مثل : الديمقراطية، والدستور، والحريات، والصحافة، وهي الازدواجية التي يمكن أن نعاينها في أكثر من سياق ومقام في كتابة الباروني وإنتاجه الفكري[1].

وفي أثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ – ١٩١٨م) لعبت فكرة الجامعة الإسلامية مرة أخرى دوراً مهماً في سياسة سليمان الباروني تجاه الدولة العثمانية، حيث عول سليمان الباروني عليها في حشد المؤيدين للحرب المقدسة التي يتزعمها، بينما كانت الفكرة ذاتها أداة لخلق الولاء العميق للدولة العثمانية لدى الأهالي في الولاية دعماً لحربها مع الدول الأوروبية، فأقنعت سليمان الباروني بالرجوع إلى الوطن بعد أن اضطر للهجرة إثر معركة جندوبة يوم ٢٣ مارس ١٩١٣م، كما سبقت الإشارة، وكان سليمان الباروني ممن يولي أهمية كبرى للاشتراك في حروب الدولة العثمانية، وإزاء ذلك تبناه الباب العالي للمناداة بالجامعة الإسلامية في ليبيا عام ١٩١٦م، وعُين والياً على البلاد الأمر الذي عزز من وضعه السياسي والاجتماعي بين بقية الزعماء وفي أوساط المجاهدين،

---

(1) الأزهار الرياضية، ص٧٥ – ٧٧.

لكنه وُجه بالقوى المنادية بالتوجهات المحلية، وفي عام ١٩١٧م، كان الباروني عاجزاً عن الحصول على مساندة ودعم الزعماء الطرابلسيين، وإقناع مسانديه بالوقوف إلى جانب فكرة الجامعة الإسلامية، وهو ما يؤشر إلى أن قوة التيار المحلي كانت أشد وأقوى مما بدأ له وللدولة العثمانية، وكان استسلام الدولة العثمانية عام ١٩١٨م، ضربة قاصمة للتيار المنادي بالجامعة الإسلامية[١].

وفي أبريل ١٩٢٠م، انتقل سليمان الباروني إلى روما حيث قدم مذكرة احتجاج حول قرارات الحلفاء بشأن مصير القسطنطينية إلى متصرفي دول التحالف جميعهم، وتضمنت المذكرة التي وصفتها الصحافة الإيطالية بالتاريخية توقعات جد خطيرة كردة فعل على القرارات المتخذة أو التي هي على وشك أن تتخذ من طرف الحلفاء، وأكد في حديثه إلى الصحافة الإيطالية، أن في حالة إصرار دول التحالف على رأيهم بخلع الخلافة من القسطنطينية، فإن الانطباع في العالم الإسلامي سيكون جسيماً، وربما تسبب في أحداث دموية[٢].

وأشار الباروني في مذكرته إلى ما كشفت عنه دول التفاهم والوفاق في يوم ٤ يناير ١٩٢٠م المنشورة في جريدة لاتريبونا الإيطالية يوم ٢ أبريل ١٩٢٠م، فيما يتعلق بالعالم الإسلامي ، إذا تم تحويل عاصمة تركيا إلى الأناضول، وبقي السلطان في القسطنطينية بصفته الخليفة، وهو ما يجعله لعبة تتلهى بها دول التحالف، مثل باي تونس وسلطان المغرب، ثم ينتقل إلى توضيح أثر ذلك على المسلمين الذين قد يثورون لتحرير الخلافة والخليفة، ويتوقع حال تدمير القسطنطينية أن تتحول عاصمة كل دولة إلى ملجأ، وستتضاعف مقار الخلافة

---

(١) عقيل محمد البربار: دراسات في تاريخ ليبيا الحديث ، مالطا: منشورات إلجا (EKGAK) ، ١٩٩٦م، ص١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧.

(٢) طرابلس: المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية ، ملف بحوث ومقالات مترجمة، مصدر سابق ، مذكرة سليمان الباروني إلى دول التحالف أبريل ١٩٢٠م.

في آسيا كلها وينبه أوروبا إلى أن المسلمين لا يمكنهم السماح لأية دولة مسيحية بالتدخل في تعيين الخلافة أو إعادة بنائها وفقاً لمخططاتها[1].

ويتبين من هذه الفقرات الرئيسية الواردة في مذكرة سليمان الباروني التاريخية المرفوعة إلى دول التحالف رأيه في إشكالية سقوط الخلافة أو إلغائها، وربطه بين مشكلة الخلافة ومسائل أخرى سياسية متصلة بها، مثل : مصير العاصمة العثمانية، ومشكلة المضايق، وعزل القسطنطينية، وطرح سليمان الباروني معالجة طويلة جادة للمشكلة تتعلق بحياة الخليفة وسلطته، مشددا على خطورة عزل القسطنطينية وفصلها الذي يوازي عنده حكماً بالإعدام، الأمر الذي سيضطر الخليفة لمغادرتها ليلحق بأية قوة إسلامية أخرى، وعندها يكون على العالم الإسلامي كله الإسراع بمساعدته، وضمن هذا الافتراض يعتقد الباروني أن المسألة ستأخذ وجهاً خطيراً، وستتوحد شعوب الشمال والشرق لا سيما المسلمين منهم وسينضمون للجهاد وللتخلص من عبودية الأوروبيين[2].

ويتضح مما سبق دفاع الباروني عن سلطة الخلافة العثمانية وتزكيتها، وشرعنة وتسويغ استمرارية تملكها السيطرة على العالم الإسلامي، وتهويله لمسألة اسقاطها، وانهائها أو حتى إعادة بنائها في صورة جديدة في خطاب تمجيدي متجاوزاً عيوب سياسة الاستبداد العثمانية ومثالبها ومحنته الشخصية معها، وكان شأنه مسألتها ومناهضة استبدادها السياسي والمناداة بالحد من سلطاتها وتقييدها، وتظهر في هذا الطرح حيرة سليمان الباروني واضطرابه الفكري ما بين تمجيد الفكر السياسي العثماني الرسمي متجسداً في الخلافة وخصوصية الميل لإنتمائه الإباضي، إلا أن الغاية الأساسية لمشروعه جعلته ينتصر للفكر الرسمي ومؤسساته، من خلال طرحه لمسألة تزكية السلطة وفق آلية البيعة المشروعة

---

(1) المصدر السابق.

(2) طرابلس، المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية ، شعبة الوثائق الأجنبية، ملف بحوث ومقالات مترجمة، وثيقة رقم (٩١) مصدر سابق.

التي تمنح واهبها حرية مسايرة السلطة أو مناهضتها لكونها لا تنشئ السلطة بل تزكيها[1].

وبشكل عام، تأثرت تقديرات الباروني بشأن المستقبل السياسي للعالم الإسلامي وخلافته العثمانية بأوضاع الظاهرة الاستعمارية، فقد ظنت تلك التقديرات واستناداً إلى آثار الحرب العالمية الأولى حينذاك أن الأوضاع سوف لن تبقى على حالها، وأن طفرة ستتحقق للقضاء على الاستعمار، وكان هذا الخطاب الذي ينطوي على التحذير والتنبيه والتهديد موجهاً إلى الرأي العام الأوروبي لحثه بشكل حفي للبحث عن تسوية مع الدولة العثمانية، وخطاب الباروني من هذه الزاوية قلق ويتوقع انفجار الوضع واضطراب الأحوال، وتصدع الظاهرة الاستعمارية إن انفرطت الأمور، وهو ما يعكس تخوف الباروني من انهدام صرح الخلافة [2].

٣. الدور الثالث ١٩٢٤ – ١٩٤٠م: من استفحال أمر العلمانية إلى وفاة سليمان الباروني ١٩٤٠م

رأى سليمان الباروني ضرورة المساهمة في الجدل الفكري والسياسي الدائر حول مسألة إلغاء خطة الخلافة العثمانية في ٣ مارس ١٩٢٤م، وإشكالية العلمنة المثارة بين السياسيين والصفوة المثقفة، وتحول هذا الجدل إلى البحث في علاقة الدين بالدولة، وقد ازداد هذا الصراع تبلوراً بين المدافعين عن هذه الخطة الإسلامية والرافضين لها بعد إصدار الشيخ علي عبد الرازق كتابه الإسلام

---

(١) المصدر نفسه.
(٢) المركز الوطني للدراسات التاريخية الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية، شعبة الوثائق الأجنبية، ملف بحوث ومقالات مترجمة ، وثيقة رقم (٩١)، مصدر سابق.

وأصول الحكم في أبريل ١٩٢٥م، واستمر هذا الصراع إلى يومنا هذا بين مدرستين، مدرسة أصولية سلفية، ومدرسة تحديثية[١].

ويعلل مشاركته باعتقاده أن غالبية العالم الإسلامي لا تزال تعتقد زيفاً في استمرارية ظل الخلافة المنتهية من خلال اطلاعه في صحف الفترة على محاولات ومبادرات إسلامية لمبايعة ولي العهد عبد المجيد افندي، وتوافد الوفود من مسلمي روسيا وتركستان والقدس الشريف والبوسنة والهرسك وغيرها من البلاد الإسلامية لتقديم البيعة والتهنئة، وما شاع من تشكيل جمعيات إسلامية باسم الخلافة في أمريكا وفي مواقع متعددة من آسيا وأفريقيا، أشهرها وأهمها جمعية الخلافة الهندية، واستمرار الدعاء للخليفة وعسكره في الخطب الجمعية والعيدية في أكثر الأقطار الإسلامية حسب المألوف[٢].

ويبدي دهشته من ذلك كله، ويأسه لهذا الانخذاع المردي بالعلمانيين صنيعة أوروبا المسخرين لقهر الإسلام وإسقاط الخلافة، ويرده إلى تأثير السياسة الأجنبية، إذ ليس هناك ظاهر للعيان سوى ولي عهد السلطنة العثمانية عبد المجيد أفندي المحال من قبل حكومة أنقرة على المعاش تحت عنوان الخلافة، بعد أن جردته من لقب الإمارة والسيف، ويبدي رأيه في هذا الحراك الواهي الضعيف المساند للخلافة العثمانية المنتهية غير المدرك لفهم حقيقة مقررات حكومة أنقرة في الخلافة والدين، ومواقف الكماليين العلمانيين الطاعنة في مؤسسة الخلافة من أمثال رئيس الجمهورية، وعصمت باشا رئيس الحكومة، ورضا نوري بك وزير الصحة، الذين أشاعوا آرائهم النقدية حول الخلافة بين الناس ونشروها في الصحافة التركية والعالمية، وأعلنوا أن الخلافة مضرة بالإسلام، وأن الخليفة لا يمكنه أن يخدم تركيا بتخريج أئمة المساجد والمؤذنين،

---

(١) محمد الشعبوني: "صدى إلغاء الخلافة في البلاد التونسية" في المجلة التاريخية المغربية، السنة الخامسة عشر، العدد (٤٩ – ٥٠)، جوان ١٩٨٨م، ص٢١٩.

(٢) المرجع السابق، ص٢١٨.

لذلك فهم مصممون على كسر رأس الخليفة إذا حدث نفسه بالاشتغال بالسياسة كما صرح رئيس الحكومة في المجلس المحلي، وتقرر في عقيدتهم الجمهورية أن لا خير في مؤسسة الخلافة العامة وأن الأتراك لا يمكنهم تحمل عبئها، وأن على الأتراك أن يؤسسوا حكومة أوروبية محضة[1].

وكانت دهشة الباروني وصدمته من مقررات حكومة أنقرة في الخلافة والدين، وتجريد الخلافة من حقوقها واشتراطاتها من جهة، وتمسك فريق من المسلمين بالخلافة وهي في حالتها تلك هيكلاً بلا روح من جهة أخرى، قد دفعته إلى المناداة بحاكم الحرمين الشريفين الملك حسين بن علي خليفة للمسلمين، ودعوة المسلمين إلى توجه الدعاء باسمه في الخطب الدينية، ذلك لأن حالة الخلافة العثمانية الملغاة لا تتفق في صورتها الشكلية الخاصة المستحدثة بعد الإلغاء مع قواعد المذاهب الإسلامية كلها، لا بل هي ملعبة وغش في الدين، يمكن لأوروبا أن تقلدها، بإن تحدث لمسلميها خلافات نمطية مشابهة لتشتيت أمر المسلمين بعد أن كادوا أن يكونون على رأي واحد في الخلافة العثمانية[2].

وإذا كان سليمان الباروني قد انتقد شكل الخلافة التي حاول علماء الدين الرسميين وشيوخ الطرق الصوفية استحداثها بعد إلغاء الخلافة الرسمية العامة، فكيف كان ينظر إلى مستقبل هذه المؤسسة ؟ وماذا كان يقترح كبديل لها؟.

لم يكتف سليمان الباروني بإبداء رأيه فقط في إلغاء الخلافة، معتبراً أن لا خلافة، ولا شبه خلافه في القسطنطينية، لانتفاء شروطها، بل ذهب أبعد من ذلك إذ نادي بتطبيق الأسس التي يجب أن تبنى عليها كما هي في المذاهب الإسلامية وكما طبقت زمن الخلافة الراشدة، وبعد تذكيره للمسلمين بأصول

---

(1) الزمان ٢٢ مارس ١٩٢٤م، ضمن كتاب محمد صالح الجابري : يوميات الجهاد الليبي في الصحافة التونسية، ج٢ (١٩١٢ – ١٩٣٢م)، ليبيا – تونس : الدار العربية للكتاب ، ١٩٨٢م، ص٥٩٩.

(2) محمد صالح الجابري ، المصدر السابق ، ص٦٠٠.

الخلافة اقترح عليهم استبدال نظام الخلافة الذي كان يتولاه شخص واحد بنظام ما أسماه "لجنة أزهرية إسلامية" برعاية شيخ الأزهر، ترعى شؤون الخلافة والمسائل الدينية المتعلقة بها إلى أن تقوم خلافة حقيقية ، يأمل سليمان رجوعها إلى الحجاز مهدها الأول، والجدير بالذكر أن سليمان لم يضمن مشروعه هذا فكرة الفصل بين البعدين الديني والسياسي في دولة الخلافة المنتظرة والمنظر لها[1].

وتقوم مقترحاته على أن تكون مسؤولية الخلافة مشتركة بين المسلمين، وإعفاء العنصر التركي من تحمل أعبائها منفرداً، إذا كان غير قادر عليها، أو راغب فيها، وللعنصر التركي أيضاً الحق في أن يؤسس حكومة إسلامية تركية فقط كما يشاء بعنوان سلطنة أو جمهورية أو جماعة أو غير ذلك كغيره من الحكومات الإسلامية، وهو يشاطر في هذا آراء بعض العلماء المسلمين كرشيد رضا (١٨٦٥ – ١٩٣٥م) الذي اقترح ضرورة إيجاد نموذج جديد يتمثل في انتخاب الإمام من طرف جماعة المسلمين أصحاب الحل والعقد والذين بإمكانهم خلعه، ومحمد إقبال (١٨٧٥ – ١٩٣٨م) الذي يرى أن روح الإسلام تبيح إسناد الخلافة إلى جماعة من الناس أو مجلس منتخب، ونظام الحكم الجمهوري في رأيه لا يتفق مع روح الإسلام فحسب، بل أصبح ضرورة من الضروريات، وابن باديس (١٨٨٩– ١٩٤٠م) الذي يقترح نظاماً موازياً أسماه " جماعة المسلمين " وفيه تتولى مسؤولية الخلافة جماعة مشتركة بين أهل العلم والخبرة الذين ينظرون في مصالح المسلمين من الناحيتين الدينية والأدبية، ويصدرون عن تشاور ما فيه الخير والصلاح[2].

---

(١) المصدر نفسه ، ص٦٠١.

(٢) د. أحمدصاري ، ابن باديس ومسألة إلغاء الخلافة ، ضمن كتابه : شخصيات وقضايا من تاريخ الجزائر المعاصر، غرداية : المطبعة العربية ، ٢٠٠٤م، ص٧٣، وأنظر أيضاً: عبد الوهاب خالد، فكر المقاومة في خطاب الحركات الإصلاحية: جمال الدين الأفغاني ، محمد عبده، ابن باديس" ضمن كتاب: ثقافة المقاومة ، أعمال الندوة الفلسفية السادسة عشر التي نظمتها الجمعية الفلسفة المصرية بجامعة القاهرة، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٧م، ص ص١٥١ – ١٧٠.

وإذا كانت هذه الآراء الصادرة عن الباروني حول الخلافة والمنشورة في صحيفة الزمان بتاريخ ٢٢ مارس ١٩٢٤م، بعد أيام وجيزة من إلغاء الخلافة العثمانية تحت عنوان " كلمة عن الأمة التركية "، تحمل رؤيته للمشكلة وتحلل الموقف التركي الرسمي من الخلافة، فإن هذا يدفعنا إلى التساؤل عن الأسباب التي دفعت سليمان الباروني إلى الخوض من جديد في هذا الموضوع بعد أن أمسك عنان قلمه عن الخوض فيه لعام كامل وهو في فرنسا ؟ وبعد أن كان قد انشغل به كثيراً قبل معاهدة أوشي لوزان بخاصة ؟

لقد تزامن تجديد اهتمام سليمان الباروني بهذه القضية مع تجدد النقاش حولها في الأوساط النخبوية الإسلامية، وقد يكون من بين الدوافع التي وجهته للمساهمة في جدلها السياسي والديني، هي تعلق بعض المسلمين بمؤسسة الخلافة، وخوفه من ائتمانهم عليها رجالاً غير أكفاء، وتدخلات الدول الأوروبية في مؤسسة الخلافة، وتخوفه من تعدد دعوى الخلافة وتمزيق شمل الإسلام[١].

والمستفاد من هذا المقال متابعة الكاتب الدقيقة لقضايا الدين والسياسة في زمنه وإلمامه الوسيع لما يراد بالإسلام والمسلمين في فترة تعد حاسمة وخطيرة، وكذلك يدلل على جرأة كاتبه وحماسته في تكريس الحقائق وترسيخ الرؤى وإظهار زيف الدعاوي، ولعل هذا الموقف الجريء لسليمان الباروني يضعه في مصاف العلماء المسلمين الشجعان الذين أظهروا عوار الهدامين من أمثال مصطفى صبري، ومصطفى صادق الرافعي وشكيب ارسلان وغيرهم[٢].

وأظهر خطاب سليمان الباروني السابق بشأن الخلافة مستويين من الدلالات، الأول، ويحمل معاني التأييد والنصرة، ويقابله المستوى الثاني، ويتضمن التوجس والحذر والخشية من الانتشار والانشطار لمؤسسة الخلافة، وإذا

---

(١) محمد صالح الجابري : المصدر السابق ، ص٥٩٨.
(٢) محمد مسعود جبران: المرجع السابق، ص٣٠٢، ٣٠٣.

دل هذا الاستعراض على مثول نوع من المفارقة بين تبني سليمان الباروني للخلافة العثمانية، وبين التحسب لها، والقلق منها، فما هي الحدود التي رسمها في مخيلته لمسار الخلافة وآفاقها بعد السقوط ؟

ولئن كان سليمان الباروني قد علق بعض الأمل على المؤتمرات التي عقدت من أجل إعادة إحياء الخلافة الإسلامية، كمؤتمر القاهرة في الفترة من ١٣ إلى ١٩ مايو ١٩٢٦م، ومؤتمر مكة من ٧ يونية إلى ٥ يولية ١٩٢٦م، ومؤتمر القدس من ٨ إلى ١٧ ديسمبر ١٩٣١م، والتي حضرها وشارك فيها بعض رموز الحركة الوطنية الليبية المهاجرة في مصر والشام، مثل : الشيخ عمر الميساوي، وأحمد المريض وبشير السعداوي[١]، فإنه بفشل مؤتمر القدس ديسمبر ١٩٣١م، وعدم توصله إلى نتيجة عملية[٢]، إذ لاحظ الباروني في مقرراته ما يستوجب النظر وإعادة التفكير، فوجه رسالة إلى أعضاء الهيئة التنفيذية للمؤتمر عارضاً رأيه في بعض المواد، وفي البدء أشار إلى أنه مثلما انتخب المؤتمر هيئة من خيرة الأعضاء لقضية السكك الحديدية الحجازية ، فإنه يقترح أيضاً انتخاب هيئة أخرى ثلاثية للبحث عن أوقاف الحرمين الشرفين المهملة وهيئة ثانية منتخبة لمطالبة عصبة الأمم بالغاء وعد بلفور، وانتخاب هيئة ثالثة كذلك لمطالبة حكومة أنقرة بإعادة الآثار النبوية الطاهرة إلى مرجعيتها في المدينة المنورة أو مصر، وانتخاب هيئة رابعة تطوف الأقطار الإسلامية لتشويق ملوكها وأمرائها ووزراء أوقافها وأغنيائها إلى شراء ما يباع من أراضي

---

(١) المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية شعبة الوثائق العربية ، ملف أحمد المريض رقم (٣)، وثيقة رقم(١)، رسالة شيخ الجامع الأزهر (رئيس المؤتمر) إلى أحمد المريض بتاريخ ١٥ مايو ١٩٢٦م.

(٢) شارك في المؤتمر كوكبة من زعماء الحركة العربية الحديثة، مثل: رشيد رضا ، ومحمد بهجة الأثري، وإبراهيم الواعظ، وخير الدين الزركلي، وإبراهيم الخطيب ، ورياض الصلح، وشكري القوتلي، وعوني عبد الهادي ، وعجاج نويهض، أسعد داغر، وغيرهم، أنظر: محمد عزة دروزة، حول الحركة العربية الحديثة: تاريخ ومذكرات وتعليقات، ج٣، صيدا: المطبعة العصرية، ١٩٥٠ – ١٩٥١م، ص٨٨، وأنظر أيضاً: هادي حسن عليوى: الاتجاهات الوحدوية في الفكر القومي العربي المشرقي ١٩١٨ – ١٩٥٢م، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٠م، ص٧٤.

فلسطين أو جعلها وقفاً مؤبداً، ثم تطرق إلى مسائل أخرى إدارية ومالية تتعلق بإدارة المؤتمر وآلية مزمنة لانعقاده[1].

ويعلق أبو اليقظان الحاج إبراهيم الباحث في سيرة سليمان الباروني وأطوار حياته حول هذه الملاحظات البارونية على المؤتمر الإسلامي الثالث المنعقد بالقدس في ديسمبر ١٩٣١م، ذاكراً أن سبب انتخاب الهيئات المقترحة هو الاقتصاد في النفقة وإمكان سرعة المباشرة في تنفيذ القرارات، وافتقاد حكومة أنقرة اللادينية الحق في وضع يدها على الموروثات المقدسة ذات الصلة بشارات الخلافة وعلاماتها، وإلغاء الإدعاءات الصهيونية المؤسسة على وعد بلفور، وقطع طريق الهجرة الصهيونية إلى فلسطين، ومنع استحواذهم على الأراضي المقدسة والفلسطينية[2].

الخاتمة

في ثنايا خطاب الباروني الذي أفرد للخلافة العثمانية مساحة مقدرة، تتداخل فيها مظاهر التأييد والنصرة والحفاوة المضمرة بالتحفظ والنقد والاستبدال إزاء تجربة سياسية وفكرية كانت ملامحها مطبوعة بخطاب تراثي جذري لم يتوافر له المناظرة والحوار المعاصر، وقد حاولت الدراسة تتبع موقف سليمان الباروني من الخلافة العثمانية، وأمعنت النظر في تحولاته ومتغيراته وفق تحقيب زمني يرتكز على لحظة الانتقال ويمتد ابتداء من أواخر العقد الخاتم للقرن التاسع عشر، وصولاً إلى عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين المنصرم، فقد كان في بداية الأمر معارضاً للخلافة، وثائراً عليها حتى عام ١٩١١م، ثم متحالفاً معها وخاضعا لها ومعارضا لإلغائها، وتنصيب أي خليفة تحركه أيادي أجنبية، وهي المرحلة التي تغطي الفترة الممتدة حتى عام ١٩٢٤م، وأخيراً، منتقداً للصورة

---

(١) أبو اليقظان الحاج إبراهيم: المرجع السابق، ص١٥٠.
(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٠،١٥١.

المشوهة للخلافة التركية وداعياً للعودة للخلافة العربية الحجازية بأصولها ورسومها محاولاً إعادة بعثها وتأطيرها بأفق جديد وآليات مزمنة وفقا لشروط ومحددات المناخ السياسي والفكري السائد في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين.

وقد تحيل معرفة نفسية سليمان الباروني في هذه الفترة وموافقه المختلفة على الساحات الوطنية والعربية والإسلامية والدولية على فهم اجمال موقفه الثابت منه والمتحول، فالمتتبع لتاريخ الحركة الوطنية الليبية يعرف أن ظروف الحرب المقدسة التي خاضها سليمان الباروني مع الأتراك في مواجهة القوات الإيطالية الغازية بين عامي (١٩١١-١٩١٢م)، كانت وراء تحالفه مع الدولة العثمانية وخوضه الجهاد المقدس تحت راية الخلافة العثمانية، واشتراكه في حروبها بعد ذلك ، وتبنيه فكرة الجامعة الإسلامية ودعم مؤسسة الخلافة حتى هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى، إذ شكلت هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨م، لحظة تاريخية في تعميق أزمة الخلافة عند الباروني، وطرحت هذه الأزمة لديه ثلاث إشكاليات، الأولى ترتبط بمحاولة الدفاع عن الخلافة الهاوية والحيلولة دون سقوطها والثانية تتعلق بمحاولاته بعثها وتجديدها، أما الثالثة فتتصل بإطلاق بديل عربي لها يتمثل في الخلافة الحجازية التي يستعيد العرب من خلالها مجدهم السياسي التليد.

ويبدو أن موقف سليمان الباروني من الدعوة إلى إحياء الخلافة العربية في أعقاب مؤتمر القدس ١٩٣١م، لم يثر أية ردود أفعال أو ضجة كبرى في العالم الإسلامي، لكونه جاء في ظرفية تاريخية فقدت فيها الخلافة أهميتها السياسية والدينية في السنوات التي أعقبت إلغائها مباشرة نظراً لفشل كل المحاولات لإعادة إحيائها، وظهور معطيات جديدة وتطورات متلاحقة على الساحتين الإسلامية والدولية.

وأخيراً يمكن القول أن سليمان الباروني كان سياسياً واقعيا مجدداً ومتابعا للتطورات ومقيماً للحوادث السياسية ومواكبا لمستجداتها ومطلعاً على خفاياها، ومحللاً لاستراتيجياتها، وصفه المؤرخون بأنه شخصية حيوية نزاعة للثورة ، بينما نعته آخرون بأنه مثير للشغب، في حين أكد بعضهم أنه رجل علم وعمل وجهاد، وكان الناس يتحلقون من حوله ويتأثرون بنهجه ومنهجه، وبقى منتمياً إلى التيار الإسلامي التحديثي، واستمر في إطار الناشرين للقيم العربية الإسلامية، خاطب الجماهير الإسلامية وحاورها، وكان مدركاً لعملية التفاعل المتبادل بينه وبين المجتمع الذي يعيش فيه، وظل ثائرا مؤدلجاً قادراً على صياغة أفكاره في أنساق متعددة، ومتمسكاً بالحكم الثيوقراطي المقيد بنصوص الشريعة والماضي الثقافي، مؤمناً بالعدالة والمساواة والحرية والدستور والصحافة.

ومهما يكن من حكم المؤرخين على الشيخ سليمان الباروني ومواقفه واتجاهاته، فإننا نقر بأثره العميق في وسطه البيئي ومجتمعه الصادر عن قيم روحية ودينية إسلامية أخرى تحديثية وافدة، ولعل من المفيد متابعة مناقشة مواقفه واتجاهاته المتعددة في أطروحات وأعمال أخرى لاحقة.

موقف إيطاليا من أنشطة سليمان الباروني ١٩١٤-١٩٢٤م

د. مفتاح بلعيد غويطة (*)

مقدمة

تتناول هذه الدراسة موقف السلطات الإيطالية من النشاط السياسي الذي مارسه المجاهد سليمان الباروني خلال الفترة المشار إليها، وجاء هذا الموقف بناء على معطيات ومؤشرات تزامنت مع حساسية الوضع الدولي المتأزم (الحرب العالمية الأولى)، أو تزامنت مع تغير السياسة الإيطالية تجاه المستعمرة الليبية منذ أكتوبر ١٩٢٢م بوصول الحزب الفاشي لسدة الحكم في روما. وتمثلت تلك المعطيات والمؤشرات في قوة وفاعلية شخصية سليمان الباروني وكفاحه ضد الإيطاليين ١٩١١-١٩١٣م، ورفضه فكرة الاستسلام بتاتا، وما أحدثه هذا من تأثير في القبائل المجاهدة في ليبيا، وخصوصا في منطقة الجبل الغربي والجفرة وفزان. وبالتالي كان الإيطاليون يبدون تخوفا من تحركات وأنشطة الباروني في ليبيا وخارجها خلال الحرب العالمية الأولى، ثم خلال الفترة التي أعقبت تلك الحرب ١٩١٨-١٩٢٤م حتى استقر به المقام في سلطنة عمان، وتحول نشاطه لصالح قضية الوطن إلى مسارات أخرى، فرضتها متغيرات عديدة على الساحة الليبية بشكل خاص والساحة العربية والإسلامية بشكل عام.

اعتمدت هذه الدراسة بشكل رئيسي على مجموعة من الوثائق غير المنشورة والمنشورة، عربية وأجنبية، الكثير منها لم يستخدم - حسب علمي - من قبل في دراسات علمية. كانت مجموعات الوثائق الإيطالية المترجمة من قبل المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية بطرابلس قد شكلت العمود

(*) د. مفتاح بلعيد غويطة، جامعة المرقب، ليبيا.

الفقري لهذه الدراسة، التي يطمح الباحث من ورائها الوصول إلى نتائج مهمة تلقي مزيدا من الضوء على جهاد سليمان الباروني، وتحاول الإجابة عن الإشكالية القائمة ما حقيقة التخوف الإيطالي من تأثير أنشطة سليمان الباروني على المصالح الإيطالية في المنطقة ؟.

للإجابة على التساؤل السابق تمت معالجة ودراسة هذا الموضوع من خلال المحاور الآتية:

أولا: لمحة موجزة عن الأسباب وراء الاهتمام الإيطالي بأنشطة سليمان الباروني

لقد تعددت الأسباب وراء الاهتمام الإيطالي بأنشطة سليمان الباروني في ليبيا وخارجها؛ استنادا للتجربة المريرة مع هذه الشخصية في الفترة السابقة١٩١١-١٩١٣م، ويمكن أن نحدد تلك الأسباب في مكانة الباروني في المجتمع الطرابلسي، فسليمان الباروني الأديب والزعيم الأمازيغي وعضو مجلس المبعوثان العثماني، كان على مكانة كبيرة في المجتمع الطرابلسي، جعلته مقربا من قبل الأتراك العثمانيين، كما جعلته محترماً ومعتبراً عند الزعامات القبلية في ليبيا[1]. والدولة الإيطالية رغم نجاحها في الوصول إلى اتفاق لوزان مع الجانب العثماني ١٨أكتوبر ١٩١٢م لإنهاء النزاع بين البلدين في ليبيا وشرقي المتوسط إلا أن الحكومة الإيطالية كانت تخشى من التدخل العثماني في ليبيا، خاصة وأن سليمان الباروني كان أحد أقطاب السياسة العثمانية في أفريقيا الشمالية، فقد كان

---

(1) للمزيد عن تكوين الزعامة في ليبيا أنظر: أ. بيلاردنيلي، القبلة، المطبعة الحجرية للقوات المسلحة الاستعمارية لقطر طرابلس، ١٩٣٥م (مخطوط غير منشور مرقون على الآلة الكاتبة بمكتبة المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية بطرابلس) ترجمة: عبد الرحمن سالم العجيلي)، القسم الأول، ص: ٦٦-١٥٠؛ أيضا: علي البوصيري علي، الزعامات الوطنية في حركة الجهاد، مجلة الشعب المسلح، قيادة تجيش المدن، طرابلس، العدد: ٤٣، نوفمبر١٩٨٢م، ص٥٧.

عضوا في مجلس المبعوثان العثماني ثم عين في مارس ١٩١٤م عضوا في مجلس الشيوخ العثماني[١].

إذن كان الباروني من كبار موظفي الدولة العثمانية في ليبيا، وبالنظر لما كانت تتعرض له الدولة العثمانية من اعتداءات من قبل الدول الكبرى فإن كبار الضباط الأتراك قد أنشئوا منظمة فدائية سرية تتبع وزارة الحربية العثمانية، عرفت بمنظمة تشكيلاتي مخصوصة السرية، وكان الباروني من أبرز أعضائها في ليبيا طيلة أنشطتها حتى كشف النقاب عنها للرأي العثماني في عام ١٩١٨م[٢]. لكن الاستخبارات الإيطالية كانت على علم وإلى حد ما بهذه الجمعية السرية، والسفير الإيطالي باسطنبول أطلع حكومته في مايو ١٩١٤م على نشاط تلك الجمعية، مذكرا بأنه قد ضمت في عضويتها بعض الليبيين وغير الليبيين في اسطنبول منهم : سليمان الباروني ويوسف شتوان بك ونظيم بك وخليل بك، عم أنور باشا[٣]. وهكذا حرص الليبيون على الاستمرار في توطيد العلاقة مع الدولة

---

(١) مقابلة صحفية بتاريخ ٢١ نوفمبر ١٩١٩م بين سليمان الباروني ومراسل صحيفة أجنبية مجهولة، المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية بطرابلس، الوثائق الأجنبية الوثائق الإيطالية غير المنشورة الوثيقة(٧٧) ٩/٥/١٩٢٤م، ميكروفيلم(٢٦٣) وثائق وزارة المستعمرات في روما ، ترجمة المهدي التريكي.

(٢) منظمة تشكيلاتي مخصوصة منظمة فدائية سرية لم تتخذ الصفة الرسمية إلا مع اندلاع الحرب العالمية الأولى، ولم يكشف النقاب عنها للرأي العثماني إلا بعد انتهاء تلك الحرب، كانت ترتبط بوزارة الحربية العثمانية، وبالتالي كان أعضاؤها غالبا ما يحترفون المهنة العسكرية الحربية، فكانوا مجموعة من كبار الضباط وضباط الصف الأتراك مثل أنور باشا وشقيقه نوري باشا ومصطفى كمال أتاتورك، كما كانوا مجموعة من القيادات العربية والإسلامية التي أعلنت الحرب على مستعريها وقدر عدد المنتسبين من العرب والمسلمين بالمنظمة بحوالي (٦٠٠) عضو من أبرزهم في ليبيا سليمان الباروني وأحمد الشريف السنوسي ومحمد سوف المحمودي ونحوهم، انظر :
P. Stoddard, The Ottoman Government and the Arabs, 1911 to 1918 ; Apreliminary Study of the Tieşkilati Mahsusa (Ph. D. Nip ,University of Princeton), 1963, PP 49,58- 118.
– أيضا: عبد المولى صالح الحرير، منظمة تشكيلاتي مخصوصة السرية وأدوارها في حركة النضال الوطني ١٩١١ ١٩١٨م، مجلة البحوث التاريخية، مركز بحوث ودراسات الجهاد الليبي ، طرابلس، س/١، ع/ ١، يناير ١٩٧٩م، ص١٣ - ٤٣ .

(٣) تقرير السفير الإيطالي في اسطنبول بتاريخ ١٠مايو ١٩١٤م المرسل إلى وزارة الخارجية الإيطالية استنادا على معلومات من الوكيل الدبلوماسي الإيطالي بالقاهرة حول تحركات بعض الليبيين مثل الباروني ووضعه لمن يراقب تحركاتهم، الوثائق الإيطالية المنشورة المجموعة الحادية والعشرون، ترجمة: المهدي عمر التريكي، إعداد محمد بشير سويسي، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس،١٩٩٨م، مج/٢، الوثيقة رقم٢٣٣، ص٢١٨-٢١٩.

العثمانية منذ اندلاع الحرب الطرابلسية ١٩١١م، وبالتالي كان الزعماء وعلى رأسهم الباروني مستعدين لمحاربة أعداء الدولة العثمانية في أي زمان ومكان[١].

وفي اسطنبول عقدت منظمة تشكيلاتي مخصوصة اجتماعات مكثفة[٢]، تقرر بموجبها إرسال شخصيات يثق فيها السيد أحمد الشريف السنوسي لإقناعه بالدخول في الحرب ضد الإنجليز في مصر، ومن خلال المشاورات تقرر إرسال بعثة يجيد أعضاؤها العربية ومعهم ضباط عرب تقرر إرسالهم في البداية من روما أو برلين[٣]، وأخيرا أرسلوا من اسطنبول، وكان من بينهم : سليمان الباروني ومحمد سوف المحمودي والضابط نوري باشا شقيق أنور باشا والضابط العراقي جعفر العسكري.

وبالنظر لما تقدم فإن الحكومة الإيطالية كانت تعتبر الباروني من كبار الزعماء في طرابلس يناظره السنوسي الكبير السيد أحمد الشريف في برقة[٤]، واستندت الحكومة الإيطالية على مخاوفها تلك من العلاقات الحميمة التي ربطت سليمان الباروني بالسيد أحمد الشريف السنوسي والزعامات الأخرى في فزان ومنطقة طرابلس خلال الفترة ١٩١١-١٩١٤م، وخشيت من وجود تنسيق متبادل بين الزعامات الليبية في شرق البلاد وغربها وجنوبها لتكوين إدارات وحكومات وطنية تنسق مع بعضها البعض للقيام بهجمات على الإيطاليين[٥]، كما أن

---

(١) تقرير المستشار السري للحكومة الألمانية باهمبرج بتاريخ ٢١ نوفمبر١٩١٤م بشأن ليبيا والحركة الإسلامية التي انطلقت من تركيا، الوثائق الألمانية، المجموعة الرابعة، ترجمة عمر لطفي العالم، مراجعة: جهاد صبري العويتي، إعداد وترتيب: مصطفى حامد رحومة، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، ٢٠٠٥م، مج/٢، الوثيقة رقم(١٧١)، ص١٥٠-١٥١.

(٢) محمد فؤاد شكري، ميلاد دولة ليبيا الحديثة وثائق تحريرها واستقلالها، الجزء الأول (١٩٤٥-١٩٤٧م) مج-/٢، مطبعة الاعتماد، القاهرة، ١٩٥٧م، ص٤٦٠ - ٤٦٢.

(٣) تقرير المستشار السري للحكومة الألمانية باهمبرج بتاريخ ٢١ نوفمبر١٩١٤م بشأن ليبيا ... مصدر سابق، ص١٥١-١٥٤.

(٤) برقية من غاروني بتاريخ ١٤ أغسطس١٩١٣م مرسلة إلى وزير المستعمرات بروما بشأن مقابلة أجراها مع جامي بك متصرف فزان عند وقوع الغزو الإيطالي لليبيا، الوثائق الإيطالية المنشورة المجموعة السادسة والعشرون الشخصيات، ترجمة: خالد زكي ثابت، إعداد خليفة محمد التوبي، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس،٢٠٠١م، مج/١، ملف جامي بك متصرف فزان، الوثيقة رقم(١٠)، ص٣٤٠.

(٥) برقية من غاروني بتاريخ ١٤ اغسطس١٩١٣م مرسلة إلى وزير المستعمرات بروما بشأن مقابلة أجراها مع جامي بك متصرف فزان ... مصدر سابق.

إيطاليا كانت على إدراك كبير لما يفعله نظام الحلف والصف في توحيد القبائل الليبية في مواجهة الخطر الخارجي، حيث التعاون في السراء والضراء[1].

وهكذا ما إن اتخذ الباروني الموقف المتصلب من صلح لوزان والرافض لمبدأ التسليم للإيطاليين، وأعلن انشقاقه عن الزعامات الليبية الأخرى في مؤتمر العزيزية الثاني ٢٥-٢٨ أكتوبر ١٩١٢م وانسحابه رفقة زعماء آخرين من القبلة وأولاد بوسيف والمحاميد إلى يفرن وأسس الإدارة الوطنية الأولى بالمدينة نوفمبر ١٩١٢م، حتى أصبحت إيطاليا تخشى على وجود قواتها في ليبيا من اتحاد قد ينشط مع تنامي سياسة رفض ما جاء في صلح لوزان في المناطق الشرقية الليبية، وكذلك في سرت وفزان، وقد عبرت وزارة المستعمرات الإيطالية بروما في رسالة بعثت بها إلى حاكم طرابلس في فبراير ١٩١٣م عن قلقها الشديد من العلاقات المتنامية بين عبد الجليل سيف النصر وسليمان الباروني[2].

ثانيا: موقف الحكومة الإيطالية من أنشطة سليمان الباروني خلال الفترة: (١٩١٤-١٩١٦م)

في هذه الفترة كان على الإيطاليين مراقبة أنشطة الباروني داخل ليبيا، وقد عملت الاستخبارات الإنجليزية والإيطالية كل ما في وسعها لمراقبة هذه الأنشطة، وبناء على معلومات جاءت للوكالة الدبلوماسية الإيطالية بالقاهرة[3]، فإن سليمان

---

(١) عقيل محمد البربار، دراسات في تاريخ ليبيا الحديث، دار الحكمة، طرابلس، ط/٢، ٢٠٠٩م، ص١٥٧- ٢١١؛ أيضا: عمرو سعيد بغني، أبحاث في تاريخ ليبيا الحديث والمعاصر، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، ١٩٩٦م، ص١٣-٦٩؛ أيضا: علي عبد اللطيف، حميدة، المجتمع والدولة والاستعمار في ليبيا دراسة في الأصول الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لحركات وسياسات التواطؤ ومقاومة الاستعمار (١٨٣٠-١٩٣٢م)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط/٢، ١٩٩٨م، ص٨١-٨٦.

(٢) برقية وزير المستعمرات بروما إلى حكومة طرابلس بتاريخ ١٣ فبراير(١٩١٣م) بشأن القلق من أخبار تعاون الباروني مع عبد الجليل سيف النصر، الوثائق الإيطالية المنشورة، المجموعة السادسة والعشرون ...، مج/١، الوثيقة (رقم٢)، ص٣٢٤.

(٣) عرفت مصر ظهور قنصليات للجمهوريات الإيطالية قبل الوحدة الإيطالية لكن الحال تغير بعد تحقق تلك الوحدة سنة ١٨٧٠م فقد أصبحت الوكالة الدبلوماسية الإيطالية بالقاهرة هي المركز الدبلوماسي الإيطالي في مصر وتتبعه القنصليات الإيطالية الأخرى للمزيد انظر:

L. A ,Balboni, Gl'Italiani Nella Civiltà Egiziana del Secolo XIX°, Alessandria, V: III, 1906, PP.١٠٠-150.

الباروني كان قد تجول في عدة مناطق من مصر، وأنه كان يمارس دعاية لصالح دول تحالف الوسط ألمانيا والنمسا والدولة العثمانية[1].

لقد نشطت الوكالة الدبلوماسية الإيطالية بالقاهرة بمساعدة القنصلية الإيطالية العامة بالإسكندرية في الاستعانة بمجموعة من المتعاونين لمراقبة سليمان الباروني، والوقوف على أنشطته بالمدينة، وفي هذا الصدد أطلع الحاج علي بن الحاج مصطفى المصراتي الملقب بالعساس الحكومة الإيطالية أنه لمح بالإسكندرية الشيخ سليمان الباروني في سيارة رفقة الأمير عمر طوسون، وأن الأخير كان قد استأجر باخرة صغيرة لفترة دائمة لينقل عليها موادا غذائية وأشياء أخرى إلى معسكر البدو في برقة[2]. وفي ذات الرسالة قال المصراتي أن هناك ضباط ليبيين وأتراك كانوا حال تسريحهم من الخدمة العسكرية يسافرون إلى برقة عبر مصر بالتنسيق مع أنور باشا[3]، وضمن الخدمة تحت المنضمة السرية المعروفة بتشكيلاتي مخصوصة السرية ضد إيطاليا.

وعلى أية حال وصل سليمان الباروني إلى بلدة إمساعد على الحدود الليبية المصرية في صيف١٩١٤م، وكان الباروني من بين أبرز الضباط الذين أنيط بهم القيام بمحاولة لإقناع السيد أحمد الشريف بالهجوم على مصر بمؤازرة من السيد هلال السنوسي، والأخير هو من سهل مهمة هروب الباروني من الجغبوب عندما اعتقل من طرف السيد أحمد الشريف السنوسي، رفضا من قبل الأخير لفكرة الهجوم على مصر وإعلان الحرب ضد الإنجليز[4].

---

(١) برقية لويس مالت السفير الإنجليزي باسطنبول إلى وزارة الخارجية البريطانية، اسطنبول، ١سبتمبر ١٩١٤، مجلة: الدنيا المصورة، طلائع الغارة التركية على مصر، ع / ١٨٨، ٢٤ فبراير ١٩٣٢، ص٣.

(٢) رسالة غاروني كاولير دكتور سيباستياتو متصرف الأمن ومدير مكتب الشرطة بطرابلس إلى حكومته بتاريخ ٣ مايو١٩١٤م المتضمن معلومات أدلى بها الحاج علي مصطفى المصراتي، الوثائق الإيطالية المنشورة، المجموعة الحادية والعشرون...، مج/٢، الوثيقة رقم(٢٣٢)، ص٢١٤.

(٣) المصدر نفسه، ص٢١٢-٢١٤.

(٤) حديث مسجل كتابة دار بين المنتصر وأنيسا في ٢٠فبراير ١٩١٩م عن المنوسية، الوثائق الإيطالية المنشورة المجموعة الرابعة والعشرون مجلدان الأول والثاني، ترجمة: شمس الدين عرابي بن عمران، إعداد علي بشير الزواوي، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس،١٩٩٩م، الوثيقة رقم(٢٣)، ص٢١٨.

وهكذا باعتقال الباروني ثم عودته إلى اسطنبول من جديد وتعيينه عضوا في مجلس الشيوخ العثماني أسدل الستار على هذه المرحلة، لكن إيطاليا كانت تخشى من عودته إلى ليبيا مجددا، وخصوصا وأنها قد أصيبت بنكسات عديدة في الجبهة الليبية، ففي نوفمبر ١٩١٤م اندلعت ثورة قاهرة سببها، وقادة المقاومة وعلى رأسهم سالم بن عبد النبي الزنتاني كانوا عثماني التوجه، وكانوا أصدقاء للباروني، الثورة أججت حركة المقاومة المسلحة في فزان والجبل الغربي ضد الإيطاليين، وبالتالي سجلت الانكسارات المتتالية للإيطاليين، في معركة وادي مرسيط بمزدة٦ أبريل١٩١٥م، ثم في معركة قصر بوهادي (القرضابية) ٢٨-٢٩ أبريل ١٩١٥م، والخروج من كامل المدن الليبية في إقليم طرابلس وفزان، عدا مدينتي الخمس وطرابلس فقط، كل هذا جعل إيطاليا تدخل الحرب إلى جانب الحلفاء ٥ مايو ١٩١٥م، وجعلت هذه التطورات الدولة العثمانية تقرر إيفاد الباروني إلى الإقليم؛ ليكون قومندانا يحكم باسم الدولة العثمانية، ويسهم في تنفيذ المخططات العثمانية ضد دول الحلفاء، وخاصة مع فشل السيد أحمد الشريف السنوسي في تحقيق ذات المخططات ضد الإنجليز في مصر، ونجاح ابن عمه الأمير محمد إدريس السنوسي في إبرام اتفاقيات تعاون مع الإنجليز والإيطاليين، بدأت بمباحثات الزويتينة ١٩١٦م وصيغت في اتفاق عكرمة مارس ١٩١٧م[1].

ولما كان الأمير محمد إدريس معارضا لأي تعاون مع الأتراك والألمان فإن سليمان الباروني كان من المرجح أن يقصد مصراتة، تمهيدا للذهاب نحو طرابلس والجبل الغربي في وقت أعلنت فيه القبائل في المنطقة الغربية بخلاف المنطقة الشرقية رغبتها في التعاون بل والاتحاد مع الدولة العثمانية ضد العدو

---

(1) ا.ا. ايفانز بريتشارد، السنوسيون في برقة، ترجمة : عمر الديراوي أبو حجلة ، الفرجاني ، طرابلس، د.ت، ص ٢٤٥ - ٢٤٦ ؛ أيضا: مصطفى علي هويدي، الحركة الوطنية في شرق ليبيا خلال الحرب العالمية الأولى، مراجعة: صلاح الدين حسن السوري، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، طرابلس، ١٩٨٨م، ص١٢٥ – ١٤٩ .

الإيطالي[1]. في المقابل كان صعود نجم بعض الشخصيات الوطنية في إقليم طرابلس ومنها رمضان السويحلي في مصراتة، بحيث تحولت الأخيرة عاصمة حقيقية للمقاومة، ونقطة رئيسية في إمداد القوات الليبية والمحاربين الأتراك بالذخائر والتموين عبر خط الغواصات الألمانية التي كانت تفرغ شحناتها في ميناء مصراتة[2].

ثالثا: موقف الحكومة الإيطالية من أنشطة سليمان الباروني ١٩١٦-١٩١٩م

لقد سافر سليمان الباروني إلى فينا ثم إلي البلقان وكان يرافقه شقيقه أحمد، ومعهما مبلغ من المال والذهب، وقد كلف الباروني بالذهاب إلى طرابلس ليعلن باسم الخليفة ضم طرابلس الغرب إلى الإمبراطورية العثمانية، حاملا توصية إمبراطورية بتسميته حاكما عاما لهذه المنطقة، وحمل أخوه بتوكيل مماثل[3]. وطبقا لرسالة رسمية ألمانية فإن سليمان الباروني سافر نحو طرابلس أكتوبر ١٩١٦م[4]. وحال وصوله مصراتة استقبل بحفاوة كبيرة وسرور عارم من قبل الشعب والثوار الليبيين[5].

ويذكر أن الباروني كان مكلفا من قبل السلطان العثماني بقيادة إقليم طرابلس الغرب فقط، وعدم المساس بالجهة الشرقية، حيث نفوذ السنوسيين،

---

(١) برقية السفير الألماني ميترنيج بتيرابيا بتاريخ ٢٣ يوليو١٩١٦م المرسل لوزارة الخارجية الألمانية بشأن وجود أنور باشا في إجدابيا وحالة الوضع في ليبيا، الوثائق الألمانية، المجموعة الرابعة، ...، مج/٢، الوثيقة رقم(١٧٣)، ص١٦٨-١٦٩.

(٢) عماد الدين غانم، عمليات الغواصات الألمانية في المياه الليبية وحركة الجهاد الليبي(١٩١٥-١٩١٨م) دراسة في تاريخ العلاقات الليبية الألمانية، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس،٢٠٠٣م، ص٨٣-١٢١، ٢٠٦-٢٩١.

(٣) رسالة السفير الألماني في بيرا بتاريخ٣٠ أكتوبر١٩١٦م الى بيتمانن هولفنج المستشار الألماني بشأن سفر الباروني إلى طرابلس، الوثائق الألمانية، المجموعة الرابعة...، مج/٢، الوثيقة رقم(١٨٤)، ص١٩٩.

(٤) تقرير ألماني سري بتاريخ ١٠أكتوبر١٩١٦م تفيد بسفر الباروني إلى طرابلس الوثائق الألمانية، المجموعة الرابعة ...، مج/٢، الوثيقة رقم(١٨٠)، ص١٨٦.

(٥) تقرير حول مجريات الأمور بطرابلس منشور بجريدة و- ت – ب الأحد ١٩١٦/١١/٢٦م ضمن أوراق السفارة الألمانية ببرلين، الوثائق الألمانية، المجموعة الرابعة...، مج/٢، الوثيقة رقم(١٨٦)، ص٢٠٥.

وبالتالي كان مكلفا بتولي الأمور نيابة عن الحكومة التركية في إقليم طرابلس فقط[1].

في هذه الفترة كانت السلطات الإيطالية على علم بأن نفوذ سليمان الباروني رغم أنه كان ضعيفا في المنطقة الشرقية من ليبيا إلا أن منطقة أقصى غرب ليبيا والمناطق المتاخمة للحدود التونسية والجزائرية أصبحت المجال الرئيسي لنشاط الباروني[2]. وشرع الأخير بالفعل في ممارسة أنشطة متعددة، كان الهدف منها في المقام الأول جمع قادة الجهاد على كلمة واحدة، وخاصة وأنه قد وصل المنطقة والمقاومة الليبية في المنطقة الغربية انفصلت عن المنطقة الشرقية بعد خلافات رمضان السويحلي مع إدريس السنوسي بشكل خاص والسنوسيين بشكل عام بعيد معركة قصر بوهادي، والخلافات كانت على أشدها بين ترهونة ومصراتة حول بلدة مسلاتة، كما أن الخلافات كانت على أشدها بين الأمازيغ والعرب في منطقة الجبل الغربي، فالباروني كان عليه توحيد جبهات المقاومة على اعتبار أنه قومندان طرابلس المعين من قبل الحكومة العثمانية وفق الفرمان السلطاني الصادر بالخصوص.

لكن الاستخبارات الإيطالية رصدت تحركات الباروني في هذه الفترة، فأشارت بتاريخ ٢٢ نوفمبر ١٩١٦م إلى أن سليمان الباروني أعلن عن مجيئه للزاوية، في وقت سبقه إليها خليفة بن عسكر قبل خمسة أيام للاجتماع به، وتنسيق المواقف الوطنية[3]. ويبدو أن الباروني وجد أن مصراتة لا تكفي لوحدها لإمداد المقاومة بما تحتاجه من تموين، فقرر العمل من أجل إيجاد منافذ بحرية أخرى على نقاط في أقصى الساحل الليبي الغربي مثل الزاوية وزواره ونحوها،

---

(1) تقرير رودفيتش السفير الألماني باسطنبول بتاريخ ١٤أكتوبر١٩١٦م بشأن إرسالية الباروني إلى طرابلس، الوثائق الألمانية، المجموعة الرابعة...، مج/٢، الوثيقة رقم(١٨١)، ص١٨٩.

(2) تقرير رودفيتش السفير الألماني في اسطنبول بتاريخ ٦ نوفمبر١٩١٦م إلى الخارجية الألمانية بشأن تصريحات علي باشا حامبة عن تحركات الباروني، الوثائق الألمانية، المجموعة الرابعة...، مج/٢، الوثيقة رقم(١٨٥)، ص٢٠١.

(3) برقية من الوالي أميليو إلى وزير المستعمرات والحربية روما بشأن سفر خليفة بن عسكر إلى الزاوية للتشاور مع سليمان الباروني، الوثائق الإيطالية المنشورة، المجموعة السابعة عشرة، ترجمة المهدي عمر التريكي، إعداد: سالم عبد السلام عرفة، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية طرابلس ٢٠٠٥م، الوثيقة رقم(٣٤٦)، ص٢٦٥.

ففي يوم ٩ديسمبر ١٩١٦م ذكرت الدوائر الإيطالية أن الباروني كان قد قرر الهجوم على النوايل، ليفتح الطريق للإمدادات التي كانت تصله عبر البحر[١].

كانت العمليات الحربية التي نفذها الباروني في المنطقة وبالنظر لموقفه الذي أصبح قويا بفعل الفرمان العثماني وولاء الكثير من الزعامات الليبية له فإن الاستخبارات الإيطالية أصبحت تخشى من أنشطته تلك والمكانة المرموقة التي صار عليها الباروني حتى قرر بعض الزعماء المناوئين للباروني في السابق الاستسلام والدخول في الطاعة والعمل سويا من أجل القضية الوطنية، من هؤلاء محمد فكيني زعيم الرجبان الذي لم يعلن الولاء للباروني وحسب بل حل ضيفا على مقر قيادة الباروني في العزيزية، وفسر ذلك من قبل الإيطاليين بأنه لإعلان الاستسلام[٢]. ولكن الواقع كان قدومه لإعلان الانضمام للمشروع العثماني الجديد بطرابلس والدخول في طاعة العثمانيين وممثلهم في طرابلس سليمان الباروني من جديد.

لقد أكدت الوقائع نفسها على ما سبق قوله ففي اجتماع العزيزية الذي عقد على الأرجح منتصف ديسمبر ١٩١٦م أطلع سليمان الباروني قادة وزعماء الجهاد على خطة حركة المقاومة الليبية الجديدة، وأبقى معظم أولئك الزعماء في مناصبهم الإدارية في مناطقهم، وقد رصدت ذلك الدوائر الإيطالية، وأوضحت بأن المكانة التي صار عليها المحاربون تحت الراية العثمانية في طرابلس ووجود شخصيات مثل الباروني والسويحلي كانت كفيلة بانجذاب الزعامات الوطنية الأخرى نحو التكتلات الكبرى في إقليم طرابلس بزعامة السويحلي أو زعامة الباروني، ومحاولة حيازة رضاها، وذلك النهج تجسد في مواقف محمد فرحات القاضي الذي نقل من مسلاتة إلى زليطن ليكون قائمقام عنها باسم سليمان

---

(١) برقية من الوالي أميليو الى وزير المستعمرات روما بتاريخ ٩ ديسمبر ١٩١٦م بشأن سليمان الباروني قد قرر الهجوم على النوايل ليفتح الطريق للتزويدات التي يأمل أن تصله من تركيا، الوثائق الإيطالية المنشورة، المجموعة السابعة عشرة...، الوثيقة رقم(٣٤٩)، ص٢٧١.

(٢) المصدر نفسه.

الباروني، لكنه أصبح على علاقات ودية وطيبة مع السويحلي في مصراتة؛ لتدعيم مركزه في زليطن ومسلاتة مسقط رأسه[1].

لقد وجد سليمان الباروني مصاعب جمة في مقابل النجاحات التي حققها من خلال الاتصال بالكثير من الزعامات الليبية، وقد رصدت الدوائر الإيطالية أن اليأس الذي أصبح عليه الباروني وخاصة مع استسلام الكثيرين للإيطاليين، جعلته يقرر وفقا لما ذكره تقرير وزارة المستعمرات الإيطالية المؤرخ في ١٥ يناير ١٩١٧م التخلي عن برنامج الاستمرار في قتال الإيطاليين[2].

لكن وزارة المستعمرات الإيطالية عادت وكتبت في تقرير آخر بعد ثلاثة أيام فقط من التقرير سالف الذكر ما نصه: " إن المشاغب المعروف سليمان الباروني من الجبل الذي اضطر إلى الهرب من طرابلس الغرب عاد وفي حوزته أموال تركية وألمانية، ليعلن نفسه مبعوثا للسلطان ومكلفا بتنظيم وقيادة الثورة ضد إيطاليا، وقد انضم إلى صفوف المهدي السني وخليفة بن عسكر غرب طرابلس، الذين زحفوا بثلاثة طوابير قوامها ٦٠٠٠ رجل لمحاربة الإيطاليين والأهالي الموالين في زوارة والنوايل، وقد اشتبك في معركة مع الإيطاليين هزم فيها آخر المطاف بتاريخ ١٦ يناير ١٩١٧م "[3].

لقد أصبح الباروني يخضع لمراقبة كبيرة من قبل الاستخبارات الإيطالية، بل إنه أصبح في مراقبة مشددة من قبل الاستخبارات الإنجليزية ودول الحلفاء بشكل عام كما سنرى لاحقا، الخلافات والصراعات الجهوية أخذت قسطا من جهود الباروني، بحيث استغرقت عدة أشهر من سنة ١٩١٧م، وفي شهر

---

(١) رسالة الوالي أميليو إلى وزير المستعمرات روما بتاريخ١٩ ديسمبر١٩١٦م؛ بشان علاقة الباروني بالحاج محمد فرحات القاضي، الوثائق الإيطالية المنشورة، المجموعة العاشرة، ترجمة خالد زكي ثابت، إعداد: علي عمر الهازل، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية طرابلس ١٩٩١م، الوثيقة رقم(٨٣)، ص٢٩٤.

(٢) من السفير الألماني باسطنبول إلى وزير خارجية بلاده حول معركة دارت قرب زواره وتخلي الباروني عن قتال الإيطاليين الوثائق الألمانية، المجموعة الرابعة...، مج/٢، الوثيقة رقم(١٩٠)، ص٢٢٥.

(٣) برقية نشرتها الصحافة في روما بتاريخ ٢٠ يناير١٩١٧م متضمنة تقرير وزارة المستعمرات الإيطالية في روما الصادر في ١٨ يناير١٩١٧م، الوثائق الألمانية، المجموعة الرابعة...، مج/٢، الوثيقة رقم(١٩١)، ص٢٢٧.

سبتمبر ١٩١٧م ووفقا لوالي طرابلس الإيطالي فإن سليمان الباروني عاد مجددا لممارسة أنشطته السابقة، متخذا من العزيزية مقرا له، تعاونه شخصيات عثمانية ووطنية عديدة منها نوري باشا والشيخ عمر المنصوري ومختار كعبار[١].

وبتاريخ ١٩ سبتمبر ١٩١٧م أرسل الوالي الإيطالي رسالة أخرى لوزارتي المستعمرات والحربية بروما تضمنت تقريرا أشار فيه إلى أن الباروني جمع ونظم صفوف محلات العجيلات في أعقاب ما حل بها من هزيمة، وشكل منها فصائل ضمت عددا من المسلحين لا يقل عددهم عن الألف، ليشارك بهم في الاستعداد للهجوم على المواقع الإيطالية في سواني بن يادم وجنزور[٢].

لقد اتخذت الحكومة الإيطالية كل ما من شأنه عرقلة جهود الباروني، فقدمت الإغراءات للكثير من القبائل للاستسلام للإيطاليين مع وصول البلاد لحالة من الجوع والفاقة لم تشهد لها مثيلا من قبل، حتى أن عام ١٩١٧م سمي بعام الشر، وفي ٢٠ سبتمبر ١٩١٧م أشيع من قبل الإيطاليين أن سليمان الباروني متذمر جدا من سكان الواحات الغربية لما يبدونه من رغبة في الاستسلام للحكومة الإيطالية[٣].

ونظرا لمستجدات الوضع الناشئ عن استسلام بعض القبائل وعجز البعض الآخر عن الاستمرار في الحرب بسبب الظروف الاقتصادية المحيطة، فضلا عن هزيمة محلة ترهونة وانسحاب المحلات الأخرى مثل: مصراتة والنواحي الأربع وورشفانة إلى جنوب العزيزية فإن سليمان الباروني الذي كان

---

(١) رسالة أميليو والي طرابلس إلى وزارة المستعمرات الإيطالية بروما بتاريخ١٦ سبتمبر١٩١٧م وجاء فيه أخبار عن وجود الباروني في العزيزية، الوثائق الإيطالية المنشورة المجموعة الثامنة والعشرون" عمليات طابور قوات كاسينس وأخبار الشهور من سبتمبر إلى ديسمبر١٩١٧م، ترجمة: شمس الدين عرابي بن عمران، إعداد وترتيب: وداد فتحي فتيته، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية بطرابلس،٢٠٠٢، مج/٢، الوثيقة رقم(٣)، ص٢٨.

(٢) رسالة أميليو والي طرابلس إلى وزارتي المستعمرات والحربية بروما بتاريخ١٩ سبتمبر١٩١٧م وجاء فيه أخبار عن أنشطة الباروني في منطقة العجيلات، الوثائق الإيطالية المنشورة المجموعة الثامنة والعشرون...، مج/٢، الوثيقة رقم(١١)، ص٤٦.

(٣) رسالة أميليو والي طرابلس إلى وزارتي المستعمرات والحربية بروما بتاريخ٢٠ سبتمبر١٩١٧م وجاء فيه بأن سليمان الباروني متذمر جدا من سكان الواحات الغربية لما يبدونه من رغبة في الاستسلام للحكومة الإيطالية، الوثائق الإيطالية المنشورة المجموعة الثامنة والعشرون...، مج/٢، الوثيقة رقم(١٤)، ص٥٣.

يتولى قيادة فرقة من المقاتلين كانت تعسكر في بير ترينة وتهدف لمساندة هجوم المجاهدين على أم العدم انسحب رفقة نوري باشا للتمركز في الرابطة قرب غريان[1]. لقد وجد الباروني نفسه مضطرا لمحاولة لملمة الجراح، ولم شمل المقاومة من جديد، ووفقا لمراقبة تحركاته وردت عدة تقارير إيطالية بالخصوص خلال الفترة المتبقية من سنة ١٩١٧م، **فوفقا للتقرير الأول** المؤرخ في ٢٤ سبتمبر ١٩١٧م فإن الباروني موجود بالعزيزية حيث التحق به نوري باشا، بعد زيارة الأخير إلى الرابطة، وبالعزيزية كان يوجد أيضا الشيخ محمد سوف المحمودي وعلي بن تنتوش والحاج صالح بن سلطان وعبد الصمد النعاس والمبروك المنتصر والصغير شقيق أحمد المريض[2].

ووفقا للتقرير الثاني : المؤرخ في ٢٥ سبتمبر ١٩١٧م فإنه يقال إن الباروني موجود رفقة نوري باشا بسواني بن يادم، وهناك تخطيط لمواجهة أية هجمات إيطالية محتملة على العزيزية، حيث يجري تجهيز مركز تمويني لذات الغرض في فندق قصر بن غشير[3].

وفي ذات اليوم الذي كتب فيه هذا التقرير ذكر أن سكان الجبل تلقوا من سليمان الباروني طلبا مستعجلا يقضي بإرسال فصائل من رجال الرابطة، حيث سيزودون بالسلاح حال الوصول إلى العزيزية، وقد لوحظت هجرة أهالي في اتجاه جنوب الزنتان والرجبان، ربما بحثا عن الكلأ للأغنام[4].

---

(١) رسالة آميليو والي طرابلس إلى وزارتي المستعمرات والحربية بروما بتاريخ٢٢ سبتمبر١٩١٧م وجاء فيه بأن سليمان الباروني انسحب إلى الرابطة بعد انسحاب المحلات المقاتلة إلى جنوب العزيزية، الوثائق الإيطالية المنشورة المجموعة الثامنة والعشرون...، مج/٢، الوثيقة رقم(١٩)، ص٦٨-٦٩.

(٢) رسالة آميليو إلى وزارة المستعمرات بروما بتاريخ٢٤ سبتمبر١٩١٧م وجاء فيه بأن سليمان الباروني موجود في العزيزية، الوثائق الإيطالية المنشورة المجموعة الثامنة والعشرون...، مج/٢، الوثيقة رقم(٢٤)، ص٨٥-٨٦.

(٣) رسالة آميليو والي طرابلس إلى وزارتي المستعمرات والحربية بروما بتاريخ٢٥ سبتمبر١٩١٧م وجاء فيه بأن سليمان الباروني موجود في سواني بن يادم، الوثائق الإيطالية المنشورة المجموعة الثامنة والعشرون...، مج/٢، الوثيقة رقم(٣٠)، ص١٠٥.

(٤) رسالة آميليو والي طرابلس إلى وزارتي المستعمرات والحربية بروما بتاريخ٢٥ سبتمبر١٩١٧م وجاء فيه أن سكان الجبل تلقوا من سليمان الباروني طلبا عاجلا بإرسال فصائل من رجال الرابطة حيث سيزودون بالسلاح حال وصولهم إلى العزيزية، الوثائق الإيطالية المنشورة المجموعة الثامنة والعشرون...، مج/٢، الوثيقة رقم(٣١)، ص١٠٩.

وأما التقرير الثالث : فقد أعد بتاريخ٢٧ سبتمبر ١٩١٧م وجاء فيه أنه يشاع بأن الباروني ذهب مع ثلاثمائة فارس إلى الزاوية لإجراء محادثات مع محمد شلابي، ويقال إنه عاد من هناك وأن أحمد الباروني شقيق سليمان قائم مقام لا يتمتع إلا بالقليل جدا من النفوذ والسلطة[١].

وبتاريخ ٢٨ سبتمبر ١٩١٧م كان **التقرير الرابع** وجاء فيه أن سليمان الباروني موجود في الزاوية، لإجراء مباحثات مع زعماء المدينة، وأما نوري باشا فموجود في سواني بن يادم، والأخير تلقى رسالة من رمضان السويحلي تعلمه بقرب وصول غواصة إلى ميناء مصراتة[٢].

وجاء في **التقرير الخامس** : المؤرخ في ٣٠ سبتمبر ١٩١٧م بأن الباروني على ما يبدو موجود في سواني بن يادم[٣]، لكن آميليو عاد ليكتب في ذات اليوم أن الباروني موجود في صرمان بعد أن ترك سواني بن يادم بتاريخ ٣٠ سبتمبر ١٩١٧م[٤].

وأما **التقرير السادس** : فقد أعد في ١أكتوبر ١٩١٧م جاء بعنوان تقرير مفصل عن الوضع السياسي في طرابلس الغرب غرة أكتوبر ١٩١٧م، حيث علم أن الباروني كان في ٣ سبتمبر بالزاوية، ولما علم باقتراب القوات الإيطالية انتقل إلى أم الحلوف، وطلب تعزيزات من ترهونة ومن مناطق أخرى، وفي الزاوية استقبل الباروني من قبل محمد شلابي استقبالا وديا، ومنها انتقل إلى صرمان،

---

(١) رسالة آميليو والي طرابلس إلى وزارتي المستعمرات والحربية بروما بتاريخ٢٧ سبتمبر١٩١٧م وجاء فيه الباروني ذهب مع ثلاثمائة فارس إلى الزاوية لإجراء محادثات مع محمد شلابي، الوثائق الإيطالية المنشورة المجموعة الثامنة والعشرون...، مج/٢، الوثيقة رقم(٣٦)، ص١٢٤.

(٢) رسالة آميليو والي طرابلس إلى وزارتي المستعمرات والحربية بروما بتاريخ٢٨ سبتمبر١٩١٧م وجاء فيه سليمان موجود حاليا في الزاوية، الوثائق الإيطالية المنشورة المجموعة الثامنة والعشرون...، مج/٢، الوثيقة رقم(٣٩)، ص١٣١-١٣٢.

(٣) رسالة آميليو والي طرابلس إلى وزارتي المستعمرات والحربية بروما بتاريخ٣٠ سبتمبر١٩١٧م وجاء فيه الباروني يبدو أنه موجود حاليا في سواني بن يادم، الوثائق الإيطالية المنشورة المجموعة الثامنة والعشرون...، مج/٢، الوثيقة رقم(٤٣)، ص١٤٢.

(٤) رسالة آميليو والي طرابلس إلى وزارتي المستعمرات والحربية بروما بتاريخ٣٠ سبتمبر١٩١٧م وجاء فيه الباروني في صرمان يوم ٣٠ سبتمبر، الوثائق الإيطالية المنشورة المجموعة الثامنة والعشرون...، مج/٢، الوثيقة رقم(٤٥)، ص١٤٩.

وعمل على إشاعة دعوة للتجنيد، واعدا بمنح أجر يومي لكل مجند قدره ثلاث ليرات، وأسفر هذا عن انضمام محلات جنزور بعد معركة العجيلات للقوات التي كان يقودها الباروني، وقرب الزاوية عكف الباروني رفقة الشيخ سوف المحمودي ومختار كعبار على تنظيم المقاومة، وبسبب زحف الجنرال كاسينس قائد القوات الإيطالية انسحبوا نحو الدواخل[1]. وفي ذات التقرير ذكر أن الباروني حضر بتاريخ ٢٢سبتمبر ١٩١٧م اجتماعا بالعزيزية دعا إليه نوري باشا، وحضره كبار الشخصيات الطرابلسية للاتفاق على التصميم على الاستمرار في الحرب، وطلب التعزيزات وخاصة من منطقة الجبل التي لم تقدم إلا القليل في تلك الفترة[2].

وأخيرا جاء **التقرير السابع** في١٩ أكتوبر ١٩١٧ ليفيد بأن الباروني متواجد في الزاوية[3]، وأفيد بعد يومين من هذا التقرير بأن الباروني دعا زعماء المتمردين في الزاوية لعقد اجتماع للتباحث فيما يجب اتخاذه من إجراءات ضد عائلات الزعماء الذين استسلموا للحكومة الإيطالية[4].

وهكذا عادت المشاكل من جديد ونجحت السلطات الإيطالية بشكل مباشر أو غير مباشر في تحجيم دور الباروني وإبعاد القبائل عنه، وخلال الأشهر الأولى من السنة الأخيرة من الحرب العالمية الأولى ١٩١٨م، وتحديدا في ٢٧ من شهر مارس رصدت الحكومة الإيطالية أن الكثير من الزعامات الليبية أصبحت على غير وفاق مع سليمان الباروني، يأتي في مقدمتهم صديق الباروني القديم وزميله في منظمة تشكيلاتي مخصوصة الشيخ محمد سوف

---

(١) تقرير مفصل عن الوضع السياسي في طرابلس الغرب غرة أكتوبر١٩١٧م، الوثائق الإيطالية المنشورة المجموعة الثامنة والعشرون...، مج/٢، الوثيقة رقم(٤٦/ب)، ص١٥٧-١٦٧.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) تقرير مفصل من إدارة الخرائط العسكرية بوزارة المستعمرات الإيطالية عن مواقع الإيطاليين والمتمردين حتى ٢٠ من أكتوبر١٩١٧م، الوثائق الإيطالية المنشورة المجموعة الثامنة والعشرون...، مج/٢، الوثيقة رقم(٤٨)، ص١٨١.

(٤) رسالة أميليو والي طرابلس إلى وزارتي المستعمرات والحربية بروما بتاريخ٢١ أكتوبر١٩١٧م وجاء فيه دعوة الباروني لزعماء المجاهدين بالزاوية للتباحث في الإجراءات التي يجب اتخاذها ضد المستسلمين لإيطاليا، الوثائق الإيطالية المنشورة المجموعة الثامنة والعشرون...، مج/٢، الوثيقة رقم(٧١)، ص٢٥١.

المحمودي فضلا عن رفيقي المحمودي أحمد باشا ومحمد بك بيري، فقد أصبح ولاء على غير وفاق مع سليمان الباروني[١].

لقد تمت مراقبة أنشطة الباروني وتحركاته في هذه المرحلة الدقيقة من قبل الاستخبارات الإيطالية بناء على معلومات استخباراتية سرية قدمت من قبل إدارة الأمن الإنجليزية في السلوم، فقد تحولت السلوم المصرية خلال الحرب لمركز معلومات هام لدول الحلفاء، فالتقارير الإنجليزية الكثيرة التي تابعت تحركات الباروني في هذه الفترة في إقليم طرابلس كان عونا للحكومة الإيطالية[٢].

وبناء على ما كانت قد تلقته الحكومة الإيطالية من حليفتها بريطانيا وما كانت قد تلقته من المندوبية الإيطالية بالسلوم[٣] فإن وزارة المستعمرات بروما بتاريخ ٢٧ يوليو ١٩١٨م أشعرت ممثلي الدولة الإيطالية في ليبيا بأن تحركات الباروني في الآونة الأخيرة أصبحت تشكل تهديدا للمصالح الإيطالية، واستدلت الوزارة بأن المحاولات التي يبذلها الباروني لاحتواء التوتر بين ترهونة ورمضان السويحلي زعيم مصراتة على خلفيات النزاع حول مسلاتة يجب إيقافها وإرباكها بأي وسيلة ممكنة، ولو عن طريق الاستعانة بشخصيات صديقة للإيطاليين مثل: الزعيم أحمد المريض زعيم ترهونة[٤].

---

(١) من وزارة المستعمرات إلى حكومة طرابلس بتاريخ٢٧مارس١٩١٨م بشأن الاستفادة من محمد بيري وأشير للخلاف بين سوف المحمودي والباروني، الوثائق الإيطالية المنشورة المجموعة السادسة والعشرون...، مج/٣، الوثيقة رقم(٤)، ص٣٣.

(3) Public Record Office: Summary of Sallum Intelligence,3/1/1918; Summary of Sallum Intelligence,4/4/1918; Summary of Sallum Intelligence,2/5/1918; Summary of Sallum Intelligence,14/8/1918; Summary of Sallum Intelligence,20/8/ 1918; Summary of Sallum Intelligence,2/9/1918.

(٣) ملخص نشرة عسكرية لمكتب الاستخبارات الإيطالي صادرة بتاريخ ١٩١٧/١/٢٤م تتعلق بوصول غواصتين ألمانيتين لساحل ولاية طرابلس الغرب بمناطق السلوم- طبرق وبنغازي، الوثائق الإيطالية المنشورة، المجموعة الخامسة والعشرون، ترجمة: المهدي عمر التريكي، إعداد: مصطفى علي هويدي، طرابلس، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ٢٠٠٠م، الوثيقة رقم(١٨)، ص ٨٦.

(٤) من وزارة المستعمرات إلى حكومة طرابلس بتاريخ٢٧يوليو١٩١٨م مفادها العمل على إعاقة الوساطة التي يقوم بها الباروني للإصلاح بين ترهونة والسويحلي، الوثائق الإيطالية المنشورة المجموعة السادسة والعشرون...، مج/٣، الوثيقة رقم(٤)، ص٣٣.

لم تنجح المساعي الإيطالية في هذه الفترة في عرقلة جهود الباروني، كما أن تطورت الموقف الدولي انعكست على الوضع الداخلي في ليبيا فقد وضعت الحرب العالمية أوزارها نوفمبر ١٩١٨م واستسلمت تركيا للحلفاء، وبالتالي لم يعد الباروني ممثلا للدولة العثمانية في إقليم طرابلس، لكن الأخير حاول مع بقية الزعماء فعل شيء من أجل القضية الوطنية ومحاولة إنهاء الاحتلال الإيطالي وتحقيق استقلال البلاد الليبية، لذا أسهم الباروني في اجتماع جامع المجابرة بمسلاتة١٦نوفمبر ١٩١٨م لتكوين حكومة وطنية موحدة لإقليم طرابلس، يكون من شأن مندوبين عنها التحدث في مؤتمر الصلح المزمع عقده بباريس يناير ١٩١٩م عن القضية الطرابلسية.

لقد ظهرت الجمهورية الطرابلسية للوجود لكنها ولدت ميتة، رغم اختيار الباروني من ضمن مجلس رئاستها، فقد رفضت الحكومة الإيطالية الاعتراف بالجهورية وأعلنت الحرب عليها، بل وشرعت في احتلال بعض المناطق الخاضعة لها[1]. كما أن الباروني لم يجد لنفسه مكانا بين زعماء الجهاد وخصوصا بعد تكوين ما عرف بحكومة القطر الطرابلسي؛ فغادر طرابلس في سنة ١٩١٩م ليستقر به الحال في تونس.

رابعا: موقف الحكومة الإيطالية من أنشطة سليمان الباروني ١٩١٩-١٩٢٤م

خلال هذه المرحلة حاولت السلطات الإيطالية استدراج الباروني لخدمة أهدافها مع يقينها بأن الوضع الذي صارت عليه طرابلس لم يعد مناسبا لتدخل الباروني، فقد طلب وزير المستعمرات الإيطالي بتاريخ ١ أبريل١٩٢٠ من الباروني تهدئة الوضع في ليبيا بعد عودته من اسطنبول حتى لا يتسرب ما في

(١) الطاهر أحمد الزاوي، جهاد الأبطال في طرابلس الغرب، بيروت، دار الفتح للطباعة والنشر، ليبيا، السيد محمد الرماح بثينه، ط/٢، ١٩٧٠م، ص ٣٢٠-٣٤٧.

اسطنبول من مظاهرات ضد الحلفاء إلى ليبيا، وقد وعد الباروني بتهدئة الحال[1]. جاء وعد الباروني للإيطاليين من واقع الحرص على ضمان العودة إلى وطنه من جديد، لكن تطورات الموقف على الساحة الليبية حال دون تمكن الباروني من العودة مجددا إلى ليبيا، فإيطاليا التقطت الأنفس واستردت جزءا من عافيتها بعيد الحرب الكبرى، ونجحت في إحداث الفتنة بين القبائل الليبية، تنفيذا لمبدأ فرق تسد، فعاشت الساحة الليبية على وقع حروب أهلية ونزاعات قبلية ومناطقية خطيرة مثل: حرب ورفلة مع مصراتة التي أسفرت عن مقتل زعيم الأخيرة رمضان السويحلي ٨أغسطس ١٩٢٠م[2]، والحرب الأمازيغية العربية في الجبل الغربي ١٩٢٠/١٩٢١م[3]، وبالتالي قدمت هذه النزاعات والخلافات خدمة جليلة للإيطاليين للتوسع واسترداد ما كانوا قد فقدوه في السابق إبان الحرب العالمية الأولى.

في أكتوبر ١٩٢٢م وصل إلى سدة الحكم في روما الحزب الفاشي بزعامة بنيتو موسوليني، والأخير قرر إخضاع المستعمرة الليبية دون قيد أو شرط، كما اعتبر أن المعاهدات التي أبرمها حكام برقة وطرابلس مع الليبيين في الفترة السابقة معاهدات مهينة للحكومة الإيطالية، وبالتالي قرر إلغاء تلك المعاهدات والاتفاقيات جملة وتفصيلا، كما رفض فكرة التعامل مع الزعامات الليبية بخلاف ما درجت عليه الحكومات الإيطالية في السابق، واتبع ذلك تنشيط التمثيل الدبلوماسي والقنصلي الفاشي في البلدان المجاورة لليبيا بشكل خاص ومعظم بلدان العالم وأخضعت بشكل عام لإدارة حازمة عرفت بالمجلس الأعلى الفاشي

---

(1) Ministero Delle Colonie, 1Apr1920 .
المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية بطرابلس الوثائق الأجنبية الوثائق الإيطالية غير المنشورة الوثيقة(11)، ١٩٢٠/٤/١م، ميكروفيلم(٢٦٣)، وثائق وزارة المستعمرات في روما ، ترجمة المهدي التريكي.

(٢) الطاهر أحمد الزاوي، مصدر سابق، ص ٤٠٠-٤٠٤.

(٣) المصدر نفسه، ص٤٠٤-٤١١.

بروما منذ تأسيسه في يناير ١٩٢٣م[١]، بحيث طلب من هؤلاء الدبلوماسيين والقناصل الحيلولة دون تمكن أي من الزعماء الليبيين من ممارسة أنشطة معادية لإيطاليا انطلاقا من تونس أو مصر أو بلاد الشام أو الجزيرة العربية، ناهيك عن المغرب العربي وأوربا، وحفل تاريخ هذه الفترة بتعرض الكثير من الزعامات الليبية للاعتقال والطرد من بعض بلدان العربية، لعل من أشهرها الزعماء العشرة الطرابلسيين الذين اعتقلوا في نوفمبر ١٩٢٣م في حمام مريوط بمصر، ثم طلب منهم مغادرة مصر بناء على احتجاجات إيطالية بالخصوص[٢].

لم يشد سليمان الباروني على هذه القاعدة، فالشخصية كانت مراقبة من قبل الإيطاليين مراقبة شديدة، وكان متوقعا أن يفكر في العودة إلى بلاده للمشاركة في الجهاد ضد الإيطاليين، خاصة وأن المقاومة المسلحة قد تجددت بشكل أكثر عنفا على يد عمر المختار في المنطقة الشرقية، مقرونا بجبهات قتال ملتهبة في فزان والجفرة ومنطقة القبلة ومثلث الواحات جالو وأوجلة وبادية سرت. لذا فقد أخضع الباروني لمراقبة إيطالية صارمة، وطلب من الحكومة الفرنسية العمل على طرده من باريس والحيلولة دون دخوله تونس أو الجزائر أو بلاد الشام[٣]. كما طلب من الحكومتين الإنجليزية والمصرية القيام بعمل مماثل، وبخصوص الحكومة المصرية فقد نجحت المفوضية الإيطالية بالقاهرة في حث وزارة الخارجية المصرية على إصدار قرار قضى بعدم السماح لأي من الزعامات الليبية والتي من بينها سليمان الباروني وعثمان القيزاني والسيد أحمد الشريف السنوسي من العودة إلى ليبيا عبر الأراضي المصرية[٤].

---

(١) Ministro Degli Affari Esteri Servizio Storico E Documentazione, Inventario Dell Archivio Dell Consiglio Superioe Coloniale 1923-1939, Archivio Storico Diplomatico, Roma, 1975, P.1.

(٢) الطاهر أحمد الزاوي، مصدر سابق، ص٤٨٤- ٤٨٥ ؛ أيضا: محمد فؤاد شكري، ميلاد دولة ليبيا الحديثة، وثائق تحريرها واستقلالها، الجزء الأول ١٩٤٥-١٩٤٧م، المجلد الثاني، القاهرة، مطبعة الاعتماد، ١٩٥٧م، ص ٥٨٨-٥٨٩.

(٣) محمد صالح الجابري، يوميات الجهاد الليبي في الصحافة التونسية، الدار العربية للكتاب، ليبيا-تونس، ١٩٨٢م، ج/٢ (١٩١٢-١٩٣٢)، ص٥٩٤-٥٩٦.

(٤) مذكرة المفوضية الإيطالية بالقاهرة المرفوعة إلى وزير الخارجية المصري بتاريخ ١٩٢٧/٢/٥م؛ بشأن نشاطات القيزاني في مصر (باللغة الإيطالية)، وقد اتخذ وزير الحربية والبحرية المصرية إجراءات مشددة بخصوص تحركات

وخلال شهر أبريل ١٩٢٤م تحولت السفارات والقنصليات الإيطالية في فرنسا وتونس ومصر واسطنبول والمغرب والجزائر بالتنسيق مع الحكومة الإيطالية بروما وممثلي الأخيرة في ليبيا إلى غرفة عمليات، كثف العمل فيها من أجل منع سليمان الباروني من العودة مجددا إلى ليبيا، بل على العكس من ذلك كان الاتفاق والعمل يقضي بالحيلولة دون رجوع الباروني إلى ليبيا عبر هذه البلدان ومراقبة تحركاته جميعها، وكذلك تفتيش مراسلاته مع الشخصيات الوطنية والدولية، ومعرفة الخطط والبرامج التي ينوي القيام بها ضد الحكومة الإيطالية وممثليها في ليبيا والمنطقة بشكل عام[١].

لقد يئس الباروني من موافقة الحكومة الفرنسية على عودته إلى بلاده عبر تونس ومن ثم قرر العودة من جديد للتعامل مع الإنجليز والحكومة المصرية، طالبا الموافقة على عودته وأسرته إلى ليبيا، لكن الدوائر الإيطالية نجحت في حرمانه من ذلك، وفقا لجهود المفوضية الإيطالية بالخصوص. ففي شهر مايو ١٩٢٤م منع الباروني من الدخول إلى مصر من خلال رفض السلطات المصرية والإنجليزية منحه تأشيرة دخول إلى أراضيهما[٢]. وفي خطوة لاحقة نجحت الدوائر الاستخباراتية الإيطالية في توسيع دائرة المنع بحيث شمل القرار رفض منح التأشيرة لبقية أفراد أسرة الباروني بشكل كامل، واعتبرت العائلة عائلة

القيزاني كما بين في رسالته إلى وزير خارجية بلاده بتاريخ ١٩٢٧/٢/٢١م، وثائق وزارة الخارجية المصرية، الأرشيف السري القديم، المحفظة رقم(٦٦٦)، الملف رقم ١١٥/٢/٤٢ أيضا: الوثائق الإيطالية، المجموعة الثالثة، ترجمة: شمس الدين عرابي بن عمران، إعداد: عمرو سعيد بغني، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، طرابلس، ١٩٨٩م، ملف عثمان القيزاني، ص ٨٥-١٧٠ أيضا: رسالة وزير المستعمرات الإيطالية إلى وزير خارجية بلاده بتاريخ ١٩٢٤/٤/٧، رقم ٧٤١٣، المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية، طرابلس، الوثائق الإيطالية غير المنشورة، شعبة الوثائق والمخطوطات، الوثائق الأجنبية، ميكروفيلم رقم (٢٥١).

(١) المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية بطرابلس الوثائق الأجنبية الوثائق الإيطالية غير المنشورة، الوثيقة٧٦ التواريخ ١٥،٢٥، ١٠، ٨،١ أبريل١٩٢٤م، ميكروفيلم(٢٦٣) وثائق وزارة المستعمرات في روما ، ترجمة المهدي التريكي. الوثيقة رقم(٧٨)، ١٢ مايو١٩٢٤.

(2) R.Ministero Delle Colonie Afirca Setten Trioale Suleiman El Baruni 12Maggio 1924

المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية بطرابلس الوثائق الأجنبية الوثائق الإيطالية غير المنشورة، الوثيقة(٧٧)، ١٩٢٤/٥/٩م، ميكروفيلم(٢٦٣) وثائق وزارة المستعمرات في روما ، ترجمة المهدي التريكي.

غير مرغوب في إقامتها، أو حتى مجرد الدخول إلى مصر؛ حفاظا على العلاقات الودية بين مصر والحكومة الإيطالية[1].

لم يئس سليمان الباروني من جهوده التي كان يبذلها من أجل العودة إلى بلاده وخصوصا مع إلغاء الحكومة التركية للخلافة في اسطنبول، وبالتالي صار الباروني على يقين من أن تبعية العرب للعثمانيين أصبحت منتهية، ومن ثم بات على العرب والمسلمين التفكير في إيجاد طريقة ما لإحياء مؤسسة الخلافة واختيار خليفة للمسلمين، وقد أدلى الباروني بدلوه في هذا الجدل، وقدم عدة اقتراحات بالخصوص، من بينها جعل المدينة المنورة أو مصر عاصمة للخلافة الإسلامية[2]. وفيما يخص مصر فقد أدرجت من قبل الباروني نظرا لما كان يدور من جدل في الأوساط السياسية والمثقفة المصرية بخصوص مسألة الخلافة وإمكانية أن تكون مصر هي مركزها، وأن يكون الملك أحمد فؤاد خليفة المسلمين[3]. لقد خشيت إيطاليا من أن هذه المناقشات والجدل بين القيادات والشخصيات الإسلامية بما في ذلك سليمان الباروني قد تسهم في خلق صحوة وطنية هائلة قد تعصف بالحكم الإيطالي في ليبيا بالمرة، من خلال تغذية النزعات الجهادية العربية المقاومة للاستعمار الغربي في المنطقة[4].

وخلال شهر يونيو ١٩٢٤م أبلغت القنصلية الإيطالية بمرسيليا وزير مستعمرات بلادها في روما بأن سليمان الباروني قد سافر إلى الإسكندرية وتمكن من دخول مصر[5]، فكان هذا مدعاة للمزيد من القلق الإيطالي من أنشطة

---

(1) Ministero Delle Colonie, Colonie Proiocollo Generale 13Maggio 1924.
المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية بطرابلس الوثائق الأجنبية الوثائق الإيطالية غير المنشورة الوثيقة(٧٩)، ١٩٢٤/٥/١٣م، ميكروفيلم(٢٦٣) وثائق وزارة المستعمرات في روما ، ترجمة المهدي التريكي.

(٢) محمد صالح الجابري، مصدر سابق، ص٥٩٧-٦٠٥.

(٣) دزموند ستيورت، تاريخ الشرق الأوسط الحديث معبد جانوس، نقله إلي العربية: زهدي جار الله ، دار النهار للنشر، بيروت، ط/٢، ١٩٨١م، ص ٢٣٩ -٢٥٦.

(4) Ministero degli Seteri Europa e Leranto, Roma, (17) Maggio 1924.
المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية بطرابلس الوثائق الأجنبية الوثائق الإيطالية غير المنشورة الوثيقة(٨٢)، ١٩٢٤/٥/١٧م، ميكروفيلم(٢٦٣) وثائق وزارة المستعمرات في روما ، ترجمة المهدي التريكي

(5) Per Conoscenza al R.Ministero Delle Colonie Roma, 10Gingno 1924.

الباروني، لكن الوزير الإيطالي المفوض بالقاهرة أكد لحكومته على أن الحكومة المصرية لازالت ملتزمة بمنع الباروني من دخول أراضيها، وبالتالي فإن مسألة دخول الأخير إلى مصر مجرد إشاعات ومجرد محاولات من قبله لم تفض إلى نتيجة ملموسة على أرض الواقع[1]. ولكي تكون الحكومة الإيطالية على يقين أكثر من عدم دخول الباروني إلى مصر طلبت المفوضية الإيطالية من وزارة الخارجية المصرية التأكيد للجانب الإيطالي عن النوايا الحسنة للجانب الإيطالي فيما يخص الباروني وعودته إلى ليبيا عبر مصر؛ فأصدرت وزارة الخارجية المصرية بتاريخ ٣٠ يونيو ١٩٢٤م بلاغا أعلنت فيه أنها لن تسمح مطلقا بدخول سليمان الباروني إلى الأراضي المصرية، حتى ولو كان بنية عدم المكوث بها وكان الهدف السفر إلى بلاده عبر مصر[2].

وعلى الرغم من أن القنصل الإيطالي بجده قد حاول التخفيف على حكومته وحسم الموقف من الباروني ودخوله إلى مصر حيث أبلغ بتاريخ ٣ يوليو ١٩٢٤م موسوليني بوصول الباروني لجدة وتوجهه إلى مكة ونيته الاستقرار بها[3]، إلا أن أمنيات الباروني في العودة واتصالاته لم تنته مطلقا، بل حاول إيجاد الوساطة بينه وبين الإيطاليين والحكومة المصرية، فوسط حمد الباسل الزعيم ذي الأصل الليبي عضو البرلمان المصري في هذه الفترة، استنادا على وساطات سابقة قام بها الباسل بين السنوسية والإيطاليين[4]. ووفقا لرسالة ربورتو

المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية بطرابلس الوثائق الأجنبية الوثائق الإيطالية غير المنشورة الوثيقة(٨٦)، ١٩٢٤/٦/١٤م، ميكروفيلم(٢٦٣) وثائق وزارة المستعمرات في روما ، ترجمة المهدي التريكي

(1) Ministero Delle Colonie, Colonie Proiocollo Generale (23) Gingno 1924.

المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية بطرابلس الوثائق الأجنبية الوثائق الإيطالية غير المنشورة الوثيقة(٨٩)، ١٩٢٤/٦/٢٣م، ميكروفيلم(٢٦٣) وثائق وزارة المستعمرات في روما ، ترجمة المهدي التريكي.

(2) Marchi de Ministero Delle Colonie, (30) Gingno1924.

المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية بطرابلس الوثائق الأجنبية الوثائق الإيطالية غير المنشورة الوثيقة(٩٣)، ١٩٢٤/٦/٣٠م، ميكروفيلم(٢٦٣) وثائق وزارة المستعمرات في روما ، ترجمة المهدي التريكي

(3) Consolato D Italia Gedda (Arabia) 3Lagile 1924 Oggetto Seleiman el Baruni.

المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية بطرابلس الوثائق الأجنبية الوثائق الإيطالية غير المنشورة الوثيقة(٩٦)، ١٩٢٤/٧/٣م، ميكروفيلم(٢٦٣) وثائق وزارة المستعمرات في روما ، ترجمة المهدي التريكي

(4) Ministero degli Seteri Europa e Leranto, Roma, (13)Ags 1924.

كانتالوبو وزير المستعمرات المرسلة إلى وزير الخارجية بروما حول الصعوبات التي يواجهها الباروني في القدوم إلى مصر فإن حمد الباسل رئيس مجلس الشيوخ المصري نصح الباروني بالرجوع إلى مجلس الشيوخ المصري للدخول إلى مصر[1].

لم ينجح الباسل في وساطته التي قام بها بين الباروني من جانب والحكومتين المصرية والإيطالية من جانب آخر، بل على العكس من ذلك فقد اتخذت إجراءات صارمة من قبل الحكومة المصرية في حقه منها، منع من إرسال أية خطابات عبر عنوانه في الإسكندرية، كما لم يسمح له أن يكون عضوا في جمعية المبعدين من أفريقيا الشمالية والمقيمين بمصر[2]. ولا ينفي هذا تضامن بعض الشخصيات المصرية مع الباروني وبعض أفراد عائلته، وخصوصا ذات الانتماء العثماني والعضوية السابقة في منظمة تشكيلاتي مخصوصة مثل : الأمير عمر طوسون، فقد سمح بناء على جهود من طوسون نفسه لابن سليمان الباروني بالاستمرار بالدراسة في مدرسة رأس التين العليا بالإسكندرية[3].

المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية بطرابلس الوثائق الأجنبية الوثائق الإيطالية غير المنشورة الوثيقة، ١٩٢٤/٨/١٣م، ميكروفيلم(٢٦٣) وثائق وزارة المستعمرات في روما ، ترجمة المهدي التريكي وعن مشروع الباسل للوساطة بين السنوسية والإيطاليين انظر:

(1) Ministero degli Seteri Europa e Leranto, Roma, (13)Ags 1924.
المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية بطرابلس الوثائق الأجنبية الوثائق الإيطالية غير المنشورة، وثيقة بدون رقم مؤرخة في ١٩٢٤/٨/١٣م، ميكروفيلم(٢٦٣) وثائق وزارة المستعمرات في روما ، ترجمة المهدي التريكي وعن مشروع الباسل للوساطة بين السنوسية والإيطاليين انظر: رسالة وزير الخارجية الإيطالي إلى وزير المستعمرات في روما بتاريخ١٩٢٤/٥/٢١م رقم (٥٩٦٢/١٦٠٢)، الوثائق الإيطالية غير المنشورة، المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية، شعبة الوثائق والمخطوطات، الوثائق الأجنبية، ميكروفيلم رقم (٢٥١).

(2) Legazione, Dis.m: il. Re Italia Ramleh Alessandria Li 4 Settembre 1924 R. Ministero Delle Colonie Roma.
المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية بطرابلس الوثائق الأجنبية الوثائق الإيطالية غير المنشورة الوثيقة، ١٩٢٤/٩/٤م، ميكروفيلم(٢٦٣) وثائق وزارة المستعمرات في روما ، ترجمة المهدي التريكي.

(3) Legazione, Dis.m: il. Re Italia Ramleh Alessandria Li 4 Settembre 1924 R. Ministero Delle Colonie Roma.
المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية بطرابلس الوثائق الأجنبية الوثائق الإيطالية غير المنشورة الوثيقة، ١٩٢٤/٩/٤م، ميكروفيلم(٢٦٣) وثائق وزارة المستعمرات في روما ، ترجمة المهدي التريكي.

وبناء على الشكاوي الإيطالية في وقت كانت الأزمات السياسية حول الحدود المشتركة واللاجئين الليبيين في مصر تلقي بظلالها على العلاقات المصرية الإيطالية فقد أصدرت الحكومة المصرية بتاريخ٦ سبتمبر ١٩٢٤م التعليمات اللازمة للأجهزة الأمنية المصرية في المنافذ البحرية والبرية المصرية لمنع سليمان الباروني من الدخول إلى مصر، وعمم على السفارات المصرية قرار بعدم منح جوازات سفر أو تأشيرات دخول للباروني إلى مصر، وقد تلقفت وزارة المستعمرات الإيطالية بروما قرار الخارجية المصرية بالكثير من الاهتمام وعممته على السفارات الإيطالية في اسطنبول وباريس ولندن وتونس وجده، مرفقة إياه بنسخة من رسالة وزير الشئون الخارجية المصرية الموجهة إلى السفارة الإيطالية بالقاهرة بالخصوص[١].

لقد يئس الباروني من إمكانية عودته بعد القرارات الأخيرة من الحكومتين الفرنسية والمصرية، ولما استقر به المقام في عُمان فإنه على ما يبدو أراد أن يشعر الإيطاليين بتركه لفكرة العودة إلى ليبيا، ففي رسالة غير مؤرخة أرسلها الباروني إلى وزير المستعمرات الإيطالية ردا على محاولة الأخير الحصول على معلومات عن أصل عائلة الباروني، قال الباروني أن عائلته هي جزء من العائلة الموجودة في الجبل الغربي، والتي هي جزء من إمارة عمان على الساحل الشرقي من شبة الجزيرة العربية، كما يوجد جزء منهم في إمارة جنزبار[٢].

مما سبق عرضه في هذه الدراسة المتواضعة تبين كيف أن إيطاليا عبر أجهزتها الاستخباراتية والدبلوماسية أو ممثليها في طرابلس وبرقة كانت قد أولت سليمان الباروني جانبا من المراقبة الشديدة والصارمة، بالنظر للمكانة التي كان

---

(1) Gel Ministero R. Ministero Degli Affari Esteri Roma, 6sett 1924.
المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية بطرابلس الوثائق الأجنبية الوثائق الإيطالية غير المنشورة الوثيقة، ١٩٢٤/٩/٦م، ميكروفيلم(٢٦٣) وثائق وزارة المستعمرات في روما ، ترجمة المهدي التريكي.

(١) رسالة الباروني غير مؤرخة إلى وزير المستعمرات الإيطالي في روما حول أصل عائلته كما طلبه الوزير، المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية بطرابلس الوثائق الأجنبية الوثائق الإيطالية غير المنشورة، الوثيقة رقم(٢)، ميكروفيلم(٢٦٣) وثائق وزارة المستعمرات في روما ، ترجمة المهدي التريكي.

يتمتع بها سليمان الباروني في المحيط الوطني والعربي والإسلامي، ونظرا لحساسية الوضع ١٩١٦-١٩١٩م فإن الحكومة الإيطالية استطاعت بعثرة جهود الباروني والتأثير على جهوده لتوحيد حركة الجهاد في المنطقة الغربية تحت راية واحدة، وبالتالي نجحت إيطاليا في إرباك تلك الخطط، حتى اضطر الباروني للسفر إلى اسطنبول لتلقي المعلومات من الدولة العثمانية بالخصوص.

ونظرا لاستسلام الدولة العثمانية للحلفاء وعدم مقدرتها على إعلان تمسكها بطرابلس فقد أشعرت الباروني بأن الليبيين وحدهم هم من يقرر مصيرهم، ولكن الباروني لما قرر العودة إلى بلاده ظل خلال الفترة ١٩٢٠-١٩٢٤م هائما على وجهه لا يستطيع العودة إلى أرض الوطن، ونتيجة من نتائج الجهود الإيطالية امتنعت السلطات الفرنسية والمصرية والإنجليزية استقبال الباروني أو تمكينه من العودة إلى ليبيا عبر الأراضي الخاضعة لكل من الأطراف المعنية. لذا قرر الباروني الاستقرار في عُمان، ومتابعة الشأن الليبي وفق المستجدات والتطورات اللاحقة وهو ما يخرج عن نطاق هذه الدراسة.

مواقف الباروني في الأحداث المحلية والعالمية ببغداد ١٩٣١-١٩٣٧م

أ.د. مجاهد مصطفى بهجت (*)

وسعيد بن عبد الله الصقري(**)

حياة الباروني: تعليمه ورحلاته

العلامة المناضل سليمان بن عبد الله بن يحي بن أحمد الباروني، ولد في مدينة " جادو " بجبل نفوسة من أعمال طرابلس الغرب بليبيا في عام ١٢٨٧هـ/١٨٧٠م، وعائلته البارونية الموجودة في جبل نفوسة من طرابلس الغرب، والعائلة البروانية الموجودة في مملكة عُمان الكائنة في الجانب الشرقي من جزيرة العرب من شجرة واحدة[١]، وهذا يعني أن البارونية والبروانية نسبة لأسرة واحدة في ليبيا وعمان.

تلقى مراحل تعليمه الأساسي على يد والده العلامة عبد الله بن يحيى الباروني (ت١٣٣٢هـ/١٩١٤م) الذي قاد الحركة العلمية والإصلاحية في جبل نفوسة آنذاك، وبعدما برزت مواهبه وتفتحت عنده أفاق العلم والمعرفة رحل إلى جامع الزيتونة (١٣٠٥هـ/١٨٨٧م) لتلقي العلوم بنوعيها النقلية والعقلية على يد شيوخ وأساتذة من أشهرهم الشيخ محمد النخلي (ت١٩٢٤م) ومن ثم سافر بعدها إلى جامع الأزهر (١٣١٠هـ/١٨٩٢م) وحتى ١٣١٣هـ/١٨٩٥م) حيث تزامن مع حركة إصلاح التعليم فيه بإدخال تدريس مواد العلوم الحديثة على يد الإمام محمد عبده (ت١٩٠٥م). وأخيرا كانت محطته الثالثة بمعهد قطب الأئمة في وادي

(*) أ.د مجاهد مصطفى بهجت، جامعة ملايا، ماليزيا.

(**) الأستاذ سعيد بن عبد الله الصقري، جامعة ملايا، ماليزيا.

(١) كتب سليمان الباروني رسالته المعروفة (مختصر تاريخ العائلة البارونية) إلى أحد كبار الأوروبيين عقب الحرب العظمى (١٩١٤-١٩١٨م)، أشار فيها إلى أصل العائلة البارونية.

ميزاب بالقطر الجزائري (١٣١٣هـ/١٨٩٥م) وحتى (١٣١٦هـ/١٨٩٨م) وقد بقي ملازما لشيخه محمد بن يوسف أطفيش (ت١٣٣٢هـ/١٩١٤م) مدة ثلاث سنوات كسب فيها مادة علمية غزيرة في العلوم الشرعية واللغوية.

وبعد رحلته العلمية عاد إلى وطنه حيث شرع في نشر الثقافة الإسلامية والدعوة إليها من خلال تأسيس وبناء المشروعات التعليمية والتربوية، فقد أسس في مدينة " يفرن " مركز جبل نفوسة المدرسة البارونية عام ١٣٢٢هـ/١٩٠٤م والتي كانت تحت إشراف والده، وأنشأ بجانب المدرسة المذكورة مكتبة تشتمل على مجموعة قيمة من نفائس الكتب عُرفت كذلك " بالمكتبة البارونية ".

ونظراً للظروف التي كانت تعيشها بلاده من سوء الأوضاع الداخلية، ولدخول ليبيا تحت الأطماع الإيطالية خاصة، بعد ما تمت سيطرة فرنسا على تونس والجزائر، وبريطانيا على مصر، أيقن أن وجوده لا يسعفه في تحقيق طموحاته وغاياته، فسافر إلى مصر سنة ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م وفيها أسس مطبعته الأزهار البارونية ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م، وأصدر جريدة الأسد الإسلامي ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م، وتعرضت أعماله إلى التضييق والتعطيل إذ توقفت الجريدة بعد صدور ثلاثة أعداد، وأما المكتبة فقد أحرقت.

في عام ١٩٠٨م تم إعلان الدستور العثماني الجديد الذي كفل الحريات والتمثيل السياسي، ورشح الباروني نفسه ليكون ممثلاً لجبل نفوسة في مجلس المبعوثان في إستانبول، وفي عام ١٩١١م وقعت ليبيا تحت الاحتلال الإيطالي، وكان قد قاد المقاومة والتي لازمها قيامه بتأسيس حكومة وطنية ومعه مجموعة من الزعماء الوطنيين في يفرن عام ١٩١٢م على أثر الصلح التي وقعته الدولة العثمانية مع إيطاليا وأعلنت انسحابها من ليبيا، وقام بإرسال برقيات لطلب

الاعتراف باستقلال الحكومة الجديدة، إلى كل من بريطانيا وفرنسا والمانيا والنمسا والمجر وروسيا والدولة العثمانية وإيطاليا.

في عام ١٩١٣م سافر إلى الأستانة عقب إعلان الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م، بعدها سافر مع بعض القادة الأتراك إلى منطقة السلوم في محاولة لإثارة الثورات، ضد دول الوفاق (فرنسا وإيطاليا وبريطانيا). وفي عام ١٩١٥م سافر إلى الأستانة وقدم مقترح إلى حكومة الخلافة العثمانية على مواصلة عزمه الحرب ضد الطليان وطلب منهم تقديم العون والمساعدة، فوافق السلطان وعينه واليا وقومندانا على طرابلس الغرب، وقد عمل على نشر الوفاق بين زعماء الطرابلسيين.

وعلى أثر نهاية الحرب العالمية الأولى في سنة ١٩١٨م التي أدت إلى سقوط تركيا واحتلال دول الحلفاء لها، ظهرت فكرة تأسيس الجمهورية الطرابلسية التي اشترك في الدعوة إليها معه رمضان السويحلي وعبدالرحمن عزام وغيرهم، وتم توحيد الجبهة الوطنية والحصول على مزايا القانون الأساسي، ولكن إيطاليا سعت إلى بث بذور الفتنة، ونشب خلاف بين الزعماء الوطنيين عام ١٩٢٠م، بعدها سافر الباروني إلى فرنسا حيث أقام فيها إقامة جبرية عدة سنين تارة في باريس وتارة في مرسيليا، وخلال إقامته في أنقرة والأستانة وباريس لم يترك وسيلة لم يتخذها في سبيل الحصول على رخصة لدخول البلاد الإسلامية، لكنه لم يجد جوابا من دول الحلفاء إلا المنع، وفي تلك الأوضاع القاهرة التي عايشها الباروني.

مغتربا عن وطنه وأهله، طلب من شريف مكة الشريف حسين ملك الحجاز (١٨٥٤-١٩٣١م)[١] تسهيل طريق سفره إلى مكة لأجل تأدية مناسك الحج، فأجاب طلبه على رغم معارضة الباروني له في موضوع الخلافة الإسلامية، ولكن الشريف حسين كان يقدر مواقفه وتضحياته التي بذلها في سبيل الدفاع عن وطنه وأمته، وأمر أحد سفرائه في أوروبا تسهيل الأمر فامتثل السفير لذلك فكان خروجه من مرسيليا عبر الباخرة قاصدا الحجاز يوم ١١ذي القعدة ١٣٤٢هـ/١٤ يونيو ١٩٢٤م[٢]. وقد أدى مناسك الحج وقد تقرر قبل وصوله تأسيس مؤتمر الحج ليكون وسيلة للتعارف برجال الإسلام القادمين إلى الحج، ودراسة القضايا التي تهم العالم الإسلامي ووضع الوسائل والحلول لمعالجتها، وانتخب عضوا في اللجنة التحضيرية المكلفة بتحضير مواد المذكرة في الجلسة العمومية، وحضر انعقادها في منى بعد النزول من عرفات.

وبعد نهاية موسم الحج قرر السفر لكن السلطات الأجنبية لم تسمح له بدخول الدول الواقعة تحت سيطرتها، فإما أن يقيم في الحجاز وإما أن يعود إلى باريس، ولكنه رأى أن أنسب مكان يذهب إليه في ظل الظروف السياسية القاهرة هو دولة عُمان بحكم العلاقة الحميمة التي تربطه شخصيا بالسلطان تيمور بن

---

(١) شريف مكة وأميرها من سنة ١٩٠٨م إلى سنة ١٩١٦م، وملك الحجاز من سنة ١٩١٦م حتى سنة ١٩٢٤م، ولد في استانبول أثناء إقامة والده وجده فيها، وانتقل إلى مكة مع أسرته وهو طفل عند إسناد منصب شرافة مكة وإمارتها إلى جده في سنة ١٨٥٥ هـ فدرس فيها على الطريقة المألوفة في ذلك الوقت ودعاه السلطان العثماني إلى الإقامة الجبرية في استانبول لشكه في ولائه، فأمضى فيها ستة عشر عاما وعين عضوا في مجلس الأعيان شورى الدولة، ولما توفي عمه الشريف عون الرفيق، خلفه في شرافة مكة الشريف علي بن عبد الله الذي خلعه الاتحاديون، وعين الشريف عبد الاله ولكنه توفي وهو يتأهب للسفر إلى الحجاز، فعين الشريف حسين أميراً لمكة في سنة ١٩٠٨م، ولكن علاقته بالدولة العثمانية ورجال حزب الاتحاد والترقي توترت فانتهز البريطانيون الفرصة فكاتبوا الشريف حسين (مراسلات الحسين-مكماهون) ووعدوه بمساعدة فكرة استقلال العرب وإقامة دولة واحدة تضم الحجاز والمشرق العربي، وتزويده بالمال والسلاح إذا ما أعلن الثورة والجهاد ضد الدولة العثمانية، فأعلن الثورة العربية في عام ١٩١٦م، ووجه ابنه فيصل إلى سورية ولكن الجيش الفرنسي دخلها وأخرج فيصل منها، أما في الجزيرة العربية فقد نشب خلاف بينه وبين السلطان عبد العزيز آل سعود، واصطدمت جيوشه بأتباع ابن سعود بقيادة ابنه عبد الله، واضطر الملك حسين التنازل عن العرش لابنه علي عام ١٩٢٤م وانتقل إلى العقبة، ولكن الانجليز أنذروه بالرحيل فنقلته بارجة بريطانية إلى قبرص، أقام فيها ست سنوات عاملوه فيها معاملة سيئة، ولما مرض سمحوا له بالسفر إلى عمان حيث وافته المنية، فحمل إلى القدس ودفن في المسجد الأقصى، ومن أولاده: فيصل الأول ملك العراق، وعبد الله ملك الأردن. انظر صفوة: نجدة فتحي، الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية (نجد والحجاز)، ط١، دار الساقي، بيروت ، ١٩٩٦م، مجلد٢، ص٧٢،٧٣.

(٢) الطائي: عيسى بن صالح، مخطوطة، ص١٨.

فيصل (ت١٩٦٥م) وخلال إقامته في عُمان، كانت له جهود إصلاحية من أجل النهوض بالدولة العُمانية لمواكبة المستجدات والمتغيرات العصرية. وخلال تلك الفترة ساءت أحواله الصحية بسبب الأمراض التي كان يعاني منها ولم تكن تتوافر في عُمان الرعاية الصحية المطلوبة آنذاك، فقرر السفر إلى بغداد من أجل تبديل الهواء والتداوي فكانت أول زيارة له عام ١٣٤٨هـ/١٩٢٩م، وقد بقي يتردد بين عُمان والعراق حتى عام ١٩٣٨م، وخلال تلك المدة التي قضاها في بغداد، كانت له جهود ومواقف من أجل معالجة الكثير من القضايا المحلية والعالمية نشر عنها عبر مقالاته القيمة في الصحف المحلية والعربية، حيث حظي بالتكريم من قبل الحكومة العراقية التي هيأت له سبل الإقامة واستفاد من الإمكانيات والنهضة التي كان يعيشها العراق في ذلك الوقت.

المحور الأول: الأحداث المحلية

أولاً: الجانب الشخصي والأسري (العلاج والتعليم)

كانت زيارة الزعيم الباروني إلى عُمان في ظل حكومة السلطان تيمور بن فيصل (١٩١٣-١٩٣٢م) الذي كان يحكم المنطقة الساحلية من عُمان وعاصمته مدينة مسقط، والإمام محمد بن عبد الله الخليلي (١٩٢٠-١٩٥٤م) وكانت دولة الإمامة تسيطر على المناطق الداخلية وعاصمتها مدينة نزوى، وقد حظي الباروني بالحفاوة والتكريم من قِبل السلطة الحاكمة في عُمان نظرا للجهود والمواقف المشرفة التي بذلها في سبيل وطنه من أجل تحريره من أيدي الغزاة والمستعمرين، ودوره العظيم في سبيل الإصلاح من أجل النهوض بالأمة الإسلامية جراء ما تعرضت له من تخلف فكري وركود سياسي واقتصادي جعلها غنيمة للدول الاستعمارية.

ومنذ وصوله إلى عُمان في عام ١٣٤٣هـ/١٩٢٤م قام بزيارة العديد من الولايات العُمانية في كل من محافظة مسقط والداخلية والشرقية، حيث كانت تصله الدعوات من الزعماء والأعيان من كافة مناطق عُمان إلى زيارتهم وكانت تقام له المهرجانات الترحيبية والأناشيد الحماسية والرزحات الوطنية، تعبيرا عن مدى ما يكنّه الشعب العُماني له من محبة ووفاء على الجهود المخلصة والتضحيات العظيمة التي بذلها والتي تعرض من خلالها إلى كل صنوف المحن والمعانات والغربة عن وطنه.

وجراء التحديات التي تعيشها الدولة العُمانية في ظل حكومة السلطان ودولة الإمام، نتيجة التدخل الأجنبي البريطاني في محاولة لتفكيك الدولة العُمانية داخليا، خصوصا بعد ما تمكنت السلطة الاستعمارية البريطانية من تقسيم وفصل الدولة العُمانية بين عُمان وشرق أفريقيا بعد وفاة السيد سعيد بن سلطان (ت١٨٥٦م)، فقد أدركت القيادة السياسية لكل من السلطان والإمام في عُمان ضرورة نبذ الخلافات والتصدي لكل المحاولات التي تستهدف زعزعة أمن واستقرار الدولة العُمانية، وقد عزز تلك الرغبة الصادقة إلى الاستماع إلى وجهات النظر التي كان يبثها الزعيم الباروني بين جلالة السلطان وعظمة الإمام من أجل توحيد الكلمة، خاصة أنه كان مدركا لكافة المخططات والسياسات الاستعمارية وكانت له تجارب عديدة وزيارات للعديد من البلدان العربية والأجنبية، تعرف من خلالها على الوسائل والإصلاحات التي يجب العمل بها من أجل النهوض والرقي بالمجتمع والشعب، ولقد توجهت همة الإمام الخليلي بعد أن تشاور مع أقطاب دولته أهل الرأي في إسناد أمر تنظيم الدولة إلى الباروني فاجمعوا كلهم مع الإمام بعد تجربة سنتين قضاها في عُمان، على أنه أهل لأن يقلد أمر تنظيم الدولة على الوجه العصري الموافق لروح الشريعة الغراء.

وأصدر الإمام المرسوم في عام ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م، " من إمام المسلمين محمد بن عبد الله الخليلي- إلى جماعة المسلمين - ليعلم الحاضر الغائب أني فوضت الأمر في تنظيم المملكة تنظيماً صالحاً للشيخ الباروني، فبيده الملكية والعسكرية والمالية والسياسة الداخلية والخارجية، .... "[١].

وخلال المرحلة من عام ١٩٢٤م حتى ١٩٢٩م ومنذ بداية سياحته داخل الحواضر العُمانية التي كانت في فصل الصيف - أشدّ أشهره حرارة - وكان التنقل والترحال عبر الدواب، لاحت على وجهه علامات الحمى، وأصيب بالقيء والإسهال، نظراً لتبدل الهواء وشدّة الحرارة، وقد ساءت حالته الصحية عندما كان في طريقه إلى شرقية عُمان، فقد بقي ملازماً للفراش من شدة المرض لا يدخل جوفه طعام ولا يغمض عينيه لحظة واحدة للنوم مدة أربعة أشهر[٢].

ونظرا لعدم وجود المؤسسات والمراكز الصحية في المناطق الواقعة تحت حكومة الإمام التي تقدم الرعاية الصحية الأولية بغض النظر عن علاج الحالات المستعصية والعمليات الجراحية، أما عن الرعاية الصحية عند حكومة السلطان فكانت عبارة عن مؤسسات أجنبية تقدم الرعاية الصحية الأولية، وقد ازدادت مضاعفات المرض عند الباروني نتيجة الإصابة بالملاريا وكانت له محاولات عديدة من أجل السماح له للذهاب إلى كراتشي أو بومباي للتداوي ولكن السلطة البريطانية عارضت خروجه ومنحه ترخيصاً طلباً للعلاج[٣]، وكذلك سعى من أجل الحصول على أذن لدخول تونس أو الجزائر وذلك في رسالة بعثها من سمائل إلى صديقه السيد الحاج عمر العنق من وادي ميزاب بالجزائر مؤرخة في ٢٨ محرم ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م " وأن يتوسط بعض القواد والعزابة لدى الحاكم في حصولي على الأذن لي في الدخول إلى تونس أو الجزائر بضمانة معتبرة، ما

---

(١) أبو اليقظان: الحاج إبراهيم، سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، الجزائر: المطبعة العربية،١٩٥٦،ج٢ص٣٠.
(٢) الطائي: عيسى بن صالح، مخطوطة حول رحلة الباروني لعُمان، ص١٠٨.
(٣) أبو اليقظان: المصدر السابق،ج٢،ص١٠٥.

أظن أن الدولة ترد طلبهم لاسيما إذا كنت عائلتي وأولادي الذين هم لا يزالون في طرابلس بمنزلة الأسارى مع أخي الشيخ يحيى، ... "[1].

وعلى أثر ذلك اتصل الباروني بجلالة الملك فيصل الأول (ملك العراق)[2] ملتمسا منه الإذن بزيارة بغداد لملائمة جوها لصحته وإجراء الفحوصات اللازمة، فأجابه جلالته مبدياً تكرمه وعطفه لشخصيته العظيمة " التي يقدرها الجميع ويعرف لها كل عربي مكانتها في حقل الكفاح الوطني والقومي "[3].

وقبل سفره إلى بغداد كانت له مراسلات مع العديد من الشخصيات العُمانية المرموقة في الحكومة العُمانية في زنجبار وكانت تربطه بالشيخ سليمان بن ناصر اللمكي (ت ١٩٣٥م)، نائب السلطان بالمملكة الزنجبارية علاقات وثيقة، وقد حرر له رسالة من عُمان تُفيد نيته السفر إلى العراق من أجل تبديل الهواء والتداوي، وكان في مسقط في ضيافة ولي العهد السيد سعيد بن تيمور (ت ١٩٧٢م) منتظرا حضور الباخرة القاصدة إلى البصرة[4].

وفي ٢٦ محرم ١٣٤٨هـ/١٩٢٩م بعث برسالة من بغداد " أما بعد، فإني في خير وصلت البحرين والبصرة ورأيت من رجالها حفاوة زائدة، ثم وصلت بغداد فلقيت من أعيانها وعلمائها ورجال حكومتها إجلالا واحتراما وإكراما لا يوصف، واستقبلني جلالة الملك ثاني يوم وصولي استقبالا فائقا في مجلسه الرسمي "[5].

---

(١) أبو اليقظان: المصدر السابق،ج٢،ص٩٢.

(٢) الملك فيصل بن الحسين (١٨٨٣-١٩٣٣م)، الابن الثالث للملك حسين، ملك سورية (١٩٢٠م) ثم ملك العراق (١٩٢١-١٩٣٣م)، ولد في قرية (رحاب) القريبة من الطائف، درس في الأستانة عندما كان والده مقيما فيها جنب السلطان عبد الحميد، وقد انتخب "الشريف فيصل" بعد ذلك نائبا عن "جدة" في مجلس المبعوثان العثماني سنة ١٩١٣م، وعندما أعلن والده الثورة العربية في سنة ١٩١٦م عهد إليه الجيش الشمالي إلى العقبة ودخل سورية في سنة ١٩١٨م، ولما انتهت الحرب العالمية الأولى سافر إلى باريس لحضور "مؤتمر الصلح" من أجل استقلال العرب، وعاد إلى سوريا سنة ١٩٢٠م وأصبح ملكا عليها، ولكن تدخلت القوات الفرنسية وقضت على الحكومة العربية في معركة ميسلون ١٩٢٤م، وبعد ذلك قرر الاحتلال البريطاني تأسيس حكومة عراقية مع بقاء النفوذ البريطاني، وتوج فيصل ملكا للعراق عام١٩٢١م، وكانت وفاته عام١٩٣٣م. انظرصفوة: نجدة فتحي، الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية(نجد والحجاز)،لبنان:دار الساقي،١٩٩٦م، ط١، ص٨٥، ٨٦.

(٣) الباروني: أبو القاسم، حياة سليمان باشا الباروني زعيم المجاهدين الطرابلسيين، ١٩٤٨م، ط٣،ص٣٩.

(٤) الرسالة مؤرخة ٧ محرم ١٣٤٨ه مسقط توجد صورة من الرسالة لدى الباحث.

(٥) أبو اليقظان: المصدر السابق، ج٢،ص٩٨.

وأثناء إقامته في بغداد نال الترحيب والإكرام من صديقه الأستاذ الثعالبي[1] الذي كان تربطه به علاقات وثيقة أيام الحرب الإيطالية على طرابلس سنة١٩١١م، وكان من عظماء العالم الإسلامي في ذلك الوقت حيث شهد للباروني على مواقفه العظيمة أثناء مقاومته للطليان بقوله :" ...إن مجد الشيخ سليمان إنما اكتسبه بالسيف، وما يكسب بالسيف يبقى أبد الدهر لامعا كالذهب،... "[2].

وفور وصوله باشر إجراء الفحوصات الطبية بالمستشفى الملكي الذي تبين من خلالها أسباب المرض بسبب الملاريا والطحال، وباشر استعمال الدواء[3] وقد تواصل مع الأطباء – بعد المعاينة – الذين طمئنوه من أن الداء قد زال تماما ولم يبق إلا بعض أثار له تزول مع تناول الدواء لمدة شهر آخر في بغداد، ونصحوه بأن لا يعود إلى عُمان وإن كان لا بد فبعد سنة على شرط تبديل الهواء في كل سنة خارجها، وقد أشار في رسالته من بغداد إلى النائب السلطاني بالمملكة الزنجبارية الشيخ سليمان بن ناصر اللمكي إلى موقفه من نصيحة الأطباء قائلا: " فاندهشت لما سمعت وقلت إلى أين المصير إنني ممنوع من دخول جميع بلاد الله، ولم يبق لي إلا عُمان، ولولا الملك فيصل لما تحصلت على رخصة الوصول إلى بغداد للتداوي "[4]. وفي هذه المدة القصيرة التي قضاها في بغداد حصل له من الأنس والطمأنينة ولذة الاجتماع ما جعله ينسى معاناة الألم والتعب، وقد

---

(١) عبد العزيز الثعالبي التونسي ولد سنة ١٢٩١هـ/١٨٧٤م في تونس، التحق بجامع الزيتونة وتخرج عام ١٨٩٦م، أسس الحزب الوطني الإسلامي، وأصدر جريدة الرشاد، وعندما بدأت الحرب الإيطالية على ليبيا كان في مقدمة المساعدين للمجاهدين، فنقم عليه الفرنسيون وأخرجوه من بلاده فسافر إلى باريس وأقام بمصر، وعاد إلى تونس بعد المنفى وكان من الذين جاهدوا في سبيل الوحدة الإسلامية.انظرمجاهد: زكي محمد، الأعلام الشرقية في المائة الرابعة عشرة الهجرية، لبنان: دار الغرب الإسلامي،١٩٩٤م، ط٢، ص١٥٣.

(٢) أبو اليقظان: المصدر السابق،ج٢،ص١٠٧.

(٣) أبو اليقظان: المصدر السابق،ج٢،ص٧٨.

(٤) الرسالة مؤرخة ٣ ربيع الأنوار ١٣٤٨هـ، من بغداد، توجد لدى الباحث صورة منها.

أشار في إحدى رسائله إلى تحسن حالته الصحية بقوله : " ... وهذه أول مرة بقيت فيها صحيحاً أكثر من شهر واحد منذ ٧ سنين ... "[١].

ويبدو أن مدة إقامته في بغداد في هذه الزيارة تراوحت ما يقرب من ستة شهور حيث غادرها متجها إلى عُمان ويظهر ذلك من رسالته بتاريخ ٢٨ ربيع الثاني ١٣٤٨هـ التي يقول فيها : " أحرر هذا والسيارة واقفة لأقصد الباخرة المتوجهة إلى مسقط، صحتي الآن في غاية ما يرام والحمد لله "[٢]، وفيها بعث برسالة من عُمان إلى نائب السلطان في زنجبار الشيخ سليمان بن ناصر اللمكي يخبره بوصوله إلى مسقط مؤرخة في ٢٩ ربيع الثاني ١٣٤٨هـ[٣]، وفي رسالة أخرى بعثها إلى الشيخ سليمان بن ناصر اللمكي من ولاية سمائل محل إقامته في عُمان، مؤرخة في ٢٧جمادى الثاني ١٣٤٨هـ/١٩٢٩م يبين له فيها وصوله إلى مدينة سمائل القريبة من مسقط العاصمة، وأنه بعد وصوله منذ شهر ونصف راجعه المرض مرة أخرى، قائلاً : وضح قول الأطباء الذين نصحوني أن لا أعود إلى عُمان في الوقت القريب لأنه أشغله أمر بناء المدرسة التي شرع فيها في ولاية سمائل، ولكن حالته الصحية في تحسن لمداومته على استعمال الدواء الذي استصحبه معه من العراق[٤].

وفي هذه المرحلة أذنت ايطاليا لعائلته المقيمة في جبل نفوسة بليبيا بالسفر إلى عُمان، وكذلك سمحت السلطات الإيطالية لابنه إبراهيم المقيم في الإسكندرية بزيارة عائلته في الجبل بعد فراق دام تسع سنوات، وقد خرجوا جميعاً عن طريق الإسكندرية وبيروت والشام وبغداد والبصرة، وكان وصولهم عُمان يوم ١٢

---

(١) أبو الريقظان، المصدر السابق،ج٢،ص٨٠.
(٢) أبو الريقظان، المصدر السابق،ج٢،ص٧٩.
(٣) الرسالة مؤرخة في ٢٩ ربيع الثاني١٣٤٨هـ من مسقط، توجد لدى الباحث صورة منها.
(٤) الرسالة مؤرخة في ٢٧ جمادي الثاني ١٣٤٨هـ من مسائل ، توجد لدى الباحث صورة منها.

جمادي الأولى ١٣٥٠هـ/١٩٣١م واجتمع الشمل بعد مضي أكثر من عشر سنين نظرا لتحكم دول الحلفاء[١].

وعلى أثر وصول عائلته إلى عُمان المكونة من تسعة أفراد واستقر بهم في مدينة سمائل، تعرضوا هم كذلك للإصابة بحمى الملاريا حيث رجع بهم إلى مسقط للتداوي تحت إشراف طبيبة أمريكية فكانت إقامتهم في مسقط لتوفر أسباب الراحة، وقد استمرت معاناتهم التي كشف عنها في رسالته إلى الشيخ هاشل بن راشد المسكري في زنجبار المؤرخة في ١٢ شوال ١٣٥٠هـ/١٩٣١م حيث أشار إلى وفاة جدة الأولاد البالغة من العمر الثمانين، واعتلال الباقين من أفراد الأسرة بحمى الملاريا ومعاناة خمسة أشهر في التداوي بمسقط بواسطة طبيب مسلم هندي بعد الطبيبة الأمريكية[٢].

وقد تقرر بإشارة من الأطباء لزوم سفر العائلة بعد اعتلال صحتهم إلى بغداد، فسافروا جمعيا في ٢ محرم ١٣٥١هـ/١٩٣٢م وبصحبتهم ابنه إبراهيم، ولكن ما أن وصلوا بغداد وباشروا باستعمال العلاج حتى عاد إلى عمان، ثم وصلت له أنباء بواسطة التلغراف طلبت قدومه لأن إبراهيم مريض جداً، وبعد حصوله على الأذن من القنصل البريطاني قصد بغداد للمرة الثانية فوصلها يوم ١٤ صفر ١٣٥١هـ/١٩٣٢م[٣].

ومع تناول الأدوية وتوفر وسائل الراحة في بغداد حصل الشفاء للعائلة، فقرر الرجوع إلى عُمان حيث حضر تنصيب السلطان سعيد بن تيمور بعُمان على عرش الملك بتنازل والده له ورضاء أمراء العائلة وبحضور العلماء والأعيان، وكان ذلك في ثاني عيد الفطر ١٣٥١هـ/١٠فبراير ١٩٣٢م[٤]، وتم تعين

---

(١) أبو اليقظان: المصدر السابق،ج٢،ص٨١.
(٢) الرسالة مؤرخة في ١٢ شوال ١٣٥٠هـ من عمان، توجد لدى الباحث صورة منها. وأبو اليقظان: المصدر السابق،ج٢،ص٨٢.
(٣) أبو اليقظان: المصدر السابق، ج٢،ص٨٤، ورسالة المؤرخة في ١٢ شوال ١٣٥٠هـ.
(٤) الرسالة المؤرخة في ١٢ شوال ١٣٥٠هـ.

ابنه إبراهيم بعدما شفي وعاد إلى مسقط في وزارة العدل[١]. ولكن عاد الألم مرة أخرى لابنه إبراهيم في مسقط، فاضطر لمصاحبته حسب نصيحة الطبيب وقنصل بريطانيا بعدم سفره لوحده فوصلوا البصرة يوم ١٤ رجب ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م للمرة الثالثة حيث تلقى إبراهيم العلاج بواسطة الطبيب الطرابلسي رئيس المستشفى العسكري في بغداد[٢].

ومنذ عام ١٩٣٣م مكث الباروني وعائلته في بغداد حتى عام ١٩٣٨م حيث قرر العودة إلى عُمان عندما طلبه السلطان سعيد بن تيمور وعينه في نظارة شؤون الولاة[٣].

وفي هذه المرحلة التي قضاها الباروني وعائلته ببغداد حظي بالتكريم من لدن الملك غازي بن فيصل[٤] الذي تولى حكم العراق بعد وفاة أبيه سنة ١٩٣٣م، وقد أصدر أوامره بتعين إبراهيم بن سليمان الباروني في دائرته الخاصة بالبلاط علما بأن قانون العراق لا يسمح باستخدام غير العراقي إلا بعد التجنس والإقامة[٥]، وكذلك قررت وزارة المعارف العراقية قبول إبراهيم في كلية الحقوق ببغداد، وصدر أمر من البلاط الملكي استمرار إبراهيم في عمله من الصبح إلى الظهر وفي الساعة ٣ يذهب إلى الكلية[٦].

وأصدر جلالة الملك إلى ناظر الخزانة أمرا بتخصيص ١٥ديناراً (١٥٠٠ فرنك تقريبا) مرتباً شهرياً للشيخ الباروني[٧] فحصل له من ذلك اليسر بعد الضائقة المالية التي ألمت به، ونظرا للظروف السياسية التي واجهته في سبيل

---

(١) أبو اليقظان: المصدر السابق،ج٢،ص١٠٦.
(٢) أبو اليقظان: المصدر السابق،ج٢،ص٨٧.
(٣) الباروني: سليمان باشا، الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية،ج٢ ص١٩،عُمان: ط١ المطابع العالمية،١٩٨٧م.
(٤) الملك غازي بن فيصل بن الحسين بن علي الهاشمي، ولد بمكة سنة ١٩١٢م، وانتقل إلى بغداد وأصبح ولياً للعهد في سنة ١٩٢٤م، وأرسله والده إلى كلية هارو في إنجلترا سنة ١٩٢٧م، نودي به ملكاً للعراق بعد وفاة أبيه سنة ١٩٣٣م، كانت وفاته ببغداد سنة ١٩٣٩م. انظرالزركلي:خير الدين، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج٥، ص١١٢، ط١٤ دار العلم للملايين،١٩٩٩م.
(٥) أبو اليقظان: المصدر السابق،ج٢،ص١٠٥.
(٦) أبو اليقظان: المصدر السابق،ج٢،ص١٠٩.
(٧) أبو اليقظان: المصدر السابق،ج٢،ص١١٢.

تنقله والرجوع إلى وطنه تقدم بطلب الجنسية العراقية بواسطة رئيس الوزارة ووزير الداخلية، حيث طلب منه تقديم أوراقه التي تثبت أنه طرابلسي عثماني، فأحضر إلى الدائرة جواز السفر الذي وصل به إلى العراق، ووثيقة المبعوثية عن طرابلس في مجلس المبعوثان، وفرمان تعينه في الأعيان، وفرمان ولاية وقيادة طرابلس في الحرب العامة[1].

وقد بعث برسالة من بغداد- الأعظمية إلى الشيخ محمد بن سالم الرواحي المقيم في زنجبار ،مؤرخة ٤ جمادى الأولى ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م يشير فيها إلى طيب الإقامة والراحة النفسية والجسدية التي تهيأت له في بغداد، وعمق التواصل عن طريق المراسلات بينهما حيث يتم تبادل الأخبار ومعرفة ما يدور من أحداث وتطلعات الحكومة العُمانية في زنجبار من خلال نهضتها العلمية المتمثلة في التأليف والطباعة، وكذلك يخبره بأنه يعتزم السفر إلى مسقط وعُمان من أجل الترويح عن النفس[2].

ثانيا: التواصل بين عُمان وبغداد

اكتسبت زيارة الشيخ الباروني إلى العراق أهمية خاصة، حيث أعاد عمق الروابط والصلات التاريخية بين عُمان وبلاد الرافدين التي شهدت حضورا حضاريا وتواصلا متميزاً طيلة العصور المختلفة، فكانت زيارته في ظل ظروف سياسية صعبة تمر بها المنطقة العربية عموماً وعُمان والعراق خصوصا، حيث الهجمة الاستعمارية التي كانت تهدف إلى تجزئة البلدان العربية والسيطرة على الموارد والثروات الطبيعية، ورغم الظروف التي ألمت بالشيخ الباروني أثناء قدومه إلى العراق فإنه كان ذا عزيمة صادقة يمتطي الصعاب ويتحدى العقاب، فقد سعى إلى مد جسور التواصل بين عُمان والعراق في كافة المجالات وذلك بحكم

---

(١) أبو اليقظان: المصدر السابق،ج٢،ص٩٥-٩٦.
(٢) الرسالة مؤرخة ٤ جمادى الأولى ١٣٥٧هـ من بغداد، توجد لدى الباحث صورة منها.

علاقته المتينة مع الهيئة السياسية في كلا البلدين، خاصة أن العراق يحظى في تلك المرحلة بالتقدم في النهضة التنموية والتعليمية فكانت الفرصة مواتية أن يستفيد من تلك المعطيات من أجل دعم مشروعه الإصلاحي في عُمان خاصة فيما يتعلق بالجانب التعليمي من توفير كتب دراسية و أساتذة في مختلف المواد والحصول على أطباء من أجل تقديم الرعاية الصحية والعلاجية.

ولم تقتصر همته عند هذا الحد فقط بل ارتبط بصلات من بغداد مع العائلة الحاكمة العُمانية في شرق أفريقيا وكبار الأعيان هناك، متطلعا من إمكانية الدعم المادي في ظل ما تشهده الدولة العُمانية من ازدهار اقتصادي من أجل تمويل المشاريع التنموية التي شرع فيها في عُمان، وبالمقابل سعى من بغداد توفير الكادر البشري المؤهل خصوصا في الناحية التعليمية والصحية. وهنا نريد أن نبرز الملامح المهمة في عمليات التواصل الحضارية بين عُمان وبغداد التي رسمها الشيخ الباروني في المجالات الآتية:

١ - المجال السياسي

خلال إقامة الشيخ الباروني في بغداد ارتبط بعلاقات وثيقة مع المفكرين والأدباء وأصحاب القرار في مختلف المؤسسات الرسمية في العراق، مما أتاح له فرصة كبيرة من أجل تقديم صورة حضارية عن عُمان من خلال دورها التاريخي الحضاري الذي لعبته منذ البداية الأولى للدولة الإسلامية، فقد تلقى دعوة من الهيئة الإدارية لنادي المعلمين ببغداد لإلقاء محاضرة تحت عنوان " القطر العُماني"[1].

---

[1] عنوان المحاضرة القطر العُماني في نادي المعلمين ببغداد، عدد صفحاتها ٢٠ورقة، ولا توجد إشارة إلى تاريخ المحاضرة ولكن يتبين من خلال بعض الإشارات في قوله:" وقد أقمت فيه لأمباي قهرية سياسية من سنة ١٣٤٣هـ، إلى هذه السنة أي تسع سنين"، وأيضا قوله: " قسم ساحلي يحكمه السلطان وهو في هذا الوقت السيد سعيد بن تيمور بن فيصل"، فهذا يفيد أن تاريخ المحاضرة كانت في الزيارة الثانية إلى بغداد التي وصلها في ١٣٥١هـ/١٩٣٢م، وقد اشتملت المحاضرة على ١-مقدمة بين فيها أهمية الموضوع، ٢- الحدود، ٣- عدد السكان، ٤- القبائل، ٥- الدين، ٦-

استهل حديثه بالترحيب بالسادة الحضور شاكرا الدعوة التي واجهت له من قبل شباب النادي الناهض الذين اختاروا له الموضوع رغبة منهم في المعرفة عن القطر العُماني، قائلا: " سأحدثكم عن قطرٍ عزيقٍ في العروبة والإسلام والحّكم وله شأن في التاريخ قديماً وحديثاً، وهو مع قربه منكم أراه مجهّولاً عندكم يعرفه الأوروبّي، وإنّما قلتُ هو مجهول عندكم لأني رأيتّ رجال النهضة العربية ودّعاة الوحدة أو الاتحاد العربي كثيراً ما يذكرون في مقالاتهم وخطبهم ومجالسهم، كل الأقطار العربية على ما فيها من مستعمرات ومحميات من الدار البيضاء في المغرب الأقصى إلى اليمن والبصرة في الشرق، ولا يذكرون قط اسم القطر العُماني فكأنه فقد من جزيرة العرب،.... "[1].

وقد ذكر الباروني أسباب العزلة والجهل بالقطر العُماني من الناحية الجغرافية والتاريخية، فمن حيث الموقع الجغرافي لعُمان فإنه منفصل بالربع الخالي عن بقية البلاد العربية، وبحره ممتد إلى الهند فلا اتصال للعُمانيين إلا بالهند وبمملكة زنجبار في شرق أفريقيا، ومن الناحية التاريخية فقد ساهم الاستعمار في فصل عُمان عن دولة شرق أفريقيا بعد ما كانت تابعة له، فلا يّعد هذا عذراً لعمل الكّتاب والسّياسيين والداعين إلى الإتحاد العربي، لأن لهم اطلاعاً على التاريخ وكتب الجغرافيا التي لم تترك دولة من الدول أو قطر من الأقطار إلاّ ذكرته فهم على كل حال مقصرون[2].

وقد اختتم مقدمته بقوله: " رأيت أن أحدثكم عنه باختصار تنويرا للأذهان، فقد أقمت فيه لأسباب قهرية سياسية فأكثر كلامي مبني على مشاهدةٍ لا على سماعٍ أو نقل من كتاب "[3]. وقد أشار الباروني في محاضرته للعديد من القضايا

المذاهب، ٧- العناصر ٨- الحكومة، ٩- الأمن، ١٠- المعاهدات، وأخيرا الخاتمة بقوله " تأخير الكلام على أهمية القطر العّماني بالنسبة إلى العراق إلى فرصة أخرى"، توجد صورة للمحاضرة لدى الباحث.

(١) المحاضرة، ص١.
(٢) المحاضرة، ص٢.
(٣) المحاضرة، ص٢.

والحقائق التاريخية التي أراد التنبيه عليها خاصة أن خطابه موجه إلى فئة مثقفة من المعلمين المعنيين بتربية الأجيال، فما هي المعالم الرئيسية التي حددها الباروني في معرض حديثه عن القطر العُماني ؟

١- الصلات التاريخية التي تربطه بالحكومة والشعب العُماني منذ سنوات طويلة، فعندما أعلن الدستور العُثماني وافتتح مجلس المبعوثان (النواب) سنة ١٩٠٨م، جاءته برقية تهنئة وهو عضوا عن الجبل الغربي من السلطان العُماني فيصل بن تركي (ت١٩١٣م) وقد أطلع عليها السلطان العُثماني وقال إننا نرغب في تحسين علاقاتنا مع هذا السلطان فنعترف بالدولة العُمانية ونعيّن سفيراً ونقبل منه سفيراً، وقد أجريت المحادثات بواسطة الباروني ولكنها توقفت بسبب حدوث الحرب الطرابلسية ورجوع الباروني لبلاده[١].

وفي معرض حديثه عن الحكومة قال : كان القطر العُماني تحت إدارة حاكم واحد، ولكن حدث خلاف بين السلطان فيصل والعلماء قبل ٢٥سنة، وقد وصلتني رسالة من بعض الرؤساء عندما تقدمت بريطانيا بأسطولها نحو مسقط عاصمة السلطان، وكنت في الحرب الطرابلسية الأولى ١٣٢٩هـ/١٩١٣م وقد نصحتهم بأن يتساهلوا مع السلطان حتى لا يضطر إلى الاستعانة بالأجانب[٢].

٢- إبراز المعالم الحضارية للدولة العُمانية عبر العصور الإسلامية المختلفة، فعند حديثه عن الدين والمذاهب في عُمان تتطرق إلى المرحلة المبكرة لدخول الدعوة الإسلامية عُمان في عهد المصطفى علية الصلاة والسلام، وأنه في جامع الشعرانة بنزوى توجد مشكاة صغيرة على يمين المحراب يقولون أنها علامة على مكان المحراب الأول الذي كان إلى جهة بيت المقدس[٣]، أما عن المذهب فالأكثرية الإباضية، ويوجد في المدن الساحلية الإباضي والشيعي

---

(١) المحاضرة، ص٣.
(٢) المحاضرة، ص٩.
(٣) المحاضرة، ص٤.

والسني والوهابي، وكلهم على وفاق لا يسمع الإنسان أينما حل جدالاً مذهبياً، فهذه فضيلة امتاز بها هذا القطر عن بقية الأقطار الإسلامية[1]، وتناول دور عُمان البحري حيث كانت المدن الساحلية مزدهرة (مدينة صحار، ومدينة صور) والمشهورة بالسفن الشراعية الكبيرة التي تسافر إلى البصرة والهند واليمن وزنجبار.

٣- توضيح التهديدات الخارجية التي عايشها من قبل النفوذ البريطاني الاستعماري ضد الدولة العُمانية، فقد انقسمت عُمان إلى قسمين، القسم الساحلي يحكمه السلطان سعيد بن تيمور، والقسم الداخلي الإمام محمد بن عبد الله الخليلي، موضحا أن منطقة الإمام الداخلية إلى دبي لا سيطرة لأحدٍ عليها بل ممنوع عن الأجنبي مطلقاً دخولها ولو كان قنصلاً[2]، وقد استمالت بريطانيا شيخ الشارقة واتفقت معه على أن يسمح لها في بناء مطار في بلاده مقابل مرتب سنوي، وعلى أثر ذلك بعث إمام عُمان احتجاجا للحكومة البريطانية قائلاً:" أن الأمة العُمانية لا تعترف بأي اتفاق يحصل من أحد شيوخ الساحل العُماني مع أية دولة كانت، ولا تقبل داخل حدود مملكتها من قطر إلى ظفار راية أجنبية مطلقاً"[3].

٢- المجال التعليمي والصحفي

شرع الباروني وهو في داخلية عُمان تنفيذ برنامجه الإصلاحي بعد التفويض الرسمي من قبل الإمام الخليلي، ومن بينها إنشاؤه للمدرسة البارونية بسمائل[4]، وقد سعى منذ زيارته الأولى لبغداد سنة ١٣٤٨هـ/ ١٩٢٩م في

---

(١) المحاضرة، ص٨.
(٢) المحاضرة، ص١٣.
(٣) المحاضرة، ص١٥.
(٤) المدرسة البارونية أنشأها الباروني في ولاية سمائل في علاية سمائل بموضع الإبراهيمية، ابتداء العمل فيها سنة ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م، وأتم العمل في الطابق الأول من تصميمه الشامل لطابقين، وبعد تمامها سنة ١٣٤٨هـ/١٩٣٠م اتخذها مقراً له يراسل منه أهل المشورة ليحث شؤون المدرسة ونظامها، وقد انتظمت فيها الدراسة مع طلبة معدودين غير أن دورها توقف. انظر الباروني: المرجع السابق،ج٢،ص٢٠. والشيباني:سلطان بن مبارك، مذكرة عن سليمان باشا الباروني، رمضان ١٤٣٠هـ، غير منشورة.

التفكير والبحث لتزويد المدرسة بالهيئة التدريسية في مواد الحساب والجغرافيا والتاريخ والخط[1]، وكما هو معلوم أن زيارته لم تستغرق وقتاً طويلاً حيث كان يتابع أعمال البناء بنفسه، فقد أوضح في رسالته من بغداد إلى النائب السلطاني بالمملكة الزنجبارية الشيخ سليمان اللمكي أنه بعد شهر أو ٢٠ يوما يسافر إلى عُمان لإتمام بناء المدرسة[2]. وفي رسالة أخرى يبين له فيها أنه أهدت إليه وزارة معارف بغداد للمدرسة البارونية جملة كتب مدرسية وخرائط، وكرة أرضية كبيرة عربية وألواحا ورسوما كبيرة[3]، قدم بعضها هدية للمدرسة السلطانية بمسقط[4]. وساهمت جهود الشيخ الباروني في توجيه بعثات طلابية للدراسة في بغداد من عُمان وزنجبار، وكان يرعاهم ويتابع مستوياتهم الدراسية، ويشير في رسالته من بغداد إلى الشيخ محمد بن سالم الرواحي المقيم في زنجبار إلى وجود الشيخين أحمد الكندي وراشد البرواني والتلامذة وابنه إبراهيم في العراق، وقد نجح التلامذة في الامتحانات[5].

ونشرت جريدة الأمة مقالاً بعنوان: "ماذا بعُمان؟ بعثة علمية" تقول: وصلت إلى بغداد في الشهر الجاري بعثة حكومية من مسقط للدراسة وهي مؤلفة من خمسة طلاب: السيد فهر بن تيمور والسيد ثويني بن شهاب وأحمد محمد الجمالي وعبد الله بن محمد بن صالح الطيواني، وقد صحبها من مسقط الأستاذ إسماعيل حقي الرصاصي رئيس المحكمة العدلية والشيخ أحمد بن سعيد الكندي، أما الأستاذ الرصاصي فسوف يعود إلى مسقط بعد استقرار البعثة وشروعها في الدراسة وسيلازمها الشيخ الكندي مرشداً لها. ويعلق المحرر بعد ذلك بقوله:

---

(1) الرسالة إلى سليمان بن ناصر اللمكي، مؤرخة في ٧ محرم ١٣٤٨هـ.
(2) الرسالة مؤرخة في ٣ ربيع الأنوار ١٣٤٨هـ.
(3) الرسالة مؤرخة في ٢٩ ربيع الثاني ١٣٤٨هـ.
(4) بدأ التعليم بها في عام ١٩٣٠م في عهد السلطان تيمور بن فيصل، وكان مقر المدرسة بجوار مستشفى السعادة، وكان مديرها إسماعيل بن خليل الرصاصي، الذي قدم إلى عُمان سنة ١٩٢٩م، وصار فيما بعد والياً لمطرح ومديراً للمعارف في عهد السلطان سعيد بن تيمور. انظر لمحات عن ماضي التعليم في عُمان، وزارة التربية والتعليم، مسقط: مطبعة عُمان،١٩٨٥م، ص٤٨.
(5) رسالة مؤرخة في ٤ جمادى الأولى ١٣٥٧هـ، من بغداد.

وحبذا لو اقتدى الإمام الخليلي بحكومة مسقط في هذا العمل النبيل[١]. وكذلك أوردت جريدة الفلق خبر وصول رسالة إلى الحكومة العُمانية في زنجبار تفيد أن شعبة البعثات في وزارة المعارف العراقية قد قبلت بعثة مؤلفة من ثلاثة تلاميذ من زنجبار لتعليمهم مجاناً على نفقتها[٢]. ويشير الباروني في إحدى رسائله إلى الشيخ سليمان اللمكي أنه اتفق مع طبيب من العراق للعمل في داخلية عُمان من أجل العلاج وإعطاء دروس في المدرسة في الحساب والجغرافيا والطب والخط، فقد توفاه الله في سمائل يوم ٢٠ شعبان بعد أن عانى الألم ما لا يوصف وقد كنت معلقاً آمالا على وصوله في عمران المدرسة ومداواة الناس[٣].

٣- المجال الثقافي

كان الباروني يدرك أن النهضة الثقافية لا بد لها من بناء جيلاً قوياً جسمياً وعقلياً فقد سعى إلى توفير الكادر التعليمي والطبي من بغداد، رغم الظروف غير الملائمة ويقول : رغّبت الأطباء من هنا " أي بغداد " للوصول إلى عُمان للتدواي، فلم يرغبوا لعلمهم بعدم استعداد البلاد، وعدم وجود نظام فيها، وفقدان معدات الراحة[٤]. وفي عهده تقوت عرى التواصل والتعاون الثقافي بين عُمان والعراق فقد وصل مسقط الشيخ خليفة بن شعبان الطرابلسي المدرس بمدرسة الزبير بالبصرة وتوجه لزيارة الباروني في سمائل وأقام عنده نحو شهر ونصف[٥]. وكذلك توجه ولي العهد في عُمان السيد سعيد بن تيمور[٦] إلى العراق للدخول في كليتها بعد أن كان ملازما لمدارس الهند[٧]. وكذلك وصل تلغراف من الشركة

---

(١) جريدة الأمة الجزائرية في ١٧ شوال ١٣٥٦هـ/٢١ ديسمبر ١٩٣٧.
(٢) جريدة الفلق الزنجبارية في ١٧ ذي الحجة ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٨/٢/١٩.
(٣) رسالة إلى سليمان بن ناصر اللمكي، من عُمان بدون تاريخ، يوجد لدى الباحث صورة منها.
(٤) رسالة إلى سليمان اللمكي في ٣ ربيع الأول ١٣٤٨هـ.
(٥) جريدة وادي ميزاب، مؤرخة في ٢٥ نوفمبر ١٩٢٧م.
(٦) في ١٠ فبراير ١٩٣٢م تولى الحكم رسمياً وكان في العشرين، تربى في مدرسة الأمراء في مايو في مقاطعة أجمير في الهند لمدة ٥ سنوات، وقضى فترة تدريب في العراق تحت رعاية برتان توماس عضو مجلس وزراء مسقط. غباش: حسين عبيد، عُمان الديمقراطية الإسلامية، بيروت: دار الجديد،١٩٩٧م، ط١،ص٣٠٧.
(٧) جريدة وادي ميزاب مؤرخة في ٢٥ نوفمبر١٩٢٧م.

الأمريكية في البصرة العاملة في تصدير التمور إلى أمريكا، تطلب الأذن لأحد رجالها في زيارة سمائل المشهورة بنخل الفرض المحبوب في أمريكا، فكتب الوزير محمد بن أحمد رئيس وزارة مسقط إلى سليمان باشا الباروني يطلب له الإذن، فاستصدر الباروني له إذناً من الإمام، فجاء من البصرة ووصل سمائل وشاهد كيفية غرس نخيلها وتربتها، وكانت مدة الإذن يومين وكان بصحبته الباروني وقد خرج الأمريكي من عُمان بانطباع طيب خاصة عن الأمن في المملكة كلها فقال عنها : " هذا دليل على قوة الحكومة وعدل الإمام، إذ مثل هذا لا يوجد في أوروبا، بل في العراق الذي تحكمه دولتان (في ذلك الوقت) دولة بريطانيا ودولة العراق "[1].

وأوردت جريدة الأمة مقالا تحت عنوان : زعيم طرابلس سليمان باشا يتبرع للطيران المدني، جاءتنا من جمعية الطيران العراقية صورة الكتاب الذي رفعه إلى الجمعية سليمان باشا الباروني، مع تبرعه بمبلغ لقواتنا الجوية يقول : " ويدخل الأمل في القلوب المبتلاة باليأس والقنوط من نيل العز بعد الهوان والنصر بعد الخذلان والحرية بعد العبودية- مشاهدة فيالق وطنية منظمة تفيض بها الميادين الفسيحة، وتضيق بها الشوارع الضافية، مدججة بأحدث آلات النضال، تطلق حركات أقدامها في سيرها نغمات أبواقها الصادية ودقات طبولها الداوية، خافقة فوق الرؤوس أعلامها، ولسيارتها المدرعة دبدبة تذهل العقول وتهز الرواسي هزاً، ولمدافعها الهائلة قعقعة الرعد القاصف ترج الأرض رجاً، تظلها أجنحة أسراب من نسور فولانية، يقودها إبطال من شباب الوطن مدربون، .... "[2].

---

(1) المحاضرة التي ألقاها الباروني في نادي المعلمين ببغداد، ص١٢. وجريدة وادي ميزاب مؤرخة في ٢٥ نوفمبر ١٩٢٧م.

(2) جريدة الأمة عن جريدة البلاد العراقية، مؤرخة في ٢١ ربيع الأول ١٣٥٦هـ/ ١جوان ١٩٣٧م.

المحور الثاني: الأحداث العربية والإسلامية والعالمية

ساعدت الباروني الظروف المواتية في العراق خصوصا ازدهار الحركة العلمية والثقافية، فكان يستفيد ويشارك في المحافل والملتقيات الأدبية التي نشر فيها مقالات عديدة تناول فيها معالجة الكثير من المشكلات والقضايا المحلية والإقليمية والدولية، ففي إطار المشكلات العربية والمحلية ينتصر للحق ويتحمل في سبيله كل المتاعب، لذا فهو رجل معدود من رجالات الوطن والعروبة، وعلى مستوى المشكلات الإسلامية الكبرى كان متجرداً ومخلصاً لدينه ومبادئه فهو عظيم من عظماء الإسلام، وعلى مستوى المشكلات الدولية والعالمية كانت رؤيته عميقة تستشرف المستقبل لذا فهو يُعد سياسيا كبيرا من ساسة العالم الإنساني. وسنتناول في هذه المجالات الثلاثة : محلية وإسلامية وعالمية أبرز القضايا الهامة التي تناولها من خلال نشرها في الصحف والجرائد العربية في ذلك الوقت.

أولاً: حقيقة الحرب الطرابلسية

لم يكن الباروني لينسى أو يتخلى عن قضية وطنه الأم أبدا بعد ما أكره على الخروج قصرا، فقد كان أول من استنهض شعبه للجهاد المقدس يوم أن أعلنت إيطاليا الحرب على الدولة العثمانية في طرابلس الغرب في ٢٩ سبتمبر ١٩١١م، وقد تواصلت مراحل جهاده الوطني إلى حين اعترفت ايطاليا بحكومة طرابلس الجمهورية الوطنية وأمضت على قانونها الأساسي في ٢١ ابريل ١٩١٩م.

وعندما خرج إلى المشرق العربي بعد التحديات والمضايقات التي تعرض لها من قبل الدول الاستعمارية، فقد كانت قضية السيطرة الإيطالية على ليبيا من القضايا الهامة التي أولاها اهتماما كبيرا، فقد نشر العديد من المقالات في الجرائد

العربية التي أوضح فيها الحقائق عن الحرب الطرابلسية، خاصة بعد ما كانت تنشر بعض الصحف العربية معلومات غير صحيحة عن الجهاد الليبي ضد إيطاليا الفاشية، لذا انبرى يدافع عن قضية وطنه لأنه أحد القادة المجاهدين الذي ناضلوا في الدفاع عن حرمة الوطن والدين.

فقد صدر له مقال من بغداد تحت عنوان (كونوا كما تريدون وإنما لا تدخلوا طرابلس في نظرياتكم)[1]، حيث أوضح السبب الذي دفعه إلى كتابة المقال مشيرا إلى أن بعض محرري الصحف في الشام وفلسطين أوردوا مقالات تتناول أفعال وأعمال إيطاليا في طرابلس بالمدح من أجل استمالتها، للتقوي بها على نيل بعض حقوق بلادهم، وهم بذلك يجعلون طرابلس فداء لسوريا وفلسطين، وهو مقصد جارح ومؤلم – لكل طرابلسي– كما يقول الباروني حيث كان متنزه عقلاء إخواننا السوريين والفلسطينين عنه. وقد ساق الشواهد على التضحيات الجسيمة التي قدمها المجاهدون، حيث تلقوا بصدورهم مدة تسع سنين متوالية قنابل عدوهم وغازاته السامة على أثر احتلال العدو عاصمتهم سنة ١٩١١م إلى أواسط ١٩١٩م، وخسروا من رجالهم آلافا ثم بارحوا وطنهم مرغمين وتشتتوا في الأقطار غير سائلين أحدا، فهم لا يقبلون بعد هذا أن تجعل بلادهم وسيلة لتنازع الأحزاب، أو أن تتخذ حقوقها فدية لحقوق غيرها من البلدان.

وقد ناشد محرري الصحف الذي يريد تقديم خدمة لقضية طرابلس بتأثير على إيطاليا بدعوتها إلى الاستجابة لإعادة دستورها الذي نالته في سنة ١٩١٩م مصدقاً من مجلسي شيوخ إيطاليا ونوابه ومتوجاً بتوقيع ملكها، وأن المساعدات والإغراءات التي تقدمها الحكومة الإيطالية مقابل السكوت عن مطالبة الدستور لا تهم المجاهدين، إنما تهم أشخاصاً معدودين يجب أن يسعوا لها بأسمائهم الخاصة لا باسم طرابلس، وقد أشاد بفضل أخوانه المجاهدين في الجزء الشرقي

---

(1) جريدة الأمة بتاريخ ٢١ ربيع الثاني ١٣٥٤هـ الموافق ل ٢٣ /٧/ ١٩٣٥م.

من ليبيا بقوله : أقول هذا بالنسبة إلى بلادي طرابلس التي يحدها شرقا قطر بني غازي وغربا تونس، أما قطر بني غازي فلا حق لي في التعرض لشؤونه لأن له رجالاً وأبطالاً حاربوا دونه ببسالة، ومنهم الشهيد عمر المختار وأشبال العائلة السنوسية.

وفي مقال آخر من بغداد بعنوان (صفحة رائعة من جهاد طرابلس الغرب)[1]، رد على مقال نشره المجاهد محمد إبراهيم لطفي المصري في جريدة الجهاد سرد فيه سير الحرب الطرابلسية والبرقاوية منذ صالحت الدولة العثمانية إلى سنة ١٩٣٢م، وقد استوقف الباروني في مقالته قوله : "تنظيم الحدود بينها يعني الحكومة السنوسية وبين حكومة الإباضيين"، فهذا يحتاج إلى تعليق عليه فإن هذا التعبير يدل على أن الحكومتين قد أسستا باسم المذهب والطريقة. فقد بين وحدد معالم الجهاد وأسس قيام الحكومتين، فأما في برقة فالمجاهد أحمد هو الذي سمى حكومته بالحكومة السنوسية، وأما جهة طرابلس فلم تكن الحكومة باسم مذهب أو طريقة بل كانت باسم الإسلام والوطن لأن فيها من المذاهب المالكي والإباضي وعدد من الطرق الصوفية وعناصر مختلفة. والذي يدل على ذلك أنه عندما بلغ مدينة طرابلس خبر ظهور الأسطول الإيطالي في البحر اجتمع رؤساء القبائل العربية والبربرية واتفقوا على وضع ميثاق يتمثل في عدم اعتبار كل ما يؤدي إلى الانقسام من عادات وخلافات مذهبية، وأن يكون الجامع في الجهاد هو الجيش الإسلامي وأن المجاهدين أخوان في الإسلام فلا ذكر لمذهب ولا لعنصر[2].

ومن ذلك أيضا يوضح الباروني الأهداف المشتركة للدول الاستعمارية في سبيل محاربة الدول العربية والإسلامية رغم كافة التحديات والأزمات التي تدور

---

(١) جريدة الأمة ٢١ ذي القعدة ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٧/٢/٢م.
(٢) أبو اليقظان: المصدر السابق، ج١، ص٩٤.

فيما بينها، لكنها في سبيل أي مصلحة تهمها تتنازل على حساب القيم والمبادئ والأعراف الإنسانية، فمن ذلك ما ذكره في مقال له بعنوان : تغلغل نفوذ إيطاليا في تونس قبضها على ٢٣ طرابلسياً لتعدمهم)[١]، فهؤلاء ثاروا من الجهة الغربية من جبل طرابلس ضد المعتدين على أعراضهم من الإيطاليين، فلجوا إلى الأراضي التونسية وفتحت لهم فرنسا أبوابها، ولكن بعد سنتين قدمت إيطاليا لحكومة فرنسا طلبا لتسليمهم، وفي هذا يوجه الباروني عتابه إلى حكومة فرنسا وتونس قائلا : " إن حكومة فرنسا إذا أردت بهذا العمل الممقوت إنسانية وسياسة التودد إلى إيطاليا، فإن إيطاليا مع زعيمها موسوليني لا يرضيها إلا أن تسلم لها فرنسا شمال أفريقيا كله من تونس إلى مراكش ".

وقد كان الباروني مدركا للوسائل التي تنتهجها الدول الاستعمارية من أجل فرض سيطرتها وبسط نفوذها على الأقطار العربية كافة، ومن بينها تطبيق سياسة فرق تسد وتجزئة البلدان العربية وإشغال الرأي العام بقضايا هامشية من أجل صرفه عن القضايا الجوهرية، فقد تصدى للأستاذ تيسير ظبيان صاحب جريدة الجزيرة الدمشقية الذي قام برحلة في شمال أفريقيا، فعرج على طرابلس الغرب وتداخل مع رجال إيطاليا في شأن القضية الطرابلسية بما لا يشرفه ولا يفيد القضية، فكان جواب الباروني له واضحاً إننا ندله على الاشتغال بقضية وطنه المغصوب ولينفق من ماله وليخاطر بحياته وبجريدته في تأييد مجاهدي وطنه ومسقط رأسه، وليدع طرابلس البرقاوية لرجالها الذين يعرفهم رجال إيطاليا من سنة ١٩١١م، ولا حاجة لهم إلى الاستعانة بأصدقاء إيطاليا المخلصين من عرب ومسلمين من أي قطر كانوا[٢]. وقد نشر مقالات عديدة في جريدة الفتح المصرية وجريدة البلاد العراقية عن حقيقة الحرب الطرابلسية، مؤكدا أن الطرابلسيين حاربوا الطليان بدافع الدين والوطن، ولم تحركهم يد من غيرهم، وما كانوا في يوم من

---

(١) جريدة الأمة مؤرخة في ٢٦ جمادى الآخرة ١٣٥٦هـ/ الموافق لـ١٩٣٧/٨/٢٤م.
(٢) جريدة الأمة مؤرخة في ١٩٣٧/٨/٣م.

الأيام مسوقين بتشويق من غير علمائهم ورؤسائهم وضمائرهم حتى الدولة العثمانية صاحبة السيادة على البلاد كانت مترددة في إعلان الحرب[1].

ثانياً: حول حرب الجزيرة العربية

نشبت حرب في جزيرة العرب بين الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن من آل مقرن (ت١٩٥٣م) ملك نجد والحجاز والإمام الزيدي يحي بن محمد بن يحي حميد الدين العلوي (ت ١٩٤٨م) في اليمن عام ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م، وقد حذر الباروني الملكين المتحاربين من العواقب الوخيمة جراء الحرب على العروبة والإسلام، وأن المستفيد منها هم الأعداء الذين يحتلون أجزاء كبيرة من البلدان العربية والإسلامية.

وقد تناول الموضوع في مقال من بغداد نشرته العديد من جرائد الشرق تحت عنوان حرب الجزيرة – رأي الباروني باشا[2]، والذي من خلاله نستطيع تحديد معالم منهجه السياسي في معالجة القضايا السياسية وفق رؤية عميقة أهلته خبرته وحنكته القيادية والسياسية في وضع الحلول المناسبة والمتزنة لكافة القضايا التي حتم عليه واجبه الإسلامي الاهتمام بها على النحو التالي :

أ- نقد تهييج الرأي العام وبث الدعايات وفق منطلق مذهبي، تناول الباروني في بداية مقاله ذكر الصحف الصادرة في مصر والشام وفلسطين التي أشادت بالانتصارات التي حققها الملك ابن السعود على جيوش الإمام يحيى، بينما الصحف العراقية تناولت الانتصارات التي حققتها الجيوش الزيدية، ونشرت إحدى الصحف العراقية خبر سقوط صنعاء وخلع الإمام يحيى والمناداة بأحد أولاد ابن السعود ملكاً بعنوان: فيصل الأول ملك اليمن، كذلك ظهرت صحف

---

(١) أبو القاسم الباروني: المصدر السابق، ص١٢٥.
(٢) أبو اليقظان: المصدر السابق،ج٢،ص١٦٠.

تبرز تحزب الناس بجانب الملك الوهابي وتدعو له بأن يحتل صنعاء ليمحو أثر الشيعة الزيدية، في حين يؤيد الطرف الأخر سبط الرسول حتى يحتل الرياض ليستأصل الوهابية من الأرض[1].

ب- التضليل والتهويل الإعلامي لا يخدم القضايا بين الأخوة في الدين، كان يتصور الباروني أن المسلمين أمام حرب تشبه حرب الدولة العثمانية مع اليونان حين كانت تزحف جيوشهم على مدن اليونان والناس ينتظرون سقوط أثينا عاصمة اليونان، أو كأن الجيوش الإسلامية زاحفة على عواصم أوروبا انتقاما منها على ما قامت به من القضاء على الخلافة الإسلامية، أو زاحفة على بيت المقدس لإنقاذه[2].

ت- المستفيد من الحروب الطائفية المستعمر الذي يتربص بالمسلمين الدوائر، خسر اليمن بمجرد الحرب تسع ولايات لأن الإمام يحيى يحارب بريطانيا من أجلها ويطالبها بالتخلي عنها، فالآن أصبحت لقمة سائغة ووقعت المدن اليمنية من لحج وعدن وحضرموت تحت النفوذ البريطاني، في حين أن الملك ابن السعود صرح قبل أن يحتل صنعاء بأن لا يمس ما دخل في حماية بريطانيا، وأمام هذا الصراع استغلت الدول الاستعمارية الفرصة فالأسطول البريطاني واقف أمام الحديدة يهدد بتمزيق جيوش الإمام، ومدرعات بريطانيا وفرنسا وإيطاليا واقفة أمام ساحل اليمن تشاهد المذابح، وبالمقابل خسر الملك ابن السعود جوهرة البحر الأحمر وهي العقبة، التي اغتنمت بريطانيا فرصة الحرب وباشرت تحصينها[3].

ث- مطالبته الصحف نقل وكتابة الحقائق والوقائع الصحيحة، مناشدا أرباب الأقلام النظيفة التألم للإسلام والعرب من هذه الحرب ويقترح أن يكون

---

(1) أبو اليقظان: المصدر السابق،ج٢،ص١٦٥.
(2) أبو اليقظان: المصدر السابق،ج٢،ص١٦٥.
(3) أبو اليقظان: المصدر السابق،ج٢،ص١٦٦.

العنوان المناسب لها " انكسار شوكة الإسلام بسيوف رجاله " و" انهيار صرح العروبة بمعاول أبنائها ".

ج- توعية الرأي العام من أجل فهم الواقع وفق تصورات واعية من خلال المبادئ التي نادى بها وهي:

١- الواجب على كل من كان خارج منطقتي المتحاربين أن يعلن سخطه على الحرب ويعلن البراءة من الباغي، لأنها وخيمة على العرب والمسلمين والحرمين الشريفين.

٢- يتطلب من رجال العلم أن يعتمدوا على أنفسهم في سبيل غايتهم الشريفة لا على الملوك المغلولين بالمعاهدات.

٣- المنتصر من هذه الحرب إذا رأت دول الاستعمار فائدتها في إبقائه، متظاهرا بالاستقلال في دائرة محدودة من الجزيرة فلا بد أن تكرهه بعقد معاهدات وعدم التعدي وتسليم المجرمين وسد أبواب بلاده في وجه كل مقاوم للاستعمار.

٤- نجحت الدول الاستعمارية في الخدعة السياسية التي سلكتها وكانت وسيلة لتوطيد أقدامها ومضاعفة قواتها في البلاد العربية، فسنرى عما قريب زيادة الجيوش فيها وتشييد الاستحكامات وبناء المطارات وحمل نفقتها على أكتاف البلاد المحتلة.

٥- انتقد وفد المؤتمر الإسلامي على عدم إرساله أفراد من أعضائه من أول يوم إلى اليمن لما أعلنت الحرب، وانتقد كذلك تسليم أوقاف الحرمين الشريفين التي في القدس للملك ابن السعود.

ثالثاً: حول المؤتمر الإسلامي العام في القدس ١٣٥٠هـ/١٩٣١م

كان الباروني يتابع مجريات الأحداث والقضايا التي تهم رجال الإصلاح وزعماء الفكر، خاصة القضية الجوهرية للأمة الإسلامية عموماً والعربية وهي

قضية فلسطين وبيت المقدس، وقد كان يدرك مدى الهيمنة والنفوذ الاستعماري على المنطقة العربية من أجل محاربة ودحض كل مجهود عربي وإسلامي، ولذا حالت الدول الاستعمارية بينه وبين حضور مؤتمر الخلافة في القاهرة سنة ١٩٢٦م، ولكنه كان يتحين أي فرصة للمشاركة في كل ما يمكن الإسهام فيه والتضحية في سبيله خدمة للقضايا الإسلامية.

وبمناسبة انعقاد المؤتمر الإسلامي العام في القدس سنة ١٣٥٠هـ/١٩٣١م، بعث تهنئته لأعضاء الهيئة التنفيذية للمؤتمر الإسلامي العام داعياً لهم التوفيق والنجاح في جدول أعمالهم، وموضحاً رأيه في بعض المواد خدمة للإسلام والمؤتمر، وفي المقابل كانت كذلك مناسبة أخرى تتزامن مع المؤتمر يتم التحضير لها وهي انعقاد المؤتمر العربي العام في نفس العام، وقد وردت إليه رسالة من بعض أعيان العرب لبيان رأيه في المواد التي قررت لجنة المؤتمر بحثها.

وقد أقر مندوبو البلدان العربية الذين حضروا من مراكش والمغرب والجزائر وتونس ومصر وأفريقيا الجنوبية والحجاز وسوريا وفلسطين والعراق في المؤتمر الإسلامي في القدس، على وضع ميثاق عربي يصبح دستوراً عربيا كي تسير الدول العربية على منهاجه وتهتدي به في جهادها القومي للتحرر من ربقة الاستعمار[1].

وقد كتب الباروني إلى المؤتمر الإسلامي والعربي مجموعة من المواد التي يرى أنها أساسية وجوهرية يطلب معالجتها ووضع الحلول المناسبة لها، فمنها أنه اقترح عقد المؤتمر العربي والإسلامي في نفس المكان والزمان، من أجل توحيد

---

[1] جريدة النور الجزائرية مؤرخة في ٢ رمضان ١٣٥٠هـ الموافق لـ ٢ جانفي ١٩٣٢م

الجهود ووضع أهداف مشتركة تخدم القضايا العربية والإسلامية، وبالتالي يمكن التقليل من النفقات والمصروفات المالية.

ومن جهة مشاركة مملكة عُمان في المؤتمرات السياسية – خارجها- في الوقت الحاضر كان يرجح عدم الاشتراك والبقاء على الحياد نظرا لوضعية عُمان الجغرافية والسياسية، لأنها محاطة من المغرب بالربع الخالي مقطوعة عن العالم العربي ومحاطة من الجهات الأخرى الثلاث بالبحر فهو في قبضة أساطيل الاستعمار، فيرى أنه ليس من الصواب إظهار العداء للأجنبي الواقف بالمرصاد والقابض على البحر المتتبع لأي تحرك، ويتمنى أن يجد وسيلة للتدخل الفعلي في شؤون عُمان وهي الآن في استقلال عن القبضة الأجنبية وإن كانت محاصرة ولكن بعض الشر أهون من بعض[1].

وقد أوضح آلية العمل المناسبة من أجل متابعة ومعالجة القضايا المحورية، فعلى مستوى المؤتمر الإسلامي اقترح انتخاب أربع هيئات من خيرة الأعضاء في القضايا الآتية[2] :

١- هيئة تتولى البحث عن أوقاف الحرمين الشريفين المهملة في كثير من الأقطار الإسلامية والمطالبة بإعادتها إلى مرجعها.

٢- هيئة تطالب عصبة الأمم بالغاء عهد " بلفور " القاضي بجعل فلسطين وطنا قومياً لليهود.

٣- هيئة تتولى مطالبة حكومة أنقرة بإعادة الآثار النبوية إلى مرجعها (المدينة المنورة أو مصر)، لأنها حكومة لا دينية تحتقر الدين الإسلامي ومقدساته فلا حق لها في وضع يدها عليها.

٤- هيئة تُعنى بشراء ما يباع من أراضي فلسطين وجعلها وقفاً مؤبداً.

---

(١) أبو اليقظان: المصدر السابق،ج٢،ص١٥٧.
(٢) أبو اليقظان: المصدر السابق،ج٢،ص١٤٨.

أما على مستوى أعمال المؤتمر العربي فكان يرى أن تنحصر في المساعي الموصلة من أقصر طريق إلى تحرير البلاد العربية المستعمرة باعتبار درجاتها إذ أنها متفاوتة فيه (أي الاستعمار) ومستعمروها مختلفو السياسة والمعاملات، فمثلا مراكش وتونس بحاجة إلى رفع الحماية، أما الجزائر فتحتاج إلى أمير وطني تحت الانتداب مؤقتا، بينما طرابلس الغرب يلزمها تنفيذ قانونها الأساسي الذي صالحت عليه إيطاليا، أما مصر فتستحق الاستقلال الحقيقي. فعلى هذا القياس يكون وصول البلدان العربية إلى الاستقلال تدريجياً، وبعد حصولها توجه الأنظار والمساعي إلى وضع أساس لاتحادها وربط بعضها ببعض بمعاهدات[1].

وكذلك ناشد المجتمعين على عدم الاهتمام بالقضايا الثانوية والتركيز على القضية الرئيسة للبلدان العربية المتمثلة في نيل الاستقلال، والبعد عن الخلافات والشقاق خاصة أن الأمة الإسلامية تمر بمنعطف خطير يتطلب من الزعماء والقادة والمصلحين التصدي لكل المحاولات التي تدعوا إلى الفرقة والتحزب المذهبي والسياسي.

وفعلاً وقع على هامش فعاليات المؤتمر الإسلامي في القدس خلاف بين بعض المشاركين، حيث انتقد نائب حلب وهو على المذهب الحنفي تقرير لجنة الدعوة والإرشاد ورئيسها الشيخ رشيد رضا فهذا وهابي، حيث تصدى رفيق الباروني وصديقه الحميم المشارك في المؤتمر الشيخ أبو إسحاق إبراهيم اطفيش (ت ١٣٥٨هـ/١٩٦٥م) ليطفئ الفتنة في مهدها قائلاً: " إن المؤتمر جاء ليجمع كلمة الأمة الإسلامية ويعمل لقضية الأمة لا ليفرق وحدتها، ويكفينا إننا جئنا لقضية هي الوقوف أمام عدو واحد يسعى لتمزيق هذه الأمة، بل الأدهى أن اليهود يطمعون فينا – معشر المسلمين– حيث ظنوا أنهم أمام أمة متفككة

---

[1] أبو اليقظان: المصدر السابق،ص١٥٨.

متشتتة، ..... وأخيرا قال : نتمنى أن يكون هذا المؤتمر هو المجدد لوحدة المسلمين أمام الخطر الداهم الذي جعل حتى اليهود يسخرون منا والاستعمار يعبث كما يشاء بهذه الأمة المحمدية "[1].

رابعاً: مؤتمر نزع السلاح لعصبة الأمم في جنيف

من أهم المشكلات العالمية التي ما زالت تؤرق البشرية والإنسانية إلى الآن مشكلة نزع السلاح، وقد قدم الباروني منذ وقت مبكر مذكرة مستفيضة تشتمل على ١١ فصلاً إلى رئيس المؤتمر المستر هندرسون وزير خارجية انجلترا وأعضاء لجنة نزع السلاح في عصبة الأمم بجنيف من بغداد، مؤرخة في ١٨ شعبان ١٣٥١هـ الموافق لـ ١٠ ديسمبر ١٩٣٢م، بعنوان " لا سلم مع الاستعمار" على أثر توتر العلاقات بين بريطانيا وإيران حول شركة النفط مبينا رأيه في منع الحرب وتحذير الدول منها.

وقد خاطب الدول المتقدمة لمعالجة الأوضاع والأزمات مع الدول العالم الثالث من أجل تفادي نشوب الحروب لا عن طريق عقد المؤتمرات التي تمخضت عن تخفيض السلاح، إنما أنجح وسيلة لمنع الحرب في إلغاء الاستعمار[2]، وأن الشعوب المستضعفة الواقعة تحت قبضة الاستعمار تتحين الفرصة المناسبة للقيام بأي ثورة للتخلص من ربقة المستعمر، خاصة عندما أعلنت الحرب العالمية الأولى وأعطت الدول الكبرى الوعود للدول العربية والإسلامية بأن يشتركوا معها في الحرب ضد الدولة العُثمانية حتى تمنحهم الاستقلال بعد ذلك، فمثلا حصلت فرنسا من شمال أفريقيا على مدد كبير يقدر بالآلاف من الرجال وبالملايين من الأموال، وقد ضحّت تونس وحدها بـ٤٥ ألفا من خيرة شبابها.

---

(1) محمد ناصر: الشيخ إبراهيم اطفيش في جهاده الإسلامي، الجزائر: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية،١٩٩١م، ص٥٤.
(2) أبو اليقظان: المصدر السابق،ج٢،ص١٢٨.

وبعد أن أحرزت الدول الكبرى الانتصار في الحرب العالمية الأولى، وتمّ دكّ صرح الخلافة الإسلامية، نكثوا عهدهم مع الشعوب والدول التي وقفوا معهم في الحرب، وازدادت معاناة الشعوب في القتل والتشريد ومصادرة الأموال، وهذا ما جعل الشعوب تتحين أي فرصة قادمة للثورة، خاصة أن وسائل المواصلات أصبحت سريعة، فيمكن الحصول على الإمدادات والأسلحة، فكان الباروني يرى أمام هذه الظروف التي تعاني منها الشعوب في الهيمنة الاستعمارية القاسية أنه لا أمل في السلم مع بقاء الاستعمار وإن المستعمرات على استعداد للثورة في أي حرب قادمة[1].

وقد وجّه الباروني مناشدته لدول الاستعمار من أجل نشر الأمن والسلام العادل في العالم، وتحقيق الرخاء والاستقرار للشعوب كافة قائلا: " على دول الاستعمار إلغاء الاستعمار وتحرير الأمم المحكومة، والاتفاق على سن قانون لتدريب الأمم المستعمرة وإعانتها على النهوض ببلدانها بإدارة مستقلة توافقها وتنتفع بخيراتها، متعاونة مع الشركات وأصحاب الفن من أوروبا "[2].

كان الباروني يأمل من المجتمعين في عصبة الأمم أن تلقى دعوات الشعوب المستضعفة الحلول المنصفة جراء ما يرتكبه المستعمرون من مخالفة للقانون العام، وأن تعمل على إسعاد الإنسان لا لأجل سعادة أوروبا خاصة، وقد أوردت مجلة المنهاج في مقالها عن عصبة الأمم حول سياستها المزدوجة وعدم تدخلها في المشكلات الشرقية واشتغالها بالمسائل الأوروبية، " وهذه العصبة هي من تكوين الحلفاء، وهم الذين يتمتعون بامتياز خاص أكثر ممن سواهم، وهم الذين شيّدوها حسب ما يشتهون، وهم المشرفون على أعمالها، وهم الذين يتحكمون في الشعوب الضعيفة والباسطون أيديهم في البلاد الشرقية يعملون ما

---

(1) أبو اليقظان: المصدر السابق،ج٢،ص١٢٩.
(2) أبو اليقظان: المصدر السابق،ج٢،ص١٣٨.

شاءت لهم الأهواء بدون معقب لهم. فهل سينال الشرق المعذب فائدة من هذه الجمعية "[1].

وقد تلقى الباروني من رئيس المؤتمر على جواب في المذكرة التي بعثها للمؤتمر في ٩مارس ١٩٣٣م، شاكرا له مبادرته الطيبة ويدعوه إلى تقديم المعلومات والقضايا المهمة من أجل الخروج بقرارات هامة وحاسمة خلال الأشهر العصيبة القادمة، بعدها بعث رسائله الثانية والثالثة والرابعة من بغداد إلى مؤتمر نزع السلاح تتضمن مطالب مهمة ينبغي مناقشتها وإيجاد الحلول المناسبة لها، وأهم ما ورد في مضمون رسالته الثانية أنه ينبغي تبديل عبارة (حرية الأديان) التي تذكر في المعاهدات لمقاصد سياسية بعبارة (احترام الأديان والحكم بالعقاب الصارم على من يهينها) حتى لا يبقى محل للتنصير الذي أصبح أقوى منفر للشرقي، خصوصا العالم الإسلامي من دول أوروبا، وأن المنصرين تسعهم أوروبا وأمريكا وروسيا لنشر مراشدهم وتوزيع صدقاتهم[2].

وفي رسالته الثالثة بين خطورة تسابق الدول الأوروبية في توسيع سياستها الاستعمارية مما يجعل التنافس فيما بينها على التسلح، وإنفاق الملايين من أجل بناء ترسانة عسكرية لحماية الامتيازات والثروات التي تمتصها من خيرات الشعوب المستعمرة، محذرا المؤتمر في حالة فشله صعود المد الروسي الشيوعي خاصة إذا اتفقت روسيا مع المانيا وإيطاليا وتركيا، وصار مضيق البسفور والدردنيل ممراً حراً للقواعد الروسية[3]، وفعلاً تحققت تنبؤات الباروني بعد ذلك عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية، وقد لاقت مقالات نزع السلاح اهتماماً وشأناً كبيراً من قبل المعنيين بالشؤون العسكرية والحربية في النادي العسكري ببغداد.

---

(١) أبو إسحاق: إبراهيم اطفيش، مجلة المنهاج، مسقط:مكتبة الضامري،٢٠١٠م، ط١،مجلد١،ص١٨٤.
(٢) أبو اليقظان: المصدر السابق،ج٢،ص١٤٠.
(٣) أبو اليقظان: المصدر السابق،ج٢،ص١٤٢.

الخاتمة

حفلت حياة سليمان باشا الباروني ببغداد من سنة ١٩٢٩م إلى ١٩٣٨م بالعطاء فقد ساهم مساهمة حضارية في تعميق الروابط بين عُمان والعراق على مختلف الأصعدة، عبر العلاقات الثقافية والاقتصادية والسياسية بين عُمان بحكم موقعها الجغرافي في مجال الملاحة والتجارة، وبين بلاد الرافدين حيث الريادة العلمية والنهضة الثقافية وأسهم ذلك كله في توثيق العلاقات بين القطريين العربيين.

وكذلك أضافت المرحلة التي قضاها الباروني في العراق له بُعدا فكرياً ومهمة إصلاحية، فقد ساعدته الظروف لنقل إنجازات ثقافية وعلمية وصحية إلى عُمان من أجل تطوير المؤسسة الحكومية وتنفيذ مشاريع تستهدف بناء الإنسان العُماني حتى يكون قادراً على تأسيس دولة حضارية تتواكب مع متطلبات العصر. ومن جهة أخرى تبلور في العراق منهجه الإصلاحي السياسي من أجل الوفاء بمبادئه الراسخة، فقد تناولت مقالاته الصحفية دراسة مشكلات عربية وإسلامية وعالمية بروح موضوعية متجردة من الأهواء والنزعات الطائفية والمذهبية، ويتضح من مقالاته أنه كان مطلعاً ومتابعا لما يجري من أحداث عربية وعالمية. ومن أهم النتائج التي توصل إليها البحث خلال المرحلة التاريخية التي عاشها الباروني متنقلا بين عُمان والعراق لما يقرب من سبع سنوات ما يأتي:

١- سعى الباروني إلى تأسيس روابط بين عُمان وبلاد شرق أفريقيا (زنجبار) بعلاقات ثقافية وحضارية مع بلاد العراق في العصر الحديث، وتوثيق العلاقات الخارجية بين الحكومتين العُمانية والعراقية لتقوية الروابط بينهما.

٢- شارك الباروني في العراق مع أعلام رجال الفكر والإصلاح في توعية الشعوب العربية من خطر الهجمة الاستعمارية على الوطن العربي، ووضع الحلول الكفيلة للتخلص من المشكلات بين الأشقاء العرب، ومتابعة الأحداث العالمية على المستوى العربي والعالمي.

٣- ساعدت الباروني المرحلة التي قضاها في بغداد على تعميق منهجه الفكري والسياسي ونضجه، بحكم اتصاله بالمؤسسات العلمية ورجال الفكر فيها.

ونتوصل من خلال الدراسة لحياة الباروني في العراق إلى بعض التوصيات المهمة التي يمكن الاستفادة منها وهي:

١- ضرورة البحث في المصادر والمراجع بالمراكز العلمية والمؤسسات الثقافية في العراق خاصة في مجال الصحف والجرائد للكشف عن جهوده في العراق والبعد الحضاري الذي ساهم فيه خلال تلك المرحلة.

٢- بذل المزيد من العناية بجهود الشيخ الباروني ودراسة شخصيته من جميع جوانبها الفكرية والثقافية والعلمية لتتضح جهوده الجهادية والإصلاحية.

الباب الثاني

البارونـي أديباً ومؤرخاً

سليمان باشا الباروني الشاعر الفقيه

د.قاسم حسن القفة (*)

مقدمة

حاجات عدة دعتني إلى التعرض بالبحث والدراسة لعلم من أعلام الأدب والفقه والجهاد الليبي، شخصية متعددة المناشط الأدبية والفقهية، والاهتمامات الثقافية، وإذا كان الجانب الجهادي لديه أكثر هذه الإبداعات التي عرف بها؛ إلا أن أدبه وفقهه كان نسيا منسيا" في البحث العلمي"، لقد حاول سليمان باشا الباروني[1]ممارسة التعبير بالكلمة عما تجيش به نفوس الليبيين، وهي خطوة رصينة نحو انطلاق الأعمال الأدبية إنشاء ونقداً، في زمن الاحتلال حيث كان الإنتاج الأدبي ضعيفا، أو ربما لم يلق حظاً كمثيلة في بعض دول الجوار العربي، ومن المعروف أن الحالة الثقافية لأي بلد لابد أن تتأثر كثيراً بحالته السياسية.

لقد كان سليمان باشا الباروني " من خلال آثاره وتعلمه " مدركا لحقائق الأمور، وصاحب بصيرة وتفكير منظم، وطموحه إلى العلم كان كبيرا، يدفعه إلى

(*) د. قاسم حسن القفه، جامعة الزاوية، ليبيا.

(1) سليمان (باشا)الباروني(١٨٧٠-١٩٤٠م)، من المجاهدين الطرابلسيين، ولد في طرابلس الغرب ودرس في تونس والجزائر ومصر،وعاد إلى طرابلس وانتقد سياسة تركية فيها، فأبعد إلى مصر، وبعد إعلان الدستور العثماني عام ١٩٠٨م عاد إلى بلاده وانتخب نائباً عن طرابلس في مجلس(المبعوثان) ولما وقع العدوان الإيطالي على طرابلس عام ١٩١١م عاد إليها مجاهداً وأبى الاعتراف بالصلح المعقود بين تركيا وإيطاليا وواصل مقاومة الاحتلال ثم مضى إلى تونس، وعاد إلى الأستانة فعين عضواً في مجلس الأعيان١٩١٣م، وفي أثناء الحرب العالمية الأولى عاد إلى طرابلس الغرب في غواصة ألمانية واشترك في مقاتلة الايطاليين،ولما أعلنت الهدنة وعقد الصلح مع إيطاليا في سنة ١٩١٩م رحل إلى أوربا ثم حج سنة ١٩٢٤م وزار بغداد سنة ١٩٣٤م ثم مضى إلى مسقط وعمان، وكان أباضي المذهب،فاتخذه السلطان سعيد الثالث بن تيمور مستشاراً له سنة ١٩٣٥م،وفي سنة ١٩٤٠م سافر إلى بومبي للاستشفاء فتوفي بها، ينظر ترجمته في:الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية(نجد والحجاز)،المجلد الأول،(١٩١٤-١٩١٥م)، اختيار وترجمة وتحرير:نجدة فتحي صفوة،دار الساقي، بيروت، الطبعة الأولى،١٩٩٦م، ص١٠٥. دليل المؤلفين العرب الليبيين، طاهر محمد الشويهدي،دار الكتب،طرابلس،١٣٩٧هـ،١٩٧٧م،ص١٤٧-١٤٨. أعلام ليبيا،الطاهر أحمد الزاوي، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، ط٣، ٢٠٠٤م، ص١٧٣-١٧٤. معجم الشعراء الليبيين، شعراء صدرت لهم دواوين،عبدالله سالم مليطان، دار مداد للطباعة والنشر والتوزيع والإنتاج الفني، طرابلس،ط الأولى،٢٠٠١م،ج/١،ص٢٠٤-٢٠٧.معجم المؤلفين،عمر رضا كحالة،دار المثنى ودار إحياء التراث العربي،بيروت،لبنان،ج/٤،ص٢٦٨-٢٦٩.الأعلام،خير الدين الزركلي،دار العلم للملايين،بيروت،لبنان،ط الخامسة،١٩٨٠م،ج/٣،ص١٢٩-١٣٠.

البحث عنه في مصادره ومظانه، حتى وصل إلى بلاد الهند...لقد كان سليمان باشا الباروني ملما بالأحكام الفقهية في العبادات، وهي التي أهّلته ليصبح فقيها في مذهب قومه" الأباضي" ردحاً من الزمن، حيث وجد ضالته التي أشبعت نهمه في الاطلاع على كثير من القضايا الفقهية، ففتحت أمامه منافذ جيدة لفهم عدد من النصوص القرآنية فهما خاصا، ولعل مؤلفاته في ذلك خير دليل لهذا[1].

لم يتوقف نبوغ سليمان الباروني عند الفقه الأباضي؛ بل عكف على حفظ عدد من منظوم الشعراء، حتى أغراه طموحه وغروره بنظم كثير من المقطوعات كانت محط إعجاب أقرانه، فجمعت في ديوان شعري[2] – مع قلته– يشهد له بأنه شاعر مطبوع، وذو قريحة شاعرية، فليس في شعره ما يعبر عن إسفاف في الألفاظ أو المعاني، فجل شعره جزل ورصين، وتأثره بثقافته الدينية جاء شعره تعبويا ونخبويا، ليس به انغماس في شطحات الحداثيين، أو طلاسم الرمزيين من بناة الحداثة والتجديد في الشعر العربي، فكل ما لدينا من نتاجه الشعري له رسالة يهدف إلى بلوغها، ويحرص على تحقيقها والتمسك بها، حتى قال عنه النقاد : " شعر الباروني يمتاز بالوطنية ومقارعة الغزاة المستعمرين بروح إسلامية إصلاحية ويتميز بأنه ذو أسلوبية بسيطة وثقافة لصيقة بموافقتها السياسية لفكرة الجامعة الإسلامية ونابعة من ثقافته الشخصية التي تجمع بين الثقافة الأمازيغية والعربية الإسلامية والغربية الفرنسية "، تتناول هذه الدراسة شعر وفقه سليمان باشا الباروني بالعرض والتحليل والنقد.

---

(1) من مؤلفات الباروني:كتاب"الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية"وضعه في ثلاثة أجزاء فقد أولها ولم يبق سوى الجزء الثاني الذي طبع بمطبعة"الأزهار البارونية"في مصر، من مؤلفاته أيضاً:ديوان شعري في جزأين يتناول شعر الباروني موضوعات متعددة كالمديح والمجاوبات الإخوانية، والوصف، والرثاء، والاعتذار، والعتاب، ومدح الرسول والتهاني..."مختصر تاريخ العائلة البارونية"رسالة صغيرة ألفها بطلب من أحد المستشرقين، مقالات في المجلات والصحف،منها:مجلته"الأسد الإسلامي"التي أصدرها في القاهرة،وصحيفة"الرابطة العربية"التي كتب فيها ردوده على شكيب أرسلان.

(2) الديوان يقع في(٢٨٦)صفحة، الجزء الأول ينتهي عند الصفحة(١٧٢)،الجزء الثاني ينتهي عند الصفحة(٢٨٢)،الفهرس(٢٨٣-٢٨٦)، جاء في أول الديوان"يضم هذا الديوان الجزء الأول وهو نفس الديوان المطبوع بالقاهرة سنة١٣٢٦هـ والجزء الثاني الذي أشرفت على جمع قصائده وترتيبها زعيمة سليمان الباروني،الديوان ص٤،طبع الجزء الأول بمطبعة الأزهار البارونية لصاحبها سليمان الباروني وأخويه في الحبانية(شارع محمد علي) بمصر جمادي الأول سنة١٣٢٦هـ، طبع الديوان بجزئيه في دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، سنة١٩٧٢م.

قد لا أغالي إذا قلت : إن ليبيا فترة الاستعمار كادت تندثر معالمها لولا ظهور نخبة من المصلحين؛ لعل أبرزهم سليمان باشا الباروني، وقيامه بعملية شاقة وعسيرة تمثلت في : إعادة بناء الفرد الليبي وتشكيله ثقافياً وبعثه من جديد وهي مهمة الرسل – صلوات الله عليهم وسلامه –، مستلهمة قيم الكتاب والسنة في التعامل معه وتحديد مواطن الخلل فيه.

في هذا البحث محاولة لدراسة الخطاب الدعوي الإصلاحي – من خلال ديوانه – عند سليمان باشا الباروني، الذي جاهد لأجل إصلاح مجتمعه بكل شرائحه وتحويله من سيئ إلى حسن، وذلك بالعودة الصحيحة والصادقة إلى القيم الإسلامية، وتحقيقها في عالم الواقع من خلال طرق عدة لا يدركها إلا العالم الفذ، مستعيناً في تحقيق ذلك الهدف النبيل بنتاجه الفكري والأدبي، ولعل أديبنا – محط هذه الدراسة – خير من قام بهذا الواجب؛ فديوانه يزخر بعديد القصائد والمقطوعات الشعرية التي تنادي بكل هذه القيم الإنسانية، بعيداً عن لغة الإسفاف والابتذال التي فاضت بها دواوين الشعراء.

شعره

جاء في ديوان الباروني أن الفاضل الشيخ أحمد الطيب البشتي الطرابلسي الأزهري قد قال في وصف للديوان وما يحتويه من أشعار: "جاءنا والملزمة تحت الطبع من حضرة هذا الأستاذ قائلاً: وبعد، فقد تصفحت ديوان الباروني لذلك المفرد العلم، من أخجل السيف بالقلم الشيخ سليمان الباروني النفوسي، الذي إذا قال فلا غرو إن هجر قول غيره وتنوسي، فوجدته من السحر الحلال لا تكلف فيه ولا تعقيد ولا محال وذلك أكبر دليل على ذكاء ناظمه ونبله، وكأن الشاعر بقوله:

أبيـــات شعـــرك كالقصـــــور ولا قـــــصور بـــــها يـــعيق

ومـــن العجائـــب لفـــظـها حـــر ومعنـــــاها رقيـــق

بل لا عجب فالدر من معدنه لا يستغرب ولا بدع إذا قلنا: إن أعذب الشعر ما كان صدق لهجة لا ما كان أكذب، ولما سمعت منه المرقصات المطربات قرظته بهذه الأبيات:

ديـــوان شـعر قـد أتـى بفنون وحـــوى فـرائد لـــؤلؤ مكنون
تجري معانيه إلـى الأذهان في كلمـــاته وتسـيل سيل هـتون
آياته شهدت بفـضل علا سليـ ـمان الأديب الكامل البـــاروني
نظمت بنان بيـانه هـذا الكلا م فكان ديـــوانـــاً رفيع شؤون
بل جاء ديواناً يسر أولي النهي طبعاً ويطفيء لوعة المحزون[1]

إن النص الذي مر بنا منذ قليل يمثل شهادة في حق شاعرنا ونتاجه الأدبي، فالعبارات توحي بالأثر العميق الذي تركته أشعار الباروني، وما احتواه ديوانه في شحذ موهبة صاحب هذه الشهادة الشعرية، وفي ميله لمجارات أديبنا ببعض الأبيات تمدح الديوان وصاحبه؛ لعلها تفي حقه، وتبين البيئة الشعرية الخصبة التي غذى منها شاعرنا الفذ موهبته، حيث كان يملأ الدنيا[2] من حوله بشعره الذي تميز بالجدة، فكان سهلاً رشيق العبارة وضيء الصورة قوى النسيج فصيحاً عذباً، حتى أنفرد به صاحبه بين أقرانه.

لقد افتتح الباروني ديوانه بقصيدة في مدح السلطان عبدالحميد يوم الاحتفال بافتتاح مدرسة " يفرن " المعروفة بالبارونية " البخانجة "[3]، وقد حضر

---

(1) ديوان سليمان الباروني،دار لبنان للطباعة والنشر،بيروت،لبنان،١٩٧٢م،ص١٧٠-١٧١.
(2) ينظر مقدمة الديوان،ص١٣.
(3) ميدان الدراسة لها تحفيظ القرآن الكريم، وهو حجر الزاوية في كل المراكز التعليمية بالجبل،ومن العلوم الأخرى التي كانت معروفة بين منتسبي هذه المدرسة مثلاً: الفقه والنحو والمنطق والفرائض والتوحيد، وهي العلوم التي تشبع منها شاعرنا الباروني،والتي كان لها الأثر البالغ في أشعاره،فهي منبع ثقافته وعلمه...ينظر:الحياة العلمية في الجبل الغربي في النصف الأخير من القرن التاسع عشر وأوائل العشرين،الجزء الثاني،عبد الحميد عبدالله الهرامة،كلية التربية،جامعة الفاتح،مجلة البحوث التاريخية،العدد الأول،السنة السابعة،١٩٨٥م، منشورات جامعة الفاتح، مركز جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي، ص١٢٠.

فيه عزت باشا متصرف اللواء والموظفون وكافة الأعيان من بلاد متعددة، وخطب بها بعد خطبة الباشا يوم ١٢ربيع الأول سنة١٤٢٢هـ،حيث جاء في أولها، قوله :

ظهرت محاسن ذا الزمان فقابلت بالبشر والإقبال والخير المزيد
إذ عاد تشييد المدارس قربة في ظل سلطان الورى عبد الحميد

والقصيدة تقع في سبع وثلاثين بيتاً ختمها، بقوله:

أو ما الباروني تاه في الترصيع مذ نال الرضا والعفو من عبد الحميد
والآل ما ختم البنا واستفحلت للعلم مدرسة بذا العصر السعيد[1]

ولم يتوقف الباروني عند هذه المناسبة بقصيدة واحدة يتيمة؛ بل سار على سنة حميدة حين آل على نفسه فعل ذلك كل سنة،مما يوحي بأنه يتصيد الأعمال النبيلة فيتتبع آثارها ليقدم قصائده تكريماً وشكراً للخيرين من الرجال، فبنى على هذه القصيدة قصيدة أخرى بنفس البحر والروي،فقال في احتفال السنة الثانية قصيدة فتحها:

عام جديد عاد فالبشرى به والعود أحمد ما بدا فرح جديد
بالأمس كنا والهوان يسومنا في ظلمة فأزاحها عبد الحميد

وختمها بقوله:

فليهنك العمران وليهنَ التلا ميذ الكرام نجاح حال لا يبيد
في سطوة المحمود مرجع أمرنا ذي الظفر في أعدائه عبد الحميد[2]

---

(١) الديوان،ج/١،ص١٤-١٧.
(٢) تقع القصيدة في تسع وعشرين بيتاً،الديوان،ج/١،ص١٨-٢٠.

ولا يتوقف شعر الباروني عند ذكر فضل الكرام مادحاً لهم نتيجة أعمالهم الخيرة؛ بل فاض كذلك في مدح المجموعة حين قامت بعمل خيري لصالح بيت من بيوت الله،فله قصيدة رائعة في تجديد الجامع الكبير بمركز " فساطو "، ولقد نقشت هذه القصيدة في رخامة بجانب المحراب،وهي كما يقر بنفسه ثاني نظم له:

وجب الثناء على جماعة (جادو) إذا شـــــيدوا بيت الإله وجادوا
قد وسعوه وجـدّدو مـــن أصله وتسـارعوا لبنـائه وانقـادوا
لله در عصابـــة قـــد سببـــوا ببنائـــه وتعـــاضـدوا وارتادوا[1]

الأبيات التي مرت تبرهن لنا مقدرة شاعرنا على مجاراة الفحول، حيث ضمن قصيدته بشيء من شعر حسان بن ثابت، نرى ذلك واضحاً في افتتاح البيت الثالث " لله در عصابة "[2]؛ ولعله أراد بذلك معرفته بقواعد الشعر، وما يجب على الشاعر القيام به تجاه قصيدته، من روافد تغذيها، وترفع من قيمتها، وهو في اعتقادي لا يختلف كثيرا عن أخلاق وثقافة حسان بن ثابت، حيث تأثر بعلماء وفقهاء (تيهرت) الإباضيين بما رأى منهم من خلق ومعرفة وعلم، فكان شاعراً فقيهاً، وكانت قصائده مثالاً صادقاً.

للباروني قصيدة تصنف في الشعر التعليمي، جاء بها في بيان حقيقة انتشار الإسلام:

الله أعـــــظم هـكـــذا الـ إســـــــلام مـن قبـل أمـر
لـــكن جـهلنا وانتـــحلنا الـ زهـد فاشتـــــد الخـــطر
ما ساد هـــذا الـــديـــن إلا بـــالمـــــهند ذي الـــفقر

---

(1) القصيدة تقع في أربعة عشر بيتاً،الديوان١/ص٤١-٤٢.
(2) البيت لحسان في مدح الغساسنة: لله در عصابة نادمتهم يوما بجلق في الزمان الأول

لا بالـــــعـــزائم والـــضريـ ـح وبالطـــــلاســـم والـــطرر
أو "بالـــــدفوف" وهـــــزهـــا عنـد العشيـــــة والســـــحر[1]

في الشعر التعليمي كذلك له قصيدة قالها في المولد النبوي، واصفاً فيها حال عوائد المسلمين، وهي في الواقع تمثل رثاء للإسلام، وهذا من الموضوعات المستحدثة التي تحسب لشاعرنا، ولقد حملت جملة من المعاني التي لا يقع عليها إلا الشاعر الفذ، صاحب الأرضية الصلبة الراسخة على قواعد الإسلام وأسسه، وهذه خدمة تتحقق للإسلام بحمايته والدفاع عنه، وقد حقق ذلك بقوة السلاح واللسان، حيث استطاع أن يسخِّر شعره لخدمة الإسلام والنيل من أعدائه، موجِّهاً قدرته الأدبيَّة وطاقته الفنية لهذا الغرض النبيل ولا شك أن هذه القصيدة لم يسمع بأحسن منها:

قم يا محمد يا ختام المرسـلين وانظر بعـينك كيف حال المؤمنين
تجد الأمور تحولت عن حـالها والدين فـــي عهـد السياسة قد أهين
حل الحرام بـــلا نصوص تقتفى واستهزأ الـــعاصـــي بحـال المتقين
واستفحل الجـــهال واشـــتد البلا واستصغر العلمـــاء حزب الأمين[2]

إن ديوان الباروني يمتلئ بالقطع الشعرية التي يستشعر معانيها وقيمها من سبيل الشعراء السابقين له، فهو يحاكي بعضهم في موروث شعري عرف عند شعراء ما قبل الإسلام، والأبيات القادمة تؤكد التزامه بما سار عليه الشعراء القدامى من وقوف على الطلل، حيث افتتح قصيدته بالمقطع المعروف "قفا نبك":

قفا نبك أطلالاً تقلـــص ظلها وننـدب آثار الذين بقوا ذكـــــــرا
بني رستم من قام بالعدل ملكهم فأمست بهم تيهرت كالروضة الزهرا

---

(1) القصيدة في عشرين بيتاً،الديوان،١/ص٦٣-٦٤.
(2) القصيدة تقع في اثنتي عشرة بيتاً،الديوان،١/ص٧٦.

تحف بها الأنهار والـزهر باسم بروض بساتين هي الجنة الخضرا[1]

على كل حال أعتقد أن الباروني اقترب كثيراً من الكمال الشعري في أغلب الفنون الشعرية التي اقترضها، سبب ذلك يعود إلى عدة أمور من أهمها اتباعه المقاييس التي تعارف عليها الشعراء والنقاد القدامى فسار على نهجهم واتبع طريقتهم، وشهادة النقاد والمؤرخين تؤكد ضلوعه في فن الشعر وتمكنه منه، والسيطرة عليه دون منازع.

يفيض شعر سليمان باشا الباروني بالمقطوعات الطريفة القصيرة، التي تنم على روح الفكاهة والمرح التي كان يتمتع بهما شاعرنا، فله مقطوعة في تهنئة أحد أصدقائه حين بلغه أنه تزوج بكراً ثانية،فقال له على وجه المزاح عملاً بالحديث بأن يتزين ويظهر للناس الرغبة في الزواج حتى يطلب:

روجت نفسك حسبما قلنا لذا نلت الطلب
فاسعد هنيئاً واغتنم فالغانيات لنا لعب
عش بالرفاء وبالبنيـ ـن وبالمسرة والطرب
قل للعذول إذا سطا هل في التزوج من عجب
هنَّ اللباس إذا استقمـ ـن وهن اكسير النصب
هن الحياة وهنَّ حصـ ـن المرء إن حزن الأدب[2]

وله مقطوعة طريفة أخرى في طعن متجاسر نعرض بعضاً منها:

اسمع نصيحتنا إن كنت ذا بصر ودع كلاماً رماك الآن في خطر
واعلم بأن لنا أسداً ضراغم إن رمت النزال سقوك السم من سقر
في كل عصر لنا قوم جهابذة بضوئهم يهتدى للطرق في السفر

---

[1] القصيدة تقع في اثنتين وعشرين بيتاً،الديوان ١/ص١٠١-١٠٤.

وفي الزوايا خبايا والثـــعالب لا تصطاد بازاً نـهاراً أو على القمر

وفي الديوان كذلك مقطوعة قالها في تلميذ كان يكدر راحته في الدرس بسوء أدبه إذ حضر، قال في جزء منها:

تكلم ذا البـــــليد بلا تـــأن ولم يعـــــــمل بـما قـال الحكيم
فقولوا إن بدا فـي الـدرس يوماً حضـــورك درسنا هـذا ملـــــيم[1]

إن المتأمل لشعر سليمان باشا الباروني يكاد يقترب إلى معرفة خلجات نفسه، فمعظم قصائده ومقطوعاته الشعرية في أغراضها المتنوعة؛ هي تحليل لشخصيته الأبية المتفاخرة الطموحة المشتاقة أحياناً، والمنكسرة الحزينة الباكية ...أحياناً أخرى، والمعاني التي حوتها قصائده تعبر عن الهدوء واللين والفكر العميق، وقد كان في اختياره الألفاظ والمعاني يسير بحسب ما يتطلبه الموقف الأدبي، إلا أنه في كل الأحوال حسن الديباجة يجعل معانيه جزلة منسجمة، وألفاظه نقية غير مبتذلة سوقية، متجنبا التقصير والتجاوز في التطويل، فلا نجد سآمة ولا نشعر بالضجر عند قراءة أشعاره في أغراضها المتعددة، ومن أدبه وحسن خلقه له بعض المقطوعات في الاعتذار عن بعض هفواته، حيث قال مفاكهة " لعز تلو موسى عارف بيك قراده " معتذراً عن وعد أخلفه معه بعد الاتفاق عليه لأعذار حدثت:

عقد بدا في الليل منفســـح فلا تعمـــل بقـــول بـــالظلام تخللا
انظر قواعد فقهنا فـــي (نيلنا) تـــجد الكلام مـــــحققاً متهـــللا
وعليه لا تحكم بخـلف الوعد إن لم نـــأت فـــي لـيل بوجه مقبلا
خلق النهار لكـــسبنا ولـــدينا والليل قل ســـكن فنم مـــستقبلا
لا يشغل المشغـول إن شغل بدا والاجتمـاع بـــه الـــزمان تكفلا

---

[1] الديوان، ١/ص١٠٥.

أما الطعام فكل لنـفسك ما تشا من حكمـة صدرت بعصر قد خلا
فاعمل بها واعذر خلـيلاً عاقه عن وصلكم في الليل عذر قد جلا[1]

وله في نفس النسق مقطوعة أخرى في قضية معترفاً بالتقصير:

الحكم حكمـك والرضاء رضاكا والأمـر أمرك والقرا بحمـاكا
الليل أشـرف والغزالة ودعـت وغـدا العـشا متأخراً حـاشاكا
شطر الطريق قطعت قاصدكم وقد عـادت بـي الأقدار مـن مولاكا
فاعذر أخـاً بالشعر أبدى عـذره واقبـل كتاباً بـتالمـودة جاكا
والصبح خيـر إن طلبت زيـارة نعم الصـباح به الـحبيب أتاكا[2]

انظر إلى اقتران قوة التعبير وسهولة المعنى في الأبيات؛ لعل الباروني أراد أن يصل بهذه المعاني إلى مستوى الفهم العام ، في عبارات صحيحة ومعان واضحة جميلة.

قال شاعرنا الباروني في أغراض متعددة فبرز فيها، وديوانه حافل وشاهد لذلك، عبر فيه عن نفسه أحسن تعبير، نعم إن شعر سليمان الباروني – وإن يكن قديم الأسلوب – ظاهر البلاغة، عالي النفس مديده، قوي النسج، واضح التعابير، فيه متانة وسهولة ورصانة، تظهر فيه شخصية صاحبه؛ شخصية نبيلة، عزيزة النفس، طموح؛ وكلما قرأت له قصيدة – في أي نوع من أنواع الشعر – إلا أحسست فيها روح الفخر، وما كان يتمتع به من ثقافة وافرة في شتى العلوم الإسلامية.

لقد أجاد الباروني وأكثر في كل الأغراض الشعرية، وظل فنه متماسكا مثالا يحتذى به؛ لبعده عن سقطات الشعراء الذين ذمهم القرآن الكريم، فكان –

---

(1) الديوان، ١/ص١١٧.
(2) الديوان، ١/ص١١٨.

كما مر بنا – يسبك الألفاظ في تعابير خلوقة محتشمة براقة، كأنه يصنع عقدا من اللؤلؤ، ليقدمه في آخر الأمر هدية لحبيبته، لكن عقده هذا ظل متكئاً على عمق اللغة النابضة، وأصالة الفكرة الحية، وفي الأمثلة القادمة يتضح لنا إلمامه بفنون الشعر وألوانه، فله في المخمسات أكثر من قصيدة، من بينها تلك التي قالها وهو مسجون في قلعة السرايا الحمراء بطرابلس:

لبست ثوب الرجا والناس قد رقدوا وبت أشكـــو إلى مولاي ما أجد
أشكوه والدمع يروي كـــل نابتة والقلب فـــي وجل من كل خائبة
لـكن تذكرت فعلي بعض واجبة
فقلت يا أملي في كـــل نائبـــة ومن عليه لكشـــف الضر أعتمد
يا من أتى يوسف الرؤيا وأحكمها يا حتى تخلص من سجن ومظلمها
وفاز بـالأهل والرايات تلثمها[1]

القصيدة تمر معانيها وعباراتها بين الجزالة والمتانة اللتين انفرد بهما شعر الباروني، وأضاف إليهما السلاسة المتمثلة في الألفاظ ذات التراكيب السهلة، التي ميزت أشعار تلك الفترة دون غيرهم، احتوت القصيدة على عدد من المعاني الجِيادِ البارعة في إصابة الغرض وجمال التعبير، وهذه خصائص كانت لأشعار الباروني دون سواه.

إن استدعاء قصة نبي الله "يوسف" في الأبيات التي مرت بنا، تتبدى رؤية شاعرنا العامة التي تكشف عن جدوى توظيف مثل هذه الرموز وجدوى استحضارها في القصيدة، من حيث أنها مشاركة في إبراز أهم معالم الدلالة وتكوين أبعاد التجربة التي تحاول تجسيد ثقافته الدينية، فهو الشاعر الفقيه.

وله أخرى في المدح النبوي وتوسلاً به عليه السلام:

---

(1) الديوان،٢/ص١٧٧-١٧٩.

هذا الذي روضة مـا بيـن منبره وقبـــره في ريـاض الخلد لم يزل
هذا الذي قومه لـــم يلق مسغبة مـــذ جاء بل خولوا فضلاً ومقربة
يا حـائزاً عـن جميع الخلق منقبة
يا سيد الخلق يا من حاز مرتبة عليا وقد جل عن شبـه وعن مثل
ياصفوة الأصفيا يـا أكرم الكرما يا عمدة الأتـــقيا يا أعظم العظما
يا من له أذعن الجهال والحكما[1]

كانت شخصيته – الباروني – وعقله وذكاؤه من العوامل التي تمثل بها في كـل هـذه الفنـون – أقصـد فنـون الشـعر بكـل أغراضـها – ووعاهـا، وصـارت موضوعاتها الأخلاقية والإنسانية على طرف لسانه و قلمه، وعند تصفحنا آثاره وجدنا الينابيع الحقيقيـة التـي استقى منهـا البـاروني معارفـه، التـي كانـت محور دراساته وحفظه وتأمله، ثم لراعنا ونحن نقرؤها مدى السهولة واليسر التي يتناولها بها الباروني، ومن ميزاتها أيضاً احتوائها على تناص ديني " حديث شريف " تضمنه البيت الأول – وهو إشارة على مخزونه الديني–، ولم يقف الأمر عند هذا التناص؛ بل تجاوزه حين استعان بوضع موسيقا داخلية في القصيدة، حيث اعتمد بعض المقاطع ذات التوازن الموحد : " هذا الذي " في أول البيت الأول والثاني، و" يا صفوة الأصفيا "،" يا أكرم الكرما "،" يا عمدة الأتقي ا"،" يا أعظم العظما"...

والبـاروني فـي شـعره كمـا يـراه النقـاد[2] يقـع بيـن السـهولة والفحولـة، وهـذا لا يعني الانحطاط والإسفاف في الألفاظ والمعاني؛ لأنه استطاع بقوته كشاعر – فحل – أن يمزج بين التراكيب العربية القوية، والمعاني السامية الشريفة ،بعد أن

---

(1) الديوان،٢/ص١٨٠-١٨٥.
(2) جاء في ديوان سليمان باشا الباروني بعض الأبيات الشعرية لشعراء معاصرين له في وصف ديوانه، تحدث أصحابها "الشيخ عبدالحميد الضوي الأزهري،والشاعر قاسم أفندي الباروني"عن جواهر النظم،ودر اللفظ الثمين،وكأنه عقد لؤلؤ،وعين من عيون الأدب...الديوان،١/ص١٦٦-١٦٧.

استعصت شاعريته الفذة على أن تتأثر بالمؤثرات الخارجية، فلم تخرج عن المنهج والطريقة العربية الرصينة التي تمثل روح الأصالة في اللفظ والمعنى.

إن العرض الذي عرضت فيه قصائد سليمان باشا الباروني في كثير من أغراض الشعر العربي، التي احتوى عليه ديوانه، تثبت لنا امتلاك شاعرنا لعنان الشعر، وسعة علمه بألفاظه وأغراضه وقدرته على صياغة الأسلوب المناسب حسب ما يقتضيه الحال، ولقد وجدت نفسي أمام طاقة شعرية مقتدرة، أعتقد أنها استوعبت الخصائص والسمات والتقاليد الفنية للشعراء القدامى، وأضافت إلى جانب ذلك لوناً من الفن المحدث السمات والخصائص الممزوج بشخصية صاحبه، ولا يمكن استصدار الأحكام على شعر شاعر إلا بالاطلاع عليه وتذوقه، والقصائد القادمة والتي تناول فيها " وداع شهر رمضان " كموضوع مبتكر، حيث أحدث مقارنة بين صيامه في بلاد غير مسلمة "مرسيليا "، وبين صيامه في ديار الإسلام " صحُار "، حيث قال في الأولى:

شهر الصيام قد ارتحلت مودعاً ... فعليك يا شهر الرضاء سلام
شهر الإله إلى الإله تقدمت ... أعمال من بالصوم فيك يلام
صمناك يا رمضان لا عن رغبة ... في معشر قال الصيام حرام
صمنا نهارك قائمين بليله ... حيث الصلاة تعاب والإسلام
صمناك طوعاً والقلوب كئيبة ... حيث استبيح حمى الخنا ومدام
صمناك حيث يقال لا رب ولا ... رسل ولا كتب ولا أحكام
صمناك في باريس عاصمة البغا ... مهد المعارف زهرها بسام
صمناك في مرسيليا إذ قررت ... دول التحالف أسرنا وتعاموا[1]

[1] القصيدة في وداع شهر رمضان سنة ١٣٤٢هـ بمرسيليا،ولقد وقعت في أربعة وعشرين بيتاً، الديوان،٢/ص٢٢٠.

وجاء في الثانية:

صمناك يا رمضان طوعاً في صحُار ... نحيي الليالي عاملين مدى النهار
نحيي مآثرُ غـــــرَبٌ أعلامـــهم ... يدى الدهور الدائـرات على مدار
لا مثل ما صمناك فـــــي باريسهم ... كرهاً وفي أحشائنا المـطعون نار
صمنـــاك والآذان يطـــرب سـمعنا ... بصُحارَ ذات المجد إذ فيها المنار
لا نسمـــع النـــاقوس مـثل سماعنا ... دقاته يـــدعو إلـــى كفرٍ جـهار
إذ قـــرر الـحلفاء أن أبقى كـــما ... يبقى الأســـير فلا أزور ولا أُزار
بولـيس بـــاريسٍ يـــشدّد أمـــره ... وأخوه في مـــرسيليا يـــدعو لثار
حتـــى عـــلا عرش الحجاز حسِنُنا ... وبدا بمسقط سيدٌ نـــادى جهار[1]

من خلال استعراض القصيدتين يتبين لنا أن المعاني التي دارت في فلكهما لا تخرج عن مجموعة من القيم الخلقية تفتحت عليها عيون شاعرنا منذ نشأته، وهي تمثل روافد نهره الذي لا يجف، وتمده بالعطاء حتى يفيض على الآخرين، ويبدو لي أن الحياة الاجتماعية وخلقه الديني التي كان يعيشها شاعرنا الباروني ويتحلى بها، وما تعرض له من مواقف فيها اجتماعية، وسياسية، واقتصادية ... الخ، قد أثرت على الحركة الإبداعية عنده، فغذّتْ نشاطه الأدبي الشعري؛ مما جعله متعدد الفنون والألوان والاتجاهات، وبالتالي الأفكار والتعبير عنها، فجاءت قصائده متنوعة المعاني مستمدة من روحه وشخصيته ومدى تأثره بالمواقف والشخصيات ...

لقد مرت على سليمان باشا الباروني الكثير من الهموم والأشجان والمحن واللحظات المفرحة والمحزنة – له ولمن حوله –، حاله حال بقية البشر، فجاءت تعبيراته عن كل هذه المواقف مختلفة متنوعة، حيث لم يكن متباينا في التعبير

---

(1) تقع القصيدة في ثلاثين بيتاً،قالها في "صحُار" بعمان سنة ١٣٥٧هـ،الديوان،٢/ص٢٧٤-٢٧٦.

عن انفعالاته؛ فهو لم يعش حياة اجتماعية متقلبة مضطربة، وفي اعتقادي أنه كان صادقا إلى حد كبير؛ مما يجعلني أستلهم كثيرا من المعاني التي حاول الباروني أن يجعلها تخدم بناء الإنسان وتربي أخلاقه وتصنع الأجيال؛ لأنه يخلد في قصائده المثل الإنسانية العليا؛ وإن ذلك لا يجعله بعيداً عن الجوانب الفنية المصاحبة لقول الشعر، حيث حمل القصيدتين صوراً فنية عديدة، كتلك "اللازمة" التي فتح بها الأبيات في القصيدتين " صمناك ".

وله قصيدة في غاية الروعة ألقاها في خطاب هام في جامع " نزوى " بعمان بين إخوانه من علماء ورؤساء الحكم ووفود الشعب العماني سنة١٣٤٤هـ ،وهذه الومضة التي رسمها الباروني من خلال جملة من الأبيات، جاءت صادقة في التعبير، واضحة التناول:

الله أكبر هلل الخـــــطباء وعـلا الهتاف وهاجت الشعراء
واهتز أهل المشرقين ففـاخراً ونمـــا الشعور وطارت الأنباء
وبدت لعصر الراشدين دلائل إذ لاح مـــن جبل الشراة سناء
فأضاء واسطة البلاد وأشرقت بعُمان شمـــس إمامة سمحاء
وعلا إمـام المسلمين مـحمد عرشاً تطأطأ دونـه الجوزاء[1]

بالرغم من وجود رائحة التقليد تفوح من الأفكار التي عبر عنها في الأبيات السابقة إلا أن عباراته تتسم باليسر وسلاسة البناء، فهي تتدفق كالينابيع العذبة لتدخل قلب السامع دون استئذان فتجعله مخضراً، ويبدو أن البيئة التي عاش فيها الباروني هي التي ساعدته على بساطة اللغة وعدم تعقيدها، وقد نجح كثيراً في اختيار الكلمات والألفاظ التي ساعدته على تصوير عواطفه ومشاعره تجاه

(1) القصيدة في واحد وخمسين بيتاً،الديوان،٢/ص٢٤١-٢٤٦.

ممدوحيه، أعتقد أن من أسباب نجاحه في هذا العرض؛ لأنه لم يثبت لدينا تاريخياً أنه كان من الشعراء الجبناء والمتملقين.

إن المعاني الخيرة التي نشرها شاعرنا في قصائده لم تتوقف عند هذا الحد؛ بل وجدت في كثيرٍ من أشعاره إشارات وتلميحات تأتي في بعض الأحيان على هيئة نصائح، وفي أحيان أخرى على هيئة حوار يدور بينه وبين أدباء آخرين- أصدقاء -، وهذا لون شعري مستحدث لم يهمله شاعرنا الفذ؛ بل لعله من السباقين للخروج بقصائده غنيةً متعددة الألوان الفنية والشعرية؛ لحرصه على تميز أشعاره بين أقرانه من الشعراء، لمعرفته أن لا أحد يستطيع الوصول إليها إلا بالجهاد والجلاد،قال في إحدى قصائده - الحوارية - :

صديقه:

سليمان هل حررت في نظمنا نكد عـــــلى أننا لـسنا بأهل لذاكاً

الباروني:

وجـــدت بـــلاغة وأي بـــلاغة تدل علـــى أن البـــليد سواكاً

صديقه:

فلـــولا ولـــولا مـــنك فرط مودة لما قلت مـــما قلت فاستر أخاكاً

الباروني:

أقـول بصدق لا مداهـــنة أرى جريراً لنـــظمك العجيب حباكاً

صديقه:

ألا قـــل بحق يا سليمان واجتنب مقالة حـــب قـــد أردت هداكا

الباروني:

لقد قلـــت حـقاً واجـتنب تمـلقاً ومع ذا فلم أظفر بنيل رضاكا[1]

---

(1) الحوار بين الباروني والأديب الفاضل السيد سليمان بن الحاج إبراهيم،حين كتب له – هذا الأخير – ورقة ارتجالاً مستفهماً عن أبيات،الديوان،١/ص١٠٥-١٠٦. وله في مثل هذه المقطوعات الحوارية كثير، وردت في الديوان، فأضفت عليه عناً، ينظر الديوان، ١/ص١٠٦-١٠٧.

لقد تحدث الباروني بأسلوب الشاعر الحكيم صاحب التجارب والخبرات، فالشاعر في بعض الأحيان لا يرى الأشياء كما هي بالخارج؛ بل يراها كما تتصور له في ذاته فيضفي عليها من انفعاله وشعوره وحكمته ليعيد تشكيلها، مما يجعلها أكثر تأثير في نفوس متلقيها.

إن الوصول إلى الحقائق التي كان يبثها الباروني بين أشعاره يتطلب منا الاهتمام بطرق التعبير وأشكال الأداء الفني عنده ،والنتاج الأدبي يعود في بعضه إلى اللغة ومفرداتها قبل أن يكون نسيجاً من الدلالات وكماً من المعاني، ولقد حاولت جاهداً معرفة بعض خصائص الجملة الشعرية عند شاعرنا، فوجدت الأفكار تتكاثف وتتجمع لتخرج للقراء عن طريق مدلولات كثيرة، وتولد بتضافر المركبات اللغوية والبديعية بعضها ببعض، وخروجها على المألوف وقواعد الأداء الشعري المعروفة في بعض الأحيان؛ لتتحقق لها القيم الجمالية التي كان يرسمها لها صانعها.

إن المتأمل والمتمعّن في نتاجه الأدبي يلاحظ أنه يتمتع بشاعرية تصقلها ثقافته وسعة اطلاعه، وتهذبها الحكم والأمثال التي في مخزونه الفكري، كما أن له أذناً موسيقية جعلت أحاسيسه قادرة على أن تصوغ ألحاناً شجية، تأسر الآذان، وتسحر الألباب بلغة غاية في الثراء والأصالة دون أن يسقط شاعرنا في وحل البذاءات والألفاظ النابية، فلم تقع عيني على مفردة قلقة في موضعها إلا لماماً، بل كانت كلماته ملتزمة بأداء الفكرة التي صيغت لأجلها.

إن أشعار الباروني التي مرت بنا في مواضع عدة تستدعي الإشارة إلى مخزون الذاكرة عنده، تلك الذاكرة التي يشكل الدين الإسلامي مفتاحاً لها، لقد بنى شاعرنا قصائده وشكل لحمتها انطلاقاً من تجاربه الحياتية وثقافته الدينية، وهي تجربة أضفت ظلالها الإنسانية على الواقع الشعري عنده؛ ليثبت حقائق أثر

قاعدته الثقافية في نتاجه الأدبي؛ ليحقق للمتلقي لوناً هو أقرب من شعر الزهد، حيث يقترن الشعر بالدين في فلسفة روحانية، والشاعر الصادق هو الذي يؤسس لنفسه هوية شعرية عبر حقائق مستمدة من حياته وواقعه الثقافي.

الخاتمة

لقد كان سليمان باشا الباروني على معرفة تامة بالأحكام الفقهية التي أهلته ليصبح فقيهاً في مذهب قومه "الإباضي"،حيث وجد ضالته التي أشبعت نهمه في الاطلاع على كثير من القضايا الفقهية، والتي كان لها الأثر البالغ في التزام أدبه ونتاجه الشعري.

إن تأثر الباروني بميراثه الديني وعكوفه على حفظ عدد من منظوم الشعراء جعلا شعره حالياً من إسفاف الألفاظ والمعاني.

مدائحه كانت تعبيراً وتكريماً منه عن أعمال نبيلة" افتتاح مدرسة، أو عمل خيري لبيت من بيوت الله "قام بها بعض ممدوحيه.

قصائد الباروني تؤكد لنا مقدرته على مجاراة الفحول من الشعراء، حيث حاول محاكاتهم في أشعاره.

لقد سخر نتاجه الشعري لخدمة الإسلام موجهاً قدرته الأدبية وطاقته الفنية لهذا الغرض النبيل.

لقد أجاد شاعرنا في أكثر الأغراض الشعرية، فظل فنه متماسكاً يحتذى به، لبعده عن سقطات الشعراء الذين ذمهم القرآن.

تساق ألفاظ قصائده ومعانيها في تعابير وجمل خلوقة محتشمة أصيلة.

تميز أسلوبه بقوة النسج ووضوح الأفكار فيه متانة وسهولة ورصانة، تظهر فيه شخصيته وثقافته الإسلامية واضحة، ولقد حاول أن يثبت ذلك ببراعة الشاعر المعهودة أن يوظف التراث الإسلامي، حيث لجأ إلى اقتطاع جزء من التراث الإسلامي واستلهام ألفاظه، ومعانيه وقصصه التي يعج بها الشعر العربي المعاصر " تناص، استدعاء لبعض الشخصيات التراثية... ".

الأبعاد الفكرية والفلسفية والأدبية في كتابات سليمان الباروني

د. إبراهيم أبو علوش(*)
د. أحمد الحراحشة(**)

مقدمة

كان العلامة المؤرخ والصحفي والشاعر والمجاهد أبو ربيع سليمان بن عبد الله بن يحيى الباروني شخصية أدبية وثقافية وسياسية متميزة بكل مقاييس عصره، امتزج بالحياة الثقافية والعقلية، وأفاد من الحركة الأدبية والفكرية في غير بلد سافر إليه، فتوثقت صلته بالعلماء، وتعددت مواهبه وجوانب نبوغه في السياسة والوطنية والعلم والصحافة والتاريخ والشعر.

ولد سنة ١٨٧٣م، في مدينة " جادو " (وتعني الأرض كثيرة التراب) حاضرة متصرفية " فساطو " من جبل نفوسة بليبيا، ويرجع أصله إلى العائلة البارونية ذات الأصل العُماني من الجبل الأخضر[١] وقيل هي أسرة بربرية ذات جاه ونفوذ[٢]. وجاء في مقدمة إبراهيم طفيش لكتاب (حياة سليمان باشا الباروني

(*) د. إبراهيم أبو علوش، قسم اللغة العربية، جامعة آل البيت، الأردن.
(**) د. أحمد الحراحشة، قسم اللغة العربية، جامعة آل البيت، الأردن.

(١) معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين ، جمع وترتيب وتنفيذ هيئة المعجم في مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري،الكويت،ط٨، ٢٠٠٨م، م٨/ص٥٩٢، والباروني، أبو ربيع سليمان : مختصر تاريخ الأباضية ، الطبعة الرابعة، مزيدة ومنقحة، د. م ، د.ت، ص٥٦. وانظر:أبو اليقظان، الحاج إبراهيم بن عيسى: سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، المطبعة العربية ،الجزائر،١٣٧٩هـ/١٩٥٩م، جـ١/ص٩ .

(٢) ذكر في كتابه" مختصر تاريخ الأباضية "ص٥٢-٥٧ أصل العائلة البارونية، وبعض أمرائها وأولهم أبو هارون الذي لما انتخب لإمارة جبل نفوسة وما حوله انتقل من تملو شايت إلى بلد أبناين أم قرى ذلك الوادي المنسوب إلى كباو لاحقاً، فسميت البلده باسم آل بيته إلى الآن(اتباورون بالبربرية المحرفة) ،ونفى ما حاثثه به أحد الباحثين الطرابلسيين من أن أصل نسب آل الباروني من أشراف الرومان أو الطليان الذين استوطنوا الجبل قديماً، وكانوا يحملون لقب (بارون) فغلب على العائلة، فلما ظهر الإسلام أسلمت ومعها لقبها الموروث.

زعيم المجاهدين الطرابلسيين، تأليف أبو القاسم الباروني) أنّه من الأرومات العربية العثمانية(البروانية)[1].

رحل صغيراً إلى تونس طلباً للعلم وعمره ١٤سنة، ليلتحق بجامع الزيتونة، ثم ارتحل إلى مصر سنة١٨٩٧م، وجاور بالجامع الأزهر نحو ثلاث سنين، وعام ١٨٩٥م شد الرحال إلى الجزائر وأقام ثلاث سنين أيضاً، وتلقى العلم عن إمام الأئمة الأعلام الشيخ محمد بن يوسف اطفيش الميزابي (١٨١٨-١٩١٤م) مرجع الأباضية في العلم الشرعي[2] واللغوي.

وهو فقيه طرابلسي إباضي ورجل سياسة ألهم أهل بلاده في نضالهم مع إيطاليا. وكان أبوه عبدالله الباروني متكلماً و فقيهاً و شاعراً تولى التدريس في زاوية البخابخة بالقرب من يفرن، سافر سليمان إلى مصر عام١٣٢٤هـ/١٩٠٦م، ودرس في الأزهر الشريف، وأثناء هذه المرحلة من دراسته تمكن من الاطلاع على كل مناحي التجديد في مصر، وتأثر بمفكريها، وعقد صلات حميمة مع مشاهير أعلام ذلك المجتمع، وفي طليعتهم العلماء والأدباء المبرزون مثل الشيخ " طنطاوي جوهري "، و" مصطفى لطفي المنفلوطي "، و" إسماعيل صبري "، و"إمام العبد"، و" زينب فواز" و" برنس القبطي " و "الشيخ حسين المحلاوي"[3].

ولما عاد إلى ليبيا مارس دورة شيخاً ومفكراً لم تفته حلقة علم أو ندوة إلا وأدلى بدلوه المتعلق بقيم الفكر النير. فهل كان الباروني مفكراً فحسب أم كان أديباً فحسب أم أنه المفكر الأديب ؟

---

(١) الباروني، سليمان: الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية ، مقدمة المحقق: محمد علي الصليبي،ص١٠ نقلاً عن: حياة سليمان باشا الباروني، زعيم المجاهدين الطرابلسيين، تأليف أبو القاسم سعيد يحيى الباروني، مطبعة الأمير فاروق،مصر،ط١٩٤٨،٢م،ص١٢.

(٢) الباروني، سليمان: الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية،٣٧١/٢.

(٣) خفاجي، محمد عبد المنعم: قصة الأدب في ليبيا العربية، دار الجيل، بيروت،ط١٩٩٢،١م، ص٣٦٠، نقلاً عن :المصراتي، علي مصطفى: لمحات أدبية عن ليبيا في نصف قرن ، ص ٢٠٨-٢١١.

وله ديوان شعر طبع غير مرة[1]، حج سنة ١٩٢٤م، وزار بغداد سنة ١٩٣٥م، وكانت له محاورات مع أدبائها، واتخذه السلطان سعيد الثالث بن تيمور مستشاراً له سنة ١٩٣٥م[2]، سافر إلى الهند مستشفياً فتوفي في بومباي في الأول من مايو سنة ١٩٤٠م، وله فيه يوم لا غير أي بعد يوم من وصوله[3].

الباروني مؤرخاً

ارتحل إلى الجزائر لدارسة المذهب الأباضي في الجزائر مدة أكثر من ثلاث سنوات، وله مصنفان تاريخيان :

الأول : **(مختصر تاريخ الإباضية)** : أنهى كتابته عام١٩٣٦م، وجمع فيه ما لا بد من معرفته لكل مسلم من التاريخ الإباضي، وجلّى حقائق خفية، ودعا فيه إلى توحيد المذاهب الإسلامية، وإلى دراسة تاريخ الإسلام دراسة وافية، لكي يقف الدارسون المصلحون على خلافات أهل القبلة، فيعملوا على إزالتها أو تهوينها، ويقفوا أمام غارات المبشرين، وهجمات الساسة الغربيين في سعيهم لإضعاف المسلمين، ودفع شبهات يلصقها المغرضون بالمذهب الأباضي، والأباضيون منها براء، لأنها أفكار الغالين من الأزارقة والنجدية والصفرية، الذين اعتقدوا بأن المعاصي كلها شرك، ومرتكب الكبيرة كافر كفر شرك يحل دمه وماله وسبي أريته (نسائه وأطفاله)، وكفروا بعض الصحابة الراشدين. وكان يتمنى في مصنفه أن يزول الخلاف بين المسلمين، أو على الأقل يتلطف ويخف[4].

---

(١) طبعه بنفسه في حياته بمطبعة الأزهار الباروني لصاحبها سليمان الباروني وأخويه في الحبانية بشارع محمد علي بمصر، جمادى الأول سنة ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م، وأعيد نشره بإشراف ابنته زعيمة بلبنان سنة ١٩٧٢م، وأعاد يوسف عياد العزابي نشر الطبعة الثانية منه بعد ثورة ١٧ فبراير سنة٢٠١١م.

(٢) بصري ، مير: أعلام الوطنية والقومية العربية، دار الحكمة، لندن، ط١، ١٩٩٩م، ص١١٣.

(٣) الباروني، ديوان الباروني،، ط٢، ٢٠١١م ، دار مصر المحروسة بالقاهرة، بالتعاون مع شركة الرواد للخدمات الاعلامية في بنغازي بليبيا،ص١٢.

(٤) مختصر تاريخ الإباضية، ص٢-٩.

وابتدأ مصنفه بسيرة الرسول ﷺ، ولفت إلى أنّه ﷺ بقي خمسة وعشرين عاماً متزوجاً بخديجة وفياً حسن المعشر، لم تطمح نفسه إلى غيرها من النساء الشابات الجميلات، وهو في سن فيها دم الشباب يفور ويثور، لتأكد لنا أنّ زواجه بغيرها لم يكن إلاّ لحكم هامة عامة تصدى لبيانها وعلة مشروعيتها جماعة من كبار المحققين في هذا العصر، دفعاً لشبهات طالما يذكرها المستشرقون وبعض النقاد المضللون، ثم ثنى بالخلفاء الراشدين، وعطف على الأمويين، وانتهى إلى ظهور المذهب الأباضي في القرن الأول من الهجرة على يد التابعي عبد الله بن أباض التميمي، وأعظم أئمة الأباضية جابر بن زيد الأزدي العُماني (١٨-٩٣هـ) الذي _على حد قول الباروني _ " كان كثير المناظرة للخوارج المارقين "[١].

وتحدث عن أشهر أئمة المذهب، وأماكن تواجد أتباعه في هذا العصر في شمال إفريقيا في جبل نفوسة وزواره من طرابلس، وجزيرة جربة من تونس، وهم _على حد قوله_ ليسوا كأسلافهم من التطبيق العلمي لتعاليم الدين، أما أهل عُمان ووادي ميزاب بالجزائر، فإنهم ما زالوا على ما يرضي الله ورسوله[٢]، وذكر أماكن أخرى لتواجد أتباع المذهب كزنجبار ودار السلام في شرق إفريقيا، وتوجد جمهورية صغيرة ببلاد القوقاز أهلها أباضية[٣].

وطوف بتاريخ الأباضية في المغرب، وفصل في سير أشهر أئمتهم، ثم عرض لأصل عائلته وبعض أمرائها، وفصّل في تاريخ عُمان وانتشار المذهب بها، مستعيناً بما كتبه الشيخ محمد بن صالح بن عامر الطيواني في مجلة المنهاج، ثم أنهى مختصره بذكر أهم المسائل الخلافية بين الأباضية والمذاهب الأربعة، وما يفعله الأباضية مع مخاليفهم من المسلمين.

---

(١) م . س ، ن ، ص٢٨.
(٢) م . س ، ن ، ص٣٠.
(٣) م . س ، ن ، ص٣١.

وفي كتابه الآخر : **(الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية)** : وهو جزءان، إحترق الجزء الأوّل، ولم يبق إلا الجزء الثاني الذي طُبع، وهو كتاب في تاريخ الدولة الرستمية تحدث فيه عن أعلام الإسلام، وعمالقة الرجال، وأبطال في مختلف شؤون الحياة، وهي شخصيات تميزت بقوة إيمانها، والاعتزاز بدينها، والإخلاص لرسالتها[1].

وله تعقيبات وتعليقات مفيدة على ما كتبه والده في **(رسالة سلم العامة والمبتدئين إلى معرفة أئمة الدين)**[2]، أشبه ما تكون بعما المحقق الأمين، إذ وثّق في الحواشي كثيراً من الأحاديث والأخبار من كتب أهل العلم، وأوضح بعض المصطلحات، وعرّف بالأماكن والمدن والوقائع، وله إحالات كثيرة إلى كتابه الأزهار. وموضوع الرسالة الحديث عن نشأة الأباضية، وانتشارها في ممالك المشرق والمغرب، وذكر أئمتها وسلسلة إسناد المذهب في طرائق أربع، وفضائل البربر وغيرها.

وكان يحضّر المادّة العلمية لكتاب عنوانه : **(تاريخ الحرب في طرابلس الغرب)** غير أنه لم يتمّه[3].

ورسمت قصائده-كما ذكرت ابنته زعيمة- صورة متسلسلة لمراحل حياته بحلوها ومرها، ويُعدُّ شعره تسجيلاً تاريخياً صادقاً للحقائق والأحداث التي عاصرها[4].

فقد ذكر في أشعاره وقائع كثيرة في عصره، أهمها أعمال السلطان عبد الحميد ودوره في حفظ الحضارة الإسلامية والذود عن حياض المقدسات وعلى رأسها قبر الرسول الكريم محمدﷺ، وكذلك أشاد بمآثره في بناء المدارس تقرباً إلى

---

(1) الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، تحقيق محمد علي الصليبي، منشورات وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عُمان،١٩٨٧م.

(2) ألفها عبد الله الباروني بطلب من سليمان بن زيد اليفرني ، أحد وجهاء بلد (تقربوست) من جبل نفوسة سنة ١٢٩٠هـ ونشرها تويلوت في مئة وصفحتين، مضمنة تعليقات الشيخ المجاهد سليمان الباروني.

(3) وقد نشره اليوزباشي محمد إبراهيم لطفي المصري وصدر من مطبعة مؤسسة الأمير فاروق بمصر سنة ١٩٤٦م.

(4) زعيمة الباروني، مقدمة الديوان، ص١١.

الله تعالى، بعد أن ساد الجهل، ولم تبق قيمة للعلوم والمعارف عند الناس ،فخربت معاهد العلم، وتلاشت أوقافها، وأصبح كثير من العامة يجهل أنَّ إحياءها قربة إلى الله تعالى، وكذلك أرخ في حواشي ديوانه لبناء سكة الحديد الحجازية، التي حيرت آنذاك دول أوروبا وأدهشتها، ووصلت المدينة المنورة في شعبان سنة ١٣٢٦هـ، والتي أُنفق في سبيلها المال والجهد، واحتيج إلى خرق الجبال لمد قضبانها في بعض الأماكن والبلدان، وكذلك تسجيله لإنجازات السلطان عبدالمجيد في مد خطوط الأسلاك التلغرافية (الهاتفية) في كثير من أنحاء بلاد الخلافة العثمانية، وإشارته لاستخدام التلغراف الهوائي (اللاسلكي) في بعض المناطق كدرنة، وجزيرة (رودس).

كذلك ذكر أنَّ دولة الخلافة العثمانية بسطت نفوذها على رقعة واسعة من الدنيا، وخضعت لها شعوب وأقوام مختلفة، وسجل دور مدرسة الباروني التي أنشئت سنة ١٢١٣هـ، على يد أبو الهول اليفرني، ثم أخنى عليها الدهر وتداعت للخراب والتلاشي بعد وفاته، وتشتت أوقافها في تونس بالبيع خصوصاً على أثر دخول فرنسا، فأعاد سليمان الباروني وأبيه عبد الله تجديدها ،فعاد ألقها في خدمة الدين ونشر العلم، وجاء ذلك كله في قصيدة له في مدح السلطان عبدالحميد يقول فيها:

ظهرتْ محاسنُ ذا الزمانِ فقابلتْ ... بالبشر والإقبال والخير المزيدْ
إذ عاد تشييدُ المدارسِ قُربةً ... في ظل سلطان الورى عبدالحميد
أَسَدُ الملوك به المشارقُ أشرقتْ ... وبه المغاربُ حقَّا الرعبُ الشديد
نشرَ المعارفَ والعلوم وبثَّها ... بمدارسٍ عُليا بها الدنيا تميد
خرقَ الجبالَ بنى القلاعَ وشادها ... ملأ البحارَ بآلة الحربِ الجديد
لولاه ما عُمِرتْ مارسُ طالما ... هُجِرَتْ فنوَّرَ ليلَها للمستفيد
مدَّ الخيوط وفي الشطوط موجهاً ... نحو الحجاز مراكب الخط الحديد

كل الأنام على اختلاف شعوبها خضعت لدولته ودانت من بعيد
فيه استقام لنا بشامل عدله تجديد مدرسة لها عمر جديد
خدمتك مدرسة البروني إذ غدت تشدو بنصرك في مصادمة العنيد
لولاه ما حفظت لطيبة روضة كلا ولا كانت حضارتكم تزيد[1]

وإنَّ تذكره أحداث التاريخ المضيئة إبراز للاتصال الوثيق بين الماضي والحاضر، ولاستلهام الدروس والعبر، واستئناف حمل المسؤولية بأمانة واقتدار وتسامح، يقول من قصيدة ألقاها بجامع نزوى:

وبدت لعصر الراشدين دلائل إذ لاح من جبل الشراة سناء
فأضاء واسطة البلاد وأشرق بعُمان شمس أمانة سمحاء[2]

فهل صح لنا أنَّ شعر الباروني وثيقة تاريخية تكشف عن الوقائع المدروسة، إذ كل نص إبداعي له بعد تاريخي، وهذا التعالق بينهما محوره الإنسان والزمن. فالشعر فن يجادل زمنه، والتاريخ علم، ولا تاريخ بدون زمن. ولكن من منع الباروني المؤرخ أن يكتب بلغة الشعر ؟ ومن منع الباروني الشاعر أن يطمح إلى تأسيس علم الشعر ؟ وهل المؤرخ الشاعر: مؤرخ أم شاعر؟ وهل الشعر المتعالي على التاريخ حادثة تاريخية ؟ لأنَّ الإنسان مبدعه ليس إلا كائناً تاريخياً، ولأنَّ الشعر والتاريخ يشتركان في قدر من التخيل والسرد والتعالق بالواقع عبر صياغة لوقائع إنسانية داخل بناء منتظم مكاناً وزماناً ونظاماً. وبالتالي كل مرحلة تاريخية قد تجد من يرى نظامها محصلة البطولة الإنسانية وأقرب الأحوال إلى الكمال.

---

(1) الديوان، ص١٥-١٦.
(2) الديوان ، ص١٨١.

الباروني مفكراً وصحفياً

كان الباروني من الرواد الأوائل الذين أدركوا أهمية الصحافة في التنوير، إلى جانب المدارس والمطابع. فأعاد - مع والده- تجديد المدرسة البارونية بمدينة يفرن بليبيا، وأسس مطبعة الأزهار البارونية بمصر عام ١٩٠٦م، وأصدر جريدة (الأسد الإسلامي) في مصر عام ١٩٠٧م، وكان يطبعها في مطبعته، وأنشأ جريدة «الباروني» باسطنبول، وخصَّصها للقضية الليبية عام ١٣٣١هـ/١٩١٣م، ونشر مقالاته في جرائد كبرى مصرية وجزائرية، وخاصَّة في جرائد صديقه الصحفي الجزائري أبي اليقظان (إبراهيم بن عيسى) **كالأمة، والنور، والبصائر، ووادي ميزاب**، وجريدة **الحياة** (التي أنشأها باسعيد عدوان) إذ له فيها جميعها مقالات وطنية نارية، ضمنها أشعاره، وكان يرد عبر صفحاتها على بعض الجرائد العُمانية، مثل **الفلق**[1].

وكانت له حوارات ساخنة مع أمير البيان شكيب أرسلان، حول قضايا العالم الإسلامي في عصره، نشرت في الصحف العَرَبيَّة آنذاك،كاختلافهما حول انضمام الدول المغاربية -غير المستقلة- آنذاك إلى فكرة اتحاد الجامعة العربية.

ونشر أفكاره الإصلاحية في الدين والسياسة، حول مفهوم الجامعة الإسلامية وعوائق ظهورها. واطلع على الثقافة الفرنسية، وله مقالات، وخطب دينية وسياسية، منشورة في جرائد البلدان التي ارتحل إليها. فكره موسوعي ومشاريعه نهضوية، وهو ربعة في جسده ،لكنه عملاق في عقله وفكره، عدَّه كثيرون من عظماء عصره، إذ قدم إطاراً إسلامياً للفكر المعاصر من خلال مقاومته للغزو الاستعماري العسكري، وتنبيهه لتحديات الغزو الفكري، ودعوته

---

(1) أبو اليقظان، إبراهيم بن عيسى، سليمان الباروني باشا في أطوار حياته ،٢١١/٢ ،وانظر :محمد ناصر، أبو اليقظان ونضال الكلمة، الجزائر ،١٩٨٠م.

للوقوف في وجه محاولات تزييف التاريخ الإسلامي، وطعن رموزه، ودعا إلى إنشاء حزب الدفاع عن الدين، وعبر عن رؤيته للوطن الحلم.

جمع بين عمق القضايا الفكرية وجمالية الأدب الإيحائية، من يقرأ الباروني يلفته بعدان في نتاجه : فكري وجمالي، وقد نجح في تحقيق أدبية ما هو فكري، وفكرية ما هو أدبي. فالعلاقة بين الفكر والأدب وثيقة، ويتأثر أحدهما بالآخر، لارتباطهما الكبير. وتكشف كتاباته الأفكار التي عالجها في نتاجه على المستوى الفقهي والديني والتاريخي والسياسي والوطني. واستعان الباروني المفكر الإصلاحي الشعر كأسلوب في التعليم ونشر الأفكار، وكان يؤمن أن الشاعر يخلق باللغة في ميدان الثقافة، معادلاً لما يخلقه الثائر بالعمل في ميدان الحرب[1].

انتشل الحقيقة من بين أنقاض الماضي العريق، وهو الباذخ الحاضر من خلال أعماله الشامخة، وأيضا من خلال فكره الموسوعي الذي يصول في كل الألوان الأدبية والفلسفية، واستنطق في مشاريعه الفكرية النهضوية قبسات من العلم والفلسفة العميقة، في سياق يجذب المتلقي إلى ضرام عوالم هذه التجربة، التي تشكل قيمة مركزية في كتابات هذا العملاق الذي عدّه علي يحيى معمرّ أعظم رجل أنجبته ليبيا في عصره، وقال عنه : كان من أفذاذ العالم، لم يعرف التاريخ المعاصر من حارب الباطل بإخلاص كإخلاصه ،حارب الباطل في جميع صوره وأشكاله، سواء ما ورد منه من منع الجيوش الاستعمارية الغازية أو ما دُسَّ في الفكر والعلم المنحرف، وقد وقف في الميدان كما يقف المارد الجبار ،يَدْفَعُ عن الحمى ضرباتِ المَدَافِع، ويرد جيوش العدو المتعاقبة، ويقود الجنود البواسل من أبناء الوطن. وقد استطاع أن ينير الطريق بفكره النير لعصبة الأمم،

---

(1) خلدون الشمعة، الأدب والثورة ؛ بعض المفاهيم المتحكمة بالتجربة ،مجلة الفكر العربي، معهد الإنماء العربي ،ليبيا، السنة الأولى،العددان:٨/٩، ١٩٧٩م، ص٢٨٦.

فأعجبت بآرائه، ولكن غلبتها شهوة الاستعمار فلم تنفذها، وجاءت اليوم هيئة الأمم المتحدة فوصلت إلى ما دعا إليه من قبل، وأصبحت قضية تصفية الاستعمار من أمجد الأعمال التي قامت بها هيئة الأمم، ولو استمع العالم إلى الباروني لانتهى من مشكلاته، واتجهت جهوده إلى معالجة أخرى. لقد شغل الباروني فكر العالم مدة من الزمن، كانت الدول تنظر إليه بإعجاب فاغرة الأفواه، ولقد مرت فترة من التاريخ لا تخرج منه جريدة في أنحاء العالم ليس فيها خبر عنه أو منه، وليست هذه الشهرة قاصرة على الميدان السياسي أو العسكري، وإنما تشمل جميع ميادين الإصلاح[1].

وقدم الباروني إطاراً إسلامياً للفكر المعاصر ،من خلال مقاومته للغزو الاستعماري العسكري، وتنبيهه لتحديات الغزو الاستعماري الفكري، ودعوته للوقوف في وجه المذاهب والإيديولوجيات الاستعمارية التي ترنو إلى تغيير العقلية الإسلامية، وضربها من الداخل ،بمعاول تزييف التاريخ الإسلامي، وطعن رموزه، والتغريب، والانهزامية، والتبعية، وفرض مقاييس منحرفة في البطولة والفن والموت، وهي تحديات في وجه أصالة الثقافة الإسلامية، لا يدفعها إلا بناء ذاتية إسلامية قادرة على مجابهة الأخطار من خلال فهم روح الإسلام في بناء العقيدة وترسم منهج الحياة، ومن خلال حمل الأمانة في تربية أجيال متعلمة، ومثقفة، ومؤهلة للقيادة، تجاري الغرب في منجزاته العلمية والحضارية وتلحق به، تجتمع على كلمة سواء، وتتكامل في شرق وغرب لتنهض وتنتصر.

وأخذ الباروني صورة من صور التحدي للموقف الحضاري الذي يريد مسخ الحضارة الإسلامية وإلحاقها بحضارات ما وراء البحار، ويمثل شعره فيما يمثله

---

(1) علي يحيى معمر: الإباضية في موكب التاريخ ،الحلقة الثانية(الإباضية في ليبيا)،مكتبة وهبه ،القاهرة،ط٢، ١٩٩٣م،القسم الثاني/ص١٧٥-١٧٦.

القيم الإسلامية والدفاع عن الفكرة، وبث الروح الإسلامي كجبهة صراع فكري حقيقية مثلها مثل أي جبهة صراع أخرى.

وفي قصيدته (قم يا محمد) التي نشرها في صحيفته "الأسد الإسلامي" في ذكرى المولد النبوي يرثي الواقع الإسلامي، المتمظهر في شيوع الجهل واستفحال أمره ورواج الخمر و الزنا والربا ،وغياب مظاهر الالتزام الديني الأساسية بانحسار الصلاة والصوم والحج، وفقدان الأمة بوصلتها ،فلا أمر بالمعروف ولا نهي عن المنكر، وفي وصفه لأحوال المسلمين العجيبة في دولة الرجل المريض، دعوة ضمنية لنفض غبار التردي السياسي والفكري والاجتماعي والاقتصادي، ومناشدة للعلماء أن يأخذوا دورهم في التنوير والتوجيه والإصلاح، وهو بذا يوجه مسار الفكر في دائرة ثقافة هادفة وفاعلة، وفيها يقول:

قم يا "محمد" يا ختام المرسلين ... وانظر بعينيك كيف حال المؤمنين
تجد الأمور تحولت عن حالها ... والدين في عهد السياسة قد أهين
حل (الحرام) بلا نصوص تقتفى ... واستهزأ العاصي بحال المتقين
واستفحل الجهال واشتد البلا ... واستصغر العلماء حزب الأمين
(الخمر) في سوق التجارة رائج ... أما الخنا فغدا شعار العالمين
عيب امرؤ قال (الصلاة) فريضة ... (والصوم) ضاع وحرم الحج الثمين
هذا (الزنا) أبوابه مفتوحة ... أما (الربا) فتجارة المستعدين
آه بمولدك الشريف تنوعت ... طرق المعاصي في بلاد المسلمين
لا نهي بل لا أمر بل لا منتهى ... حار الدليل وغار حزم المرشدين
من ذا لدينك يا "محمد" بعد ذا ... والله أسدى أجرة للمحسنين
فليبذل الجهد العظيم مؤدياً ... حقاً لينصر في دفاع المجرمين[1]

---

[1] ديوان الباروني، ص ٥٥.

وحيث تلتهب القضايا الكبرى على شفاه المخلوقات التي أبكمها الواقع وكبلها بقيود السكينة النائمة، تبوح الآن خارج عوالم الذات وتتدفق ألسنتها شلالاً، يحركه الشاعر وينثر منه علامات من فوق علامات الاستفهام، بأجوبة ينير بها البصيرة، ويروي بها حقول الصمت بقداسة الحقيقة، فيغسل الحب والوئام مسام النفوس، وتقبض المخلوقات العاقلة على خيط البشارة، رغم سوأة هم الغربة الذي يسلط الضوء على بعض الأوراق الأكثر ملامسة للواقع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، فحين يحمل الهم ضده معه، تنفجر فلسفة المؤلف وهي تحمل في ثناياها كثيراً من الأصناف التقابلية المعززة بأمثلة ظاهرية وأخرى باطنية، تنهل من الأسباب المثلى، وترتقي بالحلول إلى أبعد الغايات وأيضا إلى وجهات أكثر واقعية، تخاطب العقل بقدرة على إحداث خط تواصلي بين التنظير والتطبيق والذي يتعلق لدى المؤلف بمشاريع كبرى من شأنها تصحيح مسار تجمع بشري منظم سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، له عراقته التاريخية، وله ثقافته وعلائقه بمحيطه الصغير والكبير.

وارتبط شعره بالعقيدة، مخالفاً التصور الفكريّ الغربيّ بأن الدين ليس له حق في رسم الحياة والتفكير من خلال مغيبات تنطلق من رحم الدين. بقدرته على حسم النزاع الفكري الذي تخلفه في الناس الأطروحات المذهبية الأخرى حول المبادئ العامة للحياة والقيم الكبرى التي تقودها، وتتساوق في الإسلام حركة الشعر والفكر بحيث يلتحمان معاً، فيعبر الشاعر المسلم عن روح الالتزام بالإسلام وتعاليمه التزاماً حقيقياً نابعاً من شعور ديني، لا تفرضه عليه سلطة أدبية أو سياسية، أو دينية مؤسساتية، بل بمحض إرادته يرى نفسه ملتزماً بالإسلام فكراً وأدباً وشعوراً وسلوكاً، فتتمثل في أدبه كل الملامح الإسلامية الراقية، ليخرج إلى الحياة لبنة صالحة تدعم وجود الإسلام فكراً ومنهجاً على أرض الواقع. فآمن أنَّ ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وانَّ الذي يجب أن

يتصدر للقيادة والسياسة أولو العزم، الذين توافق أعمالهم أقوالهم، وعلى القوالين أن يفسحوا المجال للعاملين، لأنَّ الأمة أحوج إلى الفعَّال منها إلى القوَّال، يقول:

ما لا تتم الـواجبات بـــغيره حـــق اتفاقاً والأصول بـذا حكم
ولمثل ذا فليـعمل الأقـــوام أو فليفســحوا عنـد الزحام لمن عزم
فالفخر فـــعل لا مقال فكاهة والذين بالأفـــعال والأقوال تَم[1]

ويرى الباروني أنَّ ما يكتبه المرء عنوان عنه ودليل عليه[1]، وأنَّ الرجال يعرفون بالحق،ولا يعرف الحق بالرجال[2]. و يؤمن أنَّ واقع الأحداث في العالم، ومنطق الاستقراء السليم لسيرورة التاريخ، في تجاذبات الحضارات وصراعاتها، تقوم علـى القـوة والمغالبـة لفـرض الآراء، واسـتحواذ الخيـرات، والـتحكم بزمـام المبادرات، أو على الأقل في دفع العدوان، وحماية الأوطان، يقول :

ومن لم يذدْ عن حوضه بسيوفه يهدَّمْ مـقالٌ صاغه من تَقدَّما[3]

وللباروني قصيدة بعنوان **(لكم الطنافس ولي السيوف)** نظمها أثناء إقامته في فرنسا،أرسلها إلى صديقه المقرب جداً إليه أبو اليقظان الجزائري، ويشهد لأهل الحضور في التاريخ، إذ يكشف الشاعر تاريخياً عما وراء الحجب، حتى تعتقده التاريخ والتاريخ هو، وفي ذلك يقول:

هي النوائب لي فلا أرضى بها للـخاملين
العاكفين على اللذائذ في رضاء المشركين
لهم الطنافس والتنافس بالغواني والبـنين
ولهم معاقرة الخمور ونقض غزل المسلمين

---

(1) ديوان الباروني ، ص ٢٢.
(2) ديوان الباروني ، مقدمة الديوان، ص١٣.
(3) ديوان الباروني،ص ٤٢ .

ولهم بلا حد من الأعداء مـــا للـــــخائنين

ولي التغريب في البحار وفي البراري بالسنين

ولي الجيوب الخاويات مع الكفوف الطاهرين

ولي التباهي بالوقائع في كـــــفاح الغاصبين

ولي السيوف المرهفات الماحيات لـــكل شين

ولي الجياد الصافنات الصائلات على الدفين

العاديات الموريات الغائرات على الكـــــمين

الجـــــادبات الشاطحات لدى اقتفاء الهاربين

هذا الفخار ولا فخار بغيره في كـــــل ديـن

فلينهـــــض الأحرار إن راموا نجاة المؤمنين

فمحمد فخر العوالم يستـــــــعين ولا مـــعين

فمـــــــحمد فخر العوالم يستعين ولا معين[1]

فيكشف في مفارقة عجيبة ضنك أحوال الأحرار المجاهدين وما ينتابهم من معوقات التآمر ونوائب الدهر وصروفه فقراً، وتغريباً، ونفياً، وما يلاقونه من مشاق الجهاد في الصحارى والبحار، في مقابل رفاه المرتمين في أحضان الأعداء ،المنعمين في القصور على الآرائك ، مع الغواني والخمور الذين يعملون على إضعاف صفوف المسلمين، ونقض عرى وحدتهم، مقابل لذاتهم ليرضى عنهم المشركون.

عالج في كتاباته شعراً ونثراً كثيراً من موضوعات عصره، وعرض لما يشغل الأمة والناس من قضايا سياسية واجتماعية، فأدلى فيها بدلوه، ووقف منها مواقف وطنية صادقة.

---

[1] ديوان البارودي،ص١٦٢-١٦٣ .

جريدة الأسد الإسلامي

كانت تعنى بالقضية الإسلامية وفكرة الجامعة الإسلامية : فهي من صحف الأفكار والمبادئ والعقيدة لا من صحف الأخبار والأنباء. وهي جريدة دينية سياسية أدبية أسبوعية، واتخذ سليمان الباروني لجريدته شعاراً قوله عز من قائل : ﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا﴾(٨١:الإسراء). وكان كريماً يرسلها بنصف القيمة لمرتادي الجوامع وتلامذة المدارس وطلبة العلم بالأزهر الشريف وغيره من المعاهد العلمية، وجامع الزيتونة بتونس. وعلق عليها آمالاً كباراً في النهضة الفكرية. ولعل سليمان الباروني أول ليبي ينشئ مطبعة خارج بلده، أو لعله أول ليبي يكون مطبعة بمفرده. وجريدته كانت ذات أربع صفحات، كل صفحة ملؤها خمسة أنهر من الكلام المتدفق الرقراق، فهو كاتب مسترسل، يندفع معبراً عن عقيدته بالقلم، ومن وراء القلم عقيدة وفكرة.

وحرر جريدته بأسلوب سهل بعيد عن التكلف ونبرات السجع وأشواكه، سطر مقالاتها ببيان واضح ولم يلجأ إلى الزخرفة والهلهلة، فهو يكتب في ذلك موضحاً طريقته في الكتابة الصحفية ومنهاج أسلوبه في الجريدة : " عزمنا على تحريره بكيفية سهلة المأخذ تناسب المقام، فلا علينا إنْ لم نتفنن في أساليب البلاغة ولم نأت من الألفاظ اللغوية بما يعجز العالم فضلاً عن الجاهل ويحتاج إلى مراجعة القاموس. وإلا كانت خدمتنا خاصة باستخدامنا قرائحنا، وتعليمنا أنفسنا أساليب التحرير، وكانت الفائدة المقصودة ضائعة وهي إرشاد العامة. نعم، فسنستعمل في ذلك طريقاً يدرب المشتركين شيئا فشيئا على التدرج حتى يألفوا الأمر ".

وعندما وصلته الاحتجاجات على إصداره جريدة ضحك الباروني لأنه كان رجلاً تقدمياً حر الفكر، جمع بين ثقافة القديم وثقافة الحديث، وسافر وارتحل

واشتغل بالسياسة والأدب، وشارك في الحروب والجهاد، فهو نموذج لشخصية متعددة الجوانب ؛ لهذا رد على هؤلاء الثائرين من اشتغاله بالصحافة، رد عليهم في رفق ولين وأناة، مدافعاً عن الصحافة وموضحاً رسالتها في تنوير الآراء وشحذ الأفكار والدفاع عن الأوطان وخدمة المجتمع.

جريدة الأسد الإسلامي واللورد كرومر

ويدرك هؤلاء اللائمون قيمة الجريدة عندما تظهر عليهم الأسد الإسلامي حاملة على اللورد كرومر المعتمد البريطاني لمصر، لمدة أكثر من ربع قرن، وحدثت في عهده الحالك كارثة دنشواي الإجرامية[1]، هذا اللورد حاول إيقاظ الفتنة بين صفوف الأمة الواحدة ، فألف كتاباً دنيئاً زيف فيه على عادة أهل الأهواء الحقائق، وطعن فيه على أعظم شخصية مقدسة في تاريخ الإنسانية، متحاملاً على النبي محمد (ﷺ) ولَمَزَ الدين الإسلامي. فتصدى له الباروني راداً عن بطلان دعواه، وكان لجريدة الأسد الزئير المجلجل في هذا المجال، في عددها الثاني بصفحتها الأولى تكتب مقالاً يستغرق ثلاثة أعمدة رداً على اللورد كرومر في كتابه، ودافعت جريدة الأسد عن الفكر الإسلامي، وعن النبي

---

(1) حدثت عام ١٩٠٦م، إذ صدرت أوامر الحكومة في مصر لعدد بعض البلاد بمساعدة فرقة تابعة للاستعمار البريطاني آنذاك مكونة من خمسة جنود ممن كانوا يرغبون في صيد الحمام ببلدة (دنشواي) ، ولسوء الحظ كان الحَمَامُ عند أجران الغلال يلتقط الحب وما يأخذ من مجموع أقوال متعددة المصادر أن مؤذن البلدة جاء يصيح بهم كي لا يحترق التبن في جرنه، ولكن أحد الضباط لم يفهم منه ما يقول وأطلق عياره فأخطأ الهدف وأصاب زوجة شقيق ذلك الرجل. واشتعلت النار في التبن، فهجم الرجل على الضابط وأخذ يجذب البندقية وهو يستغيث بأهل البلد صارخاً الخواجه قتل المرأة وحرق الجرن، فأقبل الأطفال والنسوة والرجال صائحين قتلت المرأة وحرقت الجرن، فهرع بقية الضباط الإنجليز لإنقاذ صاحبهم. وفي هذا الوقت وصل الخفراء للنجدة كما قضت أوامرهم، فتوهم الضباط على النقيض بأنهم سيفتك بهم فاطلقوا عليهم الأعيرة النارية وأصابوا بعضهم فصاح الجمع قتل شيخ الخفر وحملوا على الضباط بالطوب والعصى فقبض عليهم الخفراء وأخذوا منهم الأسلحة إلا اثنان منهم وهم كابتن الفرقة وطبيبها أخذا يعدوان تاركان ميدان الواقعة وقطعا نحو ثمانية كيلومترات في الحر الشديد حتى وصلوا إلى بلدة سرمسا فوقع الكابتن مطروحا على الأرض ومات بعد ذلك. فتركه الطبيب وأخذ يعدو حتى وصل إلى المعسكر وصاح بالعساكر فركضوا حتى الكابتن فوجدوه وحوله بعض الأهالي، فلما رأوهم الأهالي فروا فاقتفوا العساكر أثرهم وقبضوا عليهم إلا أحدهم هرب قبل أن يشد وثاقه واختبأ في فجوة طاحونة تحت الأرض فقتله الإنجليز شر قتلة. كان رد الفعل البريطاني قاسياً وسريعاً فقد قدم ٥٢ قروي للمحاكمة بجريمة القتل المتعمد وتم اثبات التهمة علي ٣٢ منهم في ٢٧ يونيو ١٩٠٦م وتفاوتت الأحكام فيما بينهم وكانت معظم الأحكام بالجلد والبعض حكم عليه بالأشغال الشاقة وتم إعدام ٤ قرويين منهم .ترأس القضاة بطرس غالي وأحمد فتحي زغلول باشا، الأخ الأكبر للزعيم المصري سعد زغلول والذي كان في أثناء المحاكمة في فرنسا لدراسة القانون الفرنسي وقاطعه أخوه سعد بسبب ترأسه للمحاكمة وكان مدعي النيابة " الهلباوي باشا". و كان اللورد كرومر هو الحاكم الإنجليزي في مصر في ذلك الوقت. وقد تم اغتيال بطرس غالي بعد ذلك علي يد إبراهيم الورداني أحد طلاب كلية الطب.

الإسلامي وفندت ترهات المدعين وفظائع كرومر، وبهذه المناسبة قدمت جريدة الأسد اقتراحاً بتكوين حزب يسمى (الدفاع عن الإسلام) يكون من العلماء وأفذاذ المفكرين والكتاب، تكون مهمته رد مطاعن المفترين والذين يحاولون أن يشوهوا حقائق الإسلام، واقترحت الصحيفة أنْ يرأس الحزب شيخ الأزهر. وهي في الواقع فكرة نيرة واقتراح سديد، ليت علماء الشرق ينفذون هذه الفكرة في صورة جماعية أو هيئة أو ندوة، تقوم مثلاً بترجمة ما يكتبه الأجانب عن الإسلام والشرق والعرب، ويدافعون عن الإسلام والعروبة، وينشرون ذلك بلغات أجنبية.

وبعد تفنيدها مزاعم الاستعمار، ومساهمتها في نشر الفكر الإسلامي الحر، وعندما لمس فيها القراء روحاً إسلامية صادقة، أدركوا أنَّ الصحافة وعاء ملئ علماً وأدباً، وفضلاً، وهي مهنة لها رسالة سامية وكلمة طيبة عالية تغيرت النظرة لها.

ومن طرائف المعارضات لون آخر ؛ فعندما دخلت الكهرباء (إلى المدينة المنورة) كتب رجل رجعي في إحدى جرائد الجزائر محذراً من هذه البدعة. وانبرى الصحفي التقدمي سليمان الباروني راداً على سخافة الكاتب الرجعي، وموضحاً بأسلوب عصري خطر الرجعية على الأفكار، وشلها للتقدم والعمران. وعملت جريدة الأسد الإسلامي على التنديد بالرجعية العقيمة، ودعت إلى التحرر الفكري من الجمود المعرقل، ودعت إلى الأخذ بوسائل التمدن الحديث، ومقومات الحضارة العصرية، مع المحافظة على دعائم الشخصية الإسلامية والطابع الشرقي.

وهو صاحب مشروع فكري لمجموعة من الكتب التي أخرجها وأشرف على طبعها، فقد أدت مطبعته خدمة جليلة وخاصة في تاريخ المذهب الأباضي، وفقهه وأدبه ، الذي له أثره في الشمال الإفريقي وعُمان . ورغم همته وحماسه

الملتهب لعمله الصحفي، ورغم نجاح الجريدة من حيث إقبال وتشجيع معارفه وأصدقائه في سائر البلدان الإسلامية فإنها لم تعمر طويلاً ولم تعش سوى ثلاثة أعداد فقط. وذلك لظروف أرغمته على إغلاقها، وليست الظروف السياسية القاسية أول مرة تعاكس البارودي، فقد أحرقت له الإدارة العثمانية كتاباً، وصادرت له آخر بسبب أفكاره وآرائه، الإصلاحية في الدين والسياسة، فقد كتب في جريدته مقالاً حول مفهوم الجامعة الإسلامية والعوائق المانعة من ظهور هذه الجامعة إلى حيز الوجود.

وعبر عن رؤيته للوطن الحلم ،الذي ينشد فيها الأمن والعلم والتقدم والرفاه والحرية والمنعة ،وفيها نقد ضمني للمتفوضين والحكام الذين أهملوا تقديم الخدمات الأساسية لرعاياهم، كالماء والكهرباء، والتلفون، والقطارات، والمدارس، والمصانع، والجرائد والمطابع، وهو بذا انتصف للفقراء ،الذين يفتك بهم الجوع ،ولا يجدون الدواء، ويحرمون التعليم في داخل بلادهم وخارجها، وكأنما يقول كفى فقراً وجهلاً، وهو إذ يربط بين العلم واليقظة، يريد في ابن بلاده المواطن المستقيم الواعي العزيز الجانب سيد نفسه متحرراً من الجهل والتبعية والسبات، يعرف حقوقه، ويجاري في العلم والنفع والسياسة الأوروبيين، ويعلن أنه لا يستطيع العيش في بلده ما لم تتغير البيئة والإنسان، وسيبقى رحالة في ديار الإسلام حتى تتبدل الأحوال، يقول:

وداعًا يـا ديـــــارَ الـعزِّ حتى ... أعودَ إليكِ فـــي أهـنا نهـارِ
إذا ما نحـــــوَ قطركِ مـدَّ خَطٌّ ... حديديٌّ إلـــى تلك القـفـــار
ونـــورُ الكهرباء أتـاكِ يسـتعى ... وقيل المـــاءُ في البيداء جـار
وطُهِّرتِ العيونُ وقـام حـتزبٌ ... بمـــعدنـكِ النفيس وبالأثـار
وشُيِّدتِ المدارسُ واستقـــتذامت ... رجالُكِ واكتستْ ثـــوبَ الفخـار
وخاطبَ فيكِ بالـــتَّفُونِ خِـــلٌّ ... يريد البـحثَ عـن حال التِّجار

وحُرِّرتِ الـــجرائدُ واستعـــتدّتْ مطابعُهـا إلى نشـــر القـــرار
ورُقّيـتِ الصنائعُ واســتقـامـــت شبيـــبتُكِ الـــحليفة للديـــار
وجاب الشهمُ منها الأرضَ عـــلمًا وخاض بـــحزمه لُـــجَّ البحـار
وجارى في السيـــاسة من أوربـــا رجالاً زاحـموا قـطبَ الـــمدار
وأبدى الكـدَ مُخـــترعًا مـــجدّاً يجـــرّ النفـعَ من تحت الستـار
هناك تكـون يـا وطنَ المعـالـــي عزيزَ العلم مـــجتـمعَ النُّضـار
يسود الـــمرءُ فيـــكَ ينـالُ عزّاً يحوز الأمنَ يـــطمع بانـــتصـار
ألا يا قومُ قـــد نـمتم طـــويـلاً وهمتم بالجهالـــة فـي البراري
فهل مـن يقظةٍ تشـــفي غلـيلاً وتمحو ما استوى من سُحْب عار
فهمّوا واصـــدقـوا فـالصدقُ فيكم عـــريقٌ واحفظوا حـــقَّ الديـار
وإلاّ فالـوداعُ وكـــــلُّ قطـــرٍ بـــه الإســـلامُ يصلح للقـرار[1]

وهاجم الشيوعية والثورة البلشفية التي قامت على القتل والأشلاء والدماء والتطهير الفكري والعرقي، وانتهاك حقوق الإنسان وإفقاره واستعباده، يقول:

اعطف شمالك نحو (الروس) تلق بها أرضـاً مخضبة مهتوكة الحُرُمِ[2]

الباروني شاعراً وأديباً

انقادت له ملكة البلاغة شاعراً، وكاتباً، وصحفياً، وله إنتاج شعري غزير تضمنه ديوانه، يقع في أكثر من (٢٠٠) قصيدة، وعدّه النقاد أشهر شعراء عصره. وشعره يطفح بالصدق والأمانة والشهامة وحب الفضيلة والأوطان[3]، جارى شعره ونثره أطوار حياته المجاهدة القائمة على التنقل ومواجهة المصاعب،

---

(١) ديوان الباروني،ص ٥٥-٥٦ .
(٢) ديوان الباروني،ص ١٠٩ .
(٣) زعيمة البروني، مقدمة الديوان، ص١١.

ففيه المدح، والفخر، والحنين إلى الوطن، والوصف، لكن نَفَسَهُ قصيرٌ، وخياله قريب، وعبارته أقرب إلى النظم، واحتفاؤه بالمعنى أكثر من اللفظ.

كان شاعراً رحالة جاب العديد من البلاد العربية والأجنبية. ونال قسطاً من العلوم العربية مثل: كتاب سعد الدين التفتازاني، وتفسير البيضاوي، وتفسير الكشاف للزمخشري. له إنتاج شعري غزير تضمنه ديوانه، وله قصائد نشرتها صحف الأقطار التي حل بها في تونس ومصر وتركيا والحجاز وسورية والعراق والجزائر وليبيا وعُمان.

طبع ديوانه في حياته بمطبعته عام١٩٠٨م، وأعادت ابنته زعيمة طبعه ونشره بلبنان سنة ١٩٧٢م، وأعاد نشر الطبعة الثانية منه يوسف عياد العزابي عام ٢٠١١م، وصدر عن دار المحروسة في القاهرة ،بالتعاون مع شركة الرواد للخدمات الإعلامية في بنغازي ،وذلك بعد ثورة ١٧ فبراير ٢٠١١م،وذكر العزابي في الإهداء أنَّ زعيمة قامت بتوثيق السيرة الأدبية لوالدها الزعيم المجاهد، ولكن القذافي طمس المعالم الأدبية الليبية، وألغى قصائد الباروني من المناهج الدراسية، وهمش سيرته النضالية، ونشر بدلها أكاذيب انقشعت بعد ثورة الشباب الأشاوس الذين أهدى لهم العزابي الطبعة الثانية من الديوان عرفاناً ببطولاتهم وتقديراً لتضحيات شهدائهم وجرحاهم[1].

عدّه محمد عبد المنعم خفاجي أشهر شعراء عصره، وشيخ الكتاب فيه[2]، امتاز شعره بالوطنية ومقارعة الغزاة المعتدين بروح إصلاحية إسلامية. وأسلوبية رقيقة بسيطة وثقافة لصيقة بمواقفه السياسية المرتبطة بفكرة الجامعة الإسلامية والخلافة العثمانية . وتبرز من خلال شعره ثقافة شخصية تجمع بين الأمازيغية والعربية الإسلامية إلى جانب اطّلاعه على الثقافة الفرنسية .ومن

---

(١) مقدمة الديوان، الأهداء بقلم: يوسف عياد العزابي،ص٧.
(٢) قصة الأدب في ليبيا العربية، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٢م، ص٣٥٥-٣٥٦.

شعره الوطني، الذي يبرز نضاله في سبيل تحرير ليبيا ،وتضرعه وابتهاله لعودة طرابلس تصدح فيها أصوات التكبير والتهليل فرحاً بالتحرير، وعودة رايات الخلافة (برمز الهلال الإسلامي) خفاقة يعود بها جند المسلمين عبر النيل ليطردوا الإيطاليين، قوله:

هذا هو الشَّعْرُ الذي شهد الحروب الهائلات
وعليه أُمطرت القنابل كالصواعق نازلات
خاض المعامع لا يهاب على الجياد الصافنات
حباً بتطهير المواطن من بني الإيطاليات
آليت أن يبقى إلى أن يعبر الجند القناة
لنرى الغزاة على ضفاف النيل تفتك بالبغاة
ونرى طرابلس العزيزة في ليالي باهرات
تختال في برد الهنا بالانتصار على الطغاة
وتسود أعلام الخليفة في البلاد الضائعات
ونرى الهلال متوجاً جزر المحيط الخالدات
إذ ذاك يحلق بين أفواج الأعاظم والغزاة
ما بن تهليل وتكبير وتقديم للصلاة
فيكون عنوان الفتوح مدى العصور الدائرات
وهكذا يبقى إذا لم ننتصر حتى الممات
يا من وعدت المسلمين النصر امنن بالحياة[1]

---

[1] ديوان الباروني،ص ١٤٩ .

تنبع أهمية شعره كمصدر من مصادر تاريخ حركة الجهاد في ليبيا، إضافة إلى قيمته الوطنية، والتاريخية، والاجتماعية، علاوة عل جمالياته الأدبية والفنية. فقد عاصر الباروني أحداث الكفاح من ١٩١١-١٩٤٠م وعبر عن كافة الأحاسيس ووثقها في وقت حالك حاول المستعمر فيه القضاء على أصالة البلاد ومقوماتها الوطنية والثقافية والاجتماعية، فكان لشعره دور توعوي مع غيره من منارات الوعي والتنوير والتوجيه والإرشاد، نطق باسم شعبه ووطنه، وكان في الصفوف الأولى لقوات المجاهدين.

وآثاره وبصماته وأعماله تدل على عظمته وعلمه وحبه لشعبه، ولم يترك قضية عربية أو إسلامية إلا وتحدث عنها في شعره. وعلى الرغم من ذلك كان متواضعاً يظهر موضوعية نقدية في تقييم شعره فلا يدعي أنَّ شعره في درجة ترضي فحول الشعراء، أو يصبو إلى مطالعته عشاق الأدب وأمراء البيان[1].

الباروني سياسياً و مجاهداً

تعرف في مصر على المصلح الإسلامي الكبير الشيخ محمد عبده وصادقه وتواصل معه فكرياً وعقائدياً ،عاد إلى ليبيا بعد سنوات طويلة من الترحال وطلب العلم، كان قد أصبح شاباً ناضجاً، مشحوناً بالروح الوطنية المعادية للاستبداد التركي في ليبيا إلا إنه بعد عودته سجن ثلاث سنوات وأحرقت السلطات التركية كتابه (الأزهار الرياضية) فاضطر إلى مفارقة الوطن في رحلة طويلة شملت تونس والجزائر وفرنسا ومالطا ومصر. تغشى شعره السياسي روح إسلامية إصلاحية مرتبطة بفكرة الجامعة الإسلامية، ورؤيته في الدعوة إليها، والمحافظة على الخلافة العثمانية من الاندثار حتى لقب بـ " شاعر الخلافة "،

---

[1] ديوان الباروني، ص١٣.

وكرم بلقب " رب السيف والقلم "، على الرغم من مقاومته استبدادها، وسجنه ونفيه بسبب ذلك.

كان مجاهداً طرابلسياً، تصدى للغزو الإيطالي لبلاده، وقاد معارك ضدهم، فأجبرته السلطات الإيطالية على مغادرة طرابلس ومنعته من العودة إليها، حين قاوم محاولة بعض الليبين اللجوء إلى الاستسلام للإيطاليين، ورفض صلح (ابن آدم) مع إيطاليا وأصر على مواصلة الجهاد ،وعبأ الشعب لمقاومته، ورسم منهج الخلاص وطريق التحرير، وحذر من ممالأة المستعمر، والانصياع لمخططاته[1].

اسم لا يدانيه شهرة في تاريخ ليبيا الحديث سوى القليل، فقد عرفته ساحات الحروب ضد الايطاليين فارساً مبرزاً و قائداً محنكاً، بالإضافة لكونه شاعراً انقادت له ملكة البيان، وكاتباً وصحفياً ورحالة جاب العديد من البلاد العربية والأجنبية[2]. ومن أبرز قادة الجهاد في ليبيا[3].

رد الباروني على صحفيين إيطاليين- حرَّضوا في جرائد إيطالية على احتلال طرابلس - بقصائد وطنية رائعة سخر فيها من منطق الاستعمار، وادِّعاءاته الزائفة بتحرير الشعوب وتوفير مناخات الحرية لها، وتوعده بشباب يحبون الموت، ويستعذبونه ذوداً عن حياض الوطن، لأن بها فتية يعدون الموت دون وطنهم مغنماً. قال معلناً فرض الجهاد، وحمل السلاح إذا احتل العدو طرابلس، واصفاً بسالة أهلها في وجه من أعماهم الطمع فيها:

لها في الجبـــال الشامخات معاقلٌ أسودُ الوغى تقري السباعَ الجماجما
نفوسٌ ترى حمـــلَ السلاحِ فريضةً ترى الرميَ حتمًا قــبل أن يتفاقما

---

(1) بصري، مير: أعلام الوطنية والقومية العربية: دار الحكمة، لندن، ط١، ١٩٩٩م، ص١١٣.
(2) فالبيري ،لاورا فيتشا" مستشرقة إيطالية "مقال بعنوان: "مشاركة سليمان الباروني في الحرب الليبية"، مجلة ما وراء البحار،العدد:٢ ،١٩٣٤م. وانظر : دائرة المعارف الإسلامية، مصر، عام ١٩٣٣م
(3) الباروني، أبو القاسم سعيد يحيى: حياة سليمان الباشا الباروني، زعيم المجاهدين الطرابلسيين، مطبعة الأمير فاروق، مصر، ط٢، ١٩٤٨م، ص١٢.

لها همّ عليا ترى الـــذلّ خِـــسّةً تـــرى الـذودَ عن أوطانها مُتحتِّما
(ومن لـــم يـذدْ عن حوضه سيوفه يهدَّمْ) مقـــالٌ صـاغه من تَقدَّمـا
لها بشطـــوط البحـــرِ كلُّ غضنفرٍ له بســـلاح العصرِ عـــلمٌ تحكَّمـا
بها من صناديد الحروبِ جحـــافلٌ تسيل إذا مـــا قِيل شُدّوا المحازمـا
صيـــامٌ قيـــامٌ لا يـرون فضـــيلةً سوى خوضهـم للّه في لُجج الدِّمـا
فويلٌ لمن قد ســاقه النحسُ نحوهم هم الحتفُ إنْ هزّوا اللّوا والعمائما[1]

وقال أيضاً ضمن مقالة له – رداً على مقالة لصحفي إيطالي آخر، حرض دولته إيطاليا على احتلال طرابلس، ولامها على التراخي– فقال في وصف أسود طرابلس، معلناً ألاّ سبيل لوصل سليمى، وكنىّ بها عن طرابلس، فدونها مجاهدون يطلبون الشهادة في سبيل الله ،ليظفروا بجنته ،مذكراً الإيطاليين بهزائمهم ،متوعداً بمؤمنين واحدهم بعشر، متناصاً مع قوله ﷻ:﴿ يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون ﴾(٦٥:الانفال)، وهذه المقابلة، وهي معادلة الواحد بالعشرة، لم ينقل أن المسلمين صافوا المشركين عليها قط ولكن الباري فرض ذلك عليهم أولاً، وعلله بأنكم تفقهون ما تقاتلون عليه، وهو الثواب، وهم لا يعلمون ما يقاتلون عليه، ثم نسخ الحكم بعد ذلك ،وبقيت البشارة الربانية بنصر الفئة القليلة الصابرة، وتحريض للمؤمنين على مناجزة الأعداء بصبر ورباطة جأش، لأنَّ الله كافيهم،ومؤيدهم على عدوهم ،وإن كثروا عدداً وعدة [2]، يقول ممجداً المجاهدين الليبيين:

نصول إذا حان الدفـــاع ولا نرى جـــزاء من المولى سوى جنة الخلد
نحب اللقا لا نبغض الطعن إن يكن نضـالاً عن الأوطان والدين والمجد

---

(1) ديوان الباروني،ص ٤٢ .
(2) الصابوني، محمد علي(اختصار وتحقيق) :مختصر تفسير ابن كثير،دار القرآن الكريم ، بيروت،ط١٣٩٩،٣هـ م٢، ص١١٧.

هنيئا لمن أمسى صريعاً مجاهداً ... له حُلّة من أرجوان على الجرد
فيا مغرماً بنا تقدم لفتيةٍ ... ترى الموت فوزاً في مصادمة الضد
خفافٌ ثقالٌ في الجِلاد جوادهم ... مكرٌّ مفرٌّ مصدر القرب والبعد
أياً بطلاً رام النزال بضعفه ... ألم تشف غُلاً نكبةُ الحبش الجعد
أراك زماناً طالما حمت حولهم ... ولم يك إلا أن صرعت على الخد
ألم تك ممن أدرك الناس أنه ... أخف انهزاماً من رباط إلى السند
ألم يكفك النصر المقهقر خسةً ... فلا حول ما هذا التملق كالقرد
فدعك" بنابولي" لعل جبالها ... تخر فتفنى أو تقيك من البرد
فإن بها أفواه بيت تفتحت ... لتمنح دفئاً عاري الجوف والجلد
وأما "سليمى" لا سبيل لوصلها ... ولو تجعل الجوزاء منطقة الغمد
بإذن الذي بالأمس عزز نصرنا ... فكانت "سراقوزا" لنا موقع الجند
وكانت وكانت في "قطانيا" وقعة ... فسادت "بمسينا" الرجال على المرد
ألم تعلم أن المسلمين إذا سطوا ... فواحدهم كالعشر في الجزر والمد
قديماً حديثاً لا افتراء وإن تشأ ... فسل من "أثيني" قريب من العهد
مُحالٌ محالٌ أن تُدنّس روضةٌ ... عليها لواءٌ حُفّ بالنصر والحمد[1]

وهو إذ يذكر بالأحداث التاريخية القيمة والنادرة مما يجب استحضاره لإبراز الاتصال بين اللحظة التاريخية الحاسمة والأخرى، انطلاقا من الواقع البطولي وما حاكاه من أحداث جليلة، ومواقف جريئة جديرة بالظهور في الساحة العسكرية والثقافية والفكرية، قياساً بالوقائع ذات الأبعاد العميقة في كل نفوس الأحرار، إنما كل ذلك تجسيد لحصيلة مشعة من تاريخ المقاومة الرائدة، واستدعاء للتاريخ الهائل الجامع للمقومات الحضارية، في كل ما تم إبداعه من إنتاج يخص كافة الميادين، في ارتباط وثيق بالمعرفة الحقة .

---

[1] الديوان ،ص ٤٣.

الباروني مصلحاً اجتماعياً

جمع بين الثقافة الأمازيغية والعربية الإسلامية إلى جانب اطلاعه على الثقافة الفرنسية،فدعا إلى إعادة بناء المجتمع، على أسس سليمة ،وربط بين العمل والجهد والمكافأة والتقدير، واعتنى بطرائق التهذيب والتربية، وإصلاح فاسد العادات والتقاليد، للتغلب على التخلف. وله مراسلات سياسية، وإسلامية إلى رؤساء وملوك العالم، والهيئات العالمية ينصحها، ويوجِّهها، واعترفت له عصبة الأمم بآرائه السديدة .وحاول الإصلاح والتقريب بين الملك عبد العزيز بن سعود وشريف مكَّة الحسين بن علي.

واستبشر بإصدار السلطان عبد الحميد للدستور العثماني، وفرح به، لكنه نبه في خطبة له في جمعية الشبيبة المصرية بالمدرسة التحضيرية إلى أنَّ إصدار للدستور أمر جيد ،وخطوة إيجابية، لكنها بحاجة إلى سداد رأي في تفعيل الدستور وجدٍّ في تطبيق قوانينه الإصلاحية، وهذه علامة مميزة للأمة الراقية والدولة الحيَّة التي تحكم مؤسساتها القوانين العادلة، وقال شعراً في ذلك :

فليس صورة (دستور) منـــمقة إن لم نَر الجدَّ في الإصلاح يغنينا
منحت عدلاً وفضلاً أمة فقـدت رقيها فـــأتى الدستور يحـــيينا[1]

ويقول على لسان الدستور من مغناة له طويلة يفصل فيها محاسنه ومآثره، ويُعَرِّض بحزب (تركيا الفتاة) ومؤسسه في فرنسا مصطفى باشا الأمير المصري الذي نازع فؤاد باشا رغبة في تولي عرش مصر و أعلن الأمير أنه ضمن التيار المنادي بالدستور في الدولة العثمانية، وقدم نفسه بعبارة ممثل حزب تركيا الفتاة وأعجب هذا الاسم المجتمعات الأوروبية المعنية فشاع اسم " حزب تركيا الفتاة " في أوروبا. وحزب (الاتحاد والترقي) التي تغلغلت خلاياه في وحدات الجيش،

---

(1) ديوان الباروني، ص ١٠٧-١٠٨.

وبين موظفي الدولة من المدنيين، واتحدا في العمل الموحد بعد اتفاق جناحيهما العسكري والمدني في باريس، للعمل الفعلي ضد السلطان واستطاعت الجمعية بالفعل إجبار السلطان عبد الحميد في ٢٤ يوليو ١٩٠٨م على إعلان الدستور الذي كان قد أمر سابقاً عام ١٨٧٧م بوقف العمل به[١]:

يـا فتـاة الشـرق غنـي ... اضـربي الـعود وحنـي
واسمـعي بالـقرب منـي ... لاحتفـال بـي فإنـي
أنـا (دسـتور) المعـالي ... أنـا تـرس للقـتال
ينشـر الأفـكار جهـراً ... يورث الأعـداء قـهراً
وهو سـيف لا يجـارى ... فليـمت حـزب التدنـي[٢]

وقام الباروني بالإصلاح ما بين سلطان عُمان تيمور بن فيصل والإمام محمد بن عبد الله الخليلي، فقضى على عداوة كانت مستحكمة، وقارب بينهما وأزال الخلاف والجفوة. ولاه السلطان سعيد بن تيمور نظارة شؤون الولاة، فقام بإصلاحات سياسية وعلمية وإدارية وعسكرية، وأنشأ المدرسة الكبيرة بسمائل بنظام عصري وانتظمت فيها الدروس لحين[٣]، لكن العوائق الخارجية والداخلية حالت دون تمام مشروعه التعليمي الكبير، إذ لم تسمح له بريطانيا بجلب نخبة المدرسين، ولم يشجعه الأهالي آنذاك، إذ كانوا يميلون إلى نظام الكُتّاب القديم.

الخاتمة

---

(١) الصلابي، الدولة العثمانية أسباب السقوط والنهوض، ص١٢٨.
(٢) ديوان الباروني، ص ١١٠، حني : أي اطربي.
(٣) ديوان الباروني،مقدمة الجزء الثاني لابنته زعيمة، ص١٢٧.

وهكذا كان علامتنا عملاقاً في عقله وفكره وموسوعياً في مواهبه ،نبغ في غير مجال، وجال في غير ميدان مشاريعه نهضوية، وآلياته عصرية، أفاد من الحركة الأدبية والفكرية في تطوافه بين البلدان، حتى غدا من أعلام عصره في السياسة والجهاد والصحافة والشعر والتاريخ، قدم إطاراً إسلامياً للفكر المعاصر من خلال مقاومته للغزو الاستعماري العسكري، وتنبيهه لتحديات الغزو الفكري، ودعوته للوقوف في وجه محاولات تزييف التاريخ الإسلامي، وطعن رموزه، ودعا إلى إنشاء حزب الدفاع عن الدين، وعبر عن رؤيته للوطن الحلم. وامتاز شعره بالوطنية ومقارعة الغزاة المعتدين بروح إسلامية إصلاحية، وأسلوبية رقيقة بسيطة وثقافة لصيقة بمواقفه السياسية المرتبطة بفكرة الجامعة الإسلامية والخلافة العثمانية.

المرجعيات الثقافية في شعر البارودي

أ.محمد محاسنة (*)

مقدمـــة

توفر لدى الشيخ الباروني – رحمه الله– من المعطيات الثقافية القدر الذي مكّنه من أن ينجز ديوان من الشعر متنوعا في مواضيعه تنوعه في أساليبه، وما كان هذا التنوع لولا إن الباروني يمتح من بئر بعيد غوره، ويستقي من بحر عزّ نظيره في ذلك الزمن.

يجد المطالع في ديوان الشيخ الباروني – بجزأيه–، يجد فيه مادة أدبية وافرة تعكس سعة اطلاع صاحبه من جهة، كما تعكس قدرته على إعادة صهر المشكّلات الثقافية لتخرج شعرا يعبر أدق عن مشكلات عصره، كما أنها تعبر أجلى تعبير عن موقفه من القضايا المستجدات في عصره.

يقف البحث على أهم المرجعيات الثقافية التي حفل بها الديوان، ومن أهمها المرجعيات الدينية، والمرجعيات التراثية المستمدة من بيئة الشاعر ويومياته، وكذلك المرجعيات السياسية، التي كان لها دور في تشكيل عدة نصوص عالجت أبرز التحولات السياسية التي لفتت نظره، وأثارت قريحته.

عولجت هذه المرجعيات معالجة لسانية مستفيدة من معطيات اللسانيات النصية، ونظرية النص، تلك التي تعمل على الكشف عن الإبداع الأدبي في النص وفق نظرة عليمة تتجاوز المقولات النقدية المنطوية على الأحكام القيمية، والمسكوكات البلاغية الجاهزة.

(*) أ.محمد محاسنة، باحث، وزارة التربية والتعليم، الأردن.

وبغية الوصول إلى ملة من النتائج والتوصيات، فقد تمت قسمة البحث إلى محاور ثلاثة : محورٍ تناول المرجعيات الدينية، ومحورٍ تناول المرجعيات الاجتماعية، ومحور تناول المرجعيات السياسية.

أولا: المرجعيات الدينية

يعد القرآن الكريم من أهم الروافد الثقافية التي ساعدت الشاعر العربي على مرّ العصور على تأليف المادة الشعرية، فقد وفّر للشاعر أفكارًا ومضامينَ ودلالاتٍ جديدة، كما وفّر له أساليب وقوالب لغوية، ترقى بالتراكيب الشعرية أيما رقي إن أحسن الأديب التعامل معها.

وما أُتيحَ للشعراء العرب أُتيح للباروني، فقد أفاد من القرآن الكريم، مادة وأساليب، بشكل يدل على ذكائه، وقدرته على إعادة إنتاج النصوص التراثية صياغة جديدة تتوافق مع معطيات عصره، ومتطلبات المرحلة.

يُظهِر الابتلاءُ حقيقةَ علاقة العبد بربه، ومدى القرب منه، وقد ابُتلي الباروني غير ابتلاء فمن السجن إلى الجهاد إلى الفتن في الاستعمار والسلطة، ويظل السجن من أكثر الابتلاءات التي تكشف عن جوهر المرء وصدقه.

كشف لنا السجن عن عمق إيمان الباروني بالله تعالى، ذلك عندما نجد الباروني يسلم بالقضاء والقدر، فلا نراه متألما متبرما في سجنه، بل قابلا حكم الله، مؤمنا به، صابرا كل الصبر، وقد ظهر هذا الصبر والإيمان جليا في شعره حيث يقول رحمه الله[1] :

اللهُ أكبرُ مِنْ دَهرٍ لنا مَددُ ولا لردِّ القضا مالٌ ولا ولدُ

(1) ديوان الباروني، جمع وترتيب زعيمة سليمان الباروني، دار مصر المحروسة، مصر، ط١، ٢٠١١م، ص ١٢٩.

إن المدقق في هذا المطلع يجد الباروني منذ اللحظة الأولى يستجير بالله من وطأة الزمن الذي لا يكاد ينتهي، ثم ينتقل سريعا إلى إعادة بث الحقيقة التي تشكل ركنا أساسيا من العقيدة الإسلامية، فحقيقة أن لا راد لقضاء الله وقدره حقيقة قارة في ذهن كل مسلم، قال تعالى " وهو الذي يحيي ويميت فإذا قضى أمرا فإنما يكون له كن فيكون "[1]، إن هذه الآية الكريمة وغيرها من الآيات الكريمات تقر صراحة أن القضاء والقدر لا مرد له، فأمر الله نافذ لا محالة، إن الباروني بلجوئه إلى هذه المرجعية يذكر المتلقي بالقاسم المشترك بين البشر وهو قضاء الله واستحالة رده، كما أنه ينشئ لدى المتلقي مثلما ينشئ لدى نفسه قناعة تقر بها أنفسهم مؤداها أن هذا الأمر لاشك سيتبدل، فلن يظل حال كما هو وإن طال، وبهذه القناعة المستمدة من مرجعية دينية ثابتة يقر الباروني – ضمنا- أن حاله هذه مؤقتة لن تطول، وكأنه يطمن نفسه مثلما يعزيها.

وتطل في ذات البيت مرجعية دينية ثانية عندما يرى أنّ قضاء الله لا يرده لا مال ولا ولد، فما الذي يهدف إليه الباروني برجوعه إلى هذه المرجعية؟، إن الناظر في قوله تعالى[2] " يوم لا ينفع لا مال ولا بنون* إلا من أتى بقلب سليم"، يفهم من اللجوء إلى هذه المرجعية أن الباروني يرصد لنا حالة نفسية في السجن موازية لحالة الإنسان يوم يقف بين يدي ربه، ولا يذهبن ذاهب إلى أنه يجعل من السجن معادلا للوقف بين يدي الحق، بل إنه يستعير حالة الوحدة التي يعيش فيها في السجن، وبعثه يوم القيامة وحيدا، وإذا كان الأمر كذلك فإن الباروني يقر بأنْ لا معاون له ولا مساعد في سجنه، وحيدا لا تمد له يد العون، ويكشف عن مدى يأسه وعجزه، وفي ذات الوقت إن ما سكت عنه في البيت وهو ما ظهر في الآية الثانية " الإتيان بقلب سليم " يكشف عن صفاء نية الباروني وسلامة قلبه،

---

(1) سورة البقرة، الآية ١١٧، غافر، ٦٨.
(2) سورة البقرة، الآية ١١٧، غافر، ٦٨.

فالباروني في سجنه، مؤمن بقضاء الله وقدره، يصفّي قلبه من شوائب الدنيا ليصل إلى ربه خير وصول.

يستمر الباروني بالمتح من مرجعياته الدينية فنجده يستحضر قصة سيدنا أيوب، و من قصة سيدنا يوسف عليهما السلام، فيذكر شيئا من الرؤيا التي أراها الله لسيدنا يوسف عليه السلام، يقول[1] – رحمه الله– :

فقلتُ يا أملي في كـــــلِّ نائبةٍ ومن عليه لكشـفِ الضُرِ أعتمدُ
يا مَنْ أَتى يوسفَ الرؤيا وأحكمَها حتى تخلصَ من سجنٍ ومُظلِمِها

إن الباروني بهذين البيتين لا يزال يستنزل حبالا من الضراعة الإلهية، ذلك أنه يستحضر كل هذه الابتلاءات التي مرّ بها أنبياء الله – عليهم الصلاة والسلام–، والباروني بهذه الومضات حتما لا يستعرض لنا ثقافته بقدر ما ينسج لنا ولنفسه حالة من الاستقرار النفسي، فالنفس تأنس بذكر قصص الأنبياء، مثلما تأنس إلى نصر الله لهم، فالله جل وعلا ينصر أنبياءه ولا يخذلهم أبدا، هذه هي حال الباروني في سجنه، يوقد لنفسه مصابيح السلوان والنجاء باستحضار قصص الأنبياء.

قال تعالى مبينا شكوى سيدنا أيوب[2]: " وأيوبُ إذ نادى ربه إني مسني الضُر وأنتَ أرحم الراحمين* فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضُر وآتيناه أهلَه ومثلَهم معهم رحمةً مِن عندنا وذكرى للعابدين "، والملاحظ من هاتين الآيتين أن سيدنا أيوب قد لجأ إلى الله بعد صبر ومعاناة طوال، ولم يبطئ ربنا بالإجابة، فرفع عنه الضر حال دعاءه، بدليل استخدام الفاء الدالة على الترتيب

(1) ديوان الباروني، ص ١٢٩.
(2) الأنبياء، ٨٣، ٨٤.

والتعقيب[1]، ويقول الإمام الشوكاني أن أحد تفسيرات الضر الذي مسَّ أيوب عليه السلام شماتة قومه به[2]. إن أدنى مقاربة تحليلية للمرجعيات المستكنة في هاتين الآيتين تدل على التقارب في حالة سيدنا أيوب الذي مسه الضر على اعتبار أنه شماتة قومه به، وحالة الباروني حين سجن بعد وشاية حيث قال في نفس القصيدة[3] :

أنتَ العليمُ بمَن بالمكرِ جـاهرنا متى يفارقُه الأهـــــلونَ والولدُ
متى يصارحُه الإقبالُ وهو عـلى رُمحٍ من الفقرِ لا يُعزى إلا العُقَلا
يحيى مُهـانا فقيدَ العينِ مُعتقَلا

وهذه الوشاية لاشك أعقبها كثير شماتة بالباروني رحمه الله، لذلك نجد حالة استدعاء هذه المرجعية الدينية مسوَّغة، وفي ذات الوقت نجد أن هذا الاستدعاء يحمل في ثناياه شيئا من أمل، عندما يأتي الجواب من الله – جلَّ وعلا– بسريع الإجابة وكشف الضر عن سيدنا أيوب، وها هو ذاته الذي ينتظره الباروني رفع الضر عنه، وانتهاء هذا السجن وسقوط الظلم عنه رحمه الله.

وبالرجوع إلى قصة سيدنا يوسف سنجد أن الإطار العام لقصة سيدنا أيوب هو نفسه الإطار العام لقصة سيدنا يوسف وأبيه يعقوب عليهم السلام، فكلهم مسّه الضر بالمعنى العام للضر، وكلهم صبر ودعا الله أن يرفع عنه الضر، ولا يبتعد الباروني كثيرا عن هذا الإطار الناظم لمعاناة أنبياء الله.

لا يخفى على أحد قصة سيدنا يعقوب وسيدنا يوسف، لكن يندر أن يلتفت أحد إلى معاناة سيدنا يعقوب مقابل معاناة سيدنا يوسف محور السورة كاملة[4].

---

(1) الجنى الداني في حروف المعاني، أبو القاسم المرادي، تحقيق، فخر الدين قباوة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٢م، ص٦١.
(2) تفسير فتح القدير، الإمام الشوكاني، طبعة مأخوذة عن مخطوطة دار الكتب المصرية، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت ، لبنان، د ت، د ط، ج٣، ص ٤٢٥.
(3) لمزيد تفصيل وربط، ينظر سورة يوسف كاملة.
(4) ديوان الباروني، ص ١٢٩.

فما الرابط الذهني الذي أدى بالباروني إلى هذا الاستدعاء الثقافي لهاتين القصتين، إنه رابط ذو خطيين متوازيين : خط صبر سيدنا يعقوب وأمله بعودة سيدنا يوسف، وخط سيدنا يوسف الصابر في سجنه الآمل بفرج الله وإنصافه ونصره، بهذين الخطين يلتقي الباروني في مرجعياته الدينية بالصبر والأمل، صبر يعقوب ويوسف عليهما السلام، وأملهما باللقيا بعد فراق طويل.

ومن لطائف المرجعيات الدينية في هذين القصتين ما آل إليه سيدنا يعقوب وسيدنا أيوب عليهما السلام، فقد جمعهما الله بأهلهم أجمعين، ولا أظن أن الباروني وهو في سجنه أحب لقاء امرأ أكثر من لقاءه أهله.

يختم الباروني قصيدته بالحديث عن ذلك الذي نسج له مكيدة رمى به بالسجن بسببها، فاجتهد الباروني لكي يثبت براءته من ذلك الإفك، فلم يقل صراحة أنه بريء مما يقولون صراحة، لكنه لجأ إلى مرجعياته الثقافية ليقنع الملتقي بأنه بريء، وقد نجح في هذا اللجوء مرتين: مرة عندما نزّل ما حصل معه منزلة حادثة الإفك، ومرة عندما عقد مقارنة بين ما حصل له من مؤامرة وبين بيت العنكبوت الواهي النسج الضعيف البناء، يقول رحمه الله[1]:

ولم أزلْ في دفاعِ الإفكِ منتسِبا إليكَ يا ربُ اطفي كلَّ ما يَقِدُ
ظنَّ الإحاطةَ بالأحوالِ حينَ حسبْ فنم بدا وجد السعي ثم كتب
جهلًا فصرّح بالدعوى بدون سببْ
أدلةً مثلَ نسجِ العنكبوتِ نصبْ تبا لجمْعٍ على أعلامِهم حَقدوا
رامَ الظهورَ اعتلاءَ الرقيبِ يرى ما يصنعُ الخائنُ المخذولُ حينَ سرى
فلمْ يمكنه من فعلٍ يرى ضَرار

---

(1) ديوان الباروني، ص ١٣١.

نـزّل البـاروني الـذين وشـوا بـه عنـد السـلطان منزلـة المنـافقين الـذين أتـوا بالإفك[1] يريدون أن ينثروا عُشَّ الباروني، وقد كان لهم ذلك، لكن سرعان ما ينقضي هذا الأمر، فالإفك قد دُحِض بوحي من السماء، وانقلب السحر على الساحر، وهذا الذي يرجوه الباروني، بل هذا الذي ألح على مخيلة الباروني الثقافية عندما استعان بهذه المرجعية الثقافية المفصلية في مسيرة قضيته ووشايته.

لم يكتفِ الباروني بالمشابهة بين حالة وحادثة الإفك، بل إنه عمد إلى توهين كلام متهميه مرة أخرى عندما شبه كلامهم ببيت العنكبوت، راجعا في ذلك إلى معنى ودلالة قوله تعالى[2] " مثل الذين اتخذوا من دون الله اولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون ".

إن تشبيهه أدلة الذين افتروا عليه ببيت العنكبوت يدل خير دلالة على ضعف ما افتروا[3]، بل إنه تخريص رموا به الباروني رحمه الله، وهو بهذه المرجعية الدينية يهدف إلى رفع درجة الصدق في كلامه، فاستشهاده بحادثة الإفك وتنزيله من اتهموه منزلة المنافقين في حادثة الإفك، واستشهاده بضعف نسج بيت العنكبوت، وتنزيل أدلة المفترين عليه منزلة الخيوط الواهنة في بيت العنكبوت يعني بالضرورة أن كلامه وأدلته هي الصدق بعينه وهي الأقوى، والأجدر أن يتلفت إليها، فهو بهذه المرجعيات الثقافية يسير وفق استراتيجيات تضامنية[4]، يسعى بواسطتها إلى إنهاء أزمته والانتصار على أعداءه المفترين عليه.

---

(1) تنظر في سورة النور، الآيات ١٠ - ٢١، وينظر تفصيلها في تفسير فتح القدير،ج ٤ ، ص ١٣- ص ٢١.
(2) سورة العنكبوت، ٤١.
(3) أمثال القرآن، ابن قيم الجوزية، تحقيق موسى العليلي، مكتبة الزمان، بغداد، ط١، ١٩٨٧م، ص٦٠- ٦١، وانظر، في ظلال القرآن، سيد قطب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د ت، د ط، ج ٦، ص ٣٩٧ .
(4) إستراتيجيات الخطاب، عبد الهادي بن ظافر الشهري.

ولا يذهبن متلقٍ أن البارودي بتوظيفه لهذه المرجعيات الدينية يساوي نفسه بالأنبياء، لا، وهذا أمر غير وارد في مخيلة البارودي بما هو مسلم يعرف قدره، إلا أن هذه المرجعيات تتآلف في ذهنه في مرحلة ما قبل الوعي، أي أنها تخضع لعدة عمليات عقلية عليا قبل أن تصير مفردات وتراكيب جارية على لسان البارودي رحمه الله.

استطاع البارودي رحمه الله أن يستفيد من مرجعياته الدينية أيما استفادة، لاسيما في خلق حالة من القبول لدى المتلقي، فالبارودي رحمه الله حافظ على استراتيجية تضامنية بينه وبن المتلقين تكفل له حسن القبول، وبالتالي حسن العذر، والتخلص مما هو فيه من سجن وأسر.

يجد المتتبع للمرجعيات الدينية في ديوان البارودي عشرات الأمثلة التي تكشف عن حسن تعامله مع المرجعيات الدينية وحسن استفادته منها، إلا أن هذه الورقة لن تستطيع أن تأتي على ما في الديوان، وتكتفي بهذه الصوى تلقيها أمام الباحثين لتكون لهم طريقا من طريق دراسة الديوان في قابل الدراسات.

ثانيا: المرجعيات السياسية

تعد الأحداث السياسية من أهم المشكّلات الثقافية التي تعيد تشكيل وعي الأديب، مثلما تعيد صنع قناعاته، كما أن الأديب الأريب لاشك يجد في الأحداث السياسية الكبرى مادة جيدة يعيد من خلالها طرح رؤيته للعالم والبيئة والذات، وهذا ما استطاع البارودي أن يلتقطه أحسن التقاط، فقد أفاد من كبرى الأحداث السياسية التي عاصرها، وعايش آثارها على بلاد المسلمين، فبالبارودي رحمه الله لم يكن إلا عربيا مسلما يهتم لأمر المسلمين، مقتنعا أن الشعر لسان الأمة، ورسولها للتاريخ والحاضر والمستقبل.

رصد البارودي التغيرات الكبيرة التي سببتها الحرب العالمية الأولى، فكتب قصيدة أسمها " الحرب العامة ١٩١٤ "[1]، ومطلعها:

[مجزوء الكامل]

هذا هو الشـــــعرُ الذي شهدَ الحروبَ الهائـــلاتْ

رصد الشاعر في هذه القصيدة جملة من الأحداث التي اعتد بها كثيرا على اعتبار أنها محطات مهمة في تاريخ الأمة العربية، فتحدث عن الجهاد ضد الطليان، يقول رحمه الله :

خاضَ المعامـــعَ لا يـــها بُ على الجيادِ الصافناتْ
حبًا بتطـــــهيرِ الـــــموا طِـنِ مِن بني الإيطالياتْ

جعل البارودي من أحداث الحرب العالمية مادة خصبة لهذه القصيدة، فنراه يسير بالقصيدة مع خطى المجاهدين في طرابلس الغرب الباذلين أرواحهم للتخلص من الاستعمار الإيطالي، فهذا الجيش في نظره جيش شجاع لا يهاب ولا يعرف العجز، ذلك أن العالم يتقاتل بالطائرات، وهذا الجيش لا يجد غير الخيل العُزَّل، رغم ذلك لا يترك الجهاد بل يركب الخيل من أجل تحقيق الهدف المنشود، ألا وهو التخلص من الاستعمار الإيطالي المقيت.

ثم ينتقل إلى موطن آخر من مواطن المعركة، فبعد طرابلس نجده قد انتقل إلى قناة السويس ليصور لنا الأحداث هناك في موازنة بين فريقين: الغزاة المسلمين، والبغاة المعتدين، يصور لنا البارودي هذا الموقف بدقة وصدق، يقول رحمه الله:

آليتُ أنْ يبقـــــى إلـــى أن يعبـــــرَ الـجندُ القنـاةْ

---

(1) ينظر، الديوان، ص ١٤٧.

لنـرى الـــغزاةَ على ضـــفا فِ النّيـــلِ تفتكُ بالبُغـات[1]

فعلـى الـرغم من أن الشيخ كـان منهمكـا بالقتـال ضـد الطليـان – حسـب النص– إلا أنه يتابع الأحداث في الشرق حيث تشكل قناة السويس مفصلا مهما من مفاصل الحرب، ونجده واثقا بالنصر، وأن جنود الحق سيهزمون البغاة في مصر.

حافظ الباروني رحمه الله على رؤيته للوحدة العربية، ورأى في عُمان لبنة ثابتة للوحدة العربية، وقد صدر في رؤيته لهذه الوحدة عن وعي دقيق بطبيعة الحياة العربيـة التـي سيطرت عليها القبلية والعصبيات التـي فتت من عضدها، يقول رحمه الله في قصيدة طويلة مطلعها[2]:

اللهُ أكبرُ هـــللَّ الـــخُطباءُ وعلا الهُتافُ وهاجتِ الشُعراءُ

يقول رحمه الله:

وامحُ التداعي بالقبـــائل إنه ســـــهم العداء ومحنة سوداء
واجمع قلوبا بالخلاف تمزقت حتى يضم شتـــاتهنَ لـــواء

يدعو الباروني – رحمـه الله– إلى نبذ الخلافات القليلة ويرى فيها محن سوداء تبدد آمال الأمة، وتقتل فرص انتصارها على أعدائها، والباروني في هذا النص يدعو من دعاة الوحدة العربية، فهو يؤمن بأن العرب على ما بينهم من تباين، إلا أن لديهم من القواسم الكبرى ما يضمن نجاح وحدتهم، إن نأوا بأنفسهم عن القبليات والعصبيات الضيقة.

لم يدعُ الباروني إلى نبذ هذه الفرقة بل قدم (خارطة الطريق) البديلة التي إن عمل بمقتضاها العرب، فلا شك أنهم سيتحدون، يقول رحمه الله: [الكامل]

---

(1) هكذا وجدت في الديوان ينظر، ص ١٤٧، والصواب البغاة، وربما كتبت هكذا لبيان أنها موقوف عليها بالسكون.
(2) الديوان، ص ١٨١.

دَعْ ما مضى واعملْ لعصرٍ مقبلِ فـــلآلِ فيـــصلَ[1] نيةٌ حسناءُ
وامددْ إلى نجدٍ يديكَ مُصـــــافحًا صمصامُها بـــل نارُها الزرقاءُ
واعطفْ إلى سبطِ الرسولِ حميد مَن ضاءتْ بطلعةِ بـــدرِه صنـــعاءُ
واجنحْ إلى فحلِ الـــــعسيرِ أميرِها مَن لم يزلْ فـــــي منعةٍ قعساءُ
ثم اقبلوا لابـــــن الحسينِ بمـــكةٍ نعمَ المـــــليكُ الجدُّ والآبـــاءُ
وهنـــالكَ اتـــــحَدُّوا ولا تتـــفرقوا وتعاهدوا ولتشـــهدنَّ حـــــراءُ
ودعـــوا وساوسَ من يفرِّقُ واذكروا مجدَ الجدودِ لـــيسعَدَ الأبنـــاءُ

لخص الباروني – رحمه الله– في المُقتبسَة السابقة رؤيته حول وحدة الجزيرة العربية جاعلا من عُمان نواة هذه الوحدة، فبعد أن دعا إلى نبذ الخلافات القبلية، نجده يدعو إلى مدّ اليد لكل الأمراء المحيطين بعُمان، فذكر إمارة نجد، وصنعاء، وعسير، ومكة، ثم نراه يؤكد مرة ثانية على نبذ الفرقة، كما يذكر بأمجاد الجدود حتى تكون وقود المرحلة القادمة، ومحرك الجزيرة تجاه الوحدة.

بذل الباروني –رحمه الله – النصيحة صادقة لقومه، لكن إصراره على تكرار هذه النصيحة، لاشك يصدر عن مخاوف كامنة في نفسه، عاينها يف طرابلس الغرب ومصر بحكم أسفاره وترحاله، لقد كان رحمه الله يحذر مخاطر الاستعمار أيما حذر، وكان موقنا بان كل مصائب بني قومه من الاستعمار المقيت، فالاستعمار حريص كل الحرص على أن لا يتحد العرب؛ لأن في اتحادهم قوة ستزيل الاستعمار وتنهي وجوده في الوطن العربي الكبير.

لا يكتفي الباروني بهذه النصيحة، بل نجده يلتفت إلى ضرورة متابعة أمور الاقتصاد، موقنا أن الاكتفاء الاقتصادي من أهم السبل إلى التخلص من ربقة الاستعمار الأجنبي، يقول رحمه الله:

---

[1] يقصد آل السلطان تيمور بن فيصل بن تركي ت ١٩٦٥م، جدّ السلطان قابوس، سلطان سلطنة عُمان الآن.

[الكامل]

وليُعنَ كـــلٌّ بعـد ذا ببلاده حتـــى تـعود كواحة غناء
بتجارة وزراعـــة وصـــناعـــة وعساكر ومـدارس عـــليـاء
إذ ذاك يرجع للـــجزيرة عزهـــا ولها جميع المـــسلمين فـداء

إن فكر الباروني النافذ ساقه مبكرا إلى الربط بين الاقتصاد والسياسية، ولم يكن هذا الفكر إلا بفضل مرجعيات سياسية واعية، قادرة على استكناه الحاضر للخروج برؤية تفصيلية للمستقبل، فكما نرى في الأبيات السابقة، فإن الباروني يرسم للجزيرة وللعرب خطة للتحرر والتقدم، ولإعادة العز للجزيرة وللمسلمين جميعا.

قدم الباروني في ديوانه العديد من النماذج التي احتفت كثيرا بالمرجعيات السياسية، بل كانت المرجعيات السياسية أهم مشكّل لها، فقصيدته وداع شعر رمضان في مرسيليا و مطلعها:

شهرَ الصيامِ قد رحـلتَ مودّعًا فعـــليكَ يا شهرَ الصيامِ سلامُ

تقوم برمتها على مشكّلاتٍ سياسية، إذ يذكر جملة من المفارقات التي يعيشها في بلاد الغرب، وسرعان ما يلقي بظلال هذه المفارقات على الديار الإسلامية رادها إلى الاستعمار البغيض، يقول رحمه الله:

[الكامل]

آهٍ فمـــا هذا التحكمُ في الورى حـــلَّ الشقاءُ فهل يُسلُّ حسامُ
ويلٌ لمَن عـرفَ الحقائقَ وارتدى ثوبَ الســـكينةِ والعبادُ تسامُ
دولٌ علـــى قـهرِ الأنامِ تحالفتْ فتـــحكـمتْ فازدادت الآلامُ
وغدتْ تـــقسّمُ مـن بلادِ اللهِ ما شـــاءتْ ومـا للمؤمنينِ سهامُ

قبضتْ مفاتيحَ البــلادِ وفـرّقتْ فاشتدْ بينَ المــسلمينَ خَصامُ
لمْ يبقَ للإســـلامِ قـــطرٌ قائمٌ مــا للعدو به يــد ونِظـــامُ
ما للنبي مــحـــمدٍ ولــدينـهِ وكتابِه صـــوتٌ ولا حـــكّامُ

والمتأمل في المقتبسة السابقة يجد أن الباروني قد صدر عن مرجعية سياسية أملت عليه التفصيل في حالة الذل والهوان التي تعاني منها الأمة الإسلامية، والتي يتفنن الاستعمار من أجل إحكام قبضته على الأمة ومقدراتها، استطاع الباروني بواسطة مرجعياته السياسية أن يضع يده على الجرح النازف للأمة حتى اليوم، ولكن لا أحد من العرب يقظ ليسمع صرخة الباروني.

ثالثا: المرجعيات الاجتماعية

تعد الأحداث اليومية من أهم المشكّلات الثقافية للفرد، ذلك أن هذه الأحداث هي التي تسهم في صنع مواقفه تجاه المجتمع والعالم، فكل أديب مهما كان جنس كتابته لابد من أن يظهر أثر المجتمع في أدبه، بل إن النص الأدبي – في واحدة من مضامينه– ما هو إلا وثيقة اجتماعية تحمل في طياتها خارطة وراثية للأبعاد الاجتماعية التي عاشها أو يعيشها أويعايشها الأديب.

احتفى الباروني باليوميات التي كانت تمر عليه بما هو أحد أفراد المجتمع، لذلك نجده في كثير من شعره يتحدث عن إنشاء المدارس وافتتاحاتها، رغبة منه في جعل هذه اليوميات علامات بارزة في مسيرة مجتمعة الآخذ بالتحضر والسير في ركب العلم، فقد كتب قصيدة في يوم الاحتفال بمدرسة مصطفى باشا كامل[1]، وقد كان كلفا بالتغني بالمدارس حتى أنه اخذ على نفسه أن ينظم كل سنة قصيدة في ذكرى الاحتفلال بافتتاح مدرسة " يفرن "، يقول

(1) ينظر، الديوان، ص ٣٥، .

رحمه الله " **وقلت في الاحتفال بأول السنة الثانية، وتعهدت أن أنظم كل سنة قصيدة على هذا البحر والروي...** "[1].

لفت نظر الباروني قضية اجتماعية أخذت تنتشر في المجتمع بشكل سريع، فقد لفت نظره لبس الطربوش بعد أن كان مجتمعه يفخر بلبس العمامة أيما فخر، فعقد الباروني مقارنة لطيفة بين العمامة والطربوش دون أي انتقاص من قدر الطربوش، لكنه ذكّر بها الناسَ بفضل العمامة وأصحاب العمائم، يقول رحمه الله:

[الوافر]

لبستُ التاجَ تـاجَ الفخرِ كيما ... أرى أنَّ العِمامةَ مِـــن شؤوني
وأنشدُ قولَ مـــن هزم السرايا ... وخاضَ بـــرمحِه لُـــجَّ المَنونِ
(أنا ابنُ جلا وطـــلّاعُ الثنايا ... متى أضـــعِ العِمامة تعرفوني)
فإنَّ الـــعزَّ مـــــعقودٌ لواءً ... على هـــامِ العمائمِ والحصونِ
فهذي بـــقذفها دُكَّـــتْ جِبالٌ ... وتـــلكَ بطيِّها طَـــيُّ السكونِ
تعممَ سيدُ الـــخلقِ الـمُفدى ... كذا الـــخلفاءُ فـي خيرِ القُرونِ
تعممَ فاتـــحُ (البسفورِ) قهرا ... وحاكمَ مصرَ ذو العزِ المصونِ
وحاكمُ تونـــسَ الخضراءِ لما ... تعمَّمَ حازَ سبقا في الـــفتونِ
"تعمّمنا" فَـــسُدنا كـــلَّ قُطرٍ ... وبعدَ البرِّ خُضـــنا كلَّ جَـــونِ
"تعمـــــمنا" فـــأمنّا نفوسا ... وراقـــــبنا المعاندَ بالعيونِ
"تعمـــــمنا" فأرهبنـــا أسودا ... بتشـــديدِ المـــعاقلِ والحصونِ
"تعمـــــمنا" فعلّمنا أُنـــاسا ... رأونا الـيومَ أعـــداءَ الفنونِ
"تعمـمنا" فتمَّ الملكُ فينـــا ... وسادَ الدّينُ في كـلِّ البطونِ
"تعمـمنا" فنلنا كلَّ فـــخرٍ ... "تطربشنا" فـهل نلنـــا أروني

---

(1) ينظر، الديوان، ص ١٧.

قدم البارودي لنا في هذه القصيدة[1] – التي لم نجد بدا من إيرادها كاملة للطافة موضوعها وشعرها– قدم فيها صورة لأصحاب العمائم، وكيف أن أصحاب العمائم هم من فتحوا الدنيا، ونشروا الخير والعدل، ولا يذهبنَّ أحد إلى إنه يتحدث عن العمائم بما هي لفات للرؤوس تلبس في الحرب وتوضع في السلم[2]، بل إنه يتحدث عن القيمة الرمزية الكامنة وراء العمامة، فالعمامة رمز لكل ما هو عربي أصيل، كما أنها ترمز للقيم المجتمعية المحافظة على العادات والتقاليد والأعراف الإسلامية، فالبارودي بهذه المقاربة الاجتماعية يخلق حالة عند المتلقي مؤداها أن هذا المجتمع لن يصل إلى المستوى الحضاري الذي ينشده إلا إذا رجع إلى أصوله الأولى، فحافظ عليها، وانطلق منها، فإن أصحاب العمائم من لدن النبي محمد –صلى الله عليه وعلى آله وسلم– وحتى زمن البارودي، هم الذين انتصروا للإسلام ولقيمه، وهم الذين حققوا العدالة الاجتماعية التي حفظت للإسلام مكانته بين الأمم، لا بل أن هذه القيم المجتمعية المستندة على الإرث الإسلامي عقدي كان أم فقهي هي التي أرهبت الأعداء دونما قتال، فتماسك المجتمع الإسلامي في حالة السلم كفيل وحده أن يبعث في نفوس الأعداء كل الخوف، إذ أن الحرب تستدعي لحمة أشد وامتثالا للأوامر أكثر من حالة السلم.

وبالمقابل نجد البارودي – رحمه الله – قد لمّح إلى الطربوش بما هو رمز لكل من يدعي المدنية والتحضر، وجاءت هذه اللمحة سريعة، إذ يقول **[تطربشنا فهل نلنا أروني]**، لقد أسقط البارودي بهذه العجالة أي قيمة اجتماعية قد يحملها الطربوش، ذلك أن أصله قد يكون غير عربي، على الرغم من أن هناك من يقول بأن أصله عربي من المغرب[3]، وأيا كان مصدره، فليس المقصود هو الطربوش نفسه، بل المقصود ما القيمة الاجتماعية التي يحملها الطربوش، فبمجرد أن

---

(1) ينظر، الديوان، ص ٩٠- ٩٢.
(2) ينظر، لسان العرب، ابن منظور، مادة عمم.
(3) ينظر، http://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B7%D8%B1%D8%A8%D9%88%D8%B4

المستعمرين قد ارتدوه؛ فقد أصبح رمزا لثقافتهم وجزءا من نسيجهم الاجتماعي، لذلك نجد الباروني قد نادى عاليا بأن العِمامة هي أساس نجاة الأمة ونجاحها، ثم نجده قد اتكأ على مرجعياته التاريخية عندما أخذ يتحدث عن الرسول – صلى الله عليه وعلى آله وسلم–، وانتهاء بالحكام العرب الذين حافظوا على النسيج الاجتماعي العربي الإسلامي بكامل مظاهرة وأبعاده.

الخاتمة

استطاع الشيخ المجاهد سليمان باشا الباروني –رحمه الله– أن يستفيد من مرجعياته الثقافية على النحو الذي كشفنا عنه، وهذه الاستفادة تكشف لنا ذكاءه شاعرا ومفكرا، فالمرجعيات الثقافية إن أُحِسن استغلالها فإنها توفر لمن يستغلها مادة خصبة لأدبه وفكره.

إن الحديث عن المرجعيات الثقافية بشكل مفصل، لا يعني بحال من الأحوال أنه يجوز الفصل بينها دائما أبدا، إن الفصل بينها لا يصح في غير مواطن البحث، فالفصل بينها فصل إجرائي فحسب، هدفه بيان مواطن ظهور هذه المرجعيات وآليات اشتغالها في النص، والإستراتيجيات التي تعتمد عليها أو تهدف لإنشائها في بين الناص ومتلقي النص.

تعد المرجعيات الدينية من أبرز المرجعيات التي ظهرت في ديوان الباروني، وهذا أمر طبيعي متوقع، ذلك أن نشأة الباروني في بيت دين وورع، لاشك أسهم كثيرا في تطور هذه المرجعية كثيرا، وفي نفس الوقت فإن هذا لا يعني أنه باقي المرجعيات لم تتوفر في ديوانه بشكل كبير، فالمقياس ليس توفرها، بل مدى ظهورها في الديوان، ومدى قدرتها على توجيه النصوص وتشكيلها؛ لذلك نجد حضور المرجعية الثقافية السياسية بشكل كبير في الديوان، ذلك أن

الباروني كان كلفا بأمور السياسية بحكم مناصبه التي تقلب فيها، وبحكم تَرحاله وتَسياره بين أقطار العالم.

يظل هذا البحث ناقصا ما لم يردف بدراسة تفصيلية حول المرجعيات الثقافية في شعر الباروني، تعمد إلى الوقوف على كامل المرجعيات بشكل أكثر عمقا وتفصيلا مما هو في هذا البحث، كما أنها ستظل قاصرة ما يلقَ الديوان اهتمام الشارحين والمحققين للأحداث السياسية التي احتفى بها الديوان، فإن إثبات هذه الوقائع يعين الدارسين له على الكشف عن آليات اشتغال هذه المرجعيات في النص تشكيلاً وتفسيراً.

سليمان الباروني أديباً ومؤرّخاً

د. زهرة سعدلاّوي حرم كحّولي (*)

مقدمة

يُعتبرُ الباروني[1] بمفهوم نقّاد القرن العشرين صاحبَ نصّ مُتعدّدَ الأصْوَات. كَتَبَ في أجناسَ مُختلفة، تَعدّدت بِتعَدّد أَلْوَان التّعْبير في عصره. فكتب الشّعْرَ، وكتب النّثْرَ، خُطبًا ورَسَائلَ، ووَثّقَ لوَقَائع عصره[2].

وأوْقَدَت مِحْنَة المَنَافي في أديب ليبيا جَذْوَة الإبْدَاع فَأَحَبَّ العلوم الدّينيّة والفِقهيّة، وإلى جانب ذلك كان الرّجل ناشِطا سياسيًا. اهتمّ بالحِزْبِ الوطني في مصر، وبحركة حزب الاتّحاد والترقّي، وبِحَرَكَة الجامِعة الإسلاميّة والإصلاح الدّيني، كما عُرف بتوجُّهِه الإباضيّ مَذهبا.

تترجم هذه القطوف من سيرة الباروني، ومن آثاره عن شخصيّة تميّزت بِمَلَكَة إبداعيّة قويّة، وبِحِسّ وطنيّ عميق نحا به إلى دقّة المُلاَحَظة والتّوثيق، إذ برْهَنَ الرّجُلُ عن قُدْرَة في مُلاَمسَة الشّعريّة بمَقاييس عَصْره فطبَعها بطابع التّعَالي النّصّي، فنجده يَتَجَاوَزُ النصّ الشّعري لِيَكتب الرّسائل والمقالات الصّحفيّة. وليس هذا بغريب عنه وهو صاحب نشاط صحفي، وله جَرِيدَة. هذا على المُسْتَوى

(*) د.ة. زهرة سعدلاّوي حرم كحّولي، باحثة جامعية، وزارة التربية والتعليم، تونس.

(1) ولد سليمان عبد الله الباروني سنة ١٨٧٣ وتوفّي سنة ١٩٤٠. تلقّى علومه الأولى على يد والده. وبتشجيع منه التحق بجامع الزّيتونة بتونس. ودرس على جملة من الشّيُوخ منهم عثمان المكّي، ومُحمّد النّخْلي. وكان قد استفاد كثيرا من تلك البيئة المُزدهِرَة التي أنجبت خير الدين التونسي، صاحب كتاب "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك"، وما عرف به من آراء إصلاحيّة، ومحمّد بيرم الخامس صاحب كتاب "صفوة الاعتبار". وفي مرحلة ثانية شدّ الرّحال إلى مصر، والتحق بجامع الأزهر. وكانت البيئة الفكريّة والأدبيّة مُزدهرة، من رُوّادها محمّد عبده، وجمال الدّين الأفغاني، ومحمد رشيد رضا. أمّا وجهته الثالثة فكانت الجزائر بـ"مزاب"، حيث تمرّس على ميدان الصّحافة. عُرف بنضاله ضدّ الاستعمار الإيطالي. أجيكت ضدّه مُؤامَرَة فأبْعِدَ عن وطنه إلى فرنسا، واستقرّ بـ"عُمان"، كما سافر إلى "العراق"، وغيرها من الدّول العربيّة، والأوروبيّة. أصيب بمرض الملاريا، ومات في الهند عندما ذهب للتّداوي. (لمزيد التعمّق انظر محمّد مسعودي جبران، سليمان الباروني، آثاره، ص ٢٣-٢٨).

(2) نذكر من هذه الكتب، "الأزهار الرّياضيّة في أئمّة وملوك الإباضيّة"، كما أنّ المنيّة لم تسعفه في نشر كتاب أراد أن يُوثّق فيه الحروب التي عاشتها ليبيا، فنشرته من بعده ابنته زعيمة الباروني تحت عنوان "تاريخ الحرب في طرابلس الغرب".

السّطحي، أمّا على المُسْتوى العَميق، أو على مُستوى المَدَاليل فلقد كان البَارُوني يَتواصل من خلال ما يَكتب مع الوطن، أهلا، وأصدقاءَ، وسَاسَةً، إضافة إلى اتّخاذ هذا الجنس من الكتابة وسيلة يُعْرَف من خلالها بمِحْنة بلاده بسبب الاستعمار، ويُسجّل تاريخا لوقائعَ عاشَها في عَصرِه، وتفاعَلَ مَعَها. فكان يَجْمَعُ في توجّهه الفكري بين إبْداع الأدِيب وحِرْص المُؤرّخ على الدِقّة والمَوْضوعيّة.

لقد كتب عن مَسِيرته الجِهاديّة والفِكْريّة والأدَبيّة، وعن تنقّلاتِه في رحَلاته كَثيرٌ مِن البَاحِثين، والدّارسين، والمُثقّفين من داخل ليبيا وخارِجَها فاهْتَمّوا بدراسة شخْصيّة سُليمان البَارُوني على المُسْتوى العَقائدي والفكري، والجِهَادي والإصلاحي، كما اهتمّوا بشخصيّته الأدبيّة، شعراً ونثراً.

تبقى هذه الدّراساتُ الأدبيّةُ في حاجة إلى مَزيد مِنَ التّعمّق. وما تنظيم مثل هذا المُؤتَمَر سِوَى علامة دالّة على مَكانة الرّجل العِلْميّة والأدَبيّة، وعلى وفاء **عُمَان**، البلد الذي مكث به أكثر من ستّة عشر سنة من عمره فخبر أهلَه وخبروه، وتفاعل مَعهم فأفاد واسْتفاد. وهي مَرحلةٌ تُترجِمُ عن قوّة التّواصل الحَضاري والفكري بينه وبين الأقطار التي اتّخذها مَوطِنا له ثانيا بعد ليبيا. ولهذا السّبب يَظلّ الباروني شخصيّة تشُدّ المُتلقّي من المَغرب والمَشرق وتُغْرِي بالبَحْث وبالإضافة.

وسَنُحاول في هذه المُدَاخَلَة أن نَضعَ الباروني في عصره، ونبيّن مَدى استفادَته مِن تيّارِ التّجْدِيد الذي كان يُغري بمزيد من المُرونة والسّلاسَة في الأسلوب والحرص على التّعامُل مَع قضايا العصر. وذلك بالانطلاق من ديوان شعره، ومن رسائله ومَقالاته الصّحفيّة التي بها وثّق لأحداث عصره، مُحَاوِلين الوُقوف على مَدَى "إسْهَامِه في صناعة التّاريخ".

رأينا أن نُقسّمَ بَحْثنا إلى ثلاثة عناصر يَحْمِلُ العنصرُ الأوّلُ عنوان: في أجناس النصّ "الجامع" وأهمّ خصائصه، النّصّ الشّعري أنموذجا، ثم نتناول في مرحلة ثانية النصّ النثري عند الباروني، تقنياته، ومرجعيّاته، وندرس في مرحلة ثالثة النصّ "الجامع" والمقاربات التّاريخيّة.

١- في أجناس النصّ "الجامع" وأهمّ خصائصه الفنية، النصّ الشّعري أنموذجا

تعدّدت التعريفات للنّصّ بِتَعَدّد المَنْهج الذي يَتبنّاه. "فهناك التّعريفُ البنيويُّ، وتعريف اجْتِمَاعيّات الأدب، والتّعريف النّفساني الدّلالي، وتعريف اتّجاه تحليل الخِطاب...فالنصّ إذن يَنقُل أحداثا تقع في زمان ومكان مُعيّنين لا يُعيد نفسه إعادة مُطلقة مثله في ذلك مِثل الحَدث التّاريخيّ، كما أنّ هناك للنصّ وظائفَ أخرى منها الوظيفة التّفاعليّة التي تقيم علاقات اجتماعيّة بين أفراد المُجتمع وتُحافظ عليها. إضافة إلى وظيفته التّواليديّة. فالنصّ لا ينبثقُ فيه الحَدَثُ من عَدَم، وإنّما هُوَ مُتولّدٌ من أحْدَاثَ تاريخيّة ونفسانيّة ولغويّة...[١] و قد تتعالق هذه النّصوصُ أحيانا لتكوّن نصّاً جامعاً[٢](architexte). وهو النصّ الذي سنعمل على تحديد أهمّ خَصائصه في مُدوّنة الباروني، وندرس من خلاله أهمّ عناصر خطاب التناصّ[٣].

---

(١) محمّد مفتاح، تحليل الخطاب الشّعري (استراتيجيّة التناصّ)،المركز الثّقافي العربي ط.1.١٩٨٥م، ط٣،١٩٩٢م، ص١١٩-١٢٠.

(٢) النصّ الجامع هو نصّ "تقوم في أحنائه نصوص أخرى في مُستويات مُتغيّرة وبأشكال قد نتعرّفها إن قليلا أو كثيراً[...] كلّ نصّ نسيج طارف من شواهد تالدة". رولان بارت، نظريّة النصّ، تر.منجي الشّملي، وعبدالله صولة، ومحمّد القاضي، حوليّات الجامعة التّونسيّة، العدد ٢٧،تونس،١٩٨٨م،ص٨١ والنصّ الجامع عند جيرار جنيت هو "مجموعة من المقولات العامّة، أو المُتعالية التي يحتوي عليها كلّ نصّ فرد. وهي أنْماطُ الخطاب وصيَغُ التلفّظ والأجناس الأدبيّة وغيرها Palimpsestes Gérard Genette, du "Edi,Paris,seuil ,1982.p72. :la littérature au second degré

(٣) نعني به "حواريّة النصّ " التي أقرّها "باختين" عندما تحدّث عن "تعدّد الأصوات في النصّ". (Polyphone) بأنّ الأديب يستخدم تعدّد الأصوات في مؤلّفه (خاصّة الرّواية) شعر بذلك أم لم يشعر .انظر
Poétique aux éditions du ,le principe dialogique.coll ,Mikhail Bakhtine TzvetanTodorov seuil.Paris.

يحتوي النصّ "الجامع" عند البارودي على النصّ الشّعري، والنصّ النّثري، وقدّم لهذه النّصوص بما نسمّيه في عرف المُنظّرين المُحْدَثين في النقد الأدبي بالعَتَبات. ومن عَناصر العَتَبات التّمهيد[1]، ومُقدّمات لقصائده دون استثناء. وإشارات إلى تصنيف شعره مِثل " النتفة " و" القطعة "، وآراء بعض الأصدقاء في شعره. وكان البارودي يُخَصّص في كُلّ قصيد هامِشًا يَشْرَحُ فيه عبارة، أو يُوَضّحُ غمُوضا ورد في قصيده، أو يقدّم مَعْلُومَات جَغرافيّة، أو تاريخيّة، أو يُعَرّف بشخصيّة أدبيّة، أو سياسيّة[2].

يقول في التمهيد مثلا بعد الحمد للّه، والصّلاة والسّلام على رسوله، وبعْد الاسْتشهاد بالآية الكريمة " وَما عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ، إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ "[3]. يُشير البارودي إلى مُقترح أصدقائه الذين كانوا يُشجّعونه على طبع شعْره، ونَشْرِه، وقد أبدى الشّاعِرُ نوعا من الاحْتراز لعدم ثقته في أنّ ما يَكْتبه يَصلُحُ أن يُضاهِيَ به فحولَ الشّعراء، وأنّه وإن قبل فليس ذلك إلاّ من باب إرضائهم. ثمّ يضيف قَوْلَه بأنّه لا يَرْغب في أنْ يشْمَله قوله تعالى " والشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ، يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ "[4]. تُعْتَبَرُ هاتان الآيتان نصًّا دينيًا مَهّد به البارودي لديوانه. وهو قوْلٌ طبيعيّ جدًا مُقارنة بثقافته، وتحصيله الديني. ولم يُفْصِح في هذا التّمْهيد حَسَب ما قاله شوقي ضيف "عن وجهة، أو فلسفة خاصّة في الحياة والأدب، ولم يَبِنْ خلالها عن نظرة للشّعر والتجديد. ولا بدَع في ذلك فقد كانت مُقدّمات الشّعراء لدواوينهم في تلك

---

(1) سليمان بن عبد الله البارودي النّفوسي، الديوان طبع بمطبعة الأزهار البارودية،جمادى الأولى ١٣٢٦ هـ.

(2) "قلت القصيدة الآتية في مدح جلالة مولانا السّلطان عبد الحميد، يوم احتفالنا بافتتاح مدرسة (يفرن) المعروفة الآن بالبارونية وقد حضر فيه سعادة عزت باشا مُتصرّف اللّواء إذذاك والمُوظّفون كافّة، والأعيان من بلاد مُتعدّدة. وخطبت فيها بعد خطبة الباشا. وكان يوم ١٢ ربيع الأوّل سنة ١٣٢٢هـ... ويقول في الصفحة ١٠ "وخطبت ليلة الجلوس الثّاهاني في المَدْرسة التحضيريّة بمصر، بهذه القصيدة بعد نثر مُناسب للمَقام ١٣٢٤هـ." الديوان م.س، ص ٣،٤، ٥، ٧.

(3) سورة يس الآية ٦٩. الديوان، ص٢

(4) سورة الشّعراء الآية٢٢٤، الديوان، ص٢

السّنين لا تخرج عن هذا المَسار[1]. أمّا في مَفهُوم النّقد الأدبي الحديث فالمُقدّمة، أو التّمهيد لا يَرِدان اعتباطا، بل يلعَبان دورا وَظائفيّا، وتعبيريّا هامّا[2]. " فالعتباتُ مَداخلُ مُؤطّرةٌ لاشتغال النّصّ وتداوُلِه، لأنّها تُحَدّد نَوْعيّة القراءة، بما لها من تأثير مُباشر على القرّاء. فهْي تضع النصّ مُنذ البداية في إطار مُؤسّسة ثقافيّة وأدبيّة، يكون لها في الغالب دَوْرٌ حَاسِم في توجيه القراءة والتّأثير على القرّاء بمعنى مَنحهم تصوُّرا مُسبقا للنصّ، يَكون له تأثير على نوعيّة إدراكهم له"[3].

جاء التقديمُ إذن مُمَهّدا، ومُوَضّحًا للقصيد اللاّحق. وتكتسب المُقدّمة بُعدًا استباقيّا، يُعتبر ردّا من الباروني على دارسيه. ذلك ما ذهب إليه عندما ادّعى التّواضعَ، ونَفى عن نفسه فُحُولة قول الشّعر. ويمكن اعتبار هذا القول جوابا لناقديه الذين ردّ بعضهم على مَنْ هُوَ مُعْجَبٌ بشعره، مُثن عليه، بأنّ "ديوانه ليس أهلا لذلك الثّناء والتعظيم، إلاّ إذا كان من قبيل المُجَامَلة والمُصَانعة، فأغلبُ أشْعَار الباروني، تفتقد عنصرا من أهمّ العناصر، التي يَجب توفّرُها في كلّ عَمَل أدَبيّ، وهو عُنصرُ التجربَة، ومُعايشة الحَدث، وإحكام الصّورة الأدبيّة "[4].

والمُطّلع على تجربة الباروني الأدبيّة، وسيرته الذّاتيّة، وخطاب العتبات المُوثّق لشعره يَلْمَسُ أنّ الرّجل كان رحّالة، وبالتّالي فقد اكتسب تجربة عميقة من خلال ترحاله، أمّا نفي النّاقد عن أديبنا مُعَايشَته الحدث فما أحسبه قد وُفّق في قوله ذلك، لأنّ الباروني بفعل ترحاله كان يُعَايش أحداث قصائده ونصوصه مُعايشة مُباشرة، إذ كان يُشَاهِدُ الحَدَث ويَتفاعَلُ معه ثمّ يَكتب عنه. أمّا نفيه عنه "إحكام الصّورة الأدبيّة" فقد يكون ذلك صحيحاً إلى حدّ ما خصوصاً وأنّ الرّجل نفسه لم يدّع في قول الشّعر فُحُولَة، ولا صَنْعَة. فما يَكتبه الباروني لا يُعدّ "مُجرّد

---

(1) شوقي ضيف، الفنّ ومذاهبه، دار المعارف القاهرة.ط. ١٩٦٩،٧، ص٥١٤ نقلا عن محمد مسعود جبران.سليمان الباروني آثاره الدّار العربيّة للكتاب، ص٧٨

(2) Gérard Genette ; Seuils. Ed.du seuils.Paris ;Février.1987. PP316-325 تمثّل مكوّنات المصاحب النصّي من مقدّمات ونصوص تصدير، وآراء نقدين في آثارهم، عتبات، يمهّد بها الأديب لمؤلّفه.

(3) Jean Pierrow Goldenstein:Examen d'entrées in :le français dans le monde Juin1=177.1983P.94 Mai- علامات نقلا عن حميد لحميداني، عتبات النصّ الأدبي،(بحث نظري)، 23ج٤٦،م.١٢،شوّال ١٤٢٣- ٢٠٠٢، ص.

(4) عبدالمولى البغدادي،الشعر الليبي الحديث (مذاهبه وأهدافه)، ص٢٠٩، نقلا عن سليمان الباروني آثاره،م.س. ص٨٣.

عمليّة لغويّة مَجانيّة، وإنّما له وظائفُ مُتعدّدة تختلف أهَمّية وتأثيرا بحسب مَوَاقف الْمُتناصّ ومَقاصِده"[1].

فما إن نتجاوز مُسْتوى الشّكل حتّى يُحيلنا ديوان الباروني على عُمْق حَافل بِقضايا العصر وهمومه، وبقضايا فكريّة ونضاليّة مصيريّة. ففي أغلب الأحيان يُعتبر النصّ الشّعري وحدة مُنغلقة على نفسها. " فالنصّ له عالمه، وحَياته الخاصّان به، فلا يُحيل على الواقع إلاّ ليَخرقه "[2].

تتعالق كتابة الباروني للشّعر من حيث الشكلُ مع غيره من الشّعراء المُنظّمين للشعر التّقليدي في عصره. وذلك على مستوى شكل القصيد العمودي، والإيقاع، والأساليب البلاغيّة. " وقد يَنبَني على هذا، التّساؤلَ التّالي: أيَكُون التّناصُّ في الشّكل أو في المَضمون، أوهما معا[كذا] ؟ ... يكون التناصّ (حسب صاحب تحليل الخطاب الشّعري) في المَضمون، لأنّنا نرى الشّاعر يُعيد إنتاج ما تقدّمه وما عاصره من نصوص مَكتوبة وغير مَكتوبة...أو يَنتقي منها صورة أو مَوقفا دَرَامِيًا أو تعبيرا ذا قوّة رَمْزيّة، ولكنّنا نعلم جميعًا أنّه لا مَضمون خارج الشّكل، بل إنّ الشّكل هو المُتحكّم في المُتناصّ، والمُوَجّه له، وهو هادي المُتلقّي لتحديد النّوع الأدبي ولإدراك التناصّ، وفَهْم العَمل الأدَبي تبعا لذلك"[3].

تجمَعُ قصائِدُ البَاروني بين شِعريّة الشّعر وسَرْديّة الأحداث، ذات الطّابع التّاريخيّ. فهي تحْمِل في مُسْتواها العَميق حُضورا للاحتلال العُثماني، والاستعمار الإيطالي، والفرنسي، والبريطاني.

يضمّ ديوان الشّاعر من حيث **المَضمونُ** أغراضا شعْريّة ذات مَواضيعَ لها علاقة عَميقة بقضايا العَصر، مثل الشِّعْر السّياسي والإصْلاحي، وشِعْرًا في

---

(1) تحليل الخطاب الشّعري، م.س. ص١٣٢ .
(2) المرجع نفسه، ص١٢ .
(3) المرجع نفسه، ص١٢٧-١٢٨.

الوطنيّة والجهاد، وفي الإخوانيّات، وفي التّهَاني والعتاب. فَضَحَ البَارُوني في شِعْره نوايا المُسْتعمر، ونبّه إلى مَخاطره، وكشف عمّا كان يُخَطّط له من استغلال لثروات هذه البُلدان الإسْلاميّة، تونس، ومصر، والجزائر، وعمّان. تلك الأقطار التي عاش فيها فترات طويلة من عُمُره، واتّخذها دارا له بعد وطنه فخبر أهلها، وخَبَرَ دسَائسَ المُستعمر، واستعباده لشُعُوبها باسم الحُرّيَة والدّيمُقراطيّة. كما أنّ الدّيوان سَجّل قصائد فَخريّة، وأخرى مَدحيّة في السّلطان العُثماني عبد الحميد، "أمّا قصائد الغزل والحُبّ ولَوَاعِج القُلُوب، فلا نَجِدُهَا في ديوانه[...][1].

ولقد تطرّق إلى هذه القضايا شُعَرَاءُ من قبله مثل صدقي الزّهاوي، ومَعْرُوف الرّصافي، وحافظ إبراهيم. ومن هنا نلمس تعَالُقًا بين شعر الباروني وهؤلاء الأعْلام. ألَمْ يَكن الشّاعِرُ دائما لسانَ قوْمِه، وضميرَهم، ومُترجمَ أقوالهم والواصِف أحوالهم ؟

يَنقسم شعر الباروني إلى فترتين، ما نظَمَه قبل سنة ١٩٠٦م، أي قبل مَجيئه مصر. وهو شعر طُبِعَ بِطابع التذمّر والقلق بسبب السّياسَة العُثمانيّة، وإدارتها الهَشّة، ومَواقفها الجائرة. كما عبّر بعض ما بقي من قصائده عن ألمه، وسُخطه على تخلّف بلاده مُقارنة بالجَارتين تونس، ومصر، فضلا عن أوروبّا والدّول المُتمدّنة، ولعلّ قصيدته:

"وداعـــا يا ديار الـعزّ حتّى أعُـــود إليك في أهنأ نهـار[2]

تنقل مَشاعره إزاء وطنه وقلقه على عدم وعْي أهله بالأخذ بأسباب التقدّم. وبدا في هذه القصيدة عمليّا، إذ عرض فيها منهاجه الإصلاحي. الذي يرنو من

---

(1) علي مصطفى المصراتي، لمحات أدبيّة عن ليبيا،المطبعة الحكوميّة، طرابلس الغرب،١٩٥٦م، ص٥٧، نقلا عن محمّد ممعود جبران، م.س.ص٨٨. وفي هذا الإطار يُؤكّد المصراتي، أنّ الباروني كان رَجُلا وَقُورًا، وعالما وداريًا للفقه الإسْلامي، بل هو شيخ مُبجّل، ورُكن رَكين من الإباضيّة الأكارم، الذين اشتهروا بالتجمّل والعفاف، والتمسّك بأهْداب الدّين إلى حَدّ بَعيد."

(1) الدّيوان، ص٧٣.

خلاله أن يرى وطنه حافلا بإنجازات تتعلّق مثلا بمدّ خط سكك الحديد والكهرباء، وإنشاء المدارس، والاستعانة بالتّلفون لتسهيل التّواصل مع الآخر وتذليل صعوبات الخدمات، وبدا شاعرنا فعلا مُتحرّقا إلى نهضة تشفي غليله، وتُصْلِحُ الحال وتمحُو العار.

ويقوى الإحساس بضرورة خدمة الأمّة الإسلاميّة في **مرحلته الثّانية**[1] التي انتقل فيها إلى مصر، واستفاد كثيرا من حركتها الفكريّة المزدهرة. فتطوّر فكره السّياسي، كما مكّنته هذه الحَرَكَة من أن يَكْتُبَ ويُبدِع، ويتطلّع إلى تحقيق ما هو أفضل. لذلك يَصحّ أن ننعت شعره في هذه المرحلة بـ" الشّعر السّياسي والإصلاحي ".

ولقد كان يُؤلِمُه حَالُ الأمّة الإسْلاميّة الرّازحة تحت ثقل المُستعمر. فبدا مُتحمّسا لخدمتها وزرع الوَعْي في صفوفها كَيْ تنهض وتُحَقّق التّقدّم والعِزّة والكَرَامَة. يظهرُ ذلك فيما بثّه من لواعجَ وحماس في قصيدته التي يستنجد فيها بالرّسول محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ليُشهده على تلك الحالة.

قمْ يا مُحمّد يا ختـام المُرسَلين وانظر بعينك كيف حال المُؤمنين[2]

استعمل الشّاعر في هذا البيت فعل الأمر الدّال على الطّلب، والنّداء الدالّ على الاستغاثة أيضا، ثمّ أردفه بنداء ثان دِلالة على علوّ مَقام المُنادَى. فهو مُحمّد رسول اللّه، المعروف لديه ولدَى المُتلقّي. يستدعيه من قبره ومن زمن بعيد كي يرى عن قرْب الأوضاعَ التي وصل إليها حالُ الأمّة[3].

---

(٢) انظر سليمان الباروني آثاره،م.س. ص٩٣-٩٤.
(٣) المصدر نفسه، ص٧٢.
(١)

آه بمولدك الشّريف تنـــوّعـت طرق المعـــاصي فـــي بلاد المسلمين
لا نهي بل لا أمر بـــل لا مـــنتهى حار الـــدّليل وعار حـــزم المـــرشدين

لا تبدو القصيدة عند الباروني **ساكنة، مُسطّحة**، بل هي قصيدة أساسُها **التّوالد، والإنتاجيّةُ، وتنوّع المواضيع**، لذلك طغت على قصائده الرّوح **الثّائرةُ** على ما يقوم به المُستعمر من جرائم في حَقّ الشّعب المسلم. ثمّ يخاطبهم حانقا بقوله:

"فليعتدل إن شـــاء أو فليعتزل ولّبيْك "كـروزن" الفتـى المَـكّار[1]
ولمُوسيلِينِـــي أن يخـصب خدّه وكـــفـــوفه فـــالهنـا قـــهّار

يميل أسلوب الباروني إلى **التّكرار، والتّراكم**. ويَتجلّى ذلك في كثير من قصائده (الديوان)، مثل هذه التي."يشيد فيها بالرّابطة العثمانيّة وبالسّلطان، عبد الحميد، كما أشاد الحزب الوطني بتلك الرّابطة وبسلطانها. يتكرّر فعل "**خطونا**"[2] مرّتين دلالة على انقضاء الفعل في زمن مَضَى. ثمّ يُردف الفعل بمفعول مطلق تأكيدا منه على وُقوعِ الفعل "خطا"، وإشارة من الشّاعر إلى الوضع السّيّء الذي أصبح عليه حَالُ الأمّة. ثمّ يُكَرِّرُ سبع مرّات اسم الفعل "**متّى**"[3] الدالّ على الزّمن، والمُقترن هنا بصيغة المُضارع دلالة على المُستقبل، مِمّا يُترجِمُ عن لهفة الشّاعر في تحقيق جُملة من الإنجازات في الزّمن المُستقبل مثل تحسين الوضع، وتحقيق النّصر، والنّهضة والإصْلاح، والوَعْي وتحقيق الاسْتقرار، وازدهار الوطن.

"متى يَستقيمُ الحالُ يا هل ترى متى يلذّ صدى الدّين الحَنيفي في السّمعا
متى ينهض القـوم الكرام ليُصْلِحُوا مَـفاسِد أقـوام تـواطت على القطع

---

(1) سليمان الباروني، آثاره، م.س.ص١٠٦
(2) الديوان، م. س، ص١٢٢-١٢٣، نقتطع من القصيد هذه الأبيات:
على منبـــري أهدي التّحيّة للجَمْع وأنشـــر أقوالا سمت من صـــفا روعـــي
وأخطب والأقـــوام تـــعلم أنّ لـــي رُمُـــوزا وبَعْض القَوْل أشبه بـالقـــرع
خطونا خطى لا قـــدّ الله عودهـا وإلاّ فأشـــهى الأمر سام عـلى تظـــع
خطونا خطى فيها المذلّة خـــيّمت علينا ففاضت أعـــين الـحرّ بالدّمـــع
(3) المصدر نفسه، ص١٢٣.

ويُكرّر الشّاعر في قصيد آخر كلمة "**حزب**"[1] في صدر بيت واحد ثلاث مرّات، وقد لا يَكون ذلك بسبب ضرورة شعريّة، ولكن شعورا مِنه بالمَلل والضّجَر واليَأسِ، والحُزن على حال المُسْلِمين الذين بَالَغُوا في التكثير من الأحزاب، دلالة على الاختلاف وتشتيت الآراء، والتمسّك بالسّياسة. فبدأ البيت الأوّل بقوله:

كلٌّ يُؤسّس حزبا كي يكـــون لـــه رأسا فتصبح والأعضـــاء في سَقم
حزب وحزب وحزب صحفت فغدت حربا لصـــلاح الأمـــر بـــالسّلم

ردت قصائد الباروني في أسلوب مُباشر يَعْمل على ترسيخ مَبَادئ القيم التي يُلحّ بهذا التّكْرَار على أنْ يراها مُجَسّمَة في وطنه، مُفَعّلة فيه. ويُذكّرِنَا هذا القَصيدُ بأبيات قالها شوقي[2]:

"إلام الخُـــلْفُ بينكُـــمُـــوا إلامَ وهَـــذي الضّجّة الـــكُبرى عـلاَمَ
وفيمـــا يَكيدُ بعضُكُـــم لبعْـــض وتُـــدوّن الْـــعَداوةُ والخِصـــامُ

ويَتضمّن الدّيوانُ مَواضيعَ مُخْتلفة مثل المُناسبات الدّينيّة (الاحْتفال بالمَوْلِد النبوي الشريف، الدّيوان،ص٧٢) وبالعادات في اللّباس ومُسَايَرَة الجَديد مِنه. فنراه في هذا القصيد مُتحمّسا للبس العمامة، مُفضّلا إيّاها على الطربوش، لأنّها جزء من الشّخْصيّة العَربيّة الإسْلاميّة، وعنوان هويّتها، فيُكرّر لذلك فعْل "**تعمّم**"[3] إحدى عشر مَرّة، مُتنقّلا فيها من الفعل الوَارد في صيغة الأمْر "**تعمّم**"، للتشجيع، ثمّ يُعرّج على العَصر المَاضي الذي اقترن فيه لبس العَمامة بِعزّة المُسلمين ومَجْدهم ، وهم الفاتحُون العُتاة، أصحاب الحَضارة الشّامِخة.

---

(1) سليمان الباروني، م.س.ص٩٨
(2) أحمد شوقي، أمير الشّعراء، دراسة ونصوص، دار صعب بيروت.ط.٣، ١٩٧٨. انظر، ص٤٤٠.
(1) الديوان، ص١٢٦-١٢٧

تعمّمنـــا فسُـــدنا كـــلّ قطـــر وبـــعد البرّ خضـــــنا كلّ جـــون
تعمّمنـــا فأخضـــعنا عتـــاة طـــالما قـــالت ذرونـــي
تعمّمنـــا فأمّنّـــا نفوســـا وراقبـــنا المَعاند بـــالعيـــون

يُبنى هذا التكرارُ على التّعداد والتفصيلِ رغبة من المُخاطب في الإقناع والتّأثير، فيُشكّل تكرارُ فعل "تعمّمنا" إحدى عشرة مَرّة ما يُسمّى بالإطناب (Redandance)، وقد يُحْدِث هذا الإطنابُ نوعا من المَلل لَدَى الْمُتلقّي.

كما يتكرّر حرف النّداء "يا" ثلاث مَرّات. ويَعْني هذا النّدَاءُ " طلب المُتكلّم إقبالَ المُخَاطب بِحرف نائب مَناب "أنادي" المَنقول من الخبر إلى الإنشاء"[1].

هناك تكون يا وطن المعالي عزيز العلم مُجتمع النضار
ألا يَا قوْمُ قد نمْتم طويلا وهِمْتم بالجَهَالة في البرار[2]

ويُعبّر حَرْف النّداء على الخِطاب المُباشر للوَطن وللقَوْم. فهو يَحْمِلُ هُموم وطنه في كامل جوارحه، وعواطفه. لذلك كَرّرَ حرف النّداء تعبيرا منه على آهة وقلق يَمْلآن نفسه ويَمْلكان عليه أحَاسيسه.

وفي قصائد أخرى يُطنب الشّاعر في تعداد أفعال المُستعمر، مُتحَدّثا عن فضاضته، والعمل على تمزيق صفوف الشّعوب العربيّة. يقول في مطلع القصيد[3]:

دُوَلٌ على قهر الأنام تحَالفت فتَحَكّمَت فازدادت الآلامُ

يرقى الباروني بهذه الأبيات إلى دقّة الوصف وجَمَاليّة التنضيد. فالنصّ الوَصْفي يَعْمَلُ على تحقيق الشّعْريّة، مُواءَمة مع النصّ السّردي. يذكرُ الشّاعر/ السّارد الدّول الأوروبيّة المُستعمِرة، ثمّ يشرع في تفصيل أعمالها. فينطلق من فعل "تحالف" الذي تفيد حروف الزّيادة فيه **المشاركة**، أي المشاركة السلبيّة في نشر

---

(2) السيد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبديع، شرح وتحقيق حسن أحمد، ص٦٥-٦٦
(3) سليمان الباروني، آثاره، ص٩٢-٩٣.
(4)

وغدت تقسّم من بُلاد اللّه ما شاءت وما للمؤمنين سِهَام
قبضت مَفاتيح البلاد ومزّقت فاشتدّ بين المُسلمين خِصام
فتنافسوا وتقاطعوا فاستضعفوا وبدا الموحّد حيث حلّ يضام

سياسة **القهر والذل**، والنتيجة أنّ هذه الدّولَ حقّقت ما تريد من بَسْط النّفُوذ، والتّحَكّم في رِقاب المُستضعَفِين. ثمّ يأتي الفِعْلُ الثّالث وقد تمّ الرّبط فيه بالفاء دِلالة على النّتيجَة المُتمثّلة في ازدياد الآلام، وتدَهْور الوَضع.

ويمضي الشّاعر في تعداد الأفعال مُستعمِلا حروف الرّبط "الواو" التي تفيد تعَاقبَ الأحْداث تعاقبا سريعا في الزّمن، ثم "الفاء" للدّلالة على التدرّج في التعاقب في الزّمن."قبض، ومزّق، فاشتدّ". أمّا كلمة "مفاتيح" فهْي رمزٌ للقوّة، والقدرة على الإنجاز، والانتشار، فإذا مَلكت المفتاح مَلكت الحَلّ، وذلّلت الصّعاب. ومن ثمّ جاءت مرحلة التمزيق. ففعل "مزّق" على وزن فعّل يُفيد المُبالغة في القيام بالفعل، ولن يَكون المَشْهدُ إلاّ مُؤلِما، لأنّ المُسْلمِين الذين كانوا كُلاّ واحدا يَجْمَعُهم حُبّ الوطن، والدّين، واللّغة أصبحوا في خصام دائم، ودخلوا مَرحلة الشّقاق، والتّنافس السّلبي. وكانت النّتيجة الضّعف والذلّ.

تبنى الجُملة في اللّغة العربيّة على مُسند، ومُسند إليه، ومُتمّم، إلاّ أنّ بلاغة التعبير والتّلاعب بالكلمات يَستوجب أحيانا التّلاعب بالتراكيب. ومن هنا فإنّ البيت الأوّل من القصيد المَذكور لم يُراع فيه الباروني الترتيب الأصلي للجملة فقدّم المُتمّم " **على قهر الأنام** " على فعل " **تحالف** " والذي يُشكل مُركّبا فعليّا ورد خبَرا للمسند إليه " **دول** ". ولن تكون وظيفة المُركّبات الفِعليّة المُتتالية (**فتحكّمت، وغدت،قبضت، ومزّقت...**) إلا خبرا مَعْطوفا.

يفيد عنصرا الزّيادة في فعلي " **تحالف** " المشاركة، وفي فعل **تحكّم**" المُبَالغة. وإذا ما قدّم الشّاعر المفعول به على المسند إليه فذلك ليس لضرورة شعريّة فقط، بل لإبراز صنيع المستعمر، والتّأكيد عليه قصد فضحه والتشنيع به.

ولن يكون تكرارُ حرف " **الميم** "، خمسة عشر مرّة[1]، من جملة خمس وثلاثين (٣٥) عبارة إلاّ توضيحا وتأكيدا على هذه الحالة. كما أنّه من سِمات حرف " **الميم** " أن يَكُون شَديدا، ومَهْمُوسًا، لِذلك دَلّ في هذا المَقام على الشِدّة، وعلى الألَم في صَمْت.

ويُمْكن تصنيف الأفعال إلى صِنفيْن: أفعال **فاعلة**، " تحكّم "، " قسّم "، "قبض "، " مزّق "، ونتيجة لهذه الأفعال ازدادت الآلامُ في حياة المُسلمين الذين لا يَمْلكون سِلاحا. (بلا سهام) ومُزّقت صُفوفُهم، مِمّا أحدث بينهم خصاما بدا شديدا، لأنّهم وعوض أن يتحابّوا ويتكتّلوا تاهوا في المُناقشات، ونشر الكراهيّة.

ثمّ إنّ فعل "غدا" يدلّ على حركة حثيثة، وعلى رغبة شديدة في القيام بفعل "قسّم"، ودلّ فعل "قبض" على القوّة، أردفه الشّاعر بفعل "مزّق" نتيجة لهذه القبضة من حديد التي تحكّمت في المسلمين.

يمكن القول إذن إنّ للنصّ السّردي في القصيد مرجعيّة تاريخيّة، أساسها واقعيّة الأحداث. التي بدا الشّاعر فيها الشّاعر حاقدا على أفعال المُستعمِر، مُنَدّدا بها. وهو في نفس الوقت مُتحمّس للمُستَعْمَر، مستاء لحاله. فيَتعالقُ لذلك في هذه القطعة الوَصْفُ بالسّرد، نواة إسناديّة إسميّة هي المُسْنَد إليه، تلاها مُسند جاء نواة إسناديّة فعليّة، ومن بَعْدِها تتالت الأفعالُ مُسندة إلى ضميري هي/هم، "تحكّمت، ازدادت... تنافسوا، تقاطعوا، فاستضعفوا... "[2].

وفي قصيد آخر تدلّ صيغة التّفضيل " اللّه أكبر " [3] على مَشاعِر وأحَاسِيس " الأنا " المُنتصرة على العدوّ[1]. والتي بدت مُمْتنّة للّه على ما أنعم به

---

(1) انظر العبارات،"الأنام" "تحكّمت"، الآلام"، "تقتم"، "ما"، "من"، و"ما"، المؤمنون"،"سهام"، "مفاتيح"، "مزّق"، المسلمون"، "خصام"، "الموحّد"،"يضام". م.ن.

(1) سليمان الباروني، آثاره،م.س. ص١٠٦.

(2)

اللّه أكبر حارت الأفكار	في حكمه سبحانه المختار
حكموا وظنّوا أنّ حكمهم مضى	وطغوا فغار الهنا فانهاروا

من نِعْمته عندما قدّر فأطلق سراحه. وفي أبيات أخرى يُظهِر غضبه على "كروزن "[٢]، و" موسيليني "[٣] الشّخصيّتين المُعرقلتين لأفعاله، واللّتين مَنعَتاه من العَودة إلى وطنه، وحالتا دونه ودون اللّجُوءِ إلى تونس، أو مصر، أو الجزائر. تصوّر الأبيات حَالَة الشّاعر النّفسيّة. وذلك من خلال المَقاطِع الطويلة [ا، وُ، ِي،][٤]المعبّرة عن هذا الارتياح. فمن جملة ثمانية وأربعين(٤٨) عبارة اشتمل عليها القصيد هناك خَمْسَة وعشرون (٢٥) عبارة اشتملت على **مقطع طويل**. ولن يكون المَقْطع الطّويل إلاّ تعبيرا عن انفراج كربة الشّاعر الذي استرجَعَ حرّيته.

ويشكّلُ القصيد مَوْقِفا تَصادُميّا بين **الأنا** المفرد، **وهم** الجمْع. فأسند الشّاعر مُتعمّدا النّزولَ بمعنى **الانهيار** إلى ضمير الجمْع " **هم** "، وأخبر عن " **أناه** " تعبيرا **استعاريّا** بأنّها " **صعدت** "، أي انتصرت.

تجري المُطابقة إذن بين نزول العَدوّ، وصعود الشّاعر مَجْرَى المَجاز.

ولم يكن الاسْتفهَام الإنكاري، ولهجة التّحَدّي والتّوبيخ والتّقريع ، والأسلوب الخبري، والإنشائي إلاّ دِلالة على ما يَسُودُ العَلاقة بين الشّاعر وخُصومِه من صراع وتوتّر. ويُوضّح هذا الصّراعُ والتّوتّر جملة من الصّور والمشاعر بين عدوّ يَحْكُمُ بقبضة من حديد فيُحِيكُ الدّسَائس ويَطغَى، وبين الأنا مُسلّحة بالإيمان وبالصّبر والتعويل على اللّه والقدر.

نزلوا وها أنا قد صعدت فهل لهم ... أن يهدموا ما شاده الأقدار
ما لي أرى "بونكاريا" زلّت به ... قدماه أم قد دكّه الجبّار
زمنا قضيت بحكمه مُتفرنسا ... فكأنّني لصّ إليه يُشار

(٣) يقصد به "بونكاري"، رئيس الوزارة الخارجيّة، وعلى "بون كاري"، رئيس الوزارة والخارجيّة، وعلى "بون مارشي" رئيس المتياسة في وزارة الخارجيّة. سليمان الباروني، آثاره،م.س. ص١٠٦.

(٤) وزير خارجيّة بريطانيا في ذلك الزّمن. المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

(٥) رئيس وزراء إيطاليا في ذلك العصر. المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

(٦) يظهر ذلك في عبارات مثل "الله، حارت، وفي الصّفتين، سبحانه، المُختار، وفي فعلي غار، انهاروا، وفي اسم الفعل هنا، وحرف التنبيه "ها" والضمير "أنا"، وغيرها من العبارات مثل اسم المَوْصُول "ما".

وكذلك تعمل المَنقولات النَّحْويّة من خبر وإنشاء على تكثيف المَعْنَى المُجَرّد من **حرّيــة وكرامــة**، وعلى تجسيم أفعال العدوّ ضمن المُضادّات والأصْوات، وما يُشيعه القصيدُ من روح **للتحدّي والانتصار**.

لذلك كانت ردّة فعل الاحتلال بشِقّيه العثماني والإيطالي قاسية فحاكوا مَكائد للباروني واتّهموه بتأسيس جمهوريّة طرابلسيّة، تنادي باستقلال ليبيا. وهكذا زُجّ بالباروني في السّجن. فعانى ما عانى من غياهب الظّلمات وجور الاحتلال.

عُرِف الشّاعِر في أغلب قصائده بتلقائيّة القَوْل، وبساطة العِبَارة. فهُو يقول شعرا لا تكلّف فيه ولا صنعة مُجحفة، ولكنّه حقّق بهذه الأبيات صُوَرًا تحتوي انسِجَاما في الأفعال، وعُمْقًا في **الاستعارات**[1]، أو **الانزياحات**[2].

ولقد بلغت هذه الصّورُ في شِعْره الفخري وخَاصّة في هذه القصيد قمّتها الجَماليّة وعُمقها الفنّي:

هذا هــو الشّعْر الــذي　　شــهد الحُــروب الهــائلات
وعليه أمــطرت القــنا　　بــل كالصّواعق نازلات
ونرى طــرابلس العــز　　يزة فــي ليــال باهــرات[3]

يَكشِف ديوان البارُوني إذن عن صُوَر اسْتعاريّة، وتراكيبَ بَلاغيّة، اختزنَها في ذاكِرَته، وأرادَها أن تكون زادَه في القول ونظم الشّعْر، ومَع ذلك لم يَدَّعِ فُحُولة، ولا زَعَامَة، لأنّه يَعْرِفُ ثقلَ الرّسَالة وجسَامَتَها، ولأنّه أراد أن يَترُك الحُكْمَ لِلْمُتلقّي الذي قد يَطّلع يَوْما ما على شعره ويَتّخذه مَادّة للدّرس والتّمْحيص.

---

(1) والاستعارة علامة العبقريّة، إنّها لا يُمْكن أن تعلّم، إنّها لا تمنح للآخرين". قولة مشهُورة أوردها مُحمّد الولي في كتابه، "الصّورة الشّعريّة في الخطاب البلاغي والنقدي، المركز الثّقافي العربي،ط.١، ١٩٩٠م، ص٣٢٥.

(2) جون كوهين، بنية اللّغة الشعريّة، ترجمة محمّد الوليّ ومحمّد العمري، المعرفة الأدبيّة، دار توبقال للنشر، ط.١، ص٢٠٥. "الانزياحات غاية الصّورة، فالانزياح التركيبيّ لا يحصل إلاّ لأجل إثارة الانزياح الاستبدالي..."

(3) سليمان الباروني، آثاره،م.س.ص١٢٤.

طغا على النصّ الشّعري عند الباروني لَوْنا بارزا هو الشّعْرُ النّضالي ضدّ المُسْتعمر، وضدّ طغاة العالم. وهو ما جعل بعضَ النقّاد يَعتبرها رُؤية تَجْديديّة. ذلك أنّ شعر الرّجل لم يُوحَ له به من فراغ، ولم يَقلْه اعْتباطا، بل لقد قاله نتيجة أوْضاع قاسِيَة أوْقدَت فيه جذوة الحَماس والتّحدّي.

أمّا في نصّه النثري فلقد عالج مواضيع مُشابهة أثارت أحاسيسه ومشاعره، فأفردها بخصائص فنّية، وأسلوبيّة لافتة هي الأخرى للانتباه.

٢ - النصّ النثري، تقنيّاته، ومَرجعيّاته

جمع الباروني في نصّه النّثري بين الخطاب الأدبي، والرّسائل التي كان يُرسلها عند الحَاجَة. ويُعتبر هذا التّوَجّه في حدّ ذاته تجديدا، لأنّه نادرا ما يُفلِحُ أديبٌ في أن يَجْمَع بين قول الشّعر وفنّ الخطابة. ولا ننسى أنّ الرّجل كان صحفيّا، وصاحب مَطبعة. وفوق ذلك كان صاحبَ قضيّة. ولا بدّ أن يُعرّف بها بكلّ الوَسائل المُتاحة.

عُرِفَ الجنسُ النثري في الأدب العربي مُنذ القديم وبرزت فيه كتب مَشهورة مُنذ عبد الحميد الكاتب وابن المقفّع والتّوحيدي والجاحظ، والمَعرّي، وعبد الرّحمان بن خلدون. وتفرّع عنه فنّ التّرسّل عند إخوان الصّفا. وليس غريبا أن يَهتمّ الباروني بهذا اللّون من الكتابة وقد سبقه إليها أبوه عبد اللّه الباروني، وبرز في تونس مَحمود قابادو الذي لا شكّ أنّه كان قد اطلع على آثاره. وهو طالب علم بالزّيتونة. ولعلّه من هنا يُمْكن الحديث عن التناصّ، أي الحوار بين نصّ الباروني النثري، ونصوص من سبقه، ومن كانوا معاصرين له.

ولقد شهد عصر الباروني حركة فكريّة مُزْدَهرة. كان سببها انتشار المَكتبات، وترجمة الكتب، والاعتناء بالصّحافة. ثم إنّ العالم العربي كان يَتطلّع

إلى نَهْضة شاملة، تبتعد به عن الجُمُود الفكري، والاعتناء المُبَالغ فيه بزخرف الكلام، والمُحَسّنات البَديعيّة. لقد ظهر في عصر البارودي اهتمامٌ كبير بأدب الرّحلة[1]، وكتابة المَقالات الصّحفيّة، والخَواطر، والاهتمام بأدب، مَوْضُوعُه الإنسانُ والطّبيعة، وقضايا العَصْر، ومُخلّفات الحُرُوب وأوْزَار المُسْتعمر.

كتب البارودي إذن نصّاً جامعاً أساسه مدارسُ كلاسيكيّة تتشبّث بالشّكل وخدمة الأسلوب، ولكنّه مُنفتح على تقنيات آداب العَصْر، خاصّة وأنّ الرّجل زار فرنسا ومَكث بها مُدّة مَكّنته ولا شكّ من الاطّلاع على جديد المدارس الأدبيّة، والتيّارات التجديديّة. "لقد اتّخذ في أطوار حياته الأولى- التي كان مقياس الإجادة فيها اللّفظ الأنيق والمَظهر الرّشيق- شكل العناية بالتجويد والتصنيع...وتميّزت [المرحلة الثّانية من حياته الإبداعيّة] بطابع الترسّل والسّيولة"[2].

نستقي من كتابات البارودي النثريّة نصيّن كتب الأوّل بمناسبة الذكرى السّادسة والعشرين لتولّي عبد الحميد الثّاني مَقاليد الحكم، سنة ١٣١٩هـ، وكتب الثّاني أثناء إقامته بالزّوراء- بغداد في ١٠ مُحرّم ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م[3].

التصق البارودي في **نصّه الأوّل** الذي كان محوره الحديث عن السّلطان عبد الحميد. وهي الشّخصيّة التي أحبّها المُؤلّف وعَوّل عليها كثيرا في تحقيق وحدة المُسلمين، لذلك تخيّر لغة تعبيره، وأولاها جهدا كبيرا من الصّنعة، ومال فيها إلى تأنّق اللّفظ، وجزالة التعبير. فاستعمل خدمة لأهميّة المَوضوع الأساليبَ البديعيّةَ بمُختلف أنواعها مثل الجناس، والسّجع والطّباق، والتشبيه. فهو الذي "تضاعف للمسلمين فيه **السّرور**، تجدّدت لهم فيه الجذل **والحُبُور**، وتوالت عليهم

---

(١) "أمين الرّيحاني" في كتبه:"الرّيحانيّات"، "المغرب الأقصى، نور الأندلس"، "ملوك العرب"،"القوميّات"، "تاريخ نجد الحديث"، "قلب العراق فيصل الأوّل". قام بطبع هذه الكتب ونشرها ألبرت الرّيحاني ما بين سنة ١٩٨٧م و١٩٨٨م في طبعات متعدّدة. وذلك وفاء للتعريف بأمين الرّيحاني، الذي عُرف بفكره الإصلاحي العميق، وبتنقّله ما بين الأقطار العربيّة، مدافعا عن قضاياها، ومنتصرا لحقوق الإنسان، محبّا لوطنه. صدرت الأعمال الكاملة لأمين الرّيحاني عن دار الجيل،بيروت.

(٢) سليمان البارودي، آثاره،م.س. ص٢٢٨

(٣) م.ن. ص٢٢٩-٢٣٠-٢٣١

المَسرّات، وعمّت المَمَالك الشّاهَانيّة **البرَكَات**..."[1] ولا نعتقد أنّ المُؤلّف يَنطق في كلمته هذه عن تلقائيّة، بل هو يُخضِع قوله إلى الانتقاء والتخيير، لذلك تخيّر عبارة تتجانس في مُوسِيقاها بكلمة أخرى، عندها استقرّ رأيه على كلمات مثل "**السّرور، الحبور**"، و"**المَسرّات، البَركات**". وهذا ما يُسمّى في البَلاغة بالسّجْع، إضافة إلى سلسلة أخرى مِن العبَارات المُختارة والتي تتلاءَمُ ومَقام الشّخْصيّة المُتحدَّث عنها.

يُجَارِي الباروني في هذه الكلمة السّائِدَ من نمط التّعبير في عصره "فاستمرأ المُبَالغة والمُغالات، وصوّر السّلطان تصويرا فاق حَدّ الوَصف"[2].

أمّا في **النصّ الثاني** فقد أخِذ الباروني بالمَشْهد الذي رآه عندما تدفّق النّاس إلى جامع الأكاظيميّة صباح يوم ١٠ مُحرّم، وظلّوا كذلك " حتّى غدت السّطوح مُرصّعَة بآلاف النّساء، واكتظّت السّاحَة بالرّجال... وامْتلأ الجوّ بالأعلام الكبيرة البيضاء والسّوداء والحَمْراء والخَضْراء والصّفراء، وحضرت إلى تلك السّاحة طائرة كبيرة للالتقاط الصّور ". لقد دقّق المُؤلّف في الوَصْف مُسْتعْمِلا **اللّونَ والحرَكة، والصوت**، " ظهرت من وراء الجامع طلائعُ الجُيوش على خيل عربيّة بلباس عربيّ **أحمر**... وعليهم الدُّروعُ الحَديديّة العَتيقة، مُتقلّدين السُّيوف... وراءهم جندُ المُشاة ببزّة حمراء بقسيّهم ونبالهم وسُيوفهم...**شقّوا** لأنْفُسِهم طريقا إلى أن وَصَلُوا المنبر **فارتجّ** المَكان وأهلُه، **وصعد** مُمَثّل السفّاك المنبرَ...استلّ سيفه وصاح إنّه إنّما جاء ليَسْقي سيفه هذا من دم الحُسين... " يبدو المَشْهَدُ مُغرقا في **الدّماء وقعقعة** السُّيوف، **وصياح** الباكين، مِمّا جعل المكان **يَرتجّ ويُدوّي**.

---

(١) المرجع نفسه، ص٢٢٩.
(٢) سليمان الباروني، آثاره، م.س. ٢٣١.

يَجْمَعُ الوَصْفُ في "وقفة الأكاظيميّة" بين خُصُوصيّة الفضاء، ساحة الجَامِع، "فضاء دينيّ"، وحركة الشخصيّات، والألوان، والأصوات. جاء الوَصْف مُعْتمدا جُمَلا اسميّة حاليّة تؤكّدُ المَشهَدَ وتُبرزُه. استدعى الوَاصِفُ في هذا المشهد **الحاسّة البصريّة**، فبـ"**العين**" تمكّن الواصف من تتبّع المَشهَد والوُقوف عند جزْئيّاته المُذهِلة، مثل تدفُّقِ القادِمين، والصّعود على المنبر، استعدادا كاملا لإطلاق النبال والسّيوف من أجل القتل وإراقة الدّمَاء.

ويأتي في مرحلة ثانية من المَشْهد دور "**الأذن**" التي كانت تلتقط الأصوات من قريب ومن بعيد، أصوات ارتجّ لها المَكَان، ويَخْترق أزيز السُّيوف الأصمّ، وتصويتُ الرّمَاح، وصَرير السّهام، والأصوات والآهات، والبكاء **الأذن** فيُلحق بها الأذى.

ترتبط في هذا المَشْهَدِ **المَسْمُوعَاتُ بالحركات وبالأصوات**. لقد تَمَوْقَعَ الواصفُ في غرفة آمنة استطاع من نافذتها أن يُتابع المَشهد ويَصف جزئيّاته. وبذلك تمكّنت "**العين**" الرّائيّة من مُتابَعة المَشهَد مُباشرة وعن قرب دون تعثّر رغم كثافة المَوْصُوفات. فالنّاس القادِمُون كانوا مُكْتظّين اكتظاظا وكأنّهم " رمّانة، أو صندوق كبريت تلاصقت أعواده". ثُمّ إنّ السّطوح غدت مُرصّعة بآلاف النّسَاء. يَقودُ هذا **التّراكمُ** في المَشْهَد إلى **تراكم في الصّور**. فالحَرَكة حَركاتٌ، والصّوت أصواتٌ، وهَسيس السّيوف يَختلط بصرير السّهَام، وبِالأصوات، والآهَات. إنّ **المُفرد** في هذا المَشْهد يَغدو **جَمْعا**، إذ كَيْف يُمْكِنُ لفضاء مثل ساحة الجامِع أن تسَع أكثر من خمسة وعشرين ألف نسَمَة. لقد وُفّق البَاروني في وصف المَشْهَد إلى أبْعَد الحُدُود واسْتجاب فعْلا إلى قولَة فيليب هامون" : " من لا يُحْسِنُ

الوَصْفَ لا يُحْسِن الكِتابة...وإنّ الوصف يُضاهي الرّسم، والرّسمُ أساسُهُ إبداع الصّور وبناؤها "[1].

إنّ الكثافة في العناصر المُكوّنة للمشهد تقودنا إلى نهاية دَمَويّة، مَهّد لها الأديب بوُجود مُتنوّع للأسْلحة مثل السيوف، والرّماح، والنّبال، والقسيّ. ويتَحَوّل المَشْهَدُ إلى دراما مُوجِعة، يتجمّع فيها عنصري **البكاء والنّواح**. إضافة إلى قعقعة الطّبول، ونَفير الأبْوَاق. فالمشهد إذن **صاخب**، والقتل **مُوجِع**، والنّهاية تُعْلِن عن تشتّت في الصّفوف وانقسَام في المذاهب بسبب قتل الحسين وآله.

شكّل الواصف/السّارد المَشهدَ المَوْصُوفَ من عناصر مَحْسُوسَة، الفضاء، والشّخْصيّات، والآلات الحربيّة، والجياد، وأضاف إليها آليات الوصف مثل **العين والأذن**، كي يكتملَ المَشْهَدُ وتتعمّق دراميّتُه بواسطة الأفعال، والأحْوال والصّفات.

ويضُمُّ نصُّ الباروني عامّة لغة القرآن الكريم في شكل مُفردات، ومُركّبات، وجُمل، وآيات كاملة. وذلك ما يسمّى بالتناصّ الضمني. ومن هذا المُعْجم أمثلة جاءت مَبثوثة في بعض من نُصوصه الشّعْريّة، أو النثريّة، مثل، "دكّه"،"النبيّ" صفات للّه سبحانه وتعالى، "القهّار"، المُختار،الأقدار، اللّه سبحانه، الله أكبر"، أو جملا كاملة، "إن شاء اللّه"[2]. وكذلك يُكثر الباروني من توظيف آيات قرآنيّة في إحدى رسائله نثرا. تلك التي ردّ بها على أحد المُجاهدين سنة ١٩١٢م الذين أساؤوا مُعَاملة المُجَاهِدين ونَعَتوهُم بمُحَاربي "الدّقيق"، دون مُراعاة لكَرامَتهم ونِضَالِهم من أجل الحُرّيَة. "وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ"[3]، ." ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤتِيهِ مَنْ يَشَاءُ[4]"، "وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ"[5].

---

(1) Hamon Philippe, introduction à l')analyse du descriptif, classiques Hachette,Paris 1981.p.25.

(٢) سليمان الباروني، وآثاره، م.ن.ص١٠٦.
(١) سورة الذّاريات الآية ٢٢
(٢) سورة الحديد الآية ٢١.
(٣) سورة الطّلاق، الآية ٦٥.

يَبْدو المُعْجَمُ الدّيني مُكثّفا في هذه المُدوّنَة، يستعمِله البَارُوني دون تكلّف. ولا غرابة في ذلك لأنّ أديبنا رَجُلُ دِين وفقه. فَهُوَ لا يَسْترشِدُ بلغة القرآن كما يَفعَل الرّوائيّون[1] عندما يُوَظّفون القصص القرآني بهدف التّجاوز النصّي. بل يُعتبر تضمينُ المُعجم القرآني عنده لغة خطاب. وقد مَكّنته هذه اللّغة مِنَ تحقيق التّناغُم والتّواصل مع لُغة الخِطاب الأصْليّة.

وتضمّنت بعضٌ من رسَائله تراكيبَ جاهزة، استقاها الرّجلُ مِن التّراث، أو مِنَ اللّهْجَة العَاميّة. وذلك كي يُقنع مُخاطبه، ويُؤثّر فيه. يذكّر في رسالته التي يُعَاتب فيها أحد المُجاهدين الذي سخر من المتمتّعين بـ"صدقة الدّقيق" بأنّه هو بنفسه كان يَتمتّع بها مثله مثل بقيّة الجنود،"لَبِسْنَا الكِتّانَ وَنَسِينَا مَا كَانَ"[2]. ويَنتقي مِنَ الأقوال المَأثورَة هذا المثل "اخْشَوْشِنُوا فَإنَّ الحَضَرِيَّةَ [كذا] لاَ تَدُومُ"[3].

كما يُوظّف لغة عَصره العلميّة فيذْكر "الخطّ الحديدي"، ونور الكهرباء"، و"المَعْدن النّفيس"، و"التلفون"، و"المَطابع"[4]. وهي مَظاهِرُ مِن مَظاهر الحَضارة والتقدّم التي جاء بها الغَرْبُ، وانبهر بها الباروني وغيره من زعماء الإصلاح في العالم العربي.

يَنطلق أديبُنا مِن هُموم عَصْره، ومَرجعيّتُه في ذلك تراث أجْداده. فمِنْهم يَسْتمدّ الحكمة، والعبرة، ويتحلّى بالقوّة. ولاشكّ أنّه وهو يَكتب قصائده ويُمَهّد لها وَيدّعِي فيها التّواضُعَ والتّلقائيّة. فقد تشبّع بهذا التّراث العربيّ، واطلع على مُدوّنة أعلام في الشّعر أمثال المَعَرّي، والمُتنبّي، والبُحتري، وأبي تمّام. ولا شكّ أنّه قد

---

(٤) وظّف إبراهيم الكوني في رواياته القصص القرآني وآياته،أسلوبا فنّيا جديدا، رواية" التبر"، "تزيف الحجر" و"السجوس". انظر، زهرة معدلاّوي حرم كتّولي، أطروحة دكتوراه بعنوان "أساطير الصّحراء، ونداء الحرية من خلال الكتابة الرّوائيّة عند إبراهيم الكوني، قيد النشر.

(٥) سليمان الباروني، وآثاره، مرجع سابق، ص٢٦٤.

(٦) المرجع نفسه، ص٢٦٥.

(٧) التبوان، مصدر سبق ذكره، ص٤.

توقّف عند مَشاهير شُعراء الأندلس، مثل أبي البقاء الرّندي ونونيّته الشّهيرة في رثاء بلنسيّة.

وارتحل مع ابن رشيق ما بين إفريقيّة والأندلس فتغنّى بالأوْطان وبِغُربَة المُغتربين، ولوعَة المُهَجَّرين. هَؤلاء جَميعا كانوا لافتين للانتباه، يُغْرَوْن بقول الشّعْر، ومُعَارَضة أمّهات قَصائدهم. ولا شكّ أنّ البارُوني قد تشبّع بشِعْرهم، وأعْجِب به وتطلّع إلى مُحَاكَاته، لُغة وصُورًا ومَضَامِينَ.

ويُوجد تعَالُق مِن حيث المَضْمُون على الأقلّ بين شعر البارودي ومُعَاصريه أمثال جميل صدقي الزّهاوي،(١٨٦٣-١٩٣٦م) ومعروف الرّصافي،(١٨٧٥-١٩٤٥م) وحافظ إبراهيم، وأحمد شوقي. فكتب قصائد في نداء الوطن وفي الإصلاح السّياسي، وأبدى أسًى كبيرا على ما أصاب الوَطنَ من جَهْل وفقر وجُمُود وخُمُول وتردّ في الأوْضَاع كامِلة، خُصُوصا إذا ما علمْنا أنّ الإطارَ الزّمْكاني كان مُحْدَقا بأخطار جَعلت المُسْتعْمِر يَتغلغل في أرض الأمّة، ويَعْمل على تفقيرها وتجْهيلها والاسْتيلاء عليها. لذلك شارك البارودي في أحزاب عَصره، مثل حزب الاتّحاد والترقّي، وحَركة الجَامعة الإسْلاميّة والإصلاح الدّيني، لِمُناهضة الاستعمار وأهدافه.

كان البارودي يَغترف مَرْجِعيّات قصائده من أحداث عصره، فيَذْكُرُ الثّورة العربيّة التي وقعت سنة ١٩١٦م. ذلك أنّ الحَرْبَ العَالميّة الأولى والثّانية أثّرت في العَالم العربي فقامت هذه الثورة والتي تزعّمها الشّريف حسين فكتب البارودي عن هذه الثورة في جريدة الصّواب التّونسيّة، وغيرها من الصّحف[1]. ويذكر شخصيّات مُستبدة من الجانب الإيطالي سَواء كانَ ذلك في شِعْره، أوفِي نثره،

---

(1) البارودي آثاره، م.س. ص١٠٥.

مثل مُوسيليني، كما يَذكر شخصيّات سياسيّة عايشها في عصره مثل السلطان عبد الحميد، وسعد زغلول، والسّياسي مصطفى كامل، وباي تونس.

٣ -النصّ "الجامع" والمُقاربات التّاريخيّة

أثبت الباروني من خلال النّصوص التي كتبها في الصّحف، أو بعث بها إلى أصدقائه، أنّه نقل فعلا أخبار عصره وحاول أن يُسَجّلها باليوم، والشّهر، والسّنة، مُرْدفا إيّاها بالحَديث عن موضوع الخبر، والتّفاعل معه. فحدّثنا من خلال ما كتب من خطب، ورسائلَ، وإخوانيّات عن بعض الأسْماء، من تونس، (الشيخ قابادو) والجزائر، (الشّيخ محمّد بن يوسف المغربي الميزابي المشهور، الذي رآه في غرة رجب ١٣٢٥هـ) ومصر، (محمّد عبده، والأفغاني، ومحمّد رشيد رضا) والعراق، (الملك فيصل بن الحسين) ومن اسطنبول، (السّلطان عبد الحميد) ومن دول أوروبيّة كذلك، مثل رسالته إلى امبراطور ألمانيا يطلب فيها منه الاعتراف بالحكومة الوطنيّة والأمارة[1].

وإضافة إلى الحديث عن هذه الشّخصيّات فإنّ المطّلع على آثار الباروني يَعتبره قد أرّخ من خلال ما كتب للدّولة الرّستميّة، ولمدينة " تيهرت ". كما أنّه حدّثنا عن مظاهر التّقدّم والحضارة في عصره مثل سكك الحديد التي نعتها بالحضارة الجديدة " الوابور " (سليمان الباروني، ص.٢٤٤). وبدا رحّالة مُتنقّلا ما بين الأقطار. ويَتجلّى ذلك من خلال ما تَحَدّث عنه مثل جولة في رحاب المَغرب العربي عن طريق مرسيليا، ومالطة، وتونس، والجزائر، ووهران، ومدينة تلمسان، مُنتهى حدود الجزائر مِمّا يلي مَمْلكة فاس.

---

(١) حرّرت بتاريخ ٢٥ محرّم الحرام ١٣٣١هـ/١٩١٢م وفي الرّسالة ما يشير إلى أنّ الباروني كان يومئذ أميرا، انظر ملف الباروني، دار المحفوظات التّاريخيّة بطرابلس، نقلا عن سليمان الباروني، آثاره، ص٢٧٥.

ويُشير في فصل مِن جريدته إلى أنّه قصد مصر للاسْتِجْمَام، وعاد إليها، وكان فيها من قبل، فوصلها عن طريق إيطاليا بتاريخ ١١ ربيع الأوّل ١٣٢٤هـ[١]. وحدّثنا عن الحياة الثّقافيّة التي ساهم فيها فـ"أسّس جريدته و"مطبعة الأزهار". كما حدّثنا عن تفاعل الحَضارات بين الشّعوب. فكان في كلّ رحلة يقوم بها كأن يَقصدَ مرسيليا ويُسافر عبر البابور[٢]، يُعطينا لمْحة عن الحركة الاجتماعيّة والاقتصاديّة في ذلك العصر من خلال القادمين بأعْداد وافرة من سائحي أمريكا، وإنجلترا، ومن السّوريين المُهاجرين إلى أمريكا للتّجارة والاحتراف ومعهم عائلاتهم التي تُعدّ بالمِئات، رغم قلّة عدد العرب المُسلمين في مثل هذه الرّحلات الاستطلاعيّة[٣].

كتب الباروني في قضايا عصره وسجّل أحداثه التّاريخيّة وناقشها. وكتب كتبا كاملة[٤] عن أيمّة عصره، ومُلوكها وعن الحرب التي دارت في بلاده، إلا أنّه لا يُمْكن أن نسلّم قطعا بأنّ الباروني مُؤرخ بالمَعْنَى العلمي للكَلمَة، لأنّه لم يَخْتَصّ في هذا الفنّ، ولم يَعرّفه فيُصنّفه فيُحَاكى به عُلوما أخْرى مثلما فعل العلاّمة ابن خلدون، الذي يُعرّف التّاريخ بأنّه " فنّ من الفنون التي تتداوَلُها الأمَمُ والأجْيَال، وتشدّ إليه الرّكاب والرّحالُ وتسْمُو إلى مَعْرفته السّوقة والأغفال... "[٥].

كتب الباروني نصّا وسمناه بالنصّ "الجامع". فلقد كان أدَبُه نافذة مَفتوحة على عَصره، فنقول بأنّه سافر، وَدرَسَ، ولاحظ، وكتب، وتحدّى، وحارب، ونقد فأفاد بما ترك للمَكتبة العربيّة. وما نقله من أحداث ووقائعَ تدْخُلُ ضمن

---

(١) الباروني وآثاره، ص٢٤٥.
(٢) سليمان الباروني، وآثاره، ص٢٤٥.
(٣) وليس في البابور مُسلم غيري وغير قهوجيّ، "أو خادم مصريّ لسائح أمريكيّ، كما لاحظ على هؤلاء حسّن المُعاملة وروح التّعاون، سليمان الباروني، م.ن.ص ٢٤٥.
(٤) "الأزهار الرّياضيّة في أيمّة وملوك الإباضيّة"، "تاريخ الحرب في طرابلس الغرب".
(٥) عبد الرّحمان بن خلدون، المقدّمة تاريخ العلاّمة بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيّام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتاب اللّبناني، ص٢.

المُذكّرات، أو المُقارَبات التّاريخيّة التي تبرّهن عن ثقافة واسعة للرّجل، مكّنته من كتابة نصّ "جامع".

الاستنتاجات

يُفضي بنا هذا البحث في النّهاية إلى الإقرار بنتيجتين مِحْوَريّتين من بين عديد النتائج نتخيّر منهما اثنتين. تتعلّق الأولى بكون نصّ الباروني نصّ "جامع" يَحْتوي الشّعْر والنّثر، حقّق بواسطته الشعريّة رغم تلقائيّة القَوْل وبَسَاطته، ورغم الإطناب المُمِلّ الذي يَطبع قصائده أحيانا، إضافة إلى ضعف عنصر التخييل. ذلك أنّ الباروني كان يكتب شعرا واقعيّا من خلال توثيقه لأحْداث عصره. وتمثّلت النّتيجة الثّانية في أنّ الباروني يَتمتّع بثقافة واسعة، وصاحب تجربة أساسُها عواملُ ذاتيّة (نشأته في بيت علم وأدب وتتلمذه على شيوخ الزّيتونة، والأزهر) وأخرى مَوضوعيّة.(جميع أحداث العَصْرِ التي عاشها وكتب عنها ووثّق لها).

نشط الباروني بكلّ ما يَمْلك من ضروب النّضال ضدّ الاستعمار الإيطالي، وحَلُمَ بأنّ الخلافة العثمانيّة يُمكن أن تُوَحّد العالم الإسلامي، وتكوّن جبْهة قويّة ضدّ العَدوّ، لكنّ الواقع السّياسِي حمل إليه العَكس تماما.

حقّق الباروني بنصّه " الجامع " **الإمْتاع والمُؤانسة**، و" **لذّة القراءة** ". فهْو نصّ طُبِع بِبَصْمة خاصّة. فالكتابة عند هؤلاء تمثّل كما يقول رولن بارت (Roland Barthes) عَقدا يَشُدّ المُؤلّف إلى مُجْتمعه، فيَخُصّه وحده بكتاباته وإبداعه، ألا تعتبر " الكتابة الشّكْلَ الذي لا يُدْرَكُ إلاّ في مَقصده الاجتماعي وفي بعده الإنساني "[1] ؟

---

[1] Roland Barthes, le degré zéro de l'écriture;suivi de Nouveaux essais critiques ;Points.Editions du Seuils ; 1953 ;et 1972p .14.

وهكذا ارتبط النصّ " الجامع " عند البارودي بقضايا العصر، فكان نصّا مُلتزما، وكان مرآة تعكس همومَ الأمّة الإسْلاميّة ومَشَاغلها. فـ"ليس العمل الأدبي في ذاته هو مَوضوع الشّعريّة، إنّ ما تبحث عنه الشّعريّة هو خصائص هذا الخطاب الخاصّ الذي هو الخطاب الأدبي ".

لقد كان الشّاعِرُ الأديبُ مُهْتمّا بمَضْمُون القَوْل أكثر مِن اهتمَامِه بكيفيّة القوْل. اعتبرناه مُوثّقا لأحداث عصره، صاحب مُقاربات تاريخيّة بمعنى اليوميّات لا بالمعنى العلمي للتاريخ كفنّ مثلما عرّفه ابن خلدون. كان مناهضا للاستعمار، مُصلحا ومُلتزما بالتعبير عن قضايا وطنه، وصاحب تجربة عميقة في الرّحلة وفي الكتابة في أحوال النّاس، وعلاقاتهم الاجتماعيّة والفكريّة، مِمّا يجعلنا نؤكّد تحقيق شعره لما يسمّى في عرف النقّاد المُحدثين بـ"**التّجاوز النصّي**".

تميّز شعره بصدق الكلمة، وعمق الرّسالة الإصلاحيّة التي كان حريصا على تبليغها. وهو يَلتقي في هذا التوجّه بمَا قاله مُعاصره جميل صدقي الزّهاوي عن الشّاعر الحقّ " شجاع لا يَهَابُ في الصّدق لومة اللائمين (...) ونزّاع إلى التّجدّد يثور..ويتمرّد على السّلطان الكاذب "[1]، لم يَتَحَمّس للتجْدِيد في الشّعْر علانيّة مثلما فَعل الزّهاوي[2] الذي نَادَى إلى نَبْذِ القَافيَة، وقَال بقطع هذه السّلاسل والأغْلال وتحرير الشّعر منها[3]. ولكنّ البارودي استمرّ في قول القصيد العَمُودي، ولعلّ تَجْدِيدَه يتمثّل في أنّه كان يَبتعد عن ذلك المَذهب الشّعري الذي ساد أيّامئذ باتّخاذ الشّعراء الحديث عن الخمْريات مَوْضوعَات

---

(1) من مقدّمة ديوانه الموسوم بـ"نزعتي في الشّعر"، ديوان جميل صدقي الزّهاوي، ص ٤، نقلا عن النص المعلن، النصّ المنجز في شعر جميل صدقي الزّهاوي، علامات جوان٢٠٠١م، ص ٣٥٥.

(2) وذلك عندما قال:.....

مِتُّ كـــلّ قـــديـــم ... عـــرفـتـــه فـي حـيـاتي
إن كـــان عنـــدك شـــيء ... مـــن الجـــديد فهـاتـه

(3) علامات، م.س. ص٣٥٦.

وفَواتِحَ لقصائدهم، كَمَظهر من مَظاهر الصّناعَة والوَصْف، وبذلك فإنّنا لا نَعْثر [عنده] على هذا المَلمَح، الذي نُطالعُه عند كثير مِن شُعَراء عَصْره[1].

توضّح شهادة المصراتي أنّ الباروني آثر لوْنا من الشّعر لأنّه يَخدم قوله لا أهْوَاءه، ولا يَتعارَضَ مع مَبدئه الأخْلاقي في العِفّة والتديّن. وليس هذا فقط، بل إنّ الرّجلَ صاحبُ قضيّة، أمْلت عليه أن يُجَابه الطّليان بالحُجّة، ويُفْسِد عليهم إمْعَانَهم في اسْتغلال بلاده واضطهاد أهله. "سافر من أجلها إلى لندن عن طريق باخرة عثمانيّة من تونس وهناك أجْرت معه مجلّة "التيمس الأفريقيّة" مُقابلة صحفيّة، أبَان فيها عن مَوْقفه ومَوْقف الجهاد اللّيبي. ودفع فيها عن نفسه التُّهَم الباطلة التي روّجها خصومه، وأشاعتها الجرائد والصّحف المُغرضة"[2]. تبدو العَوَامِلُ المَوْضُوعيّة التي حَفت بالباروني عديدة، فبدا مُتفاعلا معها، قويّا وقادِرًا على خوضها بنجاح، ولكنَّ هذا لا يمنع القول من أنّ الرّجل عانى، وتعب، واضطربت به السُّبل. ففرع نيّة المستعمر، وأصحاب الهوى من السّاسة والمُغرضين بالحُجّة وصدق الكلمة، وقوّة الإيمان بقضيّته.

الخاتمة

نعتبر ديوان الباروني مَرْجِعا تاريخيّا نقرأ من خلاله بعضا من الأخبار والأحْداث التي كانت تجري في عَصْرِه والتي تَهمّ بَلَدَه أوّلا في علاقته بالاستعمار، وبجيرانه مِن الدّول العَربيّة القريب منها والبعيد، وخاصّة مَا كان يَجري في السّاحة السّياسيّة، والأدبيّة. لقي ديوان الباروني وبقيّة آثاره اهتماما كبيرا في الدّراسات العلميّة بالجامعات المَغاربيّة وغيرها.

---

(1) سليمان الباروني، آثاره، م.س. ص٨٨.
(2) سليمان الباروني، آثاره، م.س.ص٤٦-٤٧.

لقد حقّق نصّه بهذه الصّفة التّواصُلَ مع عصره، وخلق حَميميّة بين الماضي والحاضر. عرف صاحبه مسيرة غنيّة في النّضال فثار ضدّ الاستبداد والظّلم. فهو النّاشط السياسي الذي دخل السّجون، ومُورس عليه التّعذيب، والنّفي، والظّلم. فقاوم، وتحدّى أعْداءه وجَابَهَهُم بالكلمة الحُرّة، وفضح مشاريعهم الاستعماريّة.

ولعلّه بفضل هذه الصّفات كتُب لنصّه الذي نَعَتناه بالنصّ "الجامع" الخلود والتّواصل مع العصر الحديث، خاصّة القرن الواحد والعشرين وكَأنّ النّصّ بُعِث من جَديد لِيَفعل فِعْله في الجيل الحاضر الذي حُقّ له أن يَفتخر بهذا الرّمز في النّضال ضدّ الظّلم والاستبداد. إذ يُمْكن لِكلّ ناشط سياسيّ أن يَرى فيه نفسه ويَسْتَمِدّ منه المَنهَج والصّمُود، وكأنّنا بالباروني قد أسّس لثورة الرّبيع العربي اليوم في ليبيا التي رفض ثوّارها سياسة الذلّ وتكميم الأفواه. فكانت ثورة السّابع عشر مِن فبراير ٢٠١١م عنواناً لهذا التّفاعل ودليلاً على تحَاوُرِ الأزمان، ونِضال الأبطال. وليس ذلك إلاّ دليلا على أنّ رسالة الأخلاف أثمرت، وأينعت. "أليس حبّ الأوطان من الإيمان" ؟ وألا يُعتَبَرُ هذا اللّقاء الأدبِيُّ والفِكريُّ والحضاريُّ دليلاً قاطعاً على التّواصُلِ والتّحَاوُرِ ما بين المَغْرب والمَشْرِق ؟

الرثاء في شعر سليمان باشا الباروني

عبد الرازق فالح عبد الرازق جرار(*)

مقدمة

الرثاء من الموضوعات البارزة في شعرنا، إذ طالما بكى شعراؤنا من رحلوا عن دنياهم وسبقوهم إلى الدار الآخرة، وهو بكاء قديم قدم الإنسان نفسه.

ويعد الرثاء أحد فنون الشعر العربي البارزة، بل انه ليتصدرها من حيث صدق التجربة وحرارة التعبير ودقة التصوير.

ولكل أمة مراثيها، والأمة العربية من الأمم التي تحتفظ بتراث ضخم من المراثي، وإن ما انتهى إلينا من تراث المراثي كثيرة جداً يمثل مختلف العصور الأدبية ومختلف الألوان والاتجاهات الفكرية، وإن أقدم تلك المراثي ما أبدعته قرائح الجاهليين، وصلتنا ناضجة محكمة، قد تجاوزت طفولتها ومراحل محاولاتها البدائية، ثم تطور الرثاء مع مجيء الإسلام، كما تطورت مختلف فنون الشعر إذ تطورت صوره ونماذجه وتعددت دواعيه وبواعثه.

وينقسم التراث الشعري في الرثاء إلى ثلاث ألوان: الندب والتأبين والعزاء.

أما **الندب**: فهو بكاء النفس ساعة الاحتضار وبكاء الأهل والأقارب، وكل ما ينزل منزلة النفس والأهل والأحباء وأخوة الفكر والمشرب، بل يمتد الرثاء إلى رثاء العشيرة والوطن والدول، ويكون ذلك بالعبارات المشجية والألفاظ المحزنة التي تصدع القلوب القاسية وتزين العيون الجامدة.

(*) عبد الرازق فالح عبد الرازق جرار، باحث، وزارة التربية والتعليم، الأردن.

أما التأبين:أصل التأبين الثناء على الشخص حياً أو ميتاً، ثم اقتصر استخدامه على الموتى فقط، إذ من عادة العرب في الجاهلية أن يقفوا على قبر الميت فيذكروا مناقبه ويعدوا فضائله فهو ليس بنواح ولا نشيج كالندب إنه تنويه وإشادة بشخصية لامعة أو عزيز ذي منزلة في عشيرته وأهله.

وأما العزاء فأصله الصبر وهو في مرتبة عقلية فوق مرتبة التأبين، إذ هو نفاد إلى ما وراء ظاهرة الموت وانتقال الراحل وتأمل فكري في حقيقة الحياة والموت[1].

هذه الألوان الثلاثة من فن الرثاء لتفصلها حدود فاصلة ولا يقوم منها لون دون الإسناد إلى الآخر والاتسام ببعض خصائصه، ولكن إذا غلب منها لون أعطى العمل الفني طابعه العام ووسمه بميسمه الخاص على أن كثيرا ما تتداخل تلك الألوان ضمن عمل أدبي واحد لاسيما في رثاء قواعد الملك والدول الزاهرة والعهود المجيدة من تواريخ الأمة.

وقد تطورت صور الرثاء ونماذجه وقد تعددت دواعيه وبواعثه، فإذا جئنا نوازن بين عناصر المرثية في نماذج تمثل تدرج الزمن ونمو العقل وتقص الحياة خرجنا بحقائق يمكن رصدها في رسم بياني بدايته في العصر الجاهلي ونهايته في عصرنا الحاضر وبين الطرفين خط يأخذ بالارتفاع التدريجي حيث يكون أعلاه عندنا اليوم، غير أن هذا الرسم يبين إلى حد كبير ولابد من وجود منعرجات فيه، بمعنى، أنه قد يزداد وقد ينقص حسب العصر الذي وجدت فيه.

---

(1) ينظر: كتاب الرثاء، شوقي ضيف، دار المعارف، ط٢، مصر، (د.ت)، صـ٥.

المحور الأول: (الندب)

وهو النوح والبكاء على الميت بالعبارات المشجية والألفاظ المحزنة، وقد عرف العرب الندب منذ العصر الجاهلي وحتى عصرنا الحاضر، فنجد في أشعارهم على مرِّ العصور والدهور ولعل أقدم صور الندب والنواح في شعرنا العربي هي صورة نَدب الأهل والأقارب والنواح عليهم[1].

فها هو شاعرنا سليمان الباروني يرثي أخاه الشيخ يحيى الباروني بعبارات صادقة ومشاعر جياشة، وقد بلغه خبر وفاة أخيه وسليمان الباروني مقيم في عُمان، حيث تولى الحكومة هناك، ولكن لخبر الوفاة هذا الأثر البالغ في نفسه، فقد رثاه بقصيدة طويلة حاول في مطلعها أنْ يصبّر نفسه فيها، يقول[2]:

يحيى أخي أين أنت اليوم مستتر ... يا خير عون إذا ما أحدث الخطر
يا محزن السر يـــا رب الوفا ويا ... فخر الرجال ويا من وجـــهه قمر
نعاك لي اليوم كـــل الكاتبين ولم ... أجد سوى الصبر فيما شاءه القدر
بالطبع نحزن لكن هـــل لـنا أمل ... في عودةً منك؟ كلا مـــا لـذا أثر

بدأ الباروني قصيدته بخطاب أخيه يحيى، متسائلا: أين هو اليوم؟ بعد أن كان العون والصديق عند الشدائد والمصاعب والأخطار، وهو من يكتم السرّ ويفي بالعهود، فقد جاءه خبر وفاته، ولا يملك إلا الصبر على هذه المصيبة وعلى نوائب الدهر، ولا أمل له بعودته إلى هذه الحياة.

ثم يمضي بحديثه عن عدم الجدوى من الحزن والاستسلام للنفس المفجعة، ولا يخلو هنا حديثه في السياسة، يقول[3]:

---

(1) نفسه، صـ١٢.
(2) سليمان الباروني، ديوان الباروني، دار مصر المحروسة، ط١، القاهرة، ٢٠١١، صـ١٨٧.
(3) نفسه، صـ١٨٨.

ما الحزن يحـيى لموت كلنا عبر للمـــوت جـــئنا فـــلا تبقي ولا تذر
وإنما لمقرٍ كنـــت فيـــه مـــضى في ضيق عيشٍ وقهر الخصم إذ قدروا
هذا الذي طـرد النوم اللذيذ ولـــم نهدا ولـــم نذرٍ نام القـــوم أم سهروا
لم يغن للـدول الكـــبرى تزلفـــنا حتى جـــرى فيـك ما قد خطه القدر

لا زال الباروني في هذه الأبيات يحاول وضع خلاصة تجربته الطويلة في الحياة ويعبر عن رأيه بحقيقة الموت، فهو مصير الإنسان الحتمي .

ولكنه لا يلبث إلا أن يعبر عن ألمه وحزنه الشديد على فراق هذا الشخص العزيز ، فيقول[1]:

لهفي عليك عزيز النفس قد نضبت منك الحياة وغُـطى وجـهك النضر
ودعت أهلك والأوطان وانقطـعت منك العلائق منهم وانـتـهى العمر

ثم يذكر منزلته بين القوم الذين دفنوه، فيقول[2]:

رُفعت فوق رؤوس كنت تـــرفعها على سرير إلى روض بها حـفروا
واروك وانصرفوا داعيـــن واتعظوا بذاك قـد أدركوا أن لا بـقا ودروا

يشير هنا إلى المنزلة الرفيعة التي كان يخطى بها يحيى الباروني بين قومه ولكنه أصبح الآن بجوار ربه، ولا يُخفي شدة توجعه على فراق أخيه يحيى في موضع آخر من القصيدة يقول[3]:

آه أبا زكريا الـــحر قد قطع الـ آمال نعيك قطعاً واستـوى الذعر
يبني المؤمل والأقـدار ضاحـكة والغر يبسـط والآجـال تـختصر

---

(1) نفسه، صـ١٨٨.
(2) نفسه، صـ١٨٨.
(3) نفسه، صـ١٨٨.

كنا ذكرنا في موضوع سابق أن الألوان الثلاثة للرثاء لا يفصلها فاصل ولا يحدها حد، لذلك فإن الباروني كثيرا ما كان في قصيدة رثاء أخيه يحيى يستخدم الألوان الثلاثة، فما ذكرناه سابقاً من باب الندب، يقول في مواضع أخرى في القصيدة بأن أخاه[1] :

محافظ لفروض الله مجتنبٌ أهل الهوى واثق بالله مصطبر
كرعتَ في الأزهر المعمور موردنا وتونس وبني ميزان يا خضر
لا تعرف الغش أصلا لم تقل كذباً ولم تتم ولم تسع وإن عثروا
ولست تعرف خوفاً إن دهت نوبٌ وإن تكن عصبيا حين تحتقر

ويطيل في مثل هذه الأبيات ذاكراً الخصال الحميدة التي كان يتحلى بها أخوه يحيى، حيث نلاحظ أن سليمان باشا ذكره طائعاً لله ومحافظاً لفروضه وعالماً جليلاً لا يعرف الغش ولا الكذب، كما ذكره بالشجاعة وعدم السكوت عن الحق.

وبعد بكائه على أخيه وتعداد خصاله وأخلاقه، يودعه في آخرها وداعاً لا لقاء بعده معزيا نفسه ومتمنيا أن يلقى في الآخرة الأولياء والرسل، ويعده باللحاق به بعد انتهاء الأجل، يقول[2]:

في ذمة الله سرْ روحاً مجردة من كل بالٍ فلا لحمٌ ولا شعرُ
دعها مكفنةً في القبر هامدةً إلى المعاد عليها الحزن ينهمر
وطر إلى ملكوت الله مغتبطا حيث السعادة لا بؤس ولا ضجر
واسرح مع الأوليا الأجداد قبلك مع رسل الإله وأرواح الألى صبروا
ولاتهمنك الدنيا فنحن بها حتى نوافيكم إذ ينتهي العمر

---

(1) نفسه، صـ١٨٩.
(2) نفسه، صـ١٩١.

والقصيدة طويلة تناهز اثنتين وثمانين بيتاً، وقد اخترنا بعض أبياتها أو ما رأيناه مناسب لموضوع الرثاء، ومع ذلك فإن الباروني يعتبر أنّ ما قدمه من رثاء نحو أخيه إنما هو جزء يسير ومختصر، يقول[1]:

رثيت يحيى أخي بالنظم مختصراً ... تلك المزايا التي لم يدرِها البشر
فــلا ألام إذا جــاءت مــجاوزةً ... حــد المناسب أقلامي في كدر

فالباروني من شدة حزنه على أخيه وألمه على فراقه يعتبر أن ما نظمه في رثائه إنما هو جزء يسير مما يجول في خاطره ومما لا يعلمه البشر من خصال حميدة عن أخيه يحيى.

ومن القصائد التي قد تحتمل معنى الندب تلك التي قالها في رثاء الوالي الشيخ قاسم بن الشيخ القراري، يذكر الباروني في ديوانه أنها ثالث قصيدة نظمها[2]، حيث يقول : " وهذا ثالث ما نظمته "، يقول في مطلعها:

قــل لمن تــاه دلالا وهــوى ... انــتبه للموت واهجر ذا الهوى
فــمنادي الــحزن قد أزعجنا ... وغــراب الــبين قد هدّ القوى
إذ نــعانا بــوفاة المــرتضى ... قــاسم شــهم هــمام ولوا
فســكبت الــدمع ممزوجا دما ... سائلا من قطــرة الــورد روى

نجده يندب هذا القاضي بهذه العبارات الجياشة الصادقة المتدفقة مشاعرا وحزنا، يدل على حبّه واحترامه لهذا الوالي، يقول في موضع آخر[3]:

كيف يهنا الصبر يا قــوم وقد ... غــار بحر كــان للدر حوى
مــن لسكب الدمع خــوفا للذي ... جــعل الأرض بساطا واستوى

---

(1) نفسه، صـ١٩١.
(2) ينظر، ديوان سليمان الباروني، صـ٥١ .
(3) نفسه، صـ٥١.

مـــن إذا مـــا جئته زائـــره تـــلق بحرا منه تـــزداد ارتوى

ثم يحض قومه على زيارة قبره والبكاء عليه لأنه الشخص الذي لن يأتي بعده على هذه المدينة عدلا ووقارا وأخلاقا، يقول[1]:

أبـنـــي مصـــعب زوروا قبره واطـــلبوا الله لنـا حسن النوى
أبـني مصـــعب ابـكوه دمـا ما حييتم وإنِ الـــجسم ضوى
قـد بكاه النـــاس طـــرا ولذا كلُّ قلب سمع النـــعي انطوى
وبـــكته الكـتبُ إذ فـــارقها وبه قد شفّـــها حرّ الـــجوى

لقد بكته الناس جميعا، وحزنت القلوب وحتى الكتب بكت على فراقه.

وفي القصيدة للعزاء مكان، فالباروني يبكي الوالي ولكنه في النهاية يسلم لقضاء الله وقدره، فهو الموت الذي لا مفر منه، يقول[2]:

وقل إن الموت حوض والورى كله يشرب كـــأسا بالســـوى
وهـــي بـــاب كلـــنا ندخله من حقير وجليل ذي قـــوى
عظـــم الله لك الأجر فـــلا جزع يـــورث غير الاكتـــوا
وكذا كـــل قـــراري صـفا وبنو مصعب أهل الاســـتوا

فهو يسلم لأمر الله تعالى، فكل الناس لا بد ذائقون من هذا الكأس.

ومن القصائد التي تحمل معنى الندب بأقوى صوره، تلك التي قالها في رثاء مصطفى كامل صاحب جريدة اللواء، حيث اعتبره شهيد الشهامة والوطنية، يقول في مطلعها[3] :

ابكِ الدماء وقل لـمصر قد عفا ربع تجندل فيه كامل مصطفى

---

(1) نفسه، صـ٥١.
(2) نفسه، صـ٥١.
(3) نفسه، صـ٥٣.

مزق فـؤادك يـــا غـيور تأسفا واندب خطيبا كان بدرا واختفى
اجرح برمــح الحزن أكبادا وقل للـــــدهر قد عاكستنا هلا كفى
مـن ذا الـــذي أبقيت إذ غالبتنا في كامل لِمَ يا ترى هذا الخطى
أطـربت فـردا يا زمان مزعزعا ركنا به حـزب الشهامة قد صفا

تعبر هذه الأبيات عن حزن وألم الباروني على وفاة مصطفى كامل، الذي كان مثالا في الشهامة والوطنية، وهي قصيدة تناهز الأحد عشر بيتا، ولكنه قال فيه قصيدة أخرى سنذكرها في باب العزاء إن شاء الله.

المحور الثاني: (التأبين)[1]

وأصله الثناء على الشخص حيا أو ميتا، ثم اقتصر استخدامه على الموتى فقط، وذلك احتفاء بالميت وتمجيدا له ولأخلاقه، وفي الشعر العربي نماذج كثيرة تكاد لا تحصى من الأشعار التي تحمل معاني التأبين، والتي تمجد ذكر الميت من الأقارب والعلماء والخلفاء وغيرهم، فشاعرنا الباروني لم يختلف عمن سبقه من الشعراء في هذا الباب، فنجده يؤبن العلامة الشيخ محمد بن الشيخ قاضي مدينة القرارة إذ قتله أحد السفهاء لحكم حكمه عليه، وهو من أجلّ بيت علمي وأشرفِ عائلةٍ في بني ميزاب، يقول[2]:

أمحمد بن الشيخ يا فخر القضا يـــا معدن العرفان يا إكليل
يوم القيامـــــة آتنا كـــمفعر مسكا ومنك دم الشهيد يسيل
غـــدرا قتلت فـــلا أراه مبرءا لستَ الجبانُ ولا أراك عليل
حـــذرٌ زمانك ما حييتَ مباشرٌ أمر القضاء ما للنجاة سبيل

---

(1) ينظر كتاب الرثاء، مرجع سابق، صـ٥٤.
(2) ديوان الباروني، صـ٤٩.

يستهل أبياته بمدح الشيخ، فهو فخر للقضاء ومعدن للعرفان، سيأتينا يوم القيامة على قميصه دم الشهداء، ورائحته رائحة المسك، ثم ينتقل للحديث عن الغدر الذي تعرّض له، فهو ليس جبان ولا مريض، ولكن يد الغدر قد طالته.

ويقول أيضا[1] :

لا صبر بعدك ما تطاول عمرنا والدمع ما امتد الزمان يسيل
لا حزن لا والله لا والله لا لكن مثلك في الرجال قليل
كيف التحزن جائز من مثلنا هلا له معنى وليس يزيل

يقسم الباروني بأن حزنه على القاضي ليس جزعا ولكن أمثال هذا الرجل قلائل ويصعب تعويضهم.، وهي قصيدة طويلة أيضا تناهز الأربعين بيتا ونيف.

ومن القصائد التي تحمل معنى التأبين تلك التي كتبها في رثاء أستاذه الشيخ محمد النخلي، وهو أستاذه في التفسير أثناء دراسته في جامع الزيتونة في تونس، فقد بلغه نبأ وفاته عند وصوله إلى الشرق، فحزن عليه ورثاه بقصيدة مطلعها[2] :

سطا الموت وهو الصائل المتغطرس فأودى بأقطاب سموا وتنافسوا
كأستاذنا النخلي من فجعتْ به مجالس قطر المغربين فعبسوا
رحلت أبا عبد الإله مكرما ولم تشهد القوم الذين تجنسوا
رحلت من الدنيا الدنيئة قاصدا مقام الخلود أهله لم يدنسوا

---

(1) نفسه، صـ٥٠.
(2) نفسه، صـ١٧٠.

يبدأ قصيدته باعتراف مع استسلام كامل لسطوة الموت على العباد، حيث إن الموت لم يستثنِ أحدا من الناس ومنهم الأستاذ محمد النخلي حيث رحل عن الدنيا الدانية إلى الآخرة الباقية حيث المستقر والمقام.

ثم يختم قصيدته بالتفاؤل ومدح نفسه والثناء على شعره، يقول[1]:

لكل زمان قـادة وضـراغـم ... إذا اشـتد أعوان البـلاء تترسوا
فـلا تيأسنّ مـن روح ربك إنه ... نصير الهدى إن وسوسوا وتجسسوا
بـرونية خذها رثاء ولا تسل ... إذا خمـس الأعداء عيني وسوسوا
فإنـي لها والدهر يعدل تـارة ... ويظلم مـرات إذا القـوم دلـسوا

وهذه بعض نماذج التأبين عند الباروني، والقصائد التي أخذنا منها هذه النماذج، إنما هي قصائد طويلة استشهدنا ببعض أبياتها على سبيل الاستئناس، لمعرفة أسلوب التأبين في ديوان سليمان الباروني.

المحور الثالث: (العزاء)[2]

أصل العزاء الصبر، ثم اقتصر استعماله في الصبر على كارثة الموت، وأن يرضى من فقد عزيزا بما فاجأه به القدر، فتلك سنة الكون، وهي مرحلة عقلية فوق التأبين لأنها تعرض لحقيقة الموت، ونظرة الإنسان لما وراء الموت، والتسليم والإذعان الكامل لهذه الحقيقة التي لا بد أن يتجرعها كل إنسان مهما طال به العمر.

والباروني في بعض أشعاره عرض لحقيقة الموت، فعندما تحدثنا عن الندب عنده كان قد ندب العالم الجليل (مصطفى كامل) ولكنه عاد ورثاه بقصيدة

---

(1) نفسه، صـ ١٧٠
(2) ينظر: كتاب الرثاء، شوقي ضيف، مرجع سابق، صـ٨٦

أخرى في الذكرى الأربعين لوفاته، حيث كانت تحمل أجمل معاني العزاء، بعيداً عن البكاء والحزن، يقول[1]:

هـــي الحياة تـــجددت بقـــوانا ... مـــا مات كـــامل بل تعاظم شانا
حيّا ومـــيتا أنـــت قـــائد أمـــة ... يا مصطفى كـــانت تـــقاد هوانا
لـــــو كنت تعلم أن موتك جامع ... تلك القلوب لكنت غبـــت زمانا
أحـييت في يـــــوم موتك عنصرا ... لو عشت ما ألفـت منه عنـــانا

يعزي الباروني نفسه، فلم يمت مصطفى كامل بل وحدنا وجمع صفوفنا، فكم من الأحزاب والفرق المتناحرة الموجودة، لكنها اتحدت يوم وفاته، لما أظهرته من الأسف والحزن على موته، ويقول[2] :

ما مـــــت لا والنـــاس كل للفنا ... لكـــن سبقت لكـي تـــحوز رثانا
ما مات من ترك السيـــاسة تقتفي ... فلم البـــكاء وقد شـددت عـــرانا
قد كنت تسعى أن تؤلـــف أمـــة ... فتألفت مـــذ نعي خطبك جـــانا
كم مات من شهم وكم بطل مضى ... بل كـــم مليـــك للمنية عـــانا
شهـدت جنـــازته الوفودُ تكـــلفا ... وتـوقـــيا وسياســـة وأمـــانا
لكن لـــمشهدك الـــعظيم تسارعوا ... خيـــلا ورجـــلا عـــزة لحمـــانا

يتساءل الباروني عن سبب البكاء على من ترك السياسة تقتفي أثره، ومن كان مسعاه توحيد الأمة طول حياته، لأنها توقدت بموته، فكثير من الناس ماتوا وشهدت الوفود جنازاتهم خوفا أو طمعا أو أمنية ولكنّ مشهد دفنك كان الأعظم، فالتقت الوفود من جميع الأنحاء والأقطار لتعبر عن فضلك ومكانتك.

---

(1) ديوان الباروني، صـ٥٣
(2) نفسه، صـ٥٤

ثم يطلب الباروني عدم الاستعجاب من الأهمية التي حظي بها دفن مصطفى كامل، لأنه صاحب جريدة اللواء التي سعى من خلالها لتوحيد الصف وجمع الكلمة ورفع راية المجد عالية خفاقة، يقول[1]:

لا تعجبن إذا القضية جاوزت حد المقام فذا المصاب دهانا
صعب علينا رزء فقدك إذ علا دور المجد في صحف اللواء دعانا
لا زال يخفق والشبيبة ترتقي والصيت يصعد والنفاق نهانا
ما مات من ترك الشقيق مؤديا حق اللواء ولم يكن يتوانا
ما غاب صنوك والرئاسة بعده لفريد إذ خدم الكمال مجانا
والله يلهمك الرشاد ويرزقن صبرا ليذعن للرحيل عدانا

فهو يختم قصيدته بدعوة خليفة مصطفى كامل في رئاسة جريدة (اللواء) إلى تأدية الرسالة التي كان يحملها ويدعو الله أن يرزقه الصبر والتحمل على هذه الأمانة التي حملها.

ومن القصائد الجملية التي تحمل معنى العزاء تلك التي رثى بها الإسلام والحالة التي وصل إليها المسلمون، يقول[2]:

قم يا محمد يا ختام المرسلين وانظر بعينك كيف حال المؤمنين
تجد الأمور تحولت عن حالها والدين في عهد السياسة قد أهين
حلّ الحرام بلا نصوص تقتفى واستهزأ العاصي بحال المتقين
واستفحل الجهال واشتد البلا واستصغر العلماء حزب الأمين

---

(1) نفسه، صـ٥٤
(2) نفسه، صـ٥٥

يدعو الباروني سدينا محمد ﷺ للقيام ولرؤية حال المسلمين التي وصلت إليها، حيث أهين الإسلام وأحلت المحرمات واستهزئ بأصحاب الدين، ثم يأخذ بعرض المحرمات التي انتشرت والمحارم التي انتهكت، يقول[1]:

الخمر في سوق التجارة رائج ... أما الخنا فغدا شعار العالمين
عيب امرئ قال الصلاة فريضة ... والصوم ضاع وحرّم الحج الثمين
هذا الزنا أبوابه مفتوحة ... أما الربا فتجارة المستسعرين

ثم يندب حال المسلمين بذكرى مولد النبي الكريم ويدعو خليفة المسلمين في الدولة العثمانية أن يبذل مزيدا من الجهد حتى ينصر الإسلام ويمنع انتشار المحرمات، يقول[2]:

آه بمولدك الشريف تنوعت ... طرق المعاصي في بلاد المسلمين
لا نهي بل لا أمر بل لا منتهى ... حار الدليل وغار حزم المرشدين
من ذا لدينك يا محمد بعد ذا ... والله أسدى أجره للمحسنين
غير الخليفة في الورى سلطانا ... من آل عثمان أمير المؤمنين
فليبذل الجهد العظيم مؤديا ... حقا لينصر في دفاع المجرمين

ونلحظ هنا ورعه وتقواه حتى أنه ينصح ويطلب من السلطان العثماني أن يبذل الجهد العظيم لمواجهة المجرمين المنتهكين لمحارم الإسلام والمسلمين.

هذه صور وألوان الرثاء التي تتبعناها في ديوان الباروني، فقد عرضنا للقصائد التي احتوت معاني الرثاء عرضا مختصرا بقدر ما تسمح به هذه الورقة، فقسمنا الرثاء عند الباروني على ألوان الرثاء المعروفة (الندب والتأبين والعزاء)،

---

(1) نفسه، صـ٥٥.
(2) نفسه، صـ٥٥.

وحاولنا من خلال هذه الورقة أن نميز بين هذه الألوان عند الباروني، ولكننا كثيرا ما وجدنا أن قصيدة الرثاء عنده تمزج بين الألوان جميعها دون حدود أو فواصل.

نتائج البحث وتوصياته

١. تميزت حياة الباروني بالزخم السياسي والعلمي، فقضى شطرا من حياته متنقلا بين الأقطار العربية يطلب العلم، والشطر الآخر منها في الجهاد والسياسة.

٢. لا يعتبر الباروني شاعرا بمعنى الكلمة، وإنما كان يقول الشعر عن هواية، فقد ذكر بمقدمة الديوان أنه قدم على طبع هذا الديوان بناء على رغبة بعض الأصدقاء.

٣. استخدم الباروني قصيدة الرثاء ليعبر عن مشاعره الصادقة وأحاسيسه المرهفة، سواء في رثاء الأهل والأقارب أم في رثاء العلماء والقادة وحتى في رثاء الإسلام.

٤. تنوع استخدام الباروني لقصيدة الرثاء بين الندب، كما في مرثية أخيه يحيى الباروني، والتأبين كما في مرثية العلامة الشيخ محمد بن الشيخ قاضي مدينة القرارة، والعزاء كما في رثائه لحال المسلمين وما آلت إليه أوضاعهم.

٥. ديوان سليمان باشا الباروني له من الأهمية بمكان لأنه يزودنا بجزء من الصورة التي كانت عليها الأوضاع السياسية والاجتماعية في شمال افريقية وعُمان في نهاية الدولة العثمانية وما بعدها.

٦. هذا الديوان بحاجة لمزيد من العناية والتنقيح وإعادة تصنيف القصائد بشكل أفضل، بحيث يتيح للدارسين الاستفادة منه بأيسر الطرق وأنجعها.

٧. هذه الورقة غيض من فيض لما جاء في ديوان الباروني من نماذج شعرية تصلح لأن تكون مادة زخمة للباحثين.

السؤال ودلالته الشعرية في شعر سليمان الباروني
(دراسة في الأدوات)

أ. علي الهندي (*)

التعريف بالشاعر

هو سليمان بن عبد الله الباروني النفوسي نسبة إلى جبل نفوسه، ولد عام ١٨٧٣م بمدينة جادو في جبل نفوسه بليبيا جنوب طرابلس، وتعلم في بداية عمره بليبيا، ثم تونس ومنها إلى مصر، حيث درس بالأزهر ثلاث سنوات، ورحل إلى الجزائر وتتلمذ على نخبة من علمائها، وعاد إلى ليبيا سنة ١٨٩٨م.

اختير نائبا عن طرابلس في مجلس المبعوثان، وقد أسس بالقاهرة جريدة (الأسد الإسلامي) في أوائل عام ١٩٠٨م، وكان الباروني من أبرز المجاهدين في ليبيا، حيث حمل السلاح لمقاومة الاستعمار الإيطالي عام ١٩١١م، ثم عندما اشتد عليه الخناق هاجر إلى تونس، ومنها إلى تركيا، ثم فرنسا، ثم إلى دول الخليج العربي، ثم غادر الخليج إلى الهند وفيها وافته المنية سنة ١٩٤٠م عن عمر ناهز ٦٧ سنة في مدينة بومباي[1].

مفهوم السؤال الشعري

هل يكمن السؤال في تشكيلاته ودلالته، أو في إظهار الشعرية الموجودة في النص الذي يتطلب السؤال بكل أدواته المتباينة ؟

(*) الأستاذ علي الهندي، جامعة صبرته، ليبيا.

(1) عبد الله سالم مليطان، معجم الشعراء الليبيين، دار مداد للطباعة والنشر والتوزيع والإنتاج الفني، طرابلس، ط١، ٢٠٠١م، ج١، ص٢٠٤.

إنَّ تحديد مفهوم معين ودقيق للفظة سؤال من الأمور المتداخلة إذا قورن بالاستفهام فالفرق بينهما توجبه صيغة اللفظ، وبخاصة ونحن نتحدث عن السؤال الشعري ودلالته الشعرية، ولكن يمكن لنا أن نعتمد على ما ذكره أبو هلال العسكري في التفريق بينهما، حيث ذكر بأن " الاستفهام لا يكون إلا لما يجهله المستفهم، أو يشك فيه، لأن المستفهم طالب لأن يفهم، وقد يجوز أن يسأل فيه السائل عما يعلم وعمّا لا يعلم "[1].

ومن خلال هذا التعريف يفهم أن الاستفهام لابد له من جواب محدد وفق أدوات وضعت له في أصل اللغة لا يمكن العدول عنها، بخلاف السؤال الذي يمكن أن يكون له جواب محدد، أو غير محدد، لأن أدواته غير معنية بهذه الخاصية، بل من الممكن أن تكون له إجابة عبر شعرية الإيحاء، وهي خاصية تخصه باعتباره " نوع من الخروج عل الاستعمال العادي للغة بحيث ينأى الشاعر أو الكاتب عمّا تقتضيه المعايير المقررة في النظام اللغوي "[2].

لذلك أخذ الباحث السؤال بديلا عن الاستفهام في هذا البحث باعتباره الأشمل والأوسع في ميدان الشعر، ودراسة أدواته وعدولها عن معانيها اللغوية تحقق الكشف عن شعريته في النص.

مصطلح الشعرية

إن مصطلح الشعرية مصطلح حديث قديم إذ تعود جذوره الأولى إلى أرسطو وكتابه (فن الشعر)، غير أن هذا المصطلح قد تبلور منذ نشأته وتطور إلى الآن، حتى أصبح من المفاهيم المتواصلة المتقطعة أحيانا عن سواها، وعن بعضها أحياناً أخرى لدى الباحثين العرب والغرب .

---

(1) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، تحقيق، محمد إبراهيم سليم، دار العلوم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٨م، ص٢٧.

(2) عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، ط٢ ، ١٩٨٢م، ص١٦٩ .

والشعرية لا تهتم بالشعر فقط، أو بالنثر فحسب، بل " شاملة للظاهرة الأدبية عموما، ولعلّ أوفق ترجمة لها أن نقول " الإنشائية " إذ الدلالة الأصلية هي الخلق والإنشاء" [1].

ويرى سعد بوفلاقة إلى أن مصطلح الشعرية ذكره عدد من الدارسين العرب القدامى أمثال : الفارابي (ت٣٣٩هـ)، وابن سينا (ت ٤٢٨هـ) وابن رشد (ت٤٥٢هـ) وغيرهم بالدراسة والبحث، ولكنهم لم يجعلوا له تعريفاً واضحاً، كما أنهم لم يفرقوا بينه وبين الشعر، ولكنهم جعلوا حوله. بحوثا تتلخص في البحث عن قواعد الشعر العربي وقوانينه التي تتحكم في الإبداع الشعري.

ويشير على سبيل المثال يرى أدو نيس أن سرّ الشعرية أن تبقى كلاما ضد الكلام، بحيث تكون قادرة على تسميات جديدة تراها في ضوء جديد، والشعر هو حيث الكلمة تتجاوز نفسها مبتعدة عن قيودها، أي تأخذ معنى آخر وصورة جديدة، وهذا على خلاف كمال أبو ديب الذي يرى أنه لا يمكن وصف الشعرية إلا عندما تتكون وتتبلور فالشعرية عنده مجموعة مبادئ جمالية تقود الكاتب في عمله الأدبي، وأيا كان رأي هؤلاء فالشعرية تتجلى في النص عبر إيقاع المفردة وعلاقتها في الجملة وتفاعلها[2].

أن الهدف الأساسي من الشعرية " تحديد الفوارق الخاصة بالفن اللغوي ... ومظاهر السلوك اللغوي، ففن الشعر يعالج مشكلات الأبنية اللغوية بنفس الكيفية التي يهتم فيها تحليل الرسم بالأبنية التشكيلية "[3].

---

(1) المصدر نفسه، ص١٧١.
(2) سعد بوفلاقة، الشعريات العربية، دائرة الثقافة والإعلام، ص١٤_١٧ .
(3) صلاح فضل، شفرات النص، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ١٩٩٥م، ط١ ،ص٧٦ .

تجليات السؤال الشعري

إنَّ استخدام الأسئلة الشعرية في الشعر العربي لم يكن استخداما جديدا، بل عرف منذ العصر الجاهلي، وقد أورد الشعراء الأوائل تلك الأسئلة في معلقاتهم، ولعل خير دليل على ذلك ما ذكره الشاعر طرفة بن العبد في معلقته عندما قال:

يقول وقد تَرَّ الوظيفُ وساقُهَا ألستَ ترى أن قد أتيتَ بمُؤْيِدِ
وقال: ألا ماذا ترونَ بشاربٍ شـــديد علينا بَغْيُهُ، مُتَعَمِّدِ[1]

وقد استمر ورود الأسئلة في مختلف العصور الأدبية، وإنْ اختلفت من عصر إلى آخر بحسب الظروف النفسية للشاعر، وبحسب البيئة المحيطة به، وقد شهد العصر الحديث وبخاصة (في ليبيا) تحولات عديدة متنوعة أوجبت على الشاعر سليمان الباروني اللجوء إلى أسئلة عديدة متباينة طرحها على نفسه، وعلى المجتمع تثير نوعا من الحيرة والدهشة وعدم الارتياح لما يحس به تجاه نفسه وحول بلاده ووطنه العربي الكبير.

والمتمعن في تلك الأسئلة يجد أن معظمها لم يكن بقصد الاستفهام في حد ذاته، بل لتأكيد بعض المعاني والأفكار، لأن " السؤال الشعري أعمق واشمل وأوسع قدرة على خلق أنزياحات وتشكيلات مبدعة"[2] إضافة إلى إظهار مهارته الشعرية. وقد وردت أدوات السؤال في شعره المتنوع ٨١ مرّة تقريبا استخدم فيها جميع الأدوات عدا (أنى، وأيانا، وكم) في شعره.

---

(1) ديوان طرفة بن العبد، تقديم، سيف الدين الكاتب، وأحمد عصام الكاتب، دار مكتبة الحياة، بيروت، لا ط، ص٢٦.
(2) علي حسين الخبّاز، رغيف انطباعي، مركز النور للدراسات، ٢٠١٢م.

شعرية السؤال أو الأدوات:

إن شعرية السؤال تعد " إحدى أهم المناحي الفكرية والدلالية والفلسفية التي تحرّض على الشعرية وتفتح الباب لشعورية البوح، المعادلة الصعبة تكمن في حركة السؤال الذي يتحرك في آفاق استفهامية قلقة باحثة عن الحقيقة " [1].

وتحقق لنا أدوات السؤال بما تنطوي عليه من أحداث وتحولات في دلالة النصوص الشعرية، ولذلك فهي تحقق شيئا مهما من الشعرية، ولهذه الأسئلة المرتبطة عادة بالأدوات مستويات متباينة من الأجوبة، أي أنها قد تحتاج إلى إجابة محددة بنعم، أو لا، أو أن تتعدى نعم ولا، أو تترك إجابات مفتوحة على أفق واسع لا يتطلب إجابة محددة بعينها .

وسنحاول في هذه الدراسة أن نتعرف إلى شعرية هذه الأدوات وأثرها في تركيبة النص ودلالتها الشعرية وإيقاعها.

١- الهمزة

وهي تكون للاستفهام، وحقيقتها : " طلب الفهم "[2] وتعد أكثر أدوات السؤال استخداما في شعر سليمان الباروني، إذ وردت سبع عشرة مرة في شعره، أي بنسبة (١٥%) تقريباً، وربما يرجع سبب إكثاره لها هنا إلى أنها من الأدوات الأكثر سهولة في الاستخدام، إضافة على ورودها في مطالع العديد من القصائد والمقطوعات باعتبارها أداة مناسبة لعرض الكثير من الموضوعات، كما جاء في قصيدته الوطنية الجهادية، التي نظمها الباروني قبل غزو إيطاليا لطرابلس، متحديا فيها حملة الصحافة الإيطالية، وهي القصيدة التي جاءت ردا على مقالة أحد المحررين الإيطاليين، الذين حرّضوا حكومتهم على احتلال ليبيا. والشاعر لم

---

(١) كاظم جواد الحلفي، رغيف الطباعي، علي حسين الختاز، مركز النور للدراسات، ١٦,٣,٢٠١٢م.
(٢) ابن هشام، المغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق محمد محي الدين، دار الشام للتراث، بيروت، لا ت، ج١، ص١٣.

يقف عند مبدأ الرد فقط، بل صور حقيقة الجامعة الإسلامية التي سوف تقف أمام الغزاة بكل تحد[1]، فيقول :

ألم تك ممن أدرك النـــاسُ أنه	أخفُ انهزاماً من رباطٍ إلى السندِ
ألم يكفيك النصر المقهقر خِسَّة	فـــلا حول ما هذا التملقُ كالقردِ
فدعك بنابلي لعـــل جـــبالها	تـــخر فتفنى أو تقيك من البرد
ألم تعلم أن المسلمين إذا سطوا	فواحدهم كالعشر في الجزر والمد
فكف ودع هذا التظاهر وارتدع	فمالك أبطال تســرّك أو تفدى[2]

فالهمزة هي الأداة الموجهة للسؤال في النص السابق، وبتكرارها يأخذ السؤال معنيين: الأول، يوضح فيه الشاعر مدى أحاسيسه وعواطفه تجاه قضية وطنه، بدلالة مخاطبة الصحفي بكاف الخطاب المتصلة بالفعل (تك)، (يكفيك)، (فدعك).

والثاني، أوضح فيه الشاعر مدى اعتزازه بالجامعة الإسلامية، وافتخاره بها نصرة للإسلام والمسلمين. وفي جميع المعاني فالشاعر لم يترك فضاء السؤال مفتوحاً، وفي الحال نفسه لم يحدد له إجابة بنعم، أو بلا، أو بلى، بل عدل عن الإجابة المباشرة إلى إجابة أخرى ضمنية لتأخذ منحى أوسع من الجواب المباشر المحدد. وباختلاف استخدام (الهمزة) لمحور السؤال تحققت شعريتها في النص الشعري، وتحقق انزياحها عن المعنى الموضوع لها في أصل اللغة، لأن الانزياح " خروج التعبير عن السائد أو المتعارف عليه قياسا في الاستعمال رؤية ولغة وصياغة "[3] إضافة إلى ذلك فإنها قد " عبرت عن أفكار جمالية لا تصل إليها هذه اللغة ذاتها "[4].

---

(١) محمد مسعود جبران، سليمان الباروني، آثاره، طرابلس ليبيا، الدار العربية للكتاب، ١٩٩١م، ص١٢٠.
(٢) زعيمة الباروني، ديوان الباروني، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت، ص٥٨،٥٧ .
(٣) نعيم اليافي، الانزياح والدلالة، مجلة الفيصل، العدد٢٢٦ ، ص٢٨.
(٤) صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، ط٦ ، ١٩٩٩م، ص١٨٨.

لقد اعتمدتْ تلك الأسئلة الموجودة في النص على بعض التوازنات الصوتية في المعنى، أو في المبنى، وقد تحقق ذلك في الكلمات (فدع، تك)، (الصفد، والسند)، (القرد، والبرد)، (كف، ودع)، (الجزر، والمد)، فهذه المفردات جميعها شكلت إيقاعا صوتيا ببنية الإيقاع الداخلي الناجم عن تكرار العديد من الأصوات المختلفة داخل النص، كتكراره لكاف الخطاب، وحرف الدال.

ويفتتح الباروني إحدى قصائده بسؤال آخر في قصيدة قالها في عتاب صديق له نزل عنده ضيفا، ووعده بالبقاء والانتظار، ولكن ذاك الصديق لم يمكث عنده طويلا كما وعد فسافر[1]، فقال فيه:

ألا يا ضيف هل وجب الفرار أم اشتاقت لطلعتك الديارُ
أم استعذبت بالله ارتحالا على عجل ليقترب المزارُ
فإن يك ذاك الجواب فلست ممن وربِ البيت ينفعه اعتذارُ[2]

إن حاجة الشاعر الملحّة إلى بقاء صديقه وضيفه عنده، ألجأته إلى إيراد أداتين للسؤال، الأولى: (ألا)، وجاءت استفتاحية بوقوعها في أول القصيدة، وتكون للاستفهام عن النفي[3] والثانية (هل)، التي بالرغم من أنها " لطلب التصديق "[4]،فإنها انحرفت عن هذا الطلب، وتحولت إلى إجراء حوار بين طرفين هما الشاعر وضيفه الغائب. وقد تحققت شعرية السؤال بالإجابات الافتراضية التي يعرضها، ولكن ليس بصيغة نعم، أو لا، إنما بصيغة احتمالية يريد الشاعر أن يعرفها والمتمثلة في قوله: (أم اشتاقت)، (أم استعذبت)، وهكذا فإن أداة السؤال أثرت إيقاعيا في الأبيات، وذلك بورود حرفين من حروفها في النص،

---

(1) محمد مسعود جبران، سليمان الباروني، آثاره، ص١٣٣.
(2) الديوان، ص ١١٩.
(3) المغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ج١، ص٦٨،٦٩ .
(4) نفسه، ج٢،ص ٣٤٩ ، ٣٥٠ .

وبوجود ألفاظ متفقة في البناء، أو المعنى، تمثلت في قوله: (اشتاقت، واستعذبت)، (الفرار، واعتذار).

ونظم قصيدة أخرى في مصر ضمنها لرسالته المفصلة لما عاناه وقاساه من المستعمر وأذنابه سواء في تونس، أو مصر، حيث قال في آخرها :

فناديتُ ولكن لا حياة ولا صدى ... فقلتُ ومني كان ينتثر الجمر
أأحياء قومي في جفاء وغفلة ... أم أنتم بسجن أرضه سندس خضر
يحيط بكم سور من الضغط محكم ... يهددكم زيد ويرعبكم بكر [1]

عبر الشاعر عن عواطفه ومشاعره بشدة، وافتتح حيرته بأداة السؤال الهمزة، وأتى لسؤاله بإجابة محتملة لكنها ليست مقننة، وإنما بصيغة افتراضية تمثلت في قوله: (أم أنتم بسجن ...)، وبهذه الإجابة تحققت شعرية الأداة، لأنها انجرفت عن مهمتها التي وضعت لها في أصل اللغة.

وهذه الأبيات تكشف الحالة النفسية والشعورية للشاعر في استدعائه لبعض الكلمات التي تكشف عن تجربته ومعاناته من القمع (البوليس)، مثل: (يهددكم، ويرعبكم، وزيد، وبكر، والجمر، جفاء، وغفلة).

٢- هل

حرف وضع لطلب التصديق الإيجابي، دون التصديق السلبي، ويراد بالاستفهام بها النفي[2] تأتي في المرتبة الثانية بعد الهمزة من بين أدوات السؤال المستخدمة في شعر البارودي، إذ وردت خمس عشرة مرة، أي بنسبة (١٣%)

---

(١) الديوان، ص٢٢٧ .
(٢) المغني اللبيب، ج٢، ص٣٤٩ ، ٣٥٠ .

تقريباً في شعره، ويعتمد الشاعر الأداة (هل) في بيان حقيقة الإسلام، وما جاء به الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، فيقول:

هـــل جـــاءهم بـــمثلـــث ومـــربـــع أم هـــل ســـحر
هـــل قـــام فيهم شاطـــحا متمـــاثـلا حتـــى ســـكر
"حـــاشـــاه" لا والله بـــل بالخيـــل والتـــقوى أمر[1]

لقد ترك السؤال بهل فضاه الأكبر شعرياً حين صار مكرراً في الأبيات، وبخاصة عندما كررها مرتين في البيت الأول، وربما قصد بتكرارها تأكيداً لحالة الشاعر المعبرة عن دفاعه عن الدين، وغيرته على الإسلام والرسول، حيث تأكد ذلك بوجود الفعل جاءهم، والفعل قام الماضيين بعد (هل) التي حولها الشاعر عن طلبها المحدد، وافترض لها إجابة أخرى تمثلت في قوله: " حاشاه " وحرف العطف " بل " الذي أضرب به عن الكلام الأول، وأثبت الثاني وهو قوله: (بالخيل والتقوى أمر).

ويعتمد الشاعر الباروني الأداة " هل " في صورة تعبر عن سروره بافتتاح السياحة المغربية في قصيدة تدل على قومية الشاعر واهتمامه بوطنه العربي الكبير، فقال :

ألا هل فتى يجلو صداها ألا ألا بجـــد وحـزم وانتهاز إلى العلا
سلامـا سلامـــا لا هنـا ولا صفا وداعاً وداعاً للـــديار وللشرع[2]

لقد استخدم الشاعر هنا أداتين متتاليتين للسؤال، الأولى: (ألا) وهي بمثابة استفتاح الكلام، والثانية، (هل) التي لم يحدد لها إجابة معينة، وذلك ليعطي السؤال دلالة أبلغ وهو المقصود بالسؤال الشعري هنا، حتى يتحقق لهذا السؤال

---

(1) الديوان، ص٦٤ .
(2) الديوان، ص١٢٣ .

تجاوزه الذي يهدف إليه الشاعر من إتيانه هنا، وجعل له إجابات افتراضية، وقد أعان تكرار الأداة (ألا) في البيت الأول والمفردات (سلاماً سلاماً)، (ووداعاً وداعاً) على جمالية الأبيات حين التقت مع شعرية السؤال وأكسبته إيقاعا آخر للنص ودلالته، باعتبار أن هذا التكرار جاء هنا " على جهة التشوق والاستعذاب ... والتقرير "[1].

٣- ما

لقد وردت الأداة (ما) ثلاث عشرة مرة في شعر البارودي، أي بنسبة (١١%) تقريباً، ومعناها في أصل اللغة نكرة مضمنه معنى الحرف، وهي نوعان: أحدهما أن تكون استفهامية، ومعناها أي شيء[2]، وقد اعتمدها البارودي ووظفها لخدمة النص الشعري، حين وضعها سؤالاً في عتابه الذي وجهه من تونس لأصدقائه في مصر، عندما قال :

مالي أرى حبل المواصلة انفصم بعد الفراق وصار أشبه بالعدم
ما بالكم أخواننا ما بالكم أنسيتم عهداً تقدم وانصرم
فاستيقظوا وتنبهوا بل عجلوا بجوابكم واشفوا الفؤاد من السقم[3]

أخذ السؤال بالأداة " ما " فضاءه الأكبر شعريا حين صار مكرراً في النص، حيث سأل الشاعر نفسه أولا، ثم أصدقائه ثانيا، فجاء النص مفعما بالحيوية ومعبراً عمّا يدور في خلجات الشاعر نفسه عبر إجابات افتراضية متعددة للسؤال الشعري. ومن خلال تكرار الأداة وبعض الكلمات المتوازنة في البناء صار النص أكثر حيوية وجمالا، وقد أضفت بعض الأصوات المكررة هنا جواً من الاشتياق واللهفة لدى الشاعر.

---

(١) أحمد أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي عند العرب، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٧٩م، ص٤٦٦.
(٢) مغني اللبيب، ٢٩٨/١ .
(٣) الديوان، ص١٢٤ .

ويستخدم الشاعر الأداة " ما " في قصيدة أخرى نظمها في المدح وافتتحها بالغزل والنسيب أتباعا لذلك المذهب القديم، فقال :

ما بالها تـــلك الظباء نـــراهـــا حـــارت فتاة القوم في معناها
أريـــاض زهـــر أشرقت وتفتحت أكمـــامها فتشـــوقت لـــرياها
أم لاح غصن ألبان إذ هزَّ الصبا أعطافه متمـــــاثلاً فسباها[1]

استخدم الشاعر أكثر من أداة لسؤاله، ثم كشف عن مجموعة أجوبة ضمنية أثبتت شعرية تلك الأدوات وعدولها عن المعنى الموضوع لها في أصل اللغة، وتحقق فاعليتها وحركتها بعد اعتماد الأدوات عن التوازن الصوتي الذي مثّله توازن بعض المفردات مثل:(نراها، معناها) ، (رياها، فسباها)، حيث شكل ذلك التوازن إيقاعا داخليا نجم عن تكرار بعض الأصوات، كتكرار (الهاء) ثماني مرات، (والراء) ست مرات.

٤- متى

وتأتي على خمسة أوجه أحدها أن تكون استفهامية[2] ووردت هذه الأداة إحدى عشرة مرة في شعر البارودي، أي بنسبة (٩%) تقريباً، وقد اعتمدها الشاعر في أسئلة تدل على معرفة الزمن، وقد استطاع أن يمنحها الشعرية حين أزاحها عن معناها الطبعي في اللغة وهو الاستفهام إلى معنى آخر معقد، فالسؤال بمتى سؤال ثقيل ومقلق حين يتعدى الزمن إلى علاقة نفسية متعلقة بالانتظار الطويل الذي أرّق الشاعر نتيجة القلق الذي كان يعيشه من حال أمته

---

(١) الديوان، ص٣٣ .
(٢) المغني اللبيب، ج١، ص٣٣٤

الإسلامية، وما آلت إليه أوضاعها من انحدار، فالشاعر كان ينتظر اليوم الذي يزال فيه البؤس من النفوس، ويعود الإشراق والمجد لأمته[1] عندما قال :

متى يستقيم الحال يا هل تـرى متى ... يلذ صدى الدين الحنيفي في السمع
متى ينصر المولى لوا العنصر الذي ... على الذل أمسى قابضا جمرة الشرع
متى ينهض القـوم الكرام ليصـلحوا ... مفاسد أقـوام تـواطت على القطع
متى الوطن المـحبوب يصبح رافلاً ... يـجر ذيول التيه حراً على الطبع[2]

نلحظ في هذا النص أن أداة السؤال قد وردت في جميع مطالع الأبيات، وبخاصة البيت الأول الذي تكررت فيه، إضافة إلى استخدام الشاعر إلى أداة أخرى وهي (هل)، الأمر الذي يؤكد إن شعرية السؤال هي المحرك الأساسي للنص. وقد منحت هذه الأبيات دلالة إيقاعية وزمنية للنص، حيث جعلت الحركة في الفعل المضارع الذي لزم الأداة في معظم الأبيات، والمتمثل في: (يستقيم، وينصر، وينهض)، وبفعل الإجابات الافتراضية التي منحها الشاعر للأداة تحققت شعرية الانزياح، لأنه لم يحدد لها إجابة بعينها.

ويعبر الشاعر بالأداة (متى) عن الأسى والحزن الذي قاساه أيام السجن في قلعة السرايا الحمراء بطرابلس، حيث قال :

أنت العليم بمـن بالمكـر جاهرنا ... متـى يفـارقـه الأهـلون والولد
متى يصارحه الإقبال وهـو علـى ... رمح من الفقر لا يعزى على العقلاء
يمـد كف احتياج كان معتديا
متى أرى وأنا قد صـرت مـهتديا ... هذا الخبيث بذاك السجن يضطهد[3]

---

(1) محمد مسعود جبران، سليمان الباروني، ص٩٦، ٩٧.
(2) الديوان، ص١٢٢.
(3) نفسه، ص١٧٨.

لقد أدت أداة السؤال هنا معاني كبيرة وعميقة قد لا تؤديها أداة أخرى؛ لأنها أعطت عمقا في الزمان والمكان، وأوضحت مدى الحسرة والانتظار الذي ينتظره الشاعر للتخلص من سجنه الذي قُمع فيه. والشاعر هنا لم يحدد أية إجابة لأداة السؤال (بنعم، أو بلا)، أو بإجابات افتراضيه كالعادة، وإنما تركها مفتوحة على أفق واسع، مما أضف شيئاً مهما من الشعرية على الأداة، وحقق عدولها عن مهمتا الأصلية .

٥- مَنْ

وتأتي على خمسة أوجه أحدها أن تكون استفهامية[١] وقد استخدمها الباروني تسع مرات في شعره أي بنسبة (٨%) تقريباً، ويسأل بها عن العاقل في أصل اللغة، فيقول معتذراً في واحدة من تلك القصائد :

فمَنْ مسعود أو موسى وإلاّ فمَنْ حزب نوى طرباً بسوف
ومَنْ مفتاح أو ساسي وإلاّ فمَنْ مستنطق شهم رؤوف[٢]

إن شعرية السؤال في هذه الأبيات قد تحققت بمجموعة أسئلة، جاءت بطريقة التمويه والاستغراب من الأشخاص، وليس بطريقة المعرفة، وقد تكرر السؤال مرات عدّة، وكل ذلك كان من أجل تأكيد المعنى لدى الشاعر وتقويته بهذا الاستخدام.

ومن ضمن اعتماد الشاعر للأداة (مَنْ) ما ذكره يوم المولد النبوي الشريف، واصفا حال عوائد المسلمين في المواسم على سبيل الإجمال والتلميح قائلاً :

لا نهي بل لا أمر بل لا منتهي حار الدليل وغار حزم المرشدين

---

(١) المغني اللبيب، ج١، ص٣٢٧.
(٢) الديوان، ص٨٤.

مَنْ ذا لدينك يا " محمد " بعد ذا والله أســدى أجـره للمحسنين[1]

إن أداة السؤال (من) اقترنت في هذا الموضع باسم الإشارة (ذا) من غير تنبيه، وتكرار اسم الإشارة عقب الظرف " بعد ". ولعل في هذا عدم رضا لكل ما يحدث في بلاد المسلمين من عادات سيئة عند الاحتفال بالمولد، وتكمن شعرية السؤال في عدم إيجاد جواب من الشاعر ممن أضفى بعداً آخر للسؤال.

٦- كيف

" وتستعمل على وجهين احدهما أن تكون للاستفهام وهو الغالب فيها "[2]، وقد وردت ست مرات في شعر الباروني، أي بنسبة ٥% تقريبا، يعتمد الشاعر الأداة (كيف) في رثاء أحد الولاة قائلاً :

كيــف يهنا الــصبر يا قوم وقد غـــار بحر كـــان للدر حوى
هل لنـــا من بعد هـــذا أحـــد يعظ النـــاس ويشـفي بالدوا[3]

إن دخول أداة السؤال على الفعل المضارع جعلت الفعل الذي يلي الأداة هو المحور الذي يشكل شعرية النص، فسؤال الشاعر يعد مكمن تأثره من فراق هذا الوالي الصالح، وقد استخدم الباروني أداتين هما:(كيف)، (وهل)، ولم يجعل لهما إجابات معينة، الأمر الذي حقق شعرية السؤال، وأزاح الأداة عن معناها الحقيقي الموضوع لها في أصل اللغة.

ويستخدم الشاعر الأداة (كيف) في نص آخر تحدث فيه عن السفر بعدما رمى عصى الترحال، وسئم التنقل من مكان إلى مكان، وقد أخذ منه التعب كل مأخذ، فيقول:

---

(١) نفسه، ص٧٦.
(٢) المغني اللبيب، ج١، ٢٠٥.
(٣) الديوان، ص٧٠.

تراني نـحيفاً ولكنّـــنـــــي بفضل إلهي صحيح المـــزاج
وكيف وستون عامــاً عدت على الرأسي والشيب يلمع تاج
ولكنّ فـي النفس آمـــالها تجاوز تسعين دون اعوجاج[1]

ذكر الشاعر إجابات بصيغة احتمالية يتمناها هو إلا أنها ليست محددة بنعم أو لا، وهنا تكمن شعرية السؤال، فإجابة السؤال في النص (وستون عاما، ولكن في النفس آمالها) تأتي سريعا باستبعاد المرض والاعوجاج فهذه الأشياء لا يقبلها الشاعر، والإبقاء على صحة المزاج والعقل. وقد عمل التشبيه على توضيح الفكرة عندما شبه الشاعر لمعان الشيب على الرأس بالتاج.

٧- أين

وهي للسؤال عن المكان، وقد وردت في شعر البارودي ست مرات، أي بنسبة (٥%) تقريبا، وقد وظفها الشاعر هنا في موضوع المراسلات، فقال :

أين الطريفُ مـن الظريـفُ وأيـــن سحـر من سحر
الفرق أجلـــى مـــن بنـــي زيد علـــى جرف فخر[2]

لقد تحققت شعرية السؤال بتكرار الأداة " أين " في البيت الأول من خلال فضاء السؤال المكاني، الذي زاد من حيويته وفاعليته المسن البديعي المتمثل في الجناس بين المفردات (الطريف، والظريف)، وهو جناس لفظي نوعه مصحّف لتشابه الكلمتين في الخط، واختلافهما في النطق[3]هذا من ناحية، وعدم إيجاد إجابة محددة من ناحية أخرى، إضافة إلى تكرار لفظة سحر التي أكدت دلالتها على عدم المقارنة والفارق.

---

(١) الديوان، ص٢٠٢.
(٢) الديوان، ص٩٣.
(٣) علي الجندي، فن الجناس، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٤م، ص١٤٠.

وقال يوما قصيدة ارتجالية وهو جالس على مقاعد الدراسة، ولم تكن معه نسخة الدرس المقرر، فمنعه الشيخ عن المطالعة، وذلك لرمد ألم به في عينيه، وكان ذلك الدرس في كتاب (النيل وشفاء العليل)، فقال :

أين نيلك أين خيلك حزت فضلاً فاز جيلك
خاب من كان يميلك في غد يوم التنادي[1]

تكمن شعرية السؤال في وقوع الأداة (أين) في أول النص، وتكرارها في الشطر نفسه، مما يجعلها شائعة في كامل النص، وقد تكررت الصورة البديعية في الأبيات والمتمثلة في الجناس بين الكلمات(نيلك، وخيلك، وجيلك، ويميلك)، وقد أعطت هذه المفردات إيقاعا دلاليا للنص، وذلك بتكرار بعض الأصوات ككاف الخطاب الذي استخدم أربع مرات في النص.

٨- ماذا :

وتأتي في العربية على أوجه: أحدها أن تكون استفهامية، وذا اسم إشارة[2]، وقد وردت مرتين في شعر الباروني، أي بنسبة (١,٧%) تقريباً، وقد وظفها الشاعر بطريقة تعطي إحساساً صعباً للموقف الذي تعرض له، وهو يقول هذه الأبيات أمام جمع من العلماء والأدباء والوزراء، وغيرهم من قناصل الدول والصحفيين الحاضرين، وكل ذلك من أجل أن يخرج أمامهم بمحرج مشرف ودون هفوات قد تجعله في موقف لا يحسد عليه، يقول :

ماذا أقولُ وقد وقفت بموقف حرج به الأدباء إلىَّ تشيرُ
فإن استقمتُ نجوت من لمزاتهم وإن اضطربتُ حجلتُ حيث أسيرُ
فليغضض الأدباء طرف ذكائهم حتى أمرّ ومنطقي مشكورُ

---

(١) الديوان، ص١٠٦.
(٢) المغني اللبيب، ج١، ص٣٠٠.

ما قلتُ ذا خجلاً ولا وجـــلاً ولا عيًا ولكنّ المـــقام خـــطيرُ[1]

إن إحساس الشاعر بالجالسين، أو ما يمكن أن يصدر عنهم من تعليقات في حال حدوثها كان إحساساً كبيراً، ولهذا استخدم الأداة (ماذا) للسؤال عن التوقعات التي إن حدثت ستلتصق بالشاعر.

لقد استخدم الشاعر كثيراً من الأفعال الماضية قصد تأكيد الفكرة من نظمه لهذه الأبيات التي أوضحت اللحظات التي عاشها خلال المقام الصعب الذي وضع فيه.

وتكمن شعرية الأداة في وقوعها في أول النص، إذ أن السؤال صار شائعاً في كامله، والأداة انجرفت عن موضعها الطبعي في أصل اللغة، وذلك لعدم إيجاد إجابات محددة لها هنا.

٩- أي

بفتح الهمزة، وتشديد الياء اسم يأتي على خمسة أوجه من بينها أن يكون للاستفهام[2]،وقد وردت مرة واحدة في كامل أشعار الشاعر، أي بنسبة (٠,٨%) تقريباً، وقد جعلها الباروني في رسالة وجهها إلى صديقه من الجزائر، فقال :

أي شـــيء عنـــدنا أشـــهى لنـــا من لقاكـــم (حاشا) لو كان عسل
نـانا وصلكـــم عزمـــاً عـــلى فم أحسن الأحوال في ذاك المحل[3]

إن موضوع المراسلات الإخوانية هو نوع من النثر الوجداني الذي يعبر عن حالة إعجاب، أو تهنئة أو عتاب، لذلك فهي أشياء تثير أسئلة متكررة في

---

(1) الديوان، ص٢٢.
(2) المغني اللبيب، ج١، ص٧٧.
(3) الديوان، ص٧٩.

بعض الأحيان من أجل فاعلية الصورة، ونلحظ أن الأداة " أي " أوضحت الصورة الممهدة للسؤال وهي صورة اللقاء والمحبة التي تجمع بين الصديقين والتي تمناها الشاعر واعتبرها أحلى من طعم العسل في هذا التشبيه الذي عمل على تقريب الصورة، ولكنّ أداة السؤال عملت على التفريق بين طعم اللقاء وطعم العسل، ومن هنا تكمن شعرية السؤال، لأنها تعدت مهمتها التي وضعت لها في اللغة .

الخاتمة

من خلال دراسة هذا الموضوع توصلت إلى النتائج الآتية :

١- إن السؤال هو موضوع الدراسة، وليس الاستفهام باعتباره أشمل من الاستفهام وغير مقنن بإجابة بعينها، ودراسة أدواته تحقق الهدف من أجل الكشف عن مدى شعريته .

٢- إن مصطلح الشعرية مصطلح شامل للظاهرة الأدبية ككل، ومن هنا فهو قادر على احتواء جميع أدوات السؤال حين عدولها عن مهمتها اللغوية، وتعديها إلى معنى آخر مختلف .

٣- شاعت أدوات السؤال وتنوعت في نتاج الشاعر، ووردت في مختلف الموضوعات التي تطرق إليها.

٤- استخدم الشاعر معظم أدوات السؤال، وقد انفردت الهمزة بالصدارة من بين جميع تلك الأدوات.

٥- تجسدت شعرية السؤال ودلالته في خروج أدواته عن معانيها الحقيقية الموضوعة لها في أصل اللغة.

٦- من خلال دراسة الأدوات يتضح أن أدوات السؤال قد خرجت عند الشاعر عن تقنيات الجملة الاستفهامية إلى معانٍ أخرى ذات دلالة فنية .

٧- أوضحت هذه الدراسة مدى اهتمام الشاعر بوطنه، وتفاعله مع قضاياه المتنوعة على المستويين الوطني والقومي.

مطبعة جامعة السلطان قابوس، مسقط - سلطنة عمان ٢٠١٣م